

العهد العثماني الأول

٩٤١هـ - ١٥٣٤م / ١٠٤٩هـ - ١٦٣٩م

يتناول الوقائع التاريخية، والصلات بين الأقطار
والتشكيلات الإدارية، والثقافة العامة

تأليف المؤرخ الكبير
عباس العزاوي المحامي

المجلد الرابع

الدار العربية للموسوعات



موسوعة

تاريخ العراق بين احتلالين


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

موسوعة

تاريخ العراق بين احتلالين

العهد العثماني الأول

٩٤١ هـ - ١٥٣٤ م/١٠٤٩ هـ - ١٦٣٩ م

يتناول الوقائع التاريخية، والصلات بين الأقطار،
والتشكيلات الإدارية، والثقافة العامة

تاليف المؤرخ الكبير
عباس العزاوي المحامي

المجلد الرابع

الدار العربية للموسوعات


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقدمة الناشر

ألحق المؤلف بهذا الجزء تعليقات على الأجزاء ١ و٢ و٣ من هذا الكتاب. وقد رأينا أن نبقي مقدمة هذا المحقق وما تبعها من تعليقات على المجلدين الأول وبعضاً مما يخص الثاني ذيلاً لهذا الجزء ونضع التعليقات في المجلد الثالث في مواضعها منه.

كما أن المؤلف وضع تعليقات واستدراكات على هذا الجزء وألحق قسماً منها في الجزء الخامس، سماه (الملحق الرابع) والآخر في الجزء السادس سماه (الملحق الخامس) وقد رأينا ان نضعهما في مواضعهما التي أشار إليها المؤلف من هذا الجزء. كي تضم المعلومات إلى بعضها لئلا يزهق القارىء في تتبعها في أكثر من موضع من هذا الكتاب.

الدار العربية للموسوعات


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فإن العراق كان أصابته الضربة القاسية من المغول سنة ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م فلم يصح منها حتى أعقبته أخرى وأخرى ولا يزال إلى هذا العهد. تداولته الأيدي القاهرة وتناوبته الأحداث المزعجة، فلم يتمكن من استعادة مجده واستقلاله، بل تواترت عليه الإحن وتوالت النكبات، فعبثت به ولم تدع له مجالاً للتفكير بشؤونه، بل لم يتنفس الصعداء إلا في ٢٤ جمادى الأول سنة ٩٤١ هـ ـ ١٥٣٤ م إبان الفتح العثماني. دام هذا لأمد محدود، ثم اختلت إدارته بما حدث من حروب بين العراق وإيران، فرأى ضروب الضيم، وأنواع الحيف من الإدارات العاتية. في خلالها خنع مرة، وأبدى الشموس أخرى. لكنه كان مهيض الجناح، متأثراً بأوضاع دولته في غالب أحواله وإن كانت له خصوصيته إلى أن حدث احتلال بغداد في ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٣٥ هـ ـ ١١ آذار سنة ١٩١٧ م. وفي هذا التاريخ انتهى الحكم العثماني، فقطعت العلاقة بيننا وبينه كما أنه بعد مدة وجيزة زال من البين، وخلفته (الجمهورية التركية).

والدولة العثمانية واحدة في أصلها متنوعة في مظاهر إدارتها نظراً لطول عمرها. ولا يمكن بوجه أن تسرد وقائعها من أولها إلى آخرها ولكن حالتها القطعية يصح أن توزع إلى فصول بما حدث من وقائع جليلة وتقسم على أشهر الحوادث وما حصل من أهم الوقائع وتعتبر هذه وقفات مهمة.

وموضوع بحثنا مقصور على ما كان بين فتح بغداد على يد السلطان سليمان القانوني وبين استعادتها للمرة الثانية أيام السلطان مراد الرابع في ١٨ شعبان سنة ١٠٤٨ هـ ـ ١٦٣٨ م. وهو الحكم المباشر الأول.

المراجع والمآخذ(١)

حدثت في هذا العهد وقائع عظيمة في العراق، وتعاقبت إدارات مختلفة متأثرة بالدولة أو بشخصية الوزراء. وفي خلال ذلك ضاعت حوادث عديدة، وكثرت فترات متسببة عن انحلال في الدولة، واضطراب في الحكم، وتدمير للوثائق، فنحن في أشد الحاجة إلى معرفة ما ضاع، والحصول على ما فات والتماسه من مظانه... والنهم العلمي لا يهدأ عن الاستزادة، ولا يمنع من نشر الميسور على أن نكون في تثبيت لما يعثر عليه. ولعل في المعروف ما يبصر بالحالة.

ولا شك أن الوثائق كثيرة والمؤلفات عديدة إلا أنها لا تعين إلا علاقة حروب أو صلة بالحكومة أو بالأهلين فلا تبين أحوال القطر مفصلاً بل نراه مبتور الحوادث، تتخلله فواصل فلا نجد الوقائع متسلسلة

(١) لم أتعرض في المراجع لما ليس له علاقة مثل كتاب (الدر المسلوك) للحر العاملي وعندي نسخة منه بخط مؤلفها وهي وحيدة، وهكذا الرحلات يجب ان يبين فيها ما فات، أو أغفل ذكره من وقائع أو مشاهدات وإلا فليس المحل إيراد أسمائها، والأغلاط الفاضحة ليست موضوع البحث فلا محل للإطالة بما لا طائل له.

للولاة وإن كانت متعلقة بالحكومة. والكتب التاريخية المعول عليها لا تذكر الولاة على التوالي بل إن مراجعة النصوص المتعددة تكشف النقاب عن ولاة غير من ذكروا في (گلشن خلفاء) أو في (تاريخ الغرابي) مع أنهما من المؤلفات المحلية. وبينهم من تكررت ولايته فلم يتعرض لها، أو من ولي العراق ولم نشاهد له ذكراً للقاصلة التي تخللت الحكم العثماني بالمتغلبة وبالمجاورين مع قرب العهد ممن كتبوا. شاهدنا في الوثائق بعض الخلل ولا سبب إلا اختلاف الإدارة، وتعاقب الحكومات وتلف المصادر من جراء ما حدث من ثورات أو استيلاء...

ومن الضروري أن نرجع إلى مؤلفات عديدة لرفع الجهالة وأن نكشف الستار عن الثقافة نوعاً ونزيل الخفاء بقدر الإمكان عن وقائع هذا القطر الذي له مكانته عندنا، وعند الأقطار العربية والإسلامية جمعاء.

وهذه التواريخ متفرقة المادة، تهتم بالحكومة وعلاقاتها، ولم تذكر الشعب وأوضاعه، ولا تسلسل الوقائع واطرادها، بل نراها مقصورة على حياة الولاة أحياناً دون سواهم، وأخلت في الكثير منها. وهذا النقص مشهود إلا أننا من مجموعها حصل لنا ما نعده وافراً فتمكنا من تدوينه مترقبين غيره.

نهجنا نهجاً علمياً في تسجيل ما عرف وراعينا حالات مسهلة أو موضحة بقدر الإمكان.

اتخذنا الوقائع السياسية الكبرى وسيلة لجمع الحوادث وربطها مع ملاحظة العلاقات مما نعتقد أن لها أثراً بالغاً في المعرفة.

وموضوعنا محدد بما بين السلطان سليمان القانوني من أول إدارة العثمانيين في العراق والسلطان مراد الرابع. وقد مر بنا من المراجع في الأجزاء السابقة ما تمتد حوادثها إلى هذا العهد، وهذه لا نعيد القول فيها من جراء استمرارها في هذا الجزء أيضاً.

وهذه أشهر مراجعنا الجديدة:

١ ـ المراجع المحلية:

وهذه تهمنا في الدرجة الأولى لما تحويه من إيضاح وضبط للوقائع أو علاقة بالحوادث. وهي على قلتها جليلة الفائدة عظيمة الأثر لا يصح إهمالها بوجه بل الاستزادة لما يتجدد منها ضرورية. ولما كانت هذه المراجع موضوع بحثنا في خلال سطور الكتاب قد أوضحتها واستوعبت ذكرها في (كتاب التعريف بالمؤرخين) فلا أرى ضرورة للتفصيل هنا. وإنما أذكر من المراجع المحلية:

(١) تاريخ آل افراسياب.

(٢) زاد المسافر.

(٣) ديوان فضولي.

(٤) ديوان روحي.

(٥) گلشن شعرا.

(٦) تاريخ الغرابي.

(٧) گلشن خلفا.

وكل هذه أوسعنا القول فيها عند ورود بحثها في حينه، فلا نرى العجلة لا سيما وقد وجدنا بعضها يتأخر الكلام عليه إلى الأجزاء التالية من هذا التاريخ.

٢ ـ المراجع الأخرى:

وهذه من التواريخ الأجنبية وهي كثيرة جداً. ومنها للمجاورين أو للأقطار العربية الأخرى. وهذه أشهرها:

(١) تاريخ مطراقي:

يتضمن (فتح السلطان سليمان) بغداد ولعله المعروف بـ (تحفة غزاة)، يذكر منازل سفر هذا السلطان إلى العراقين ذهاباً وإياباً. وفيه ألواح مهمة، وصفحات في تصاوير البلدان العراقية ومراقدها المباركة مما لم يبق له اليوم ذكر، أو رسم إلا قليلاً والكتاب رأيته في (خزانة الجامعة) باستانبول بين نفائس كتب السلطان عبد الحميد الثاني كتب سنة ٩٤٤ هـ أي بعد فتح بغداد بثلاث سنوات، قدم للسلطان سليمان القانوني والكتاب ينبيء عن معرفة المؤلف بالرسم والتصوير، وبالتاريخ كما أنه جامع للفنون الجميلة ومعلوم أن المؤلف مؤسس لنوع من أنواع الخطوط يقال له (چپ) فيوصف بأنه (چپ نويس) وهذا الخط قريب من الديواني... وعصر هذا السلطان نظراً لعظم حكومته وصولتها يجب أن لا يخلو من أمثال هذا المؤرخ واطلاعاته القويمة وإتقانه للرسم. وتصاوير الكتاب تعين صناعة ذلك العصر وكأننا نراها كتبت حديثاً لصحة ألوانها وثبوتها ودوامها إلى هذه المدة... ولعلها خيالية أكثر منها حقيقية. فالكتاب من نفائس الآثار، ومن الضروري أن نحتفظ بأمثال هذه الخواطر في العراق كذكرى للماضي سواء من ناحية تصوير البلدان العراقية، أو المراقد المباركة، بأن ننقل التصاوير عيناً، ونحصل على نفس التاريخ بالاستعانة برسامين ماهرين... واستنساخه بوضعه الحالي. كتب عليه إنه (بيان منازل سفر العراقين) و (كتاب تواريخ آل عثمان) لأيام السلطان سليمان. كتبه باللغة التركية نصوح السلاحي المطراقي من رجال السلطان سليمان...

والمؤلف معدود من المؤرخين العثمانيين. كتب تاريخاً في مجلد واحد عن أيام السلطان سليمان القانوني. من حين جلوسه إلى سنة ٩٥٤ هـ ثم شرع في تدوين ما بعد هذا التاريخ إلا أنه لم يوفق لإكماله... وسمي بالمطراقي لإتقانه لعبة المطراق ومهارته فيها. وهي نوع لعب

بالسلاح يقال له مطراق[1]. ويقال إن كتاب الديوان آنئذ كان يقال لصنف منهم (مطراقي). . .

ومن مؤلفاته (فتحنامهٔ قره بغداى)، ونقل تاريخ الطبري إلى التركية باسم السلطان سليمان سنة ٩٢٦ هـ وسماه (مجمع التواريخ) وهذه غير الترجمة المطبوعة ومخالفة لها تماماً. . . ويعد أيضاً من مشاهير الرياضيين. . . وله مؤلفات في الرياضيات وأشعار سلسة وغزل رقيق وأساليب خاصة لا يكاد يضارع فيها. ومن مؤلفاته (تقويم نصوحي) في علم النجوم[2].

(٢) تاريخ السلطان سليمان:

تأليف فردي. وهو مما اعتمده هامر في تاريخ الدولة العثمانية، ويقال له (سليماننامه).

(٣) سليماننامه:

تاريخ تركي لعهد السلطان سليمان القانوني. وفيه ذكر وقائعه من حين سلطنته إلى يوم وفاته، وبيان علماء عصره ووزرائه. . .

طبع ببولاق مصر سنة ١٢٤٨ هـ بإذن والي مصر محمد علي باشا الكبير. والكتاب من تأليفات عبد العزيز آل قره چلبي المتوفى سنة ١٠٦٨. وهذا التاريخ عولنا عليه في كثير من الحوادث.

قال صاحب عثمانلي مؤلفلري: وهناك سليماننامات أخرى إحداها لشمسي البرسي من القضاة وأخرى لفردي من الشعراء[3]. . .

وللمؤلف (روضة الأبرار المبين لحقائق الأخبار). طبع في بولاق

---

(١) لعل هذه اللعبة هي المعروفة عندنا (بالطابق).

(٢) تذكرهٔ سهى ص ١٠٠ وعثمانلي مؤلفلري ج ٣ ص ١٥١ و ٣٠٠٠.

(٣) عثمانلي مؤلفلري ج ٣ ص ١٢٠.

أيضاً سنة ١٢٤٨ هـ. والفصل الرابع منه في دولة آل عثمان.

وله أيضاً (روضة الأبرار في فتح بغداد أيام السلطان مراد الرابع) وسماها صاحب (عثمانلي مؤلفلري) بـ (ظفرنامه).

وهذه من المراجع المهمة.

(٤) مرآة الممالك:

رحلة تركية لسيدي علي رئيس المتوفى سنة ٩٧٠ هـ - ١٥٦٣ م. سار من بغداد إلى البصرة بأمل الذهاب إلى مصر بأمر من السلطان سليمان القانوني ليتولى قيادة الأسطول هناك فلقي في طريقه البورتغال فحاربهم، ولم يطق المقاومة بل دمرت غالب سفنه، فاضطر أن يميل إلى الهند ومن هناك ساح برًّا حتى عاد إلى بغداد حاكياً ما رآه في طريقه. وسياحته مهمة جداً تنبيء عن عصر غمضت وقائعه... وفيها حوادث كثيرة عن العراق وبيان عن المشاهد وعن الطريق التي مر بها. وصف بعض أحواله وعلاقة العثمانيين به وما جرى عليه في سفره من عناء...

طبعت هذه الرحلة في مطبعة إقدام عام ١٣١٣ هـ فسدّت ثلمة في تاريخ العراق... كان أتم رحلته في (غلطة) في أوائل شعبان سنة ٩٦٤ هـ - ١٥٥٧ م وأبرزها في أواسط صفر سنة ٩٦٥ هـ. أشار إلى ذلك في آخرها.

والمؤلف قائد بحري مشهور، عارف بأمور البحرية معرفة تامة وكاتب أديب شاعر ماهر ويلقب بـ (الكاتبي الرومي)[1]... وله مؤلف جمع فيه رسائل ابن ماجد الربان العربي المعروف وغيرها. سماه (المحيط) يتعلق بالبحرية وأحوال بحر الهند المسمى (بحر عمان) كتبه في أحمد آباد باللغة التركية ونقله إلى اللغة الألمانية آل (بارون هامر) ونشر في ويانة (فينة) عاصمة النمسة كما نقلت رحلته إلى الإنكليزية نقلها (ا. فامبيري) عن التركية

---

(١) الكاتبي القزويني كان في عهد المغول وهو معروف... والوصف بالرومي للتفريق بينهما. وعرف آخرون بـ (الكاتبي) ويفرق بينهم بما يدفع اللبس.

وطبعت في لندن سنة ١٨٩٩ م[1]. وكذا نقلت إلى الفرنسية.

وله مؤلفات منها (مرآة كائنات) في الاسطرلاب، والربع المجيب، والمقنطرات، ومعدل ذات الكرسي.

(٥) فذلكة أقوال الأخيار في علم التاريخ والأخبار:

مجلد في التاريخ عربي العبارة لكاتب چلبي، مصطفى بن عبد الله صاحب كشف الظنون، منه نسخة رأيتها في المكتبة العامة باستانبول في كافة دول الإسلام وفيها معلومات وافرة عن حكومة قراقوينلو والعثمانيين والصفويين وغيرهم... أولها: الحمد لله الذي أرشد الأولياء إلى إحاطة أخبار الزمان الخ بخط يده. لخص بها تواريخ عديدة وتكلم على كل حكومة برأسها ويدأ في فصل عن التاريخ وآخر عن الكتب المؤلفة فيه ثم في بدء الخليقة، وفي الأنبياء، وفي سيرة الرسول ﷺ وغزواته وفي الخلفاء ومن وليهم على توالي القرون... يذكر النصوص التي جعلها أساس بحثه بالفارسية أو غيرها عيناً في هامش الكتاب. رأيته باستانبول. وهذه النسخة هي التي وصفها صاحب عثمانلي مؤلفلري. قال: «هذا الكتاب طولاني، في قطع متوسط، عربي العبارة، وتاريخ عام يحتوي على مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة وفي آخره بعض فوائد تاريخية وفي تتمته ألقاب الملوك والدول مرتبة على حروف الهجاء...» اهـ[2].

ومن مؤلفاته المهمة (جهاننما) في الجغرافيا. طبع إبراهيم متفرقة. وتاريخ الفذلكة التركي[3] اعتمدناها. وله (ميزان الحق)... توفي سنة

---

(١) ترجمته في كتاب أسفار بحريه عثمانية، وفي عثمانلي مؤلفلري ج ٣ ص ٢٧٠ وهنا ذكر مؤلفاته.

(٢) عثمانلي مؤلفلري ج ٣ ص ١٢٩.

(٣) تبتدىء حوادثه بسنة ١٠٠٠ هـ، وتنتهي بسنة ١٠٦٥ هـ، طبع في مطبعة جريدة الحوادث باستانبول سنة ١٢٨٧ هـ. وعندي نسخته المطبوعة.

١٠٦٧ هـ. وفي الطبعة الجديدة من كشف الظنون تفصيل حياته.

(٦) روضة الحسين في أخبار الخافقين (تاريخ نعيما):

تاريخ تركي، في الدولة العثمانية تأليف «نعيما أفندي». وله قيمة أدبية، وأسلوب خاص عند الترك، ولد مؤلفه سنة ١٠٦٥ هـ في مدينة حلب وأصل اسمه مصطفى. ورد استانبول بعد أن حصل العلوم ونال مناصب عديدة.

وكان عموجه زاده حسين باشا ميالاً إلى التاريخ فجيء إليه بكتاب كان في حالة مسودة كتبه أحمد أفندي من أبناء أحد العلماء محمد أفندي (شارح المنار) يتناول الحوادث من عهد السلطان أحمد الأول إلى أيام محمد باشا الكوپريلي، وإن أحمد أفندي الموما إليه لم تتح له الفرصة أن يبيض المسودة فتوفي فكلف عموجه زادة المترجم نعيما أن يتم هذا الكتاب، ويدون الوقائع الرسمية فيكون (وقعه نويس) أي (محرر الوقائع).

ومن ثم اتخذ نعيما ذلك الأثر أصلاً، وراجع تواريخ ووثائق وحقق ما سمع، ودون ما شاهد فأضاف ما علم... ولم يتحاش من نقد سلفه، فأبرز كتابه. وسماه (روضة الحسين في أخبار الخافقين) إلا أنه عرف (بتاريخ نعيما).

وهذا التاريخ كتب في عهد انحطاط العثمانيين، صور عصره فأبدع تصويره، فلم يتجاوز الحقيقة... وتبتدىء حوادثه من الألف وتنتهي بسنة ١٠٦٥ هـ ـ ١٦٥٥ م. وهذا التاريخ قدمه إلى الصدر الأعظم عموجه زاده. وبعد وفاة هذا الصدر أتم حوادثه إلى سنة ١٠٧٠ هـ ـ ١٦٦٠ م، أيام داماد حسن باشا الصدر الأعظم.

وفي مقدمته بين ما يجب على المؤرخ مراعاته... وبذا عين نهجه التاريخي وخطته التي سار عليها موضحاً أن يكون المؤرخ صادق اللهجة، لا يلتفت إلى الأقاويل الزائغة، وأن يكون ملماً بالوقائع عن

علم، ولا يلتفت إلى ما يشيع على ألسنة الناس من الأراجيف، وأن يعتمد الثقات، ويدون الصحيح لا أن يستهويه الرأي العام بأباطيله، وأن لا يتعصب، وأن يترك تزويق الألفاظ وتنميقها بحيث يرتبك الأمر بأن يستخدم البساطة أو قل الفصاحة في البيان، وأن يهمل طريقة العتبي ووصاف... فيراعي النصائح المفيدة[1] التي لا تبلي جدتها الأيام... طبع في مطبعة إبراهيم متفرقة وطبعات أخرى.

(٧) منشآت السلاطين:

وهي المعروفة بمنشآت فريدون، (فريدون أحمد باشا) المتوفى سنة ٩٩٠ هـ ـ ١٥٨٢ م والمؤلف من الكتاب القدماء ومن أشهرهم، كان رئيس الكتاب لدى الوزير الأعظم صوقوللي محمد باشا. فهو مرجع تاريخي للوقائع ومثال مشاهد للآداب في عصره. طبع في مجلدين. وفيه وثائق كثيرة تخص العراق سواء منها ما يتعلق بفتح العراق وغير ذلك...

والكتاب لا يخلو من غمز، فإنه نسب منشآت عديدة للعثمانيين، منقولة من مراسلات كانت للخوارزميين وغيرهم فقلبها، أو عدل فيها ونسبها إلى السلاطين العثمانيين، وربما كان كتاب الدواوين اتخذوا تلك المراسلات أصلاً في مدوناتهم السلطانية.

ومن مؤلفاته الأخرى (نزهة الأخبار). يتضمن وقائع سنتين حدثتا بعد واقعة سكتوار. وله (مفتاح جنت) في الأخلاق...[2].

(٨) تاريخ رمضان زادة:

تاريخ تركي أوله: الحمد لله على ألطافه السنية الخ عندي نسخة

---

(١) نعيما تاريخي.

(٢) عثمانلي مؤلفلري ج ٢ ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

خطية منه كتبت سنة ١٠٠٦ هـ، وفيها بعض التعليقات وتواريخ بعض السلاطين وأخرى مطبوعة... يتكلم فيه عن أوائل التاريخ، ثم عن العثمانيين وفصل تاريخهم أكثر. وفيه بيان عن الوزراء والمشاهير والعلماء في أيامهم...

ومؤلفه رمضان زاده نشانچي محمد بك من رجال السلطان سليمان القانوني ومن مشاهير المؤرخين. أصله مرزيفوني كان رئيس الكتاب ثم أمين الدفتر... كان يكتب الطغراء في المناشير ويوقع التواقيع السلطانية، ويحرر الطوامير الصادر من الخاقان. وتاريخه معروف بتاريخ (محمد باشا النشانچي) أي من الرماة وله (سبحة الأخيار وتحفة الأخبار) في أنساب الأنبياء والملوك إلى زمن السلطان سليمان القانوني... توفي سنة ٩٧٩ هـ - ١٥٧٢ م في استانبول[١].

(٩) تاريخ صولاق زادة:

في مجلد واحد تأليف محمد همدمي چلبي المعروف بصولاق زادة. كتبه من أول تأسيس الدولة العثمانية إلى آخر أيام السلطان سليمان القانوني بإفادة سهلة بسيطة. لم يحو التفصيلات المهمة. طبع عام ١٢٩٨ هـ باستانبول ونسخه الخطية نادرة... أوله: الحمد لله الذي خلق الخلق وهداهم إلى الصراط المستقيم الخ.. توفي عام ١٠٦٨ هـ في استانبول وله مؤلفات أخرى. منها (فهرست شاهان) منظومة في تواريخ آل عثمان، ذيل عليها بعض الأدباء وجاء ذكرها في مقدمة التاريخ. وله تاريخ عام أيضاً كما نقل عنه صاحب تذكرة صفائي وله اطلاع واسع على الموسيقى[٢].

(١) عثمانلي مؤلفلري ج ٣ ص ٥٣.
(٢) صولاق زاده. وعثمانلي مؤلفلري.

(١٠) مرآة كائنات:

لمحمد القدسي المعروف بـ (رمضان زادة). من أحفاد سابقه وهو محمد بن أحمد بن محمد بن رمضان وكان من العلماء. ولي قضاء بغداد لمرتين. وتوفي سنة ١٠٣١ هـ. وتاريخه ينتهي بسلطنة السلطان سليمان القانوني. طبع سنة ١٢٦٩ هـ.

(١١) تاريخ عالم آراي عباسي:

من الكتب التاريخية المهمة في اللغة الفارسية. وكنا بينا في المجلدات السابقة بعض التواريخ التي تمتد حوادثها إلى هذه الأيام. وهذا التاريخ يتكلم في الدولة الصفوية من ابتدائها مجملاً ثم يمضي في أيام الشاه عباس الكبير بتفصيل وسماه باسمه. ومؤلفه اسكندر بك التركماني المنشي. شرع بتأليفه سنة ١٠٢٥ هـ وأتمه بوفاة الشاه عباس الكبير في ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ هـ. طبع على الحجر سنة ١٣١٤ هـ. وفيه توضيح وقائع العراق لما يتصل بإيران.

(١٢) الإعلام باعلام بيت الله الحرام

للشيخ قطب الدين المكي (محمد بن أحمد المكي النهروالي) الحنفي المتوفى سنة ٩٨٨ هـ ـ ١٥٨٥ م وفي تاريخ الغرابي توفي سنة ٩٩٠ هـ و (الإعلام بأعلام بيت الله الحرام) ألفه سنة ٩٧٩ هـ ـ ١٥٧٢ م وأهداه إلى السلطان مراد. وفيه ما يخرج به عن موضوعه مما يتعلق بالخلافة العباسية في مصر ومكانتها، وبين هذه ما يتعلق بالعراق، وبالصفويين. نقله إلى التركية المولى عبد الباقي الشاعر المعروف المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ ـ ١٦٠٠ م. ذكر فيه أن الوزير محمد باشا العتيق طلب إليه ذلك فلبى الطلب.

طبع الأصل العربي في أوروبا، وفي مصر إلا أن طبعة مصر مغلوطة بأغلاط كثيرة.

وله: (البرق اليماني في الفتح العثماني) ألفه للوزير سنان باشا، فكان كسابقه أحد مراجعنا ومن مباحثه الصلات البحرية بالبرتغال ونقله إلى التركية المولى مصطفى بن محمد المعروف بـ (خسرو زاده) المتوفى سنة ٩٩٨ هـ. وله مجموعة الفوائد (رحلته) إلى استانبول رأيتها في خزانة ولي أفندي برقم ٢٤٤٠، نقلها الأستاذ معلم رفعت الكليسي الفاضل المعروف إلى اللغة التركية[1]. ومن مؤلفاته أذكار الحج والعمرة. وله الكنز الأسمى في فن المعمى، وديوان شعر مما لا يخص التاريخ.

وهناك مراجع أخرى مثل النور السافر والكواكب السائرة، وخلاصة الأثر وكتب أخرى عديدة أوضحنا عنها في كتابنا (التعريف بالمؤرخين للعهد العثماني). ومن أهم المراجع (منظومة آل افراسياب) تأتي في حينها. والغرض الاستفادة لا التعداد.

وأما بعض الكتب المعاصرة فإنها كتبت لمهمة سياسية لا للتاريخ المجرد فلا تكون موضوع البحث هنا.

نظرة عامة

في ٢٤ جمادى الأولى سنة ٩٤١ هـ ـ ١٥٣٤ م استولى السلطان سليمان القانوني على بغداد فقضى على الحكم الإيراني. وكانت (الأوضاع السياسية العامة) في تلك الأيام تدعو إلى معرفة توصل العثمانيين إلى إبادة حكم العجم من العراق.

كانت بلاد الشرق الأدنى إثر انحلال إدارة المغول تناوبت عليها حكومات متعددة وتولت إدارتها جملة سلاطين كل منهم يحكم صقعاً. وفي الأيام الأخيرة كانت الإدارة موزعة بين آق قويونلو وبعض

---

(١) كشف الظنون طبعة استانبول الجديدة.

الحكومات أو الإمارات الصغيرة. أما العثمانيون فلم يكن لهم أمل في هذه الأنحاء، بل كانت آمالهم معطوفة إلى التوسع في جهات الروم والبلقان وما جاورهما فتوغلوا فيها كثيراً.

وبعد انقراض حكومة (آق قويونلو) قامت الدولة (الصفوية) في إيران بقوة هائلة مستمدة سلطتها من التأثير الديني باعتناق مؤسسها الشاه اسماعيل طريقة (التصوف الغالي) مقرونة بمذهب الشيعة. كما أنه حرك الشعور الوطني القومي الإيراني فتزايد نفوذه وكثر أعوانه وشعر في نفسه بقدرة فتاكة وحكومة عظيمة هددت كيان الحكومات المجاورة... بل إن قوتها فاقت المجاورين في كثير من حروبها وظهرت عليهم ظهوراً بيناً لكنها لم تكن في الدرجة التي تصورها هذا الشاه الشاب الممتلىء نشاطاً، المغرور بقوته وبما ربح من بعض الوقائع، لما رأيناه في الحكومة العثمانية من الانتصار الهائل عليه وكان حكم العثمانيين سابقاً لحكمه. وإن هذه الدولة ممرنة على الحروب والإدارة والتزام السياسة المكينة. أرعبت الشرق والغرب وأرهبت المجاورين، وعاملت الشعوب والملل المحكومة بالحسنى.

ـ نعم لم تر الحكومة الصفوية مزاحماً لها بعد انقراض حكومة آق قويونلو سوى (الدولة العثمانية)[1]. فحاولت القضاء عليها ليصفو الجو

---

(١) إن الترك يتكلمون باثنتي عشرة لغة. ومنهم التركمان. خرجوا من ما وراء النهر وجاؤوا إلى بلاد الروم زرافات وبأسماء مختلفة مثل دانشمندي، وآق قوينلو، وسلجوق... فجاسوا خلال هذه الديار واستولوا عليها... ولهم لهجات متنوعة، وإن اللغة التركمانية متشعبة من التتارية، ولهم اصطلاحات في لهجاتهم خاصة ولغات غريبة، لا يفهم بعضهم بعضاً إلا بترجمان، وإن الجغتاي أفصحها، وإن تركمان آل عثمان من هؤلاء... أما تتار قالماق أي الصين والخطا والختن فإنهم غير أولئك وإنما هم تتار آخرون... ولهم اثنتا عشرة لغة بعدد ملوكهم، فلا يتفاهم بعضهم مع بعض إلا بترجمان. (أوليا چلبي ج ٣ ص ١٧١).

لها خالصاً بالتوغل في قلب مملكتها بدعايات واسعة النطاق كان يقوم بها رجال الشاه وأعوانه بنشر التصوف، والدعوة له. . . ومن ثم تولد النزاع بين الحكومتين وكثيراً ما كانت دولة العجم عائقاً مهماً، وصارفاً عظيماً للدولة العثمانية من التوغل في جهات الغرب بسبب تدخلها في أمرها، وأطماعها بأمل ابتلاعها، توسع نفوذها في الدولة العثمانية وكان بإزعاج لا مزيد عليه. فتكون على الدولة خطر.

وأول عمل قامت به الدولة الصفوية كان على يد (شاه قولي) أي (عبد الشاه) المعروف عند الترك (بشيطان قولي) أي (عبد الشيطان). استعمل كثيراً.

تنازعتا السلطة وكل واحدة من هاتين الدولتين وجدت الأخرى حجر عثرة في طريقها والفروق بينهما كبيرة تمنع من اندماج الواحدة بالأخرى. وأهمها الفروق الدينية والقومية. بقيتا مترافقتي النزاع إلى أن قضي على الحكومة الصفوية من جانب الأفغان قبيل أيام نادر شاه فخلفتها حكومات جديدة لم تغير من وضعها إلا اسم الأسرة المالكة بحلول غيرها محلها إلى أن جاءت الدولة البهلوية فأحدثت تجدداً. وهكذا بقي الجدال إلى أن انقرضت الدولة العثمانية أيضاً بظهور (الجمهورية التركية)، فبدت آمالها كما هو المشهود في الإصلاح لا في الفتح.

ولا تزال الفروق موجودة إلى اليوم ولكن التقرب ـ دون الاندماج ـ مأمول والمصافاة أكيدة. نظراً لتغير الوجهات وتبدل أشكال الحكومات وتطورها لا سيما بعد الحروب العامة لسنة ١٩١٤ م و ١٩٣٩ م. بدت بوادر التقارب السلمي. لأن كل دولة تريد أن تنال حظها من الإصلاح، وأن تلحظ مصلحتها، وليس لها أمل في التسلط على غيرها. ففي كل مملكة ما يغنيها عن التطلع إلى الأطماع خارج حدودها، وأن تحصل



السلطان سليمان القانوني ـ أحمد راسم

على الرفاه والثقافة من طريقهما. وهذا لا يتم إلا بالركون إلى الطمأنينة والراحة. والعدول عما هو أشبه بالغزو العشائري.

رأت الدولة العثمانية في أيام السلطان بايزيد أن قد توسع أمر الصفويين في مملكتها وكون خطراً عليها من جراء أن القدرة على المقارعة كانت مفقودة نوعاً لأن السلطان بايزيد كان خاملاً وإدارته منحلة. . .

ثم ولي السلطان سليم الياوز. وهذا من أعاظم ملوك العثمانيين، كان ولا يزال يحرق الارم على الإيرانيين. خاف من توسعهم لهذا الحد فتولى إدارة الجيوش بنفسه. وقبل الدخول في المعمعة انتقى الإدارة وأتلف الأعضاء الزائغة وعد كل مخالفة أكبر جريرة حتى فيما وقع من وزيره الأعظم. حدثت بينه وبين العجم (حادثة چالديران). كاد فيها يدمر الإيرانيين وهم في بدء تكونهم وإن صدمة كبرى مثل هذه كانت تكفي آنئذ للقضاء على آمالهم. والأهلون لم يخلصوا لهم بعد، وبينهم من أكره على الطاعة، ولكن لم يخصل آنئذ من يشاطرهم السلطة أو له أمل في السيادة. . . لما نال الناس من ظلم وقسوة في مختلف الأيام فشغلوا بأنفسهم. . .

ومن نتائج أعمال الدولة العثمانية أن قضت على نفوذ (المتصوفة في الأناضول) وصار العجم في رعب من صولات الترك. ذاقوا المرارة فعلاً، ولم تكتف الدولة العثمانية بهذا الحادث من كسر شوكة إيران بل مالت إلى متفقتها (مصر)، فضربتها الضربة القاضية ودمرتها تدميراً تاماً لا عودة بعده فخلصت مصر للدولة العثمانية بل دخلت في حوزتها أنحاء إفريقيا الشمالية.

كانت دولة المماليك في مصر بسبب المجاورة، وتوسع الدولة العثمانية تخشى أن ينالها منها ما تحذر، فاتفقت مع إيران أو أن إيران

أوجدت فيها هذا الخوف مما دعا إلى هذا الاتفاق. ذلك ما أكسب الدولة العثمانية الاهتمام للأمر وأن تقضي على هاتين الحكومتين قبل أن تستكملا العدة. فالدولة العثمانية كانت ممرنة على الحروب أكثر من غيرها وإن كانت الدولة الصفوية اكتسبت بعض الممارسة في حروبها للاستيلاء على كافة أنحاء إيران وعلى بغداد.

وقوة السلطان سليم الياوز أعقبتها سطوة أكبر أيام السلطان (سليمان القانوني). وهذا لم يستطع العجم أن يقفوا في وجهه. وحكومته آنئذ نالت شهرت بلغت الغاية لما وصلت إليه من العز والمنعة في الشرق والغرب ولكن تدابير العجم السياسية مكنتهم من المحافظة على الوحدة من جراء أن حكومتهم لم ترتكب الخطأ الأول في (چالديران) للدخول في مقارعة عظيمة لها خطرها ولا تأمن نتائجها... أو أن تجرب تجربة أخرى تجازف بها، فركن الشاه إلى الاختفاء مدة والحكومة لا تطارد المختفين الهاربين فمالت إلى بغداد واكتفت بأخذها وما والاها وعادت ظافرة...

والعراق كان من الضعف والعجز بمكان، فلم يقدر أن يحرك ساكناً، والحكومات السابقة أنهكت قواه، لا يختلف عن إيران وسائر الممالك الشرقية الأخرى... ولا يزال الخوف مستولياً عليه مما أصابه من أقوام ليس لهم رأفة به ولا رحمة أو شفقة والقوة لا تزيحها إلا القوة. ولم تكن له قدرة النهوض أو بالتعبير الأصح لم يبق من رجاله من ينقاد له الرأي العام ليقوم بالاستقلال ويربح قضيته استفادة من الفرصة السانحة. ولعل ضعف الأهلين كان أهم سبب فلا مجال للقيام ولا قدرة هناك تكفي لصد العدو. والروح قد أميتَتْ، فركنوا إلى قوة العثمانيين.

انحلت إدارة العراق فتكونت إدارة تركية. ولم يوسع على الأهلين.

ولولا أن الثقافة مكينة، قائمة على أسس ثابتة من مدارس موقوفة، وريع وافر لتأمين إدارتها، وتأكيد معرفتها لكانت في خبر كان.

إن المدارس الموقوفة ثبتت الوضع الثقافي وغيرت الحالة، ولم تدع مجالاً للتخريب والقضاء على الآداب والعلوم. بل حييت حياة طيبة في كل فرصة وجدت فيها راحة وطمأنينة، وإن العثمانيين كانوا في بدء عمل ثقافي، فكانت الاستفادة من هذه المدارس كبيرة لاقتباس نظامها ومراعاة طرق تدريسها... فصار لا يستغني موظف، أو عالم أو أديب عن العلاقة بهذه المدارس للأخذ بالثقافة الصحيحة.

وعلى كل حال تيسر للسلطان سليمان القانوني (فتح بغداد) بسهولة دون أن يرى أدنى عقبة أو صعوبة، ولم يجد مقاومة من عدو ولا قياماً من أهلين بل فتحوا له الأبواب مستبشرين، مسرورين.

والشعب لا يريد إلا الراحة والطمأنينة، أنهكته الحروب، وتسلطت عليه الأوهام حذر أن تعود إليه هذه الحروب جذعة.

والحق أن العراق اكتسب الراحة، وسكن مدة، ولكن بعد قليل دب في الدولة الضعف من جراء استمرار الحروب، ودوام غوائلها، فاضطرت الدولة إلى التضييق على الأهلين، شعر علماء كثيرون بهذا الخطر، وحذروا الدولة من نتائجه... فظهر التغلب في مواطن عديدة في بغداد وغيرها، فتشوشت الحالة في أواخر هذا العهد، واستفاد منها المجاور وهو بالمرصاد فكان ما كان من وقائع انتهت بدخول السلطان مراد بغداد وانتزاعها من أيدي الإيرانيين...

وفي هذا العهد لم يستفد العراق من العلاقات الاقتصادية بأصل الدولة ولا بغيرها فليس هناك ما يستحق الذكر سواء في أيام الراحة أو الاضطراب بل بقي العراق على حالته المعتادة، فلم يظهر ما يزيد في الاقتصاديات، ولا في السياسة ما يدعو للارتياح.

ولا يسأل عن الثقافة في هذه الزعازع، والاضطرابات، وأن الفرصة مكنت من استعادتها نوعاً في أول العهد إلا أن الأيام الأخيرة حتى استيلاء السلطان مراد قد قضت على الكثير من آثارها، فصرنا اليوم لا نستطيع أن نعلم عنها إلا القليل النزر. ولعل الأيام تكشف أكثر عما غاب عنا في خزائن الكتب الخاصة، أو في البيوت من مصادر.

دامت بغداد في إدارة العثمانيين إلى أن حدثت حوادث كان آخرها واقعة (بكر الصوباشي) سنة ١٠٢٨ هـ - ١٦١٩ م، ثار على العثمانيين، وأعلن حكومته في بغداد. ولما رأى تضييقاً من هذه الدولة طلب المساعدة من إيران، فكان من نتائج ذلك أن استولت إيران على بغداد. دخلتها في يوم الأحد ٢٣ ربيع الأول سنة ١٠٣٢ هـ - ١٦٢٣ م.

جرت هذه إلى حروب وبيلة وقاسية بين العثمانيين والإيرانيين. اكتسبت عنفاً وشدة، ونالت وضعاً خطراً على الدولتين، فصارت كل واحدة منهما على وشك الهلاك، ولم يبق بين الحياة والموت إلا أنفاس معدودة. جاء السلطان مراد الرابع بنفسه لفتحها، فحدثت المعارك الهائلة والحروب الطاحنة بين الطرفين مما ولدته الأطماع، كأن قد ذهبت لهم ذاهبة، أو كأن العراق مخلوق لأحدهما. فتمكن السلطان مراد من استعادة بغداد في ١٨ شعبان سنة ١٠٤٨ هـ - ١٦٣٩ م وتم الفتح. ومن ثم عادت بغداد. وكانت هذه المرة الأخيرة، فلم يتمكن الإيرانيون بعدها من الاستيلاء عليها وإن كانت لم تنقطع الحروب ولا هدأ الأمل.

فتح بغداد

١ - بغداد وحاكمها:

كان العراق من الضعف بمكانة، وبغداد قاعدة بلاده. كانت إدارتها بيد العجم، فإن محمد خان تكلو كان حاكم بغداد من إيران وهذا

علم أن جل أماني السلطان أن تتم سفرته بفتح بغداد فارتبك أمره وأصابه الرعب. . . وأول ما قام به السلطان أن أرسل أولامه بك مع الوزير الأعظم إبراهيم باشا إلى الموصل فاستولوا عليها.

ثم إن أولامه بك بعث بعض رجال قبيلته إلى من هناك من قبيلة (تكلو) برسائل يحث بها على لزوم إظهار الطاعة للسلطان. . . وأبدى النصح بوجوب تسليم بغداد بلا حرب وقد صاغ رسائله هذه بتعابير تدل على الترغيب من جهة والترهيب من أخرى فأبدع في الأسلوب وحسن البيان بقصد جلب القوم واستهوائهم لجانب السلطان. . .

أما الخان فلم يلتفت وأظهر أنه متأهب للطوارىء، عازم على القراع، وصار يعد العدة للنضال. وفي هذا الحين ورد ابن الغزالي من قبيلة تكلو أيضاً إلى بغداد حاملاً رسالة الشاه يخبر بها محمد خان الوالي ببغداد بأن السلطان قد تحرك قاصداً بغداد، وفيها حث بالانصراف عن المدينة وأن يأتي إلى إيران على وجه العجلة لينجو بنفسه وبمن معه. وعلى هذا دعا الخان أعوانه وقص عليهم ما وقع، وشاور في الأمر فلم توافقه قبيلة تكلو على الذهاب إلى الشاه وامتنعت عن طاعته. . . فكان مجموع من وافقه نحو ألف فلم ير بداً من الذهاب إلى الشاه وبينا هو يفكر في الأمر إذ ورد كتاب آخر يدعوه الشاه فيه إلى لزوم الإسراع فكان داعية التشوش أكثر. جاء هذا الكتاب مع نديم الشاه (رجب دده) فلم يطق صبراً لا سيما وقد تواترت الأخبار بوصول السلطان واكتساحه الحدود بجيوشه الجرارة واجتيازه خانقين وقلة[1] مما زاد في ارتباكه. فدعا جماعة تكلو. فاوضهم وبالغ في نصحهم. دعاهم للخروج معه من المدينة واللحاق بالشاه فلم يلب دعوته أحد. فتابعه من أعوان الشاه نحو سبعمائة بيت. . . وافقوا واستعدوا للذهاب معه امتثالاً للأمر.

---

(١) أي قولاي المقاطعة المعروفة في خانقين.

ولما ألح في الطلب على طائفة تكلو قام في وجهه نحو ثلاثة آلاف. ناصبوه العداء وتحصنوا في المدرسة المستنصرية بقرب الجسر[1] تأهباً لمقارعته وكمنوا له هناك.

وكان في نية الخان آنئذ تخريب دورهم وإهلاك أهليهم ومتعلقاتهم. وفي أمله الهجوم عليهم والتنكيل بهم فخالفه السيد محمد كمونة وسكن الخصام بينهما. وجل غرضهم أن لا يوافقوا الخان ولا ينصاعوا لقوله. تعندوا فلم يمضوا طبق مرغوبه...

لم يبق للخان أمل، ولم ير تدبيراً ناجعاً ينقذه من هذه الورطة فندم على ما فعل، وأبدى للقوم أنه عدل عما كان عزم من الذهاب إلى الشاه وإنما مال إلى السلطان وأنه مطيع له. فسر الجميع لقوله هذا. وصوب الجماعة رأيه...

وعلى هذا ذهب جماعة من رجال تكلو. سارعوا في الوصول إلى السلطان سليمان ليقدموا له مفاتيح بغداد وليعرضوا الطاعة. وكان هؤلاء من أهل الحل والعقد. رأى الخان الحالة وصلت إلى هذا الحد فلم يبق له أمل في أن يبقى رئيساً كما كان فيحافظ على مكانته وأن المذكورين قد غلبوه على أمره. وأنه فقدت منزلته... ورأى الأسلم له أن يعبر الجسر باتباعه ويذهب إلى الشاه من طريق البصرة فتوجه إلى الشاه[2].

٢ ـ السلطان سليمان القانوني:

الدولة العثمانية كانت ولا تزال في حالة توسع إلى هذه الأيام، تترقب الفرص وتتوسل بالأسباب للدخول في معمعة أخرى لتكسر شوكة

---

(١) تعين أن محل الجسر في مكانه المعروف اليوم من سنة ٩٤١ هـ.

(٢) كلشن خلفا ص ٦١ ـ ٢ ونخبة التواريخ وابن كمونة هذا هو غير المذكور في المجلد الثالث من تاريخ العراق بين احتلالين.

الصفويين فلا تدع لدولتهم مجالاً للدعاية في مملكتها، وإن التشنيع على إيران من آل الكيلاني من كل صوب، ومن المغلوبين وفلولهم مما ذكر بواقعة چالديران، وإن كانت لا تعد أسباباً للدخول في معارك جديدة وإنما قرب الحالة الحربية ما جرى على ذي الفقار من حادث. يضاف إلى ذلك أن أولامه بك من قبيلة تكلو حاكم أذربيجان من جهة الشاه التجأ إلى السلطان سليمان لما وجد من الشاه من خوف، فرغبه في حرب إيران وزاد في نشاطه. وربما يعد ميله إلى السلطان من أكبر أسباب الاشتباه من والي بغداد محمد خان تكلو، فمالت قبيلته إلى السلطان فعلاً. وهذه من قبائل التركمان المعروفة[1].

كانت هذه من أكبر المسهلات للدخول في المعمعة مع العجم. جاء في جامع الدول[2] وفي غيره أنه في هذه السنة (٩٤٠ هـ) أمر السلطان بالتجهيز لسفر الشرق وجعل الوزير إبراهيم باشا سردارا فعبر الوزير في جمع من الحرس الملكي (قبو قولي) إلى اسكدار في ٢ ربيع الآخر من هذه السنة ثم سار وشتى في حلب وكان سبب ذلك يرجع إلى أمرين:

(١) أن حاكم بغداد ذا الفقار مال إلى السلطان سليمان فأرسل إليه مفاتيح بغداد وأظهر الانقياد ولما بلغ ذلك الشاه طهماسب سار إليه فحاصر بغداد مدة فقاتله ذو الفقار وقتل. فكان الباعث لقصد السلطان.

(٢) أن حاكم بدليس (بتليس) شرف خان أعلن العصيان على

---

(١) قاموس الأعلام ج ٣ ص ١٦٦٥ مادة (تكه تركمانلري). وغالب قوة الشاه تستند إلى القبائل التركمانية مثل استاجلو، وتكه لو، وبهارلو، وذي القدرية، والقاجار، والافشار، ذكرهم في تاريخ مختصر إيران تأليف باول هورن. ترجمه إلى الفارسية الدكتور رضا زادة شفق. طبع سنة ١٣١٤ هـ. ش في طهران.

(٢) ومثله في كلشن خلفا ص ٦١ ـ ١ إلا أن ما في جامع الدول أوسع.

السلطان وانقاد للشاه طهماسب كما أن حاكم تبريز أولامه تكلو كان قد تقلد مناصب في إيران إلى أن نال حكومة تبريز. ولما دخلت هذه السنة أوجس خيفة من الشاه طهماسب فهرب إلى الروم. التجأ إلى السلطان فأكرمه وأقطعه بدليس وأمده بعسكر ديار بكر. أرسله إلى قتال (شرف خان) فقاتله قتالاً شديداً فقتله، وكسر جيشه ببدليس وأهلك كثيراً من أتباعه. وصار ذلك أيضاً سبباً لقصد بلاد الشرق.

وفي أيام وجود الوزير في مشتى حلب في منزل (سواريك) في أول ذي الحجة من هذه السنة بلغه تسخيروان. ففرح بذلك إلا أنه علم أن العسكر يقولون لا يقاتل السلطان إلا السلطان فخاف من الفتنة فأرسل إلى السلطان يعرفه بالحال ويلتمس قدومه فأجاب السلطان ملتمسه. عبر إلى اسكدار في آخر سنة ٩٤٠ هـ وتوجه مبادراً نحو الشرق حتى وصل إلى تبريز في ٢٠ ربيع الأول سنة ٩٤١ هـ. (جرت وقائع بين الوزير والعجم في مواقع حتى وصل السلطان والوزير إلى همذان ثم قطعا بعدها المنازل متوجهين نحو بغداد فوصلا إلى قصر شيرين)، ومن ثم دخل السلطان بجيشه الحدود العراقية.

وكل ما عرف عن الوزيرفي إيران أنه قام بما يجب القيام به لتسهيل الضربة على الشاه فتعقب أثره وقارعه في بعض المواطن... فكانت الحروب دامية. أخذ الخوف من العجم أكبر مأخذ كان نهض السلطان من استانبول في ٢٨ ذي القعدة سنة ٩٤٠ هـ - ١٥٣٤ م وصار يطوي المراحل حتى اتصل بجيش الوزير. وصل إلى السلطانية في ٦ ربيع الآخر سنة ٩٤٢ هـ - ١٥٣٤ م ومنها كانت وجهته همذان فوردها في ٢٤ منه. أما الشاه فكان في حالة يرثى لها يفر من ناحية إلى أخرى، ويتخفى في الجبال الصعبة، ويميل عن الطرق المعتادة فراراً من وجه السلطان. والرعب استولى عليه.. وحينئذ أمال السلطان عنان عزمه نحو بغداد وكانت الغاية المقصودة.

بين قصر شيرين وبغداد (في طريق بغداد):

لم يتعرض صاحب گلشن خلفا لتفصيل طريق السلطان ولكن ذلك جاء ذكره من مؤرخين كثيرين. قصوا سير السلطان وطريق حركته إلى بغداد وبين هؤلاء المؤرخ نصوح المطراقي والمؤرخ فريدون سوى أن نصوح المطراقي كان مصاحباً للسلطان في سفره هذا، فحكى ما شاهد بل لم يكتف بذلك وإنما صور البلدان والمراقد المباركة التي مر بها بألوان عديدة وعليه عولنا. ولم نهمل أقوال المؤرخين الآخرين ما أمكن الجمع.

إن السلطان كان قد وصل إلى (ماهي دشت)[1] في غرة جمادى الأولى نهض من مرقد أويس القرني[2] إليها. وفي السادس منه وصلوا إلى (قلعة شاهين) وهذا المنزل هو الحد الفاصل بين عراق العرب وبين إيران ومن هنا تبدأ حلوان البلدة والمدينة[3]. وهذا المنزل خال من

---

(١) وردت في معجم البلدان بلفظ (مايدشت) وعدها من مضافات خانقين. وعين موطنها في رحلة المنشى البغدادي ص ٤٦.

(٢) في أراضي الهارونية مما يحاذي جبل حمرين بالقرب من المكان المسمى (وادي الحصان) قبر يسمى (مرقد أويس القرني) والحال أن مرقد أويس هذا قد جاء ذكره في المحل المذكور أعلاه قبل أن يصل الوارد من إيران إلى ماهي دشت بمرحلة. وهذا محل نظر أيضاً. فلا يصح أن تتعدد المواطن، وتكثر التسميات لمرقد واحد. والهارونية على نهر ديالى من ملحقات شهربان، تأخذ ماءها من نهر ديالى، وكانت البلدة في الصدر، وتمتد أراضيها إلى (بلدروز) أو (براز الروز).

(٣) حلوان ذكرتها في ملحق تاريخ العراق ج ٢ الكلام على (درتنك). وقلعة شاهين قرية من قرى درتنك. ويقال لها (كاوروان). وتعد اليوم من أنحاء (زهاو). وسميت كاوروان باسم جبل هناك. وأما حلوان فيسمى محلها اليوم باسم (سربل) ويقع بين قلعة شاهين ونفس زهاب ويشيوه وتقع على ضفة نهر ألوند. وهناك كانت مدينة حلوان ولم يبق منها إلا أطلال وقنطرة صخرية لا تزال قائمة. (سياحتنامهٔ حدود) وجاء ذكر (درتنك) في مسالك الأبصار ج ٣ المخطوط في أياصوفيا وفي أوليا جلبي ج٤ ص ٣٨٨ وج ١ ص ١٨٦.

القرى وكان ذلك يوم الخميس وبقوا الجمعة في مكانهم. وهناك دفن نشانجي سيدي بك[1]. وكانت أصابت الجيش في هذا المحل أمطار غزيرة ورعد وبرق بما لا يوصف.. ويوم السبت ٨ منه وصلوا إلى يكي إمام (يني إمام) أي الإمام الجديد وكانت قلعة خربة آنئذ. حدث هنا من الأضرار ما لا يوصف. وفي التاسع منه جاؤوا إلى قصر شيرين[2] وعاد هذا يباباً. وجدت فيه قلعة خالية...

ومن قصر شيرين مضوا إلى (نهر شمران)[3] كما في نصوح المطراقي وهو (طقوز أولوم) وجاء في غيره أنهم يوم الاثنين في العاشر

---

(١) هذا كان الموقع الديواني فقام مقامه جلال زادة نشانجي مصطفى. وهذا فاق في الخط الديواني ودام ٢٤ سنة في هذا المنصب وله معرفة تامة بالقوانين الديوانية. ثم صار طغراكش (طغرائيا) في سنة ٩٧٤ هـ وتوفي سنة ٩٧٥ هـ. وهو مؤرخ، له طبقات الممالك. وتاريخ عثماني. ومنصب طغرائي كان معروفاً عند العثمانيين وكان آخرهم الحاج أحمد كامل أكدك ويعرف بـ (طغراكش) أي طغرائي، وبين هذين حاز هذا المنصب كثيرون في الدولة. والتفصيل في (تاريخ الخط العربي في العراق).

(٢) كان في العهد العثماني إمارة مستقلة. وأحياناً تابعاً لزهاو. ومن سنة ١٢٢٦ هـ دخل في حوز إيران أيام إمارة (محمد علي ميرزا) كان الإيرانيون بمقتضى المعاهدة المعقودة سنة ١٢٣٨ هـ التزموا أن يعيدوا زهاو وقصر شيرين. وقبلوا الحدود السابقة إلا أنهم لم يبالوا بذلك واستمرت تلك الأصقاع بتصرفهم.

(٣) وجاء (شميلان) بتفخيم اللام على لهجة الكرد ويراد بها حشائش خاصة تسمى بهذا الاسم وأطلقت على جبل شمران، وسمي نهر ديالى باسم الجبل المار منه تسمية غريبة أو مغلوطة عن (نهر سيروان) فحرف اللفظ. وهو اسم نهر ديالى حتى يصل إلى محل يقال له (دربند خان) فليست اسم (ديالى). ويقال له (سيروان) عند الكرد إلى المحل المذكور ثم يطلق عليه ديالى. والتسمية تتعاقب فالكرد يعرفون (نهر سيروان) ويسمى (نهر شروان). وبعد ذلك يمضي في سيره فيقال له (نهر ديالى). وفي معجم ياقوت يسمى (تامرا)، ونهر بعقوبا الأعظم، الجانب الأيمن منه وما تفرع منه من أنهار يقال له (الخالص)، وما كان في الجانب الأيسر ومشتقاته يقال له (نهر طريق خراسان) ثم خفف فصار ينطق به (خريسان).

وصلوا إلى خانقين وفي هذا المنزل[1] ورد القاضي ومعه جماعة أرسلوا من محمد خان حاكم بغداد يبدون أنه طائع منقاد لأوامر السلطان، فأنعم السلطان على هؤلاء بالخلع وانتظروا يوماً واحداً لورود الأثقال والمهمات وفي يوم الأربعاء ١٢ منه وصلوا إلى (طقوز أولوم) وحطوا أثقالهم وجاء أنه (أولوصو) ومعناه النهر الكبير ويقصد به (ديالى)[2]. رأوا المياه في فيضان زائد فاضطروا على البقاء. وفي هذا اليوم أصاب الجيش من الغرق ما لا يوصف ومن نجا لحقه السيل لحد أن فريدون قال: إن هذه المصيبة لم ينلها جيش في التاريخ ولا رأى مثل هذا الهول. وفي ١٤ منه كان الفيضان مستمراً فلم يستطيعوا العبور واستراحوا يوم الأحد ١٦ منه وأنعم السلطان في هذا المنزل على من رآه بخلعة، ثم جاؤوا إلى كوشك سيلان[3] ومنها إلى صحراء بردان فوصلوها في ١٩ منه ثم عبروا (نهر نارين). هول المؤرخون بالخسائر والأضرار وأنها لا يمكن تقديرها وكان فيضان ديالى مرعباً جداً. ومنها اجتازوا جبل حمرين فجاؤوا إلى قرية شروين المسماة (طاش كوپرى) وتعرف بـ (دللي عباس) والآن سميت بناحية (المنصورية). وفي ٢٠ منه عبروا نهراً هناك (الخالص)، وفي ٢٢ منه وصلوا إلى قرب قرية (الوندية) فلم يقفوا وساروا في طريقهم وفي يوم الأحد ٢٣ منه وصلوا مرقد (الشيخ سكران). و (مرقد لقمان الحكيم) بالقرب منه، ورأوا في طريقهم مرقد (الشيخ مكارم) وفي ٢٤ منه وصلوا (الإمام الأعظم) وإن السلطان حينئذ نزل عن فرسه وزار مرقده ثم ركب ومضى بجيوشه إلى (بغداد)...

---

(١) ومنهم من قال إنه في قلعة شاهين ورد إليه كتاب محمد خان يقدم له فيه الطاعة.

(٢) عبروا من بتكدره (بين كدره). وجاء في رحلة المنشي البغدادي أن المعبر كان من قرية رزه من بنكدره. والظاهر أنه لم يختلف. ص ٤٢.

(٣) لعله (كوشك زنكي) كما في رحلة المنشي البغدادي.

وكانت المدينة قبل هذا سلمت مفاتيحها إلى (جعفر بك). وجاء في جامع الدول: «ولما قرب الموكب من بغداد هرب حاكمها محمد خان تكلو. تركها خالية فبلغ الخبر إلى الركاب السلطاني فأرسل أولاً الوزير فدخلها في ٢٢ جمادى الأولى بلا نزاع ولا قتال، ثم دخلها السلطان بعد يومين في ٢٤ من الشهر المذكور...» اهـ[١].

وفي گلشن خلفا أن الشاه لم يستطع مقاومة السلطان حينما توجه إلى بلاده وتوغل في إيران فاستولى على آذربيجان، ولم يقدر على صده، فصار يهرب من وجهه إلى هنا وهناك خائفاً، متخفياً، وغرضه تعجيز السلطان. ولذا عزم السلطان أن يمضي إلى بغداد، فوصل الخبر إلى والي بغداد محمد خان تكلو، فأصابه الهلع، واستولى عليه الرعب.

وفي هذه الأثناء اكتسح إبراهيم پاشا مع أولامه بك تكلو مدينة الموصل، وأن أولامه بك هذا كتب إلى رجال قبيلته (تكلو) في بغداد رسائل ينصحهم ويحثهم على تسليم بغداد إلى السلطان، فيها من الترغيب تارة والترهيب أخرى ما يقتضيه المقام ويحذرهم عاقبة العناد، فكان جواب محمد خان تكلو الرد. وأبدى عدم الإذعان وبين أنه مستعد للكفاح إلا أن الشاه بعث إلى والي بغداد بابن الغزالي من تكلو أيضاً يوصيه بالعودة إلى إيران وأن ينجو بمن معه. ومن ثم دعا الوالي قبيلة تكلو، واستطلع رأي رجالها، فعارضوا في الذهاب إلى إيران، وأصر الكثيرون إلا أن نحو ألف رجل منهم وافق محمد خان تكلو. وفي هذا الحين ورد (رجب دده) نديم الشاه يوصيه بالإسراع في العودة. فاضطرب الوالي، ولم يقر له قرار لا سيما وقد سمع أن السلطان وصل إلى خانقين وقله (قولاي) بجنوده، فاضطر أن يدعو قبيلة تكلو مرة أخرى

---

(١) جامع الدول. ومنشآت فريدون. ومنازل العراقين. وتاريخ العراق ج ٣ ص ٣٦٧. وفي الأخير إيضاح.

وينصحها فلم يجد ذلك نفعاً. وفي الأثناء سمع أن أهل بغداد لا يستطيعون الحصار، ونادوا بالميل إلى السلطان وأبدوا حبهم له، وأن نحو ثلاثة آلاف من قبيلة تكلو أوقدوا نيران الفتنة، وجاهروا بالمخالفة وتطاولوا، بل إن هؤلاء اتخذوا المستنصرية حصناً لهم. وكان أمل الخان أن يوقع بهؤلاء، وأن يصطدم بهم، فلم يوافقه السيد محمد كمونة بل مانعه أن يقوم بالفتنة ومن ثم علم أن قبيلة تكلو أبدت المعارضة وتحصنت في المدرسة المذكورة، وأنها ليست مع الشاه، فتظاهر بأنه مع السلطان فوجد موافقة، ومن ثم وبناء على موافقة الخان أرسلوا مفاتيح بغداد مع رؤساء قبيلة تكلو، وقدموها للسلطان وأبقوا الخان رئيساً ولكن الخان علم يقيناً أن إظهارهم المتابعة ليست إلا أمراً وقتياً وأنهم يضمرون له الكيد، وأنه سوف يرى ما لا يرضاه فندم على ما فعل، الأمر الذي دعا أن يعبر الجسر ويذهب من طريق البصرة إلى مقر الشاه، فذهب مملوءاً رعباً. وترك بغداد[١].

وإن قائد الجيوش (السر عسكر) لم يفتح الأبواب حذراً من أن ينال الأهلين أذى من الجيش، وأنعم السلطان على هذا القائد إنعاماً عظيماً[٢].

٤ ـ دخول بغداد:

إن الجيش دخل بغداد بلا حرب ولم يقع أي ضرر، كان جاء الوزير الأعظم إبراهيم باشا السردار بأربعين ألفاً. وأما السلطان فإنه وافى بغداد بمائة ألف إلا أن ما أصاب العساكر من طغيان المياه، والأمطار والزعازع أضعاف ما لو كان حرب. وكادت تحبط مساعي القوم.

---

(١) كلشن خلفا ص ٦١ ـ ٢.

(٢) نصوح المطراقي، وعزيز جلبي في سليماننامه، وأوليا جلبي، وجامع الدول.

إن أبناء الترك ومن معهم صبروا للمصاب ومضوا حتى ربحوا بغداد. فكان لدخولهم رنة فرح زاد في سرور الأهلين وأنعشهم فلم يروا ضرراً من الجيش خلاف ما كان عليه الفاتحون الآخرون في غالب أحوالهم. وأما حاكم بغداد محمد خان فإنه حينما علم بقربهم من بغداد ركب بأهله وعياله السفن وذهب إلى البصرة. وإن الجيش الإيراني عبر ديالى وسار من جهة درنه ودرتنك قاصداً ديار العجم. مضوا إلى أنحاء قم وقاشان.

وعند دخول السلطان المدينة زينت له تزييناً بديعاً وملئت جميع الأبراج بالعساكر فأخذوا مواقعهم ونشرت في تلك المواقع الطوغات والأعلام على اختلاف أنواعها... وأطلقوا له حين دخوله ثلاث طلقات نارية من مدافعهم وبنادقهم إظهاراً للسرور، وصارت الطلقات تترى. فكان لها وقعها في النفوس واحتفل به الأهلون احتفالاً لا مزيد عليه. كذا في أوليا چلبي نقلاً عن والده درويش محمد أغا أحد الصاغة في البلاط كان حضر الفتح[1].

وجاء في گلشن خلفا أن الأهلين استقبلوا السلطان بمهرجان عظيم فنالوا كل التفات ولطف منه. وكان حينما ورد الموكب قصبة الأعظمية وأقام بها منع منعاً باتاً أن يدخل أفراد الجيش المدينة، أو يلحقوا ضرراً ما بأحد، وحظر أن يتطاول شخص أو يمد يده إلى مال آخر. ذلك ما أدى إلى توليد الأمن وراحة الرعايا. وتقدم الشاعر المشهور فضولي البغدادي يمدح السلطان بنادرة مطلعها:

أيد اللهم في الآفاق أمن المسلمين

با دوام دولت پا ينده ء سلطان دين

---

(١) أوليا جلبي ج ٤ ص ٣٩٩.

نـور الـلـهـم فـي الإسـلام مـصـبـاح الـبـقـا

بـا ثـبـات حـشـمـت شـاهـنـشـه روى زمـيـن

خـلـد الـلـهـم سـلـطـانـاً بـه بـاهـى الـزمـان

شـدز فـيـض أو فـضـاى مـلـك فـردوس بـريـن

وأورد صولاق زاده للشاعر فضولي البغدادي أيضاً في تاريخ هذا الفتح:

گـلـدى بـرج أولـيـايـه پـادشـاه نـا مـدار[1]

ومن التواريخ قولهم (فتحنا العراق). وعلى كل حال اتخذ السلطان بغداد عاصمة له مدة بقائه.

السلطان سليمان في بغداد

كان دخول السلطان بغداد يوم الاثنين ٢٤ جمادى الأولى سنة ٩٤١ هـ ـ ١٥٣٤ م. رافقه أمراء وولاة كثيرون بينهم أمير أمراء مصر سليمان باشا، ونصوح المطراقي الذي حكى هذا الفتح[٢]. ثم تجول السلطان في ٢٨ جمادى الأولى سنة ٩٤١ هـ في أنحاء عديدة من العراق قضاها في زيارة المراقد المباركة في الكاظمية وكربلا والنجف ومر في طريقه بالكوفة والحلة... ثم عاد إلى استانبول من طريق إيران متوجهاً نحو أذربيجان. والشاه مال إلى طريق التخفي، والعدول من وجه السلطان فوصل إلى تبريز دون أن يقع حرب. وفي خروجه من تبريز جاءه القاصدون من الشاه يتضرعون إليه بإسدال العفو وقبول الصلح فقبل ذلك. ومن ثم عاد إلى استانبول[٣].

---

(١) كلشن خلفا ص ٦١ ـ ٦٢. وتاريخ صولاق زاده ص ٤٨٧.

(٢) أسفار بحرية عثمانية ومرآة الممالك.

(٣) كلشن خلفا ص ٦٢ ـ ٢.

وفي أيام استقراره ببغداد قام بأعمال أهمها:

١ ـ اجتماع الديوان:

كان أثر وصول السلطان اجتمع (الديوان) وأجريت التوجيهات فأكرم الجيش بإنعامات وافرة. ولما كان من أعظم ملوك الأرض فلا يقال في توجيهاته ولا في عطاياه وهباته أكثر من أنها كانت عظيمة[١].

٢ ـ تعميره قصبة الإمام الأعظم ـ الجامع والمرقد:

إن السلطان سليمان في ٥ جمادى الثانية سنة ٩٤١ هـ زار مرقد الإمام الأعظم وأمر بتعمير قبته لما رآها فيه من حالة الخراب والتدمير، وأنه رأى جدرانها متهدمة النواحي والأطراف متداعية فعمر المرقد الشريف، وأسس دار ضيافة للوارد والصادر غداء وعشاء ولم يكتف بهذه، وإنما أمر أن يتخذ سور لحراستها من أيدي المتغلبة والعابثين[٢]. وأوسع من هذا ما جاء في أوليا چلبي قال:

«إن السلطان سليمان خان شرع عام ٩٤١ هـ في بناء قصبة الإمام الأعظم تبركاً. وإن البلدة حينما كانت في يد السلطان حسن الطويل (أوزن حسن) رأى سادن حضرة الإمام الأعظم رؤيا مؤداها أن الإمام الأعظم قال له: ضع الصندوق الذي على قبري على الضريح الذي هو في المحل الفلاني. لأن هناك كافراً مستحقاً للعذاب. وحينئذ استيقظ السادن وفعل طبق ما أمر الإمام. وكان آنئذ وفي ذلك العصر لا توجد على (قبر الإمام) قباب ولا تكلفات[٣]. وذلك أنه كان قد سجن من قبل المنصور وعمره آنئذ ثمانون عاماً فتوفي، ودفن بناء على وصيته في غرفته

(١) منشآت فريدون.

(٢) سليمانتامه ص ١١٩.

(٣) في تحفة النظار ما يخالف ذلك ج ١ ص ١٣٦ كما أن حكاية وضع الصندوق لم يعرف لها أصل.

على السنة. ثم إنه قد وضع بعض السلاطين على ضريحه صندوقاً. وإن ذلك السادن بناء على الرؤيا وأمر الإمام وضع هذا الصندوق على قبر كافر. ولم تمض مدة طويلة حتى استولى الشاه إسماعيل على العراق. وحينئذ كسر الصندوق وفتح عن القبر فوجد جسداً ملوثاً. فألقاه في النار فزعم أنه انتقم من الإمام وكفى شره.

ولما جاء السلطان إلى بغداد وبينما هو في طريقه رأى چاوش رؤيا مؤداها أن الإمام ظهر له وقال له إن (طاشقين[1] خواجة) يعلم ضريحي. وبعد الفتح قد أشار ذلك الرجل إلى أرض الإمام فحفروها فظهر الأساس القديم فأخرجت صخرة كبيرة فرفعوها ومن ثم ظهرت منها رائحة طيبة فانتشرت وعطرت جميع أدمغة الحاضرين. أما السلطان سليمان فإنه وضع ذلك الحجر على حاله وغطاه بتراب وأعاده كما كان. وأخذ في البناء فبنى قبة على قبر الإمام بصورة لا يستطيع اللسان وصفها. وبنى عمارة هناك ومدرسة وعمر في أطرافها قلعة. واتخذ جامعاً ودار ضيافة وحماماً وخاناً ونحو ٤٠ أو ٥٠ دكاناً وعين للقلعة دزدارا (محافظاً) وجنداً لحراستها يبلغون مائة وخمسين ووضع فيها معدات حربية كافية، ومدافع. وشكل القلعة مربع باستطالة قليلة ومحيطها ثمانية آلاف خطوة. وفي أطرافها من الخارج بساتين وحدائق.

وقال: وحينما ذهبت مع ملك أحمد باشا عام ١٠٥٨ هـ عمرها في ذلك التاريخ. وهناك اتخذ لها آباراً ذوات سواقي وصنع لها غرفاً. وقد أرسل إليها من الآستانة من (قيا سلطان) قنديل ذهبي[2].

وإن السلطان مراد خان صنع الباب الأسفل والأعلى وشبكة

---

(١) وفي تاريخ بجوي طاشقون خليفة.

(٢) أصل اسمها قيا اسميخان سلطان. كذا في سجل عثماني وهي بنت السلطان مراد الرابع ج ١ ص ١٠.

الضريح من فضة. وكذا مصراعي الباب فصار الجامع وقبر الإمام كأنه جنة الفردوس.

ومن ذلك العصر نرى جميع الوزراء والوكلاء والأعيان الكبار يزيدون في الآثار الخيرية من بناء وعمارة ويزينون المحل بأنواع الثريات بصورة بديعة» اهـ[١].

ومثله في تاريخ پچوي نقلاً عن المؤرخ عالي أفندي عن جلال زادة مصطفى النشانجي في كتابه (طبقات الممالك)[٢] فلا نرى ضرورة لتكراره. وفي تاريخ رمضان زاده محمد النشانچي ذكر لأعمال السلطان هذه إلا أنه مختصر جداً. وجاء في تاريخ هامر أن السلطان عين مرقد الإمام الأعظم تخليداً لذكراه دون علم منه يقيناً بموضع قبره الذي صيره العجم مزرعة كما أن سلفه السلطان محمد خان الفاتح ابتدع مرقداً في استانبول لأبي أيوب الأنصاري[٣]... ولا نعطف اهتماماً كبيراً لأمثال هذا. وإنما نذكر في معرض المقابلة ما عملته إيران من انتهاك حرمات القبور، وما عمله الترك من تعميرها واحترامها وزيارتها. كما أننا لا نرى مبرراً لاختلاق قبر الإمام الأعظم وذكراه وشهرته تغني عن تعيين قبره فهو محترم من غالب المسلمين مقلديه وغير مقلديه. ولا يزال مذهبه

---

(١) أوليا جلبي ج ٤ ص ٤٢٦.

(٢) تاريخ بجوي ج ١ ص ١٨٥.

(٣) قال الخطيب في تاريخ بغداد: «حضر أبو أيوب العقبة ونزل عليه رسول الله ﷺ حين قدم المدينة في الهجرة. وشهد بدراً والمشاهد كلها. وكان سكنه بالمدينة وحضر مع علي بن أبي طالب حرب الخوارج بالنهروان وورد المدائن في صحبته وعاش بعد ذلك زماناً طويلاً حتى مات ببلد الروم غازياً في خلافة معاوية بن أبي سفيان وقبره في أصل سور القسطنطينية... توفي سنة ٥٥ هـ...» اهـ. وقد مر ذكر جلال زاده مصطفى النشانجي في ص ٢٤ الهامش. وعالي أفندي مؤرخ معروف. له كنه الأخبار وكتاب هنر وهنروران.

مرعياً في أكثر الممالك الإسلامية. وشيوع فقهه كاف ومغن عن إحياء ذكرى أخرى. وغالب الصحابة الكرام لا تعرف قبورهم[1].

وقد ذكر أوليا چلبي أن السلطان خصص مبلغ مائة ألف دينار لهذه التعميرات ولقبة الشيخ عبد القادر الجيلي (الگيلاني).

وهنا قصرنا البحث على الحادث وإلا ففي كتاب (المعاهد الخيرية) مباحث مسهبة عن (جامع الإمام أبي حنيفة) ومدرسته وما لحقها من تعميرات.

٣ ـ حضرة الشيخ عبد القادر وجامعه:

جاء في سليماننامه: «رأى السلطان أن قد وهى مزار الشيخ عبد القادر، وعاد أنقاضاً بالية، فأمر أن ترفع له قبة عالية، وأن تتخذ دار ضيافة للفقراء والأرامل، وأهل البلد ومن حولهم فقاموا بالأمر..» اهـ[2].

ولا شك أن الجامع موجود من أيام السلطان سليمان القانوني، تشهد بذلك منارته القديمة البيضاء. وكذا خيراته. إلا أن التعمير العظيم ورفع سمك القبة للمصلى كان أيام سنان باشا المعروف بچغاله زاده.

وجاء في أوليا چلبي أن السلطان سليمان حينما فتح بغداد بنى قلعة لمرقد الإمام الأعظم وجامعاً ودار ضيافة كما أنه عمر قبة عالية للشيخ عبد القادر الجيلي وجامعاً وتكية وعمارة وجدد خيرات أخرى،

---

(١) تاريخ البجوي ج ١ ص ١٨٤ و ١٨٥ وما بعدهما وهناك تفصيل ما جرى من التحري على قبر الإمام الأعظم وتعميره. والكتاب في مجلدين يتضمن حوادث الدولة العثمانية من سنة ٩٢٧ هـ إلى سنة ١٠٤٩ هـ. من تأليف إبراهيم البجوي المتوفى سنة ١٠٦١ هـ وذيل عليه مصطفى بن أحمد البلغرادي من سنة ١٠٤٥ هـ إلى سنة ١٠٦١ هـ.

(٢) سليماننامه ص ١١٩.



دخول السلطان سليمان بغداد ـ قصة الأمم

عين لها أوقافاً...»[1].

وجاء في تاريخ الغرابي: «في سنة ٥٦١ هـ توفي الشيخ الجيلي قدس سره في بغداد وهو من أولاد الحسن بن علي بن أبي طالب (رض). وأمه أم الخيرات أمة الجبار فاطمة بنت أبي عبد اللّه الصومعي... (إلى أن قال) ولما مات دفن بمدرسته في بلدة بغداد، وبني على قبره ميل. ولما جاء السلطان سليمان إلى بغداد هدم الميل وبنى عليه قبة شاهقة. وبعد أسس سنان باشا بجوار القبة جامعاً ولم يتفق له إكماله وإنما بنى منه مقدار ثلثه وبعد مضي سنوات كمله والي بغداد علي باشا ابن الوند في العقد التاسع من المائة العاشرة، ثم ألحق رواقان أحدهما من جانب الغرب بحذاء الجامع والآخر من جانب الشرق محاذ لقبة ضريحه قدس سره، وبعد في سنة ١٠٨٤ هـ ألحقت ظلة قدام الجامع والقبة والرواقين. وفي مقابلة هؤلاء حجر متعددة يسكنها الفقراء من أهل التقوى والصلاح وحضرته معمورة بتلاوة القرآن، والأذكار، ومذاكرة العلم بحيث لا تخلو من ذلك ليلاً ونهاراً. والحمد لله الذي جعلنا وآباءنا وأجدادنا من خدام حضرته الشريفة...» اهـ[2].

وهذه القبة غير قبة الجامع، لا تزال قائمة بديعة البناء والصنع شاهدة بمعرفة بانيها، مشيرة إلى قدرته الصناعية. ولعل هذا العمل كان تجاه أعمال الصفوي وصرفه المبالغ في سبيل مراقد الأئمة. وكان الأولى بالاثنين أن يرفهوا على الأهلين وينقذوهم مما هم فيه من بلاء الحروب وانتهاك الحرمات ولكن المظاهر آنئذ هي المطلوبة المرغوب فيها لجذب العوام واستهوائهم لجانبهم. ولا تزال قبة الضريح رفيعة

---

(١) ج ١ مخطوط عندي.

(٢) تاريخ الغرابي ورقة ١٢٩.

البنيان، عظيمة الأثر ولعلها نفس القبة التي هي من آثار السلطان المشهودة لكنها دخلها الإصلاح بتغطيتها بالكاشي... والغرض من هذه العمارة بيان احترام السلطان لصاحب المرقد وإجلاله. وأكثر جهود السلاطين مبذولة لهذه الناحية...

والتفصيل في كتاب (المعاهد الخيرية). وجاء في تاريخ رمضان زاده محمد النشانجي أن من حسنات السلطان سليمان أنه عمر مشهد الشيخ عبد القادر الگيلاني وجامعه. ولم يتوسع وإنما راعى الإيجاز في كل مباحثه.

٤ ـ تعمير الجامع والحضرة الكاظمية:

ثم إن السلطان زار مرقدي الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد ورتب لخدام الحضرات وظائف من خزانة بغداد. وكان الشاه إسماعيل بدأ بعمارة الحضرة والجامع فلم يتمهما فأصدر السلطان فرمانه بتكميلهما.

قال ذلك صاحب كلشن خلفا[١]. وجاء في مساجد بغداد للأستاذ محمود شكري الآلوسي أن الشاه إسماعيل كتب على جدران المسجد:

«بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإنشاء هذه العمارة الشريفة سلطان سلاطين العالم ظل الله على جميع بني آدم، ناصر دين جده الأحمدي، رافع أعلام الطريق المحمدي، أبو المظفر الشاه إسماعيل ابن الشاه حيدر ابن جنيد الصفوي الموسوي. خلد الله تعالى ألوية الدين المبين بملكه وسلطانه، وأيده لهدم قواعد أهل الضلالة بحجته وبرهانه. وحرر ذلك في سادس شهر ربيع الثاني سنة ٩٢٦ الهلالية»[٢].

---

(١) كلشن خلفا ص ٦٢ ـ ١.

(٢) تاريخ مساجد بغداد ص ١١٧.

وفي هذا وفي كلشن خلفا، ما يؤيد أن الجامع والحضرة قد بنيا ولم تتم عمارتهما، فأتم السلطان سليمان ذلك بل لم يتم كل ما هنالك فإن المنارة لم تكمل إلا في سنة ٩٧٨ هـ أيام السلطان سليم الثاني. أوضحت ما جرى على هذه الحضرة والجامع من التعميرات لمختلف الأزمان في كتاب (المعاهد الخيرية) وكان ناظم تاريخ بناء المنارة الشاعر فضلي بن فضولي البغدادي.

وجاء في كتاب (تاريخ كاظمين) الفارسي ذكر ما جرى من تعميرات تالية منها أن الشاه عباس الكبير أمر سنة ١٠٣٣ هـ بعمل ضريح من فولاذ لحفظ الصناديق من الخاتم كما أنه حدث غرق ببغداد والكاظمية سنة ١٠٤٢ هـ فتضعضعت جدران الحضرة الكاظمية فأمر الشاه صفي بترميم ما اختل تعميره، وأودع القيام بذلك إلى قزاق خان أمير الأمراء السابق في شيروان. وفي سنة ١٠٤٥ هـ أجريت بأمره أيضاً بعض الإصلاحات والترميمات في سلم المنارة وبعض التعميرات في المواطن الأخرى المختلة.

وجاء فيه أيضاً أن الجيش العثماني عندما اكتسح بغداد نهب ما في الحضرة من قناديل فضية ومرصعة وبعض المزينات. ولم يعين مصدراً[١].

٥ ـ تسجيل المملكة العراقية:

وهذه كانت من أكبر أعمال السلطان. سجل الأملاك والمقاطعات. وهذه السجلات نالت اعتماداً ووثوقاً بحيث صار يعمل بمضمونها بلا بينة. وكانت مرجعاً دائماً.

---

(١) تاريخ كاظمين ص ١٢٤.

فقد جاء في المادة ١٧٣٧ من مجلة الأحكام العدلية أن قيود الدفاتر الخاقانية معمول بها لكونها أمينة من التزوير. ويقصد منها الدفاتر المدونة والمسجلة أيام هذا السلطان، وجاء عنها في شرح المجلة للأستاذ علي حيدر أنها ما كان خاصاً بأيام السلطان سليمان القانوني من تحرير للأراضي والأملاك وأيام السلطان مراد الثالث. والمقصود منها في العراق ما كان أيام السلطان سليمان. ألف لجنة من أهل الفضل والاستقامة فحرروا القرى والمزارع والمراعي والأراضي الأخرى بعناية تامة وتحقيق زائد خالية من شائبة التزوير ومجموع هذه القيود تبلغ ٩٧٠ دفتراً أو سجلاً مخزونة في مكان مقفل بأربعة أبواب الواحد تلو الآخر معمولات من حديد، محكمة الصنع لا يتطرق إليها الخطر. وإذا أريد تبديل حكم أرض أو ملك من هذه الأملاك وجب استحصال إرادة سنية وصدور فرمان فتفتح من أمين الدفتر الخاقاني بواسطة الموظف الموكل بالأمر فيدون خلاصة الفرمان ويوقع في أعلى القيد للأراضي المطلوب تجديد قيدها، ثم يعاد الدفتر إلى محله بعد الإشارة إلى ما حدث، ويحافظ هذا المخزن الموكل بأمر محافظته. ولا يزال أمر العناية بهذه السجلات مرعياً. فلم يطرأ عليها الخلل، ولا دعا أن تداخلها شائبة التزوير والتصنيع. يعمل بها بلا بينة. بين ذلك الشيخ علاء الدين شيخ الإسلام، وهكذا كان إفتاء شيوخ الإسلام على هذا الوجه وجاءت فتوى ابن عابدين في التنقيح وفي رد المحتار، فعملت بذلك المجلة وهذه القيود سجلت فيها الأراضي الأميرية والمؤسسات الخيرية، ولا تشمل ملك الأفراد من المزارع ولا الأملاك الخاصة، أو ما هو مقيد بالإجارتين.

والقيود الخاقانية يراد بها هذه القيود دون معاملات الطابو الأخرى وسنداتها. فهذه لم تكتسب تلك القوة بوجه.

أقر السلطان أمر السجلات في بغداد وساقها نحو وجهة سالمة.

رأى لزوم إدارتها بمنهاج موحد. وطراز إدارة ثابتة. والتشكيلات الإدارية القديمة للمملكة العثمانية ترتكز على النحو الذي اختطه ببعض التعديل. ودوائر الطابو تبعت هذه الطريقة في التسجيل لسائر الأملاك والعقارات.

٦ ـ نهر الحسينية في كربلاء:

هذا النهر من أعظم أعمال السلطان. كان يسمى باسمه (النهر السليماني) والآن يسمى (بالحسينية). أجراه إلى كربلا فأحياها. ولم يوفق السلاطين السابقون أيام غازان وغيره ومنهم الشاه إسماعيل، والشاه طهماسب. واعتقد أن السلطان كان يملك أكابر المهندسين، فتمكن من العمل. وتم المشروع على يده. ويقال إن هندسته كانت فائقة تدل على خبرة ومقدرة من أحضرهم من المهندسين ولا شك أنه كان أقرب لاستخدام أعاظم المهندسين وهو من أعظم الملوك وليس لدينا ما يوضح الأعمال الهندسية ووصف خطورة المشروع والخطط التي قام بها رجاله ولا علمنا عن هؤلاء المهندسين. والأعمال تنسب إلى السلطان وحده والنهر بوضعه شاهد العظمة. والآن كربلاء قائمة بدوامه والعمارة المشهودة في كربلاء والحياة الزراعية، والبساتين فيها قامت بسبب من هذا الأثر، فتجددت حياة اللواء، وصار يعد من أعظم المشاريع الإصلاحية بل كان حقيقة مشروعاً جليلاً في حياة البلد وما جاوره من بقاع تصل مياهه إليها. ثم بعد مشروعه هذا بمدة طويلة قامت (سدة الهندية) واكتسبت شكلاً أعظم ونتائج مهمة خصوصاً بعد اتخاذ الأبواب واستخدام لوازم العمارة والإرواء الحديثة. فعليه الآن عمارة اللواء وقوام حياته. وعلى ما حققه بعض المؤرخين أن المهندسين كانوا يرون أن كربلاء في محل عال ونهر الفرات منخفض عنها فيستحيل إيصال الماء إليها فكان إيصال الماء إليها يحتاج إلى خبرة هندسية كاملة فتمت في عهد هذا السلطان. وعد صاحب گلشن خلفا ذلك كرامة من كراماته وبركة من بركات توفيقه وإقباله. وأظن أنه يقصد بذلك التفاته لهذا

المشروع واهتمامه في إنجازه. . .[1].

٧ ـ إيالات العراق وألويته:

ومن الإصلاح الذي أجراه السلطان تقسيم العراق إلى إيالات وألوية متعددة. وبهذا قضى على الإدارات القديمة، فاعتبر العراق خمس إيالات:

١ ـ إيالة بغداد.

٢ ـ إيالة البصرة.

٣ ـ إيالة الموصل.

٤ ـ إيالة شهرزور.

٥ ـ إيالة الأحساء.

ومنهم من لم يعد الأحساء من الايالات لضعف العلاقة. ولكل إيالة ألوية. جعل السلطان الإدارة في هذه الايالات مقتبسة من إدارة العاصمة وتشكيلاتها. ويأتي الكلام في التشكيلات الإدارية في آخر الكتاب.

٨ ـ صلب إسكندر جلبي الدفتري:

في ٨ رمضان ٩٤١ هـ أمر السلطان بصلب إسكندر جلبي فصلب بإيعاز من الوزير الصدر الأعظم إبراهيم باشا[2]. وذلك أن هذا الوزير كان يخشى من هذا الدفتري ويعده رقيباً عليه. صار ينتظر الفرص للوقيعة به. يوغر صدر السلطان عليه. كان الدفتري صاحب مال كثير لا يكاد يوجد عند أحد وله أعوان ومماليك يعدون بالآلاف. وله مقدرة فائقة فلا

---

(١) كلشن خلفا ص ٦٢ ـ ١.

(٢) نخبة التواريخ ص ٦٩.

يحذر الوزير من سواه، فرتب عليه بعض الوسائل للوقيعة به. منها أنه أبدى وجود سراق للخزانة، وتكون شغب كان هيأه ولكن هذا عرف أمره إلا أنه خفي أمره على السلطان.

وكان أيضاً رأي الوزير الأعظم من إسكندر جلبي أنه نهاه أن يلقب نفسه (سردار سلطان) ومعناه قائد السلطان ويقرأ بكسر الراء الثانية على الإضافة الفارسية إلا أنه لو سهل فلم تكسر راؤه لكان معناه السلطان صاحب القيادة العامة... فلم يلتفت لذلك وعده رقابة له.

ومهما كان الأمر أوغر الوزير قلب السلطان على إسكندر چلبي فعزله قرب همذان ثم زاد في تخويفه من بقائه فصلبه في بغداد في (٨ رمضان سنة ٩٤١ هـ) وهذا أوجب استياء عاماً ونفرة من الكل وعرف أن ذلك بتدبير من الوزير الأعظم. وكذا حذر السلطان من صهره حسين چلبي وسول له قتله فضرب عنقه.

وهذا الحادث ـ وإن كان أدى إلى الاستيلاء على ثروة هذا الدفتري وعلى مماليكه الذين يبلغون السبعة آلاف ـ قد أثر في نفس السلطان كثيراً وندم على فعلته بمتابعة هذا الوزير حتى أن المؤرخين يقصون أنه رأى رؤيا مزعجة جداً فيها يلومه المقتول لارتكابه الوقيعة به، بحيث إنه شوهدت صيحات عظمى صدرت منه وهو نائم فانتبه مذعوراً. وهذه تعين درجة ما حصل له وفي الصباح زار مراقد الأئمة ـ ويقال إن هذه الزيارة تسكين لما استولى عليه من الاضطراب فأزعجه[١].

وفي عودته كان يكتم عن الوزير الأعظم إبراهيم باشا الوقيعة به والانتقام منه. وكان إبراهيم باشا استحوذ على السلطان وملك سمعه وبصره ولكنه رأى منه بعض أفعال استاء منها فرآه اكتسب طوراً مهماً.

---

(١) تاريخ صولاق زاده ص ٤٩٠.

استبد بالأمور وأبدى المقدرة الكاملة سواء مع السفراء أو الوفود أو غيرهم. وكذا ارتاب من اللقب الذي لقب نفسه به (سردار سلطان).

ولما كانت السلطنة لا تقبل الشركة في النفوذ والتسلط وجب أن يقف عند حد فلم يحتمل السلطان أوضاعه هذه فقتله في ٢١ رمضان سنة ٩٤٢ هـ أي بعد مضي نحو سنة بسيف الغدر الذي قتل به إسكندر وصهره.

ثم تولى الوزارة سبعة من مماليك إسكندر چلبي، أكبرهم الصوقوللي وكان إبراهيم باشا تقدم عند السلطان بجماله وموسيقاه وبدت حينئذ مواهبه فنال أعز مكانة عرفت في أعز أيام هذه السلطنة وهو رومي ما زال يتقدم ويترقى حتى وصل إلى هذه المنزلة ولكنه استولى عليه الغرور، ولم يفكر في أصل مكانه الأول، وما ناله بعد أن كان من المماليك فوصل إلى هذا الموقع الممتاز.

لذا كان سقوطه هائلاً، كأن لم يغن بالأمس[1]... كذا قالوا. وأشاروا أنه أول من خرقت به عادة نصب الوزراء من غير أهل المكانة من الأعيان والوجوه.

والملحوظ هنا أن أعوان إسكندر چلبي استفادوا من انفصال السلطان عن الوزير فتمكنوا من إغرائه عليه للوقيعة به، نظراً لتكاتفهم وكانوا عصبة حتى نالوا الوزارات بعده. جاؤوا من الطريق التي توصل بها إلى الحكم.

٩ ـ الجامع السليماني ـ جامع السراي:

ويسمى (جامع جديد حسن باشا). وسميت المحلة أخيراً باسم جديد حسن باشا. ولم نقف على اسم الجامع القديم قبل تعمير السلطان

---

(١) كذا. ص ٤٨٩.

له. وجوامع كثيرة طرأ عليها الاندثار ثم جرى تعميرها، فلم تحافظ على اسمها القديم. وهذا الجامع عمره السلطان سليمان القانوني حين ورد بغداد. وإن أوليا چلبي كان جاء إلى بغداد سنة ١٠٦٧ هـ وقد بين جوامع بغداد، وذكر من جملتها (الجامع السليماني). قال: وفيه منارة. ويقع أمام باب السراي (دار الحكومة)[١].

وذكر هذا الجامع (مرتضى آل نظمي) في كتابه (جامع الأنوار) عند كلامه على الإمام الناصر موضحاً أن هذا الإمام تربته متصلة بهذا الجامع وأنه لا يزال يزار[٢]. ولعل الخليفة الناصر اتخذت له تربة هناك ولكننا تعوزنا النصوص في بيان محل دفنه[٣]. فمن الضروري الاتصال بوثائق أخرى لنعلم قيمة ما ذكره أوليا چلبي ومرتضى آل نظمي.

ثم إن هذا الجامع عمره حسن باشا (فاتح همذان)، فعرف باسمه فقيل (جامع جديد حسن باشا) للتفريق بينه وبين حسن باشا الوالي الذي هو أقدم منه والمسمى بجامع الوزير وفي (تاريخ المعاهد الخيرية تفصيل ما جرى عليه من تعميرات.

١٠ ـ السلطان في طريق عودته ـ قتله أمير صوران:

كان السلطان سليمان نظم إدارة بغداد ثم غادرها في ٢٨ من شهر رمضان سنة ٩٤١ هـ. سار في طريقه نحو إربل فوصل إلى محل يدعى (كوك تپه). وهناك سمع بأن أمير صوران (سوران) عز الدين شير وردت

---

(١) رحلة أوليا جلبي ج ٤ ص ٤١٩.

(٢) جامع الأنوار. نقله السيد عيسى صفاء الدين البندنيجي إلى العربية، وصدر عن الدار العربية للموسوعات ـ بيروت ـ سنة ٢٠٠٢م تحقيق: أسامة النقشبندي ومهدي عبد الحسين النجم.

(٣) اعترض الدكتور مصطفى جواد على نص دفن الخليفة الناصر في جامع السراي فبين أنه دفن في مقبرة الخلفاء العباسيين.

إليه رسالة من الشاه. ذلك ما دعا أن يشتبه السلطان منه فأمر بضرب عنقه في الديوان العالي[١].

إمارة صوران

من آخر إمارات صوران لما بعد المغول. وهذه الإمارة تكلمت عليها في (عشائر العراق الكردية)[٢]. وأفردت لواء إربل بكتاب خاص توسعت في إماراتها، وذكرت ما جاء في مسالك الأبصار من أنهم من بلاد السهرية. أهلها مشهورون باللصوصية من بلاد شقلاباد (شقلاوة) والدربند الكبير، لا يبلغ عددهم ألفاً وجبالهم عاصية ودربندهم بين جبلين شاهقين يشقهما الزاب الكبير. أميرهم حسام الدين. وجل ما يقال هنا أن عز الدين شير من أسرة الصهرانيين (السورانيين) ولا تعرف علاقته بحسام الدين وأول من علمنا منهم (كلوس) كما لقبه أهل تلك الأنحاء. ويراد به (الأثرم) ساقط الأسنان الأمامية من فمه. وكان في الأصل من قرية هوديان. ويقال لها (يهوديان) أيضاً. كان راعياً في تلك القرية. ولما توفي أعقب من الأولاد عيسى وإبراهيم وشيخ أويس. وكان عيسى منهم شجاعاً. جمع إليه بعض الأشخاص، فتمكن أن يجذب إليه الجماهير بالإحسان إليهم، فدخلوا في طاعته. ومن ثم عادى حاكم البلد آنئذ، وعزم على مقاومته. وكان يطلق عليه وعلى جماعته بطريق الهزء والسخرية (الإمارة)، فتوجه إلى (بالكان). وإن أهل تلك الناحية أحبوه، وقبلوا إمارته.

ولم تمض مدة حتى تبعه خلق كثير، فعزم على فتح قلعة (أوان). قال في الشرفنامة كان في أطراف تلك القلعة صخور حمراء. يقال لها (سنك سرخ) بالفارسية، فكان عيسى وأصحابه يجلسون على تلك

---

(١) مرآة الكائنات ص ١٢٥. القسم السادس منه.

(٢) عشائر العراق الكردية ج ٢ ص ١٥٥.

الصخور، وشرعوا يشنون الغارات، ويقومون بالحروب، فلقبوا بـ (سنك سرخى) أي أصحاب الصخور الحمراء. ومن جراء كثرة الاستعمال نحت اللفظ فسموا بـ (سهراني). فقالوا للسرخ (سهر) فشاع كذلك، وتساهلوا في التصرف باللفظة.

ذكرت في (عشائر العراق الكردية) أن هذا اللفظ أقدم مما ذكر في الشرفنامة، وأن البلاد معروفة بهذا الاسم من زمن قديم. وتطلق على ما بين الزابين. وشاع (سوران)، و (صوران)، و (سهران)، أو (صهران). وجاء في المسعودي (سحر)، و (القوم السحرة). وكذا في الكتب العربية الأخرى. وفي مسالك الأبصار سمى بلادهم بالبلاد (السهرية).

تمكن الأمير عيسى من الاستيلاء على (ولاية السهران). وبعد وفاته خلفه ابنه (شاه علي بك). وهذا دام حكمه مدة. ثم توفي عن أولاد:

١ ـ عيسى.

٢ ـ مير بوداق.

٣ ـ مير حسين.

٤ ـ مير سيدي.

فقسم والدهم في حياته ملكه بينهم. ومن هؤلاء عيسى بك طال حكمه. وحارب أمير بابان (مير بوداق) فقتله. ثم مات فخلفه ابنه (پير بوداق). وهذا استولى على ناحية (سوماقلق) انتزعها من أيدي القزلباشية. ثم توفي عن أولاد:

١ ـ الأمير سيف الدين.

٢ ـ الأمير حسين.

فولي بعده (الأمير سيف الدين). ولم يطل أمد حكمه فمات وخلفه

أخوه (الأمير حسين). وهذا توفي. فصار بعده ابنه الأكبر سيف الدين. وبعد وفاته خلفه عمه (مير سيدي بن شاه علي بك).

وهذا توسع حكمه إلى إربل بل زاد نطاق حكمه إلى أنحاء كركوك والموصل. ودامت بلاد سهران مستقلة تحت حكمه. وترك من الأولاد:

١ ـ أمير سيف الدين.

٢ ـ مير عز الدين شير.

٣ ـ سليمان.

ومن هؤلاء مير عز الدين شير ولي الإمارة بعد والده. وفي سنة ٩٤١ هـ أيام ورود السلطان سليمان إلى (گوگ تپه) قرب إربل بدر منه ما أوجب الشبهة والنفرة، اطلع على مراسلة بينه وبين الشاه طهماسب، فأمر بقتله.

ومن ثم أمر السلطان بنصب (حسين بك الداسني) أميراً حاكماً على إربل. وهو من اليزيدية لكن هذا الحادث لم يفل من عزم الصورانيين، وبقوا في نزاع مع الداسنيين وإن كانوا انحسروا إلى الجبال، وتقلص حكمهم، فاعتزوا بالمواقع الجبلية المستعصية. حفظوا إمارتهم. فخلف عز الدين شير أخوه سليمان بك. وهذا كان له من الأولاد:

١ ـ قلي بك.

٢ ـ أمير عيسى.

٣ ـ أمير سيف الدين.

والأخير من هؤلاء اعتز بلواء (سوماقلق). ووقعت حروب دامية بينه وبين حسين بك الداسني، فلم يتمكن من مقاومة الداسنية، فالتجأ إلى أمير أردلان بيكه بك (الظاهر أولاده أو أحدهم) فلم يجد فيهم بغيته، فعاد، فمالت إليه الطوائف الصهرانية فتمكن من اكتساح إربل.

وفي هذه الأثناء جمع حسين بك الداسني اليزيدية، فوقعت حرب عظيمة كان من نتائجها أن دارت الدائرة على اليزيدية، فتغلب عليهم الأمير سيف الدين، وقتل نحو خمسمائة من متميزيهم وأكابر رجالهم. وحصل على غنائم لا تحصى. وعادت الحروب مرات، وفي كلها كان اليزيدية في خذلان مريع.

دعا السلطان إلى استانبول حسين بك الداسني، فأمر بقتله ولعل ذلك مبدأ السخط على اليزيدية، والفتوى من أبي السعود بقتلهم هاج عليهم الكرد وغيرهم من جراء ما قاموا به من حروب مع المجاورين. وكان الأمير سيف الدين بتسويل أو ترغيب من يوسف بك برادوست المشهور بـ (غازي قران) عزم على السفر إلى إستانبول طالباً العفو عما بدر، وأن يوليه السلطان (إمارة سهران) الموروثة له من آبائه وأجداده إلا أن السلطان لم يقبل معاذيره فقتله وعين مكانه السلطان حسين أمير العمادية إلا أن إمارة الصورانيين لم تنقطع وبقيت إلى حين.

نقف بهذه الإمارة الآن عند هذا الحد والملحوظ أن الصهرانيين يضرب المثل (بخناجرهم)، فيقال (خنجر صوراني) لجودته كما يقال عندنا (خنجر صليب) في رداءته.

نظرة وإجمال

في هذا التاريخ دخلت بغداد تحت سيطرة الدولة العثمانية ولم يسبق أن حكمتها وإنما كانت بعيدة عنها كما أذعن بالطاعة سائر الأمراء المجاورين من اللر، وإمارة البصرة، والقطيف والبحرين، وأمير الحويزة مانع المشعشع[1].

---

(١) انفرد بذكر اسمه صاحب كلشن خلفا ص ٦١ ـ ٢ وفي تاريخ العراق ج ٣ لم نجد له أثراً، فلم نتمكن من معرفة صلة له بمن سبقه.

والممالك الشرقية آنئذ كانت منحلة الإدارة. ومن الضروري أن توحد إدارتها وتتبع أعظم قوة وهي القوة التي سحقت إيران وفلت من غربها ولم تكن الإدارة تابعة للسلطة من كل وجه، بل كانت عامة دون تدخل في الشؤون الجزئية، تابعة لمواهب الوالي وقدرته.

وأهم الدواعي الحقيقية لهذا الفتح أنه لم يبق منازع للحكومة التركية بعد خضد شوكة العجم فلا مانع لها من استيلاء على بغداد. والشهرة القديمة من أكبر الدواعي في توليد الآمال. فالنفوس منصرفة إلى حب الاستيلاء على بغداد والأنحاء العراقية...

وأما البواعث الظاهرية فهي ما مرت الإشارة إليه.

كان وطد السلطان الأمن ونظم الإدارة كما أراد ثم غادر بغداد في ٢٨ رمضان سنة ٩٤١ هـ وعسكر في (گوگ تپه) قرب آلتون كوپري وتوجه من هناك نحو إيران لما سمع من ظهور الشاه واستيلائه على تبريز ومحاصرته مدينة وان. جاءته الأخبار بذلك، فوافى متوجهاً نحو تبريز. وحينئذ فر من وجهه الشاه طهماسب، وبهذا تمت حوادث بغداد، فبقيت إدارتها بيد الولاة، ووافق السلطان على طلب الصلح بعد الإلحاح فعاد إلى استانبول فدخلها في ٤ رجب سنة ٩٤٢ هـ[١].

الوالي سليمان باشا

وهذا أول وال على العراق أودعت إليه الدولة العثمانية منصب إيالة بغداد، نقل عن ولاية دياربكر فنصب أمير أمراء[٢]. وفي گلشن خلفا أن السلطان بعد عودته من زيارة المراقد المباركة في النجف وكربلاء نصبه والياً بلقب (بكلربكي). وجاء عنه في قاموس الأعلام أنه

---

(١) تاريخ صولاق زاده ص ٤٩٠ وتاريخ بجوي ج ١ ص ١٨١.

(٢) صولاق زاده ص ٤٩٠.

في الأصل مجري، فأسلم. وفي سفر إيران كان والياً في ديار بكر. جاء مع السلطان إلى بغداد حين الفتح فنقل لولايتها. ولما فتحت أوفن[1] نصب والياً عليها برتبة الوزارة، وفي سنة ٩٥٢ هـ اعتزل المنصب المذكور ولم تمض مدة حتى توفي[2].

وجاء في السجل العثماني أنه نال منصب الشام ثم منصب حلب وغدر به هناك أتباعه توفي إلا أنه جاء في تاريخ رمضان زاده نال الوزارة سنة ٩٤٣ هـ، وجعل (والياً) على (بدون) وفي السجل وليها سنة ٩٤٢ هـ. وزاد في گلشن خلفا أنه كان قادراً على إدارة الملك[3].

ولم نتمكن من العثور على وقائع أخرى غير ما مر سوى أن الشاه كان قد حاصر (وان) فلما علم بمغادرة السلطان بغداد وأنه متوجه نحوه فر منه. وكان خلال سفره هذا توالت رسل الشاه لطلب الصلح. وبعد اللتيا والتي قبل الصلح ومن ثم عاد السلطان إلى عاصمة ملكه كما مر.

حوادث سنة ٩٤٢ هـ ـ ١٥٣٦ م

عزل الوالي:

في هذه السنة أو في التي تليها عزل الوالي ولم يحدث تبدل في الوضع ومن المؤسف أننا لم نتمكن من معرفة الوالي الذي جاء بعده فخلفه في حكومته. وفي تاريخ الدولة العثمانية لم يبقوا على وال مدة طويلة لما كان من تجارب الماضي وعبره، فلا يريدون أن تبقى الولاية

---

(١) أو بودين وبدون كما جاء في التواريخ التركية واللفظ ألماني. وأصلها في المجرية بوده وتطلق على عاصمة المجر على القسم الواقع في غربي الدانوب (طونه) والآخر (بشته) ويقال للاثنين (بودا ـ بشته).

(٢) قاموس الأعلام ج ٤ ص ٢٦٢٠.

(٣) كلشن خلفا ص ٦١.

إقطاعاً له، أو لا يرون أن يتمكن الوالي فيها مدة. ولا يعقل أن تكون بغداد خالية من والٍ للمدة من ٩٤٢ هـ إلى سنة ٩٥١ هـ ولكن أخبار هؤلاء ضاعت عنا، ولم تعد تعرف.

حوادث سنة ٩٤٥ هـ ـ ١٥٣٩ م

لم تدون وقائع مهمة للعراق خلال السنين السابقة أو لم نتمكن من الوقوف عليها فنرى صاحب گلشن خلفا أول ما يبدأ بحوادث العراق أثناء حكم الولاة بالوقعة التالية:

حاكم البصرة ـ تسليمه المفاتيح

جاء في نخبة التواريخ أنه في ١٥ صفر سنة ٩٤٥ هـ كان قد خرج السلطان من استانبول متوجهاً نحو أدرنة فخيم في صحرائها في أواخر هذا الشهر، وغرضه تأديب (ويودة) بغدان أي حاكمها المدعو (پترو)، وكان يبدي للسلطان الطاعة ظاهراً، ويضمر العداء، وفي هذه الأثناء وصل إليه مانع بن راشد (حاكم البصرة) ابن مغامس ومعه وزيره الأمير محمد، كان أرسلهما حاكم البصرة راشد لتقديم واجب الطاعة والخضوع للسلطان. قدما الهدايا ومفاتيح البلاد إليه، وراشد هذا كان أميراً مستقلاً، صاحب خطبة وسكة ونال هؤلاء الوفود التفاتاً زائداً من السلطان وأبدى لهما لطفاً كبيراً...[1].

ولم نقف على أحوال هذه الإمارة ولا على نقودها بالرغم من التحريات في مواطن عديدة. والملحوظ أنها من أمراء المنتفق وأغلب الظن أنهم من الشرفاء. توصلوا إلى الحكم بقوة العشائر وعدم المعارض مما رسخ قدمها وذاقت لذة الحكم. وفي گلشن خلفا ذكر هذه الوقعة

(١) نخبة التواريخ ص ٧١ وتاريخ صولاق زاده ص ٤٩٥ وكلشن خلفا ص ٦١ ـ ٢.

توصلاً لما حدث عام ٩٥٣ هـ. وعلاقة الشرفاء بالعراق معروفة ومر الكلام على الشريف أحمد في تاريخ الجلائرية[1].

وجاء في كتاب الأنساب للسيد ركن الدين الحسني النسابة عن الشريف أحمد. قال إنه قدم إلى البلاد الفراتية من مكة وحكم بالحلة من العراق سبع سنين إلى أن ولي الأمير الشيخ حسن (أبو السلطان أويس) وحاربه وقتله في شهر رمضان سنة ٧٤٢ هـ ودفن بالمشهد الشريف المرتضوي عند عمه الشريف عبد الله في الحضرة الشريفة.

والشريف عبد الله أمه أم ولد نوبية. انتقل من مكة إلى العراق في زمان السلطان خدابنده وأقطعه. وعقبه بالعراق.

ثم إن النسابة المذكور ذكر الشريف أحمد بأنه كان شهماً شجاعاً كريماً فاضلاً وله من الأولاد أحمد وسليمان ومحمود. وأورد أن لمحمود ابناً اسمه محمد...

وفي هذا النص توضيح زائد. وإن ظهور أمراء المنتفق الشبيبيين، وأمراء البصرة مما يجعلنا نرى تلك العلاقة بالشرفاء وأنها لم تنقطع، بل قوي اعتقادنا بما سبق لنا القول فيه. وللكلام على أمراء المنتفق محل آخر.

حوادث سنة ٩٥١ هـ - ١٥٤٥ م وما يليها

الوالي فرهاد باشا الصولاق

(ولايته الأولى)

وجهت إليه إيالة بغداد سنة ٩٥١ هـ وعزل منها في السنة التالية (سنة ٩٥٢ هـ). كان تربى في البلاط الملكي. وفي عهد السلطان سليم

---

(١) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٢.

الأول كان مرافقاً له في الحرب وتقلد مناصب منها (إمارة اليمن)، فحلب، ثم وجهت إليه (إمارة بغداد). وهذا لم يتعرض له صاحب گلشن خلفا لهذه المدة، ثم وجهت إليه مناصب أخرى حتى صارت إليه ولاية بغداد للمرة الثانية كما سيجيء. ولعل السبب في أن صاحب گلشن لم يذكره هذه المرة لأنه لم يجد ما يدونه لأيامه هذه. وبقية أخباره في ولايته الثانية...[1].

والغرض من بيانه هنا مراعاة التسلسل لأمراء بغداد. وقد غاب عنا الكثير منهم. والصولاق يعني الحرس الملكي في البلاط، ثم أطلق على حرس الوالي في مثل بغداد ومصر من الممالك المستقلة، وكان بعض آبائه أو أجداده من هؤلاء فعرف بصولاق زادة أي من آل الصولاق.

هذا. ولم نجد ما يسد الفراغ بين سليمان باشا وفرهاد باشا الصولاق. ولعل خمول ذكرهم، وعدم ظهور وقائع مهمة مما سبب أن يغفل أمرهم. وكأن صاحب گلشن خلفا، يتطلع إلى قائمة الولاة أمام عينيه فلا يذكر إلا من كانت له مكانة، أو ظهرت في أيامه حوادث تدعو لذكره. أو أنه لم يجد من أسمائهم ما يتمكن من تدوينه.

حوادث سنة ٩٥٢ هـ ـ ١٥٤٦ م

الوالي اياس باشا

ضبطه صاحب قاموس الأعلام بمد أوله (آياس) والعرب ينطقون به بلا مد والنطق به معروف. وأصله ألباني. (أرناود، أو أرنبود)[2] تخرج

---

(١) سجل عثماني ص ١٦ ج ٣.

(٢) أصل اللفظة (آربانيا) أو (آربريا) فالبعض ينطق بالأول وآخرون بالثاني. والأوروبيون يقولون (آلبانيا) وهكذا جاءتنا عن مترجماتهم الجغرافية والسياسية وفي التركية وردت محرفة من طريق الروم الذين يتكلمون بها (آربانيا)، أو =

في البلاط ونال إمارة الأمراء (بكلربكي). وكانت آدابه ومروءاته في الذروة من الكمال. وهو أخو سنان باشا فاتح اليمن، الصدر الأعظم المشهور. ولي بغداد سنة ٩٥٢ هـ بعد أن عزل صولاق فرهاد باشا، ثم نال الوزارة في واقعة البصرة ويأتي ذكرها.

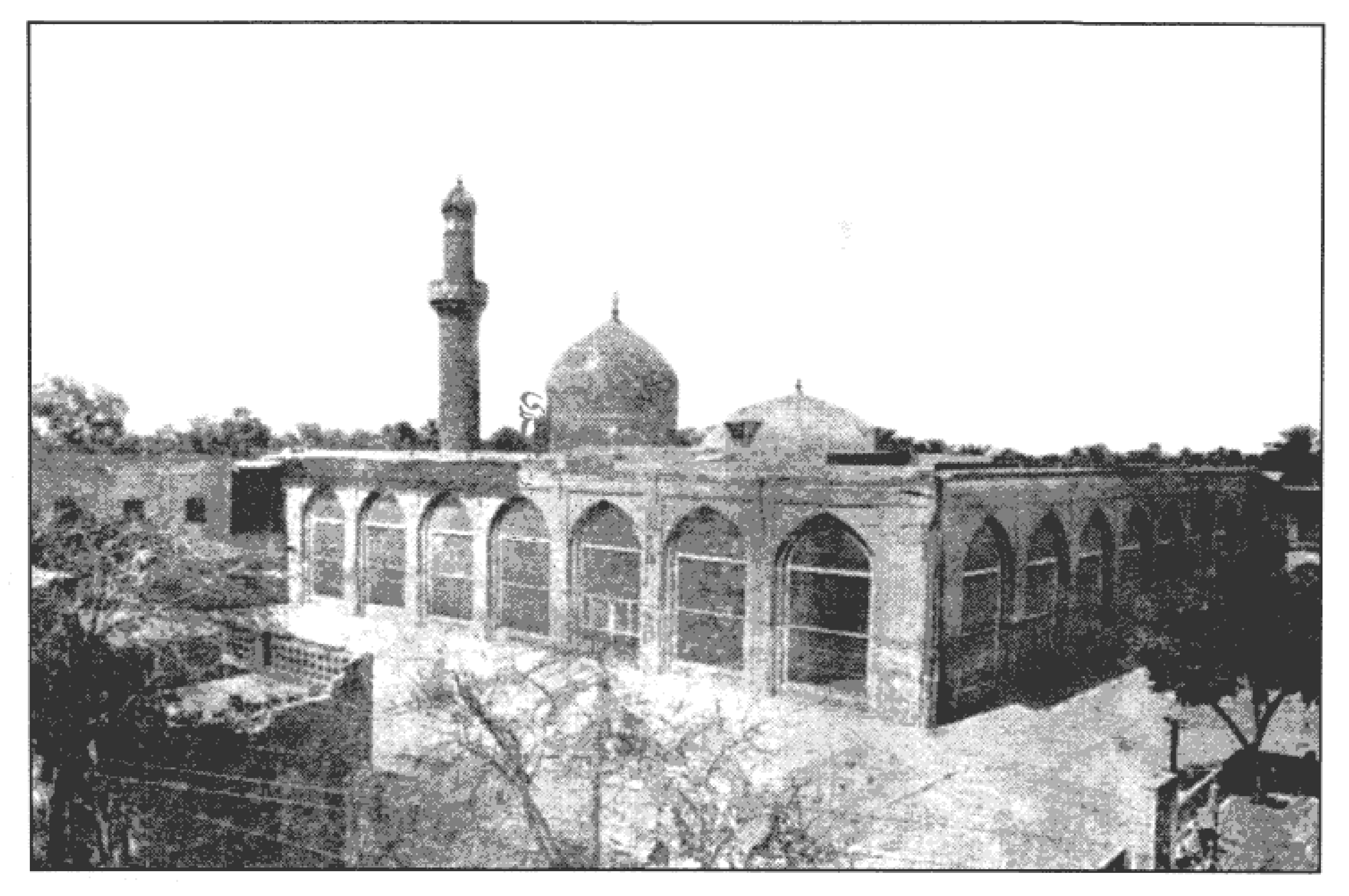
وفي سجل عثماني أنه عهدت إليه بعد ذلك ولاية ديار بكر سنة ٩٥٦ هـ. ثم ولاية أرضروم (أرزن الروم) وتوفي سنة ٩٦٧ هـ. وفي قاموس الأعلام أنه أعدم في أرضروم لتسهيله هرب الشهزادة بايزيد إلى إيران عام ٩٦٦ هـ. وله من الأولاد محمود باشا ومصطفى باشا ومن مماليكه الشاعر (صافي چلبي) المتوفى سنة ٩٩٧ هـ.

حوادث سنة ٩٥٣ هـ ـ ١٥٤٦ م

البصرة تدخل في حوزة العثمانيين

إن حاكم البصرة راشداً كان عام ٩٤٥ هـ أظهر الطاعة وانقاد للأمر. أرسل ابنه إلى السلطان إلا أن مؤرخي الترك يقولون إنه نقض العهد فورد الأمر السلطاني إلى والي بغداد بإعداد المعدات الحربية وما يقتضي من جيوش لحربه فوجه الوالي عزمه نحوه خلال سنة (٩٥٣ هـ). وساق الكتائب عليه بوجه السرعة. فالحكومة لم يرق لها أن تجاورها حكومة أو إمارة تمنع من الوصول إلى خليج البصرة أو تحول بينها وبينه ليتصل بالبحر الأحمر. وكانت داخلتها آمال لتوسيع السلطة وتمكنها في سواحل العرب والهند من طريق البحر فوجدت الضرورة أن تمضي في

= (آروانيا) للمملكة و (أروانت) للأهلين فلفظها الترك (أرناروت) أو (أرناود) وبعضهم أبدى أن أصلها فارسي (عارنبود) أي لم يكن عاراً أو عربي (عار علينا أن نعود)، وذلك من السخافة بمكانة. (قاموس الأعلام) وفي دائرة المعارف الإسلامية بحث مهم في هذه المادة.



جامع الإمام الأعظم ـ دار الآثار العراقية

طريقها وتتخذ الوسائل للسيطرة على السواحل.

وفي سفر الوالي هذا مر بالنجف لزيارة (مشهد الإمام علي) (رض). ولما كان (شيخ قشعم) سلك طريق العصيان قام بتأديبه وكسر طغيانه بل قضى الوزير على حياته وأزال فتنته.

ثم سار إلى البصرة. ولما رأى حاكم البصرة أن لا قدرة له على المقاومة ركن إلى الفرار فدخل الوالي المدينة وقضى على حكومة راشد وسعى في تنظيمها وضبط إدارتها. وبذلك انقادت الأطراف ودخل لواء واسط ونواحي الجزائر في حوزة الدولة وصار العراق بحذافيره للدولة العثمانية، وحينئذ تقلص ظل هذه الإمارة أو انقرضت. وكان حاكمها يتصرف بها على وجه الملكية. إلا أنها عادت بحالة خرجت عن أن تكون بشكل حكومة[1].

جاء في روضة الأبرار في حوادث سنة ٩٥١ هـ أن اياس باشا فتح البصرة في تلك السنة. وهذا غير صحيح لما ورد في النصوص السابقة. فالغلط فيه ظاهر[2].

وجاء في فضولي من قصيدة مدح بها اياس باشا ذكر جهة البصرة والاستيلاء على الجزائر هناك كما في ديوانه التركي. مدح هذا الوالي بقصائد عديدة غير هذه تبلغ سبع قصائد. ولا شك أنها عدد وافر من فضولي الشاعر البغدادي.

---

(١) كلشن خلفا ومرآة كائنات ص ١٢٧ وأوليا جلبي ج ٤ ص ٤١٤.

(٢) روضة الأبرار ص ٥٥٥.

قبيلة قشعم

معروفة في العراق برياستها القبائلية، ولكن الأيام جردتها من قبائلها فصارت مفردة عن غيرها لمحافظتها على بداوتها. وأول ما ورد ذكرها في تاريخ العراق في حوادث سنة ٩٥٣ هـ ـ ١٤٥٦ م. وأول ذكر لها جاء في قصيدة للشاعر فضولي البغدادي مدح بها اياس باشا والي بغداد في انتصاره على هذه القبيلة كما أن صاحب گلشن خلفا بين أن هذا الوالي وجد هذه القبيلة سلكت طريق العصيان فقام بتأديبها. وأعاد القول فيها في حوادث سنة (١٠١٨ هـ ـ ١٠٢٠ هـ).

ثم توالى ذكرها في التاريخ لمجلداته الأخرى، ولا تزال إلى اليوم. والمعروف أن الرياسة القبائلية كانت لابن قشعم إلا أن القبائل التي تحت سلطته قد انعزلت منه واستقلت بتسميتها، وعرفت بأسمائها الحالية وضعفت قدرته فتكونت من بيته قبيلة تفرعت إلى أفخاذ. ولم تعرف قبيلة قديمة باسم (قشعم) قبل هذا.

والظاهر أن هذه القبيلة من الأجود وابن جشعم أحد رجالها تولى رياستها. ولما سارت قبائلها إلى الحالة الريفية انفصلت من الرياسة العشائرية، ولم تبق على البداوة، وسألت الشيخ محمداً فقال لي إننا جشعم. وهي أصل. ولم يزد على ذلك. واختلف في أصلها. فمنهم يقول إن قشعماً هو ربيعة بن نزار من القبائل العدنانية، ومنهم من يقول إنهم من بني (ماء السماء) من القبائل القحطانية. والتدوينات جاءت للجهتين[1]. ذكره في مطالع السعود وفي القاموس المحيط.

وكان الأستاذ يعقوب سركيس قد ذكر رئيسهم المعاصر عقاباً فعدد

---

(١) مطالع السعود والقاموس.

أجداده. ورأيت الشيخ محمداً وهو أخو عقاب فذكر لي الشيخ محمد أن أخاه هو الرئيس وهو (عقاب بن صقر بن ثويني بن عبد العزيز بن حبيب ابن صقر بن حمود بن كنعان بن مهنا بن ناصر بن مهنا بن سعد بن المنذر بن قسام بن ما (من) بن قشعم بن سعد بن غزي) ويدعون أنهم نزحوا من نجد في أيامه[1]. وهذه الأسماء يصعب ضبطها. وبين ما ذكرته وما ذكره الأستاذ يعقوب تفاوت يسير.

وهؤلاء في تسلسلهم ورد ذكر بعضهم عند الكلام على وقائعهم. وتأتي في حينها. وليس هنا محل بيان الوقائع التالية لما بعد هذا الجزء.

والملحوظ أن هذه ليست أكثر من إمارة أو رياسة قبائلية فتعد ناظمة القبائل البدوية، وأن المنتفق وإمارتها استقلت بناحيتها ثم فاقت على الكل، ودخلت هذه وغيرها ضمنها، بل إن الخزاعل صار لهم الذكر بعد ذلك كما كان لقبيلة عبادة قبلاً، ولخفاجة... وإن قبائلهم مالت إلى الأرياف، فانفصمت عرى القوة، وتبعثرت الإمارة. وهكذا شأن القبائل في تحول مستمر وتطور لا حدود له...

وفروع القشعم، أخذتها عن الشيخ محمد (أخي رئيسهم) وهي:

١ ـ الشيوخ. كنعان وأسرته.

٢ ـ الناصر. رئيسهم سلطان بن ناصر.

٣ ـ آل چنعان. (هو كنعان) الوارد في عمود نسبهم. رئيسهم سرحان بن چنعان.

٤ ـ آل بتلو. رئيسهم حسن.

٥ ـ اللهيب. رئيسهم شافي.

---

(١) كتاب (مباحث عراقية) للأستاذ يعقوب سركيس ص ٩١ وما بعدها وص ١٣١ وفيه تفصيل.

٦ ـ آل شليهب. رئيسهم بريچي بن مطلك الرحال. ويلحق بهم:

١ ـ المخالي. رئيسهم شعلان آل صران.

٢ ـ الشهبان.

ويساكنهم الجنابيون، والمهناوية منسوبة لجدهم (مهنا) وفيها المسعود واليسار، والبو براطم. وفي أنحاء الكوفة (گرمة الجشعم) معروفة. ووقائعهم في العراق مدونة. وكانت لهم مكانة أذعنت لهم قبائل كثيرة بالطاعة، وتولوا رياستها العامة. والآن في حالة ضعف، ولكنهم لا يزالون محافظين على عزة نفوسهم، ولا يفترقون عن البدو في اللهجة، وقصيد البدو والحداء وسائر أدب البادية. وهم متصلون بالبدو من جهات عديدة. شاهدت الشيخ محمداً. وكان عارفاً بأحوال البادية. وأكثر ما يحفظ شعر (رميزان)، وشعر (راكان) من شعراء البادية. ويجاورهم بنو مالك في فروع كثيرة منها، وخفاجة، والأجود وقبائل أخرى.

هذا، ولا مجال للتوسع بأكثر من هذا. والتفصيل في (كتاب عشائر العراق).

الوزير فرهاد باشا الصولاق أيضاً

ولي بغداد للمرة الثانية بعد اياس باشا. وهذا معروف بالصلاح والتقوى وليس له آمال طمع. كان كاملاً، عارفاً، مؤرخاً[١] توفي في بغداد ولم نتحقق تاريخ إمارته ولا زمن وفاته. وله ابن هو محمد باشا الوزير[٢].

---

(١) لم يعرف له تاريخ.

(٢) سجل عثماني ج ٣ ص ١٦ و ١٢٤.

الوزير محمد باشا الصولاق

هذا هو ابن الوزير فرهاد باشا الصولاق. قاله في گلشن خلفا. وكان من أمراء الألوية ثم نال الإمارة في ولايات عديدة ولم يبين صاحب السجل العثماني تاريخ ولايته على بغداد.

وقال عنه: استشهد في إيران في شعبان سنة ٩٩٢ هـ ونعته بأنه باسل مقدام، صادق مدبر[١]. ولعل هذا هو الذي مدحه فضولي بقصيدة، ولكن الوصف غير منطبق.

حوادث سنة ٩٥٤ هـ - ١٥٤٧ م

القاص ميرزا

هذا أخو الشاه طهماسب التجأ إلى السلطان سليمان القانوني سنة ٩٥٣ هـ فنال كل احترام وتكريم. ومن ثم وجه السلطان عزمه نحو إيران فعبر إلى جانب اسكدار في ١٨ صفر سنة ٩٥٥ هـ وأرسل القاص ميرزا نحو بلاد الشرق وبعد أيام سار السلطان. سمع الشاه بذلك فتوارى عن الأنظار، وكان استولى العجم على مدينة (وان) باعتبار أنها (مفتاح إيران) فحاصرها السلطان ولما لم تر بداً من التسليم سلمت جيوشها إلى السلطان. وكان أمله أن يضبط تبريز ويجعل القاص ميرزا والياً عليها، ولكنه خاب ظنه فيه لما علم عنه من بعض الأوضاع، وبعد ذلك مال السلطان عن تبريز نحو حلب بأمل أن يقضي الشتاء في أنحاء ديار بكر، وفي هذه الأثناء حدثت بعض الوقائع مع الإيرانيين.

وإن السلطان عند عودته إلى ديار بكر أرسل لمحافظة بغداد الوزير الثاني الحاج محمد باشا وسير معه مقداراً من الجيش. ورجع إلى العاصمة.

---

(١) سجل عثماني ج ٣ ص ١٢٤.

وفي هذه الأيام اغتنم القاص ميرزا الفرصة فهاجم أثقال الشاه وخزانته في جهات أصفهان وقم وقاشان فغنم غنائم وافرة بعد أن كان استأذن السلطان وكان مغبراً منه، فلم يشأ أن يشاهده فأذن له. وكانت هذه الغنائم لا توصف في نفاستها ولا تعد في كثرتها.

وحينئذ شتى السلطان في ديار بكر. ثم مضى إلى حلب. وجاءته الهدايا المرسلة مع عزيز الله، فخلع عليه السلطان وأرسل بالخلعة الفاخرة والسيف المرصع والأوطاغ ثم إن القاص ميرزا شوش أمر إيران ومال إلى أنحاء شهرزور إلى محل يقال له (كسك چنار). وكان قد أصابته حمى هناك، فعلم به رجال الشاه طهماسب. فهاجموه على غرة فأخذوه أسيراً، فحبسه الشاه في المحل المعروف بـ (قهقهة). ثم مات ومنهم من قال سم في سجنه. قال ذلك في تاريخ صولاق زادة. وجاء في گلشن خلفا أنه ذهب إلى بغداد فقضى بضعة أيام حتى أنه مال عن السلطان وحاول التقرب من الشاه فكان ذلك وسيلة القبض عليه. فساء مصيره[1].

الوزير الحاج محمد باشا

الحاج محمد باشا الوزير ولي بغداد في أيام القاص ميرزا وهو الوزير الثاني للدولة كما ذكر في تاريخ صولاق زادة. ولم يتعين لنا بالضبط تاريخ ولايته ولا معرفة أعماله. ولعله ممدوح فضولي في قصيدة له. ولم يظهر لنا التفصيل عن حياته.

والي بغداد تمرد علي باشا

إن صاحب گلشن خلفا ذكر أنه كان والياً على بغداد ثم خلفه

(١) تاريخ صولاق زاده ص ٥١٢ وكلشن خلفا ص ٦٣ ـ ١.

محمد باشا البالطه چي سنة ٩٥٦ هـ. وفي هذا ما يشير إلى أنه كان والياً لما قبل هذا التاريخ. أما صاحب (سجل عثماني) فيذكر عنه أنه «نشأ في البلاط الداخلي وصار أمير العلم وآغا الينكچرية وبتاريخ ٩٤٨ هـ عزل فصار من الأمراء. وفي عام ٩٥٦ هـ صار أمير أمراء بغداد. تحارب في البصرة وبعد انتصاره عاد إلى بغداد وفي سنة ٩٥٩ هـ عزل. ثم تقلب في مناصب عديدة آخرها ولاية الشام وتوفي فيها سنة ٩٧٨ هـ. وهو صاحب دين وخير، ولم يكن من أهل الأطماع» اهـ[1].

نعته صاحب السجل بأنه غرو علي باشا. وهذا غلط نسخ أو طبع. والذي عليه الجمهور أنه (تمرد علي باشا).

وصفه عهدي البغدادي بما نصه:

«كان من باشوات الأناضول، ممن مليء علماً، وبرع في الفروسية، نبغ في الآداب الفارسية فلا نظير له فيها. ومعروف في إبداع التواريخ، وله في شروط الفقه نظر تام، وكان من أهل التجرد (الصوفية والنساك) فهو ممتاز بل فريد بين أقرانه، وفي حد ذاته زاهد، ذو اعتقاد طاهر، يراعي الأوقات الخمسة، ويقضي أزمانه بالتقوى والصوم والصلاة ويعدها حتماً عليه. ذهب للحج وأدى فريضته وله شعر فارسي...» اهـ.

وأورد له صاحب التذكرة جملة صالحة من الشعر وذكر عهدي أنه قضى مدة معه لتكمل الفضائل منه ليل نهار. وكان الأولى أن يسمى (تجرد علي باشا) لما فيه من صفة التجرد أي علي باشا المتجرد. والشيوع لا يقاوم ولا يصد تياره.

ومهما يكن من الأمر فقد كان والياً على بغداد ولم يظهر له عمل يذكر. ثم خلفه محمد باشا البالطه چي. ولم نجد من الوثائق ما يجلو

---

(١) سجل عثماني ص ٥٠٠.

عن حالته أكثر. وهو بالنظر لتوالي النصوص جاءت ولايته تالية للحاج محمد باشا الوزير الثاني السابق الذكر.

حوادث سنة ٩٥٦ هـ ـ ١٥٤٩ م

والي بغداد محمد باشا البالطه جي

في هذه السنة ولي بغداد أمير أمراء سيواس سابقاً بعد عزل تمرد علي باشا. وهذا من (بوسنة) تربى في البلاط الداخلي ثم حصل على إمارة أنطاكية وبعدها صار مير لواء سلسترة، ثم اشقودرة وآخرها سيواس. وفي سنة ٩٥٦ هـ حصل على ولاية بغداد للمرة الأولى. وإنما لقب بهذا اللقب لأنه كان خشن الكلام...[١].

واقعة جزائر البصرة

قالوا: وفي هذه السنة حدث اضطراب في ايالة البصرة وصار الأعراب يقطعون السبل ويتعرضون بالمارة ويؤذون الخلق. فلما علم السلطان بخبرهم عين (محافظ بغداد) الوزير تمرد علي باشا قائداً للقضاء على غائلتهم وتأديب ثائريهم وعين لولاية بغداد أمير أمراء سيواس محمد باشا البالطه چي فاهتم كل بما عهد إليه وجهز الوالي مقداراً من الينكچرية، وإن القائد تمرد علي باشا اشتغل بإعداد العدد وتجهيز الجيوش وسار براً ونهراً حتى وصل بلدة واسط فضرب خيامه هناك. فاستقبله أمير لوائها علي بك بكمال الإجلال والاحترام فبادرا معاً وذهبا إلى جهة البصرة. وتقدما نهراً فوصلا بلدة (المدينة)[٢]. مستقر (آل عليان) حكام الجزائر فأحدثا الرعب في تلك الأطراف.

---

(١) سجل عثماني ص ١١٥ وكلشن خلفا ص ٦٣ ـ ١.

(٢) بالتصغير لا تزال موجودة.

أما الأعراب فإنهم تأهبوا للمقارعة، فحدثت معركة دامية ظهر فيها النصر لجهة الوزير وتبعثر أمر العشائر وتشتت شملهم. وفي تلك الليلة قصد العربان العودة والهجوم ليلاً على الجيش بأمل القضاء عليه ولكنهم لم ينالوا غرضهم ولم يتيسر لهم ما أملوا، فكان أضر بهم ذلك، ودمروا.

وفي اليوم التالي بادروا صباحاً للدخول في معركة أخرى فكان الهول أكبر وقتلت نفوس كثيرة بصورة مرعبة. وفي هذه المرة نالهم ما نالهم في الأولى، فهرب أمير المدينة ولم يطق البقاء. هذا ما قالوه وليس هناك قطع سبل وإنما هو جدال عن حياة ودفاع عن استقلال أرادت الدولة القضاء عليه.

حوادث سنة ٩٥٧ هـ ـ ١٥٥٠ م

بقية الحوادث السابقة:

بعد هذه المعارك وفي خلال سنة (٩٥٧ هـ) دخلت (المدينة) في حوزة القائد الوزير ولكن أطرافها لا تزال مأهولة بالعربان فلم يذعنوا بالطاعة. استمروا في الكفاح، فقام الوزير في تعمير البلد والسور ومن ثم أطاعت سائر النواحي من الجزائر. وحينئذ أتم الوزير مهمته وعاد إلى بغداد بكمال الأبهة.

وبهذا ولي وزارة بغداد إلا أنه لم يطل أمد بقائه فيها فعزل على ما سيوضح.

الوالي بهرام باشا

ولي بغداد سنة ٩٥٧ هـ بعد محمد باشا البالطه جي لكنه لم يبق في هذا المنصب كثيراً وكان من متخرجي البلاط الداخلي ومن صغره ظهرت مواهبه. ونعته صاحب گلشن خلفا بأنه لا يمنع نفسه عن هوى.

يميل إلى الارتشاء أو هو معروف عنه. ثم نال إمارة روم إيلي وتوفي بعدها...[1].

والي بغداد تمرد علي باشا

ولي للمرة الثانية سنة ٩٥٧ هـ بعد عودته من أنحاء البصرة. وكان على خلاف ما عليه بهرام باشا في سلوكه. مرت ترجمته وتبينت مكانته العلمية والأدبية، وفيها ما يغني عن إعادة القول. بقي في الولاية إلى سنة ٩٥٩ هـ ومن ثم حدث اضطراب في أنحاء شهرزور فعرض الأمر على حكومته فاهتمت له وأودعت حكومة بغداد إلى محمد باشا البالطه چي.

حوادث سنة ٩٥٩ هـ - ١٥٥١ م

والي بغداد محمد باشا البالطه چي

إن وقعة شهرزور كانت الباعث لأن يوجه منصب بغداد إليه. وكان والياً في بغداد قبل هذا فهو أبصر بإدارة الحالة، فأودعت إليه هذه المهمة.

حادث شهرزور

كانت شهرزور حين الفتح العثماني أذعنت بالطاعة للسلطان سليمان وإن حاكمها الأمير (بكة)[2] تقدم لخدمة السلطان وتأييداً لهذا الخضوع قدم ابنه (مأمون بك) رهينة ليكون في خدمة السلطان فسلمه إلى والي بغداد آنئذ سليمان باشا وهذا أودع إليه عدة إمارات ألوية متوالية

(١) كلشن خلفا وص ٣٢ من سجل عثماني.

(٢) بكر دخل لهجة الكرد فصار بكه وذكره صاحب الشرفنامة بلفظ (بيكه). وفي الشرفنامة أنه توفي سنة ٩٤٠ هـ. والصواب ما جاء هنا.

فكان لواء الحلة من آخرها. بقي فيه. فكانت شهرزور تعد من ممالك الدولة. وكانت مدينتها تدعى (قلعة زلم)[1] لمناعتها وإحكامها، من جراء أنها جبلية، صعبة الاجتياز، يعسر الوصول إليها، محاطة بالكرد من كل جانب. وفي سنة ٩٥٩ هـ ظهر في أنحائها تشوش وتدخل القزلباشية. فاضطربت حالتها لما أصاب رعاياها من وقائع مؤلمة. ومن انتهاك الحرمات ما لا يوصف سواء في نفوسهم أو أموالهم فأخبر الوالي تمرد علي باشا دار السلطنة بما علم وبالتعبير الأولى أوضح اختلال حالتها، وسهولة الاستيلاء عليها، فكان هذا من بواعث تعيين الوالي الجديد. فوضت القيادة إلى عثمان باشا والي حلب وجهز بمقدار كبير من الينكچرية وكذا أودعت إليه قيادة سائر الجيوش من الايالات الأخرى المرسلة لهذه الغاية. وصدر الفرمان بأنه إذا افتتحها يكون أميراً عليها. استغلوا وقوع النزاع، فقاموا بما قاموا به.

وعلى هذا سارت الجيوش من كل صوب. وبعد أن جلس الوزير في حكومة بغداد جهز جيش بغداد بعدد كاملة من مدافع وبنادق[2] مزودين بمعدات حربية أخرى. وحينئذ ألحقهم الوالي بجيش عثمان باشا قرب شهرزور وتوالى الأمراء من كل صوب من أكراد وغيرهم وتجمعوا على المدينة فأرهبوها بمدافعهم، وضربوا خيامهم في الأنحاء القريبة منها. فوقعت معارك دامية بين الفريقين. واشتدت نيران الحرب. وعلا صوت المدافع والبنادق ومع هذا كله لم يتيسر به الفتح فأيس القوم من الاستيلاء على المدينة لمناعتها.

---

(١) سماها صاحب الشرفنامة (قلعة ضلم). وجاء ذكر الجبل الذي تسمت باسمه في ياقوت الحموي في معجم البلدان بلفظ (زلم). والترك يقولون (ظالم قلعه) لما لحقهم من ضرر في حروبها فاخترنا ما نطق به جغرافيونا وعلماؤنا.

(٢) البنادق تسمى عند العوام تفك، وتفنك والواحدة تفكة. أو تفنكة والترك يقولون (تفنك).

وكان في النية أن تتخذ قلعة أمامها للمطاولة مع المحصورين ولكن الأجل المحتوم وافى القائد (السردار) فحال دون المرام فرجع الجيش إلى بغداد وكل جيش سار لجهة وضرب لوجهه فتفرقت الجموع ومن ثم عرض الوالي ما جرى لدولته وبين ما وقع.

القائممقام:

علم السلطان بالحالة فأمر الوالي أن يكون سراداراً لفتح تلك القلعة، وتسخير اللواء، فامتثل الأمر. وصار قائداً وحينئذ نصب الوالي مكانه (سهيل بك) أمير لواء الرماحية في بغداد لإدارة شؤون البلدة بالنيابة عنه مدة غيابه. وهذا أول (قائممقام) عرف لحد الآن. والمصطلح انتقل من أصل الحكومة وشاع في الولاية ويراد به خلف الوالي أو من استخلفه. وفي العاصمة يطلق القائممقام على من ينوب عن الصدر الأعظم عندما يغادر العاصمة لحرب أو غيره فيخلفه. وكذا من ينوب عن السلطان أيام سفره ومغادرته عاصمته[1].

الدوام على حصار شهرزور:

ولما صار الوالي قائداً أمره السلطان بلزوم تسخير المدينة. وعلى هذا وبعد مرور بضعة أيام توجه نحو الغاية المطلوبة. وحط رحاله في محل قريب من هناك يقال له (كسك چنار) فنزله. واستراح بضعة أيام. وكان أخذ صحبته من أمراء الأكراد بكر بك وكان شيخاً محترماً. وولي بك من أصحاب التدابير الصائبة. ذهب هؤلاء صحبة الكتخدا إلى حاكم شهرزور (سرخاب بك) بقصد ترهيبه من جهة وترغيبه من أخرى وقدموا

---

(١) يسمى في هذه الأيام (مجلس النيابة) وإذا كان شخصاً بعينه قيل (نائب جلالة الملك)، أو (نائب سمو الوصي). وهو خلفه. وهذا هو الاستخلاف. وأما في الوزارة فينوب أحد الوزراء عن رئيس الوزراء أو عن وزير آخر بالوكالة.

له رسائل فيها نصائح مقنعة بخصوص جلبه للطاعة والإذعان. وكانت زوجة سرخاب بك قد أسرت أيام عثمان باشا السردار السابق (قائد الحملة). وهذا نظراً لعفته وشهامته أعادها إلى سرخاب بك وبهذا مال لجهة العثمانيين. ورضي عنهم من جراء عملهم هذا. أذعن من تلقاء نفسه ورغب أن يرتبط بالدولة فيخضع لها.

ذلك ما دعا أن يدخل في أمر الصلح فأخرج من البلدة جميع أرزاقه، وقدم طاعته وأبدى إذعانه التام. وفي حدود سنة ٩٦١ سلم المدينة للحكومة فصارت شهرزور ومضافاتها وتوابعها مثل قلعة هاور، وقلعة نقود، وقلعة پاسكه، وقلعة شميران، وقلعة فرنچه من جملة الممالك العثمانية. فافتتحت جميعها والتحق أيضاً أوغورلو بك من العجم، وسرخاب بك الأمير السابق ومعهم نحو ألفي بيت من أقاربهم وسائر أتباعهم وطوائفهم. وسلموا مفاتيح القلاع الأخرى وكانت بأيدي أمرائها محمد سيف بك أمير بانه، ويوسف بك أمير دستاره، وبوداق بك أمير بروج. وكذا القلاع الأخرى التي بيد أورخان بك وجهان شاه بك فأبدوا طاعتهم وانقيادهم.

وبهذا نال الباشا توجهاً وإقبالاً، وسعداً. أبقى ما يكفي لإدارة البلدة من عساكر ومحافظين وعين لها أمير لواء (ولي بك) ثم توجه نحو همذان بما لديه من قوة. وفي هذه الأيام ألقى السلطان الرعب في قلوب الإيرانيين حينما كان في حدود نخجوان وأبدى سلطة وهيبة ثم عاد إلى دار السلطنة. وحينئذ ورد الخبر السريع إلى الوزير يأمره فيه السلطان بالرجوع إلى بغداد نظراً لما علم من أن الشاه طهماسب متأهب للاستيلاء على بغداد، فكان من الضروري أن يرجع إليها ليأخذ عدته ويتأهب للطوارىء المتوقعة. وعلى هذا لم ير بداً من العودة فعاد إليها[1].

---

(١) كلشن خلفا ص ٦٤ ـ ١.

شهرزور - إمارة أردلان

إمارات الإقطاع في العراق تكونت من أمد بعيد ترجع به إلى أيام العباسيين. وإن شهرزور كانت بيد أمراء السلجوقيين وآخرهم الأمير قفجاق. ثم انقادت لاتابكة الموصل، وبعدها لآل بكتكين فالعباسيين. وفي أيام المغول تابعوهم وبانحلال هؤلاء تغلبت القبائل وقوي نفوذها. وفي أيام العثمانيين كانت (إمارة أردلان) هي المسيطرة، وكذا إمارات أخرى ولكن لم تكن في قدرتها.

إن لواء شهرزور من ألوية العراق المهمة. ويسمى الآن (لواء السليمانية). ويقطنه الأكراد قبائل وإمارات وفي هذا العهد شوهدت (إمارة أردلان)، يجاورها إمارات أخرى أو قريبة منها، ولم تكن في الحقيقة إمارة بالوجه الصحيح، وإنما هي عشائرية. وتكونت إمارة أردلان في أواخر أيام المغول، أو بعدها بقليل. وإن مؤسسها (بابا أردلان). كان قد عاش بين قبائل (گوران)، وهو في الأصل من ذرية أحمد بن مروان من ذرية ولاة ديار بكر ومنهم من قال أولاد بابك بن ساسان.

ولما توفي بابا أردلان خلفه ابنه (كلول)، ثم توالى أبناء هذا وأحفاده:

١ - خضر بن كلول.

٢ - الياس بن خضر.

٣ - خضر بن اليس.

٤ - حسن بن خضر.

٥ - بابلو بن حسن.

٦ - منذر بن بابلو.

وإن هذا الأخير وزع ملكه بين أولاده:

١ ـ بيكه بك. وكان نصيبه:

(١) قلعة ضلم. (زلم) أو (قلعة ظالم).

(٢) تغر.

(٣) شمران. وهذه باسم جبل شمران. وهو معروف في تلك الأنحاء وينطقون به (شميران) و (شميلان). مر ذكره.

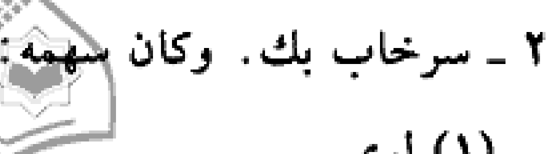
(٤) هاوار.

(٥) سيمان.

(٦) راودان.

(٧) كل عنبر (حلبچة).

٢ ـ سرخاب بك. وكان سهمه:



(١) لوى.

(٢) مشيله.

(٣) مهروان (مريوان). وأصل تلفظها (مهربان) فتصرفت اللغة الكردية به.

(٤) تنوره.

(٥) كلوس.

(٦) نشسكان.

٣ ـ محمد بك وكانت حصته:

(١) سروجك.

(٢) قراطاق. قراداغ أو قرداغ.

(٣) شهربازار.

(٤) الان.

(٥) دمهران.

جاءت وقائع شهرزور في أيام هؤلاء الأخيرين، وإن الدولة العثمانية قارعتهم كثيراً حتى قضت على إمارتهم بعد أن جادلوا جدالاً عنيفاً، وأيست الدولة مرات من الاستيلاء عليهم.

وإن بيكه بك كان قد طال حكمه ٤٢ سنة جاء في الشرفنامه أنه توفي سنة ٩٤٠ هـ. والصواب أنه أدرك عهد السلطان سليمان ولم يعرف تاريخ وفاته بالضبط. ومن أولاده:

(١) إسماعيل.

(٢) مأمون. وخلفه ابنه محمد بك. وتوفي أثناء حصار قلعة ضلم (زلم).

ظهرت الدولة العثمانية بعد فتح بغداد. وإن (لواء شهرزور) بعد مأمون بك صار بيد عمه (سرخاب بك). وإن الوقائع علمتهم السياسة وكيف يميلون مرة إلى الدولة العثمانية وأخرى إلى الدولة الصفوية. وكانت أطماع الدولتين في العراق وأنحائه على أشدها.

أعقب سرخاب بك أولاداً كثيرين، وعمر طويلاً، فخلفه ابنه سلطان علي. وهذا أعقب ولدين تيمورخان، وهلوخان وكانا صغيرين فولي الأمر عمهما (بساط بك بن سرخاب بك). وهذا نازعه ابن أخيه (تيمور خان)، ثم ولي الأمر بعد وفاة عمه بساط بك. وفي سنة ٩٩٨ هـ قتل تيمور خان، فقام مقامه أخوه (هلوخان). ودامت إمارته إلى سنة ١٠٠٥ هـ[١] وما بعدها.

---

(١) الشرفنامه ص ١١٧ وما بعدها.

وهذه الإمارة لم يعد لها ذكر مدة، ثم ظهرت برياسة عشائرية ـ على ما هو المنقول من رجالها ـ وقطنت المحل المعروف اليوم في جبال (هاورمان)، وتسمى قبائلهم الآن باسم قبائل (هاورمان). يسكنون في لحف الجبل، وقسم منهم تابع لإيران. والقسم الآخر للعراق من لواء السليمانية. فهناك:

١ ـ هاورمان لهون. نصفها عراقية والنصف الآخر إيرانية. والعراقية داخل خورمال من قضاء حلبچة (البچه).

٢ ـ هاورمان رژاو. تابعة لإيران.

٣ ـ هاورمان دزلي. لهم قرى في العراق، وأخرى في إيران.

وتاريخها المحفوظ لديها يرجع إلى سنة ١٠١٥ هـ إلا أن هذا لم يستند إلى نص تاريخي ولم يوصل بما مرّ. ومنهم من ينكر علاقة هؤلاء بالأردلانيين. ظهرت وقائع هؤلاء كثيراً. وأصلهم ما ذكرت، ولا محل لتفصيل إمارة هؤلاء الموجودة اليوم، ومن أهم وقائعهم ما كان أيام (مدحة پاشا) على ما نتناوله في حينه. وكل ما علمناه أن الدولة العثمانية حاولت أن لا تترك لهم باقية إلا أن لهم صفحة مهمة من تاريخ شهرزور أوضحنا عنها في كتابنا (شهرزور ـ السليمانية).

حوادث سنة ٩٦١ هـ ـ ١٥٥٣ م

حاكم العمادية:

في سنة ٩٦١ هـ كان السلطان أرسل حاكم العمادية السلطان حسين بك بشجعان الأكراد إلى جانب آذربيجان. ولما رجع بلغه أنه في موضع يقال له (تخت سليمان) اجتمع بضعة آلاف من القزلباشية مع أبي الفتح سلطان وحمزة سلطان وعلي سلطان وخضر وإبراهيم قولي وخليفة. وكانوا قد قصدوا بغداد وحواليها، فتوجه إليهم حسين بك بمن معه

وقاتلهم قتالاً عنيفاً، فكسرهم. ومن ثم وصل الخبر إلى الركاب الهمايوني عند نزوله قلعة بايزيد ففرح وأكرم حسين بك وزاد في إيالته[1].

إمارة العمادية

كانت إمارة العمادية أقرب إلى البداوة. يقال لها (إمارة الهكارية). و (جبال الهكارية) هناك فسميت باسم جبالها. ولم تكن لها إدارة منظمة، ولا راعت لوازم الحكم جاءتنا أخبارها مبتورة، فلم يدون عنها إلا اليسير وإن كانت من أقدم ما عرف.

ولما أراد عماد الدين زنكي أول أتابكة الموصل التسلط على الهكارية لجأوا إلى مدينة (آشب) وتعرف بقلعة (الشعباني)، فخربتها الحروب وطال الحصار مدة. وفي سنة ٥٣٧ هـ أذعنوا بالطاعة للأتابك. ولكنه لم ينتزعها من يد الهكارية. دامت بأيديهم إلى أيام المغول منقادين له.

وبعد أيام المغول تسلط عليهم (البهدينانية) وهم أولاد عم (الشمدينانية). ذكرتهم في (عشائر العراق الكردية)[2]. ولكن الهكارية لا يزالون باقين إلا أنهم ضاقت إمارتهم أو صاروا تابعين. والبهدينانيون يدعون أنهم (عباسيون) مع العلم بأن البهدينانة والشمدينانية أولاد عم، من الجولمركية وهم أمويون. وبسطنا القول في البهدينانية في (كتاب العمادية)[3].

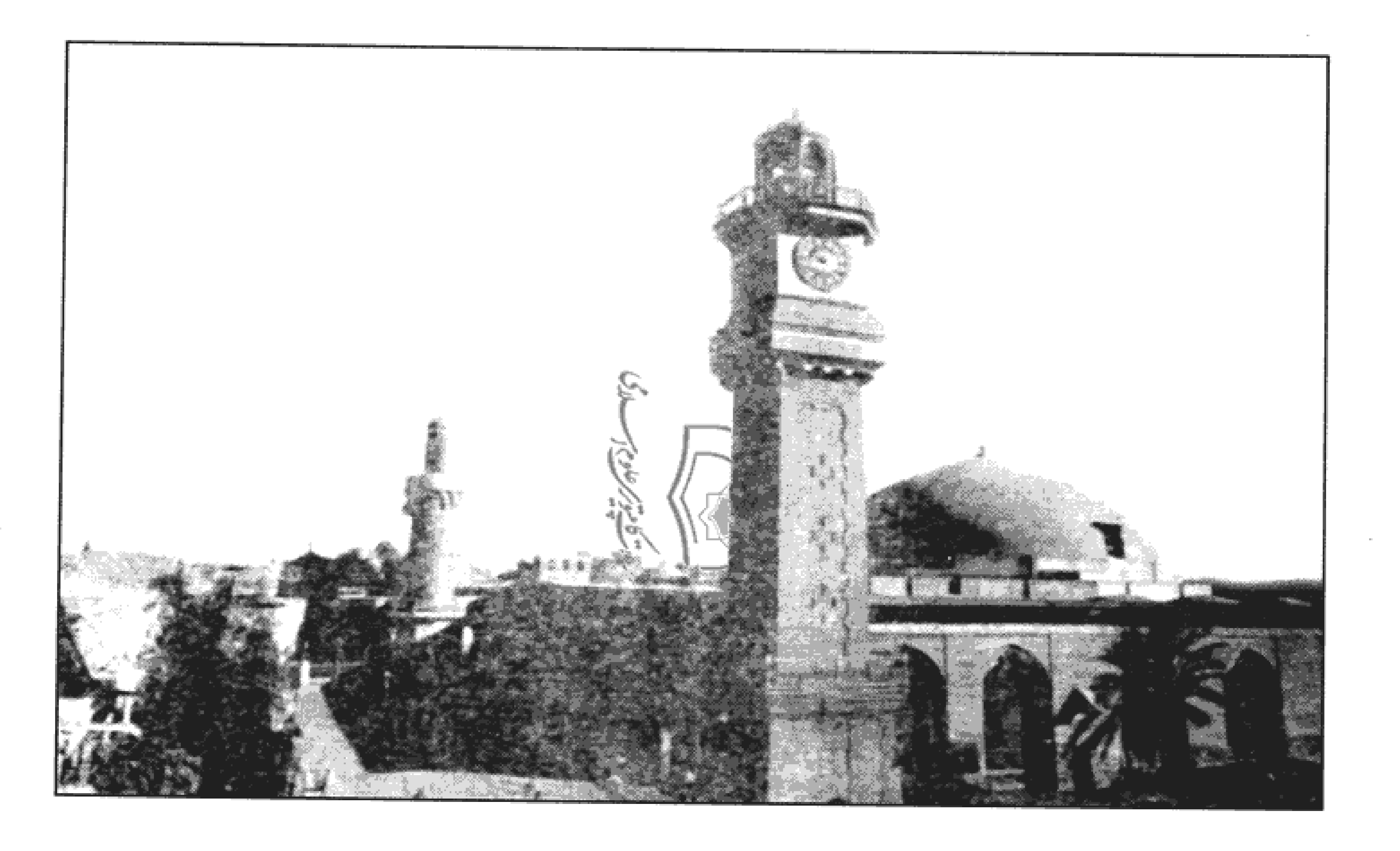
وكان بدء حكمهم على العمادية بعد سنة ٧٤٠ هـ إلا أن تاريخ هذه

---

(١) منهل الأولياء ص ٢٧ لا يزال مخطوطاً.

(٢) عشائر العراق الكردية ص ١٩١.

(٣) لا يزال مخطوطاً.



جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ـ دار الآثار العراقية

الإمارة غامض في أوائل أمره. وفي الشرفنامه أن أول من عرف منهم (زين الدين). وكان في أيام الأمير تيمورلنك وأيام ابنه الشاه رخ. وخلفه ابنه الأمير سيف الدين بن زين الدين. وصار بعده ابنه الأمير حسن وكان أدرك أيام السلطان سليمان وهذا أعقب أولاداً ولي الإمارة منهم (السلطان حسين) وهذا أبدى خدمات جلى للسلطان سليمان فنال إمارة إربل وإنعامات أخرى. وتوفي أيام السلطان سليم ابن السلطان سليمان.

ثم توالى الأمراء بعده. ويأتي الكلام عليهم في حينه. وكانت إمارتهم قد أقرها السلاطين العثمانيون بفرامين. وصارت تابعة لبغداد. ولقبوا بلقب (باشا). وتكاثرت مدونات الدولة عنهم.

سيدي علي رئيس في بغداد

في غياب الوالي وقائممقامية سهيل بك أمير لواء الرماحية أوائل سنة ٩٦١ هـ ـ ١٥٥٣ م ورد سيدي علي رئيس بغداد ماراً بها في طريقه إلى البصرة. قال في رحلته: إن السلطان سليمان في أواسط رمضان سنة ٩٦٠ سار إلى بلاد الشرق. وكان معه فورد حلب. وفي عيد الأضحى وجهت إليه قبطانية مصر. وأمر أن يذهب بالسفن الحربية الراسية في البصرة إلى مصر. وقبل هذا كانت جرت وقائع للعثمانيين وحروب مع البرتغال يوضحها:

١ ـ وقائع سليمان باشا:

إن العثمانيين بعد فتح مصر كانوا شعروا بوطأة البرتغال في الهند والاستيلاء على تجارته، بل الاستيلاء على مرافقه المهمة. فكان هذا مما أغضب القوم، وعلموا يقيناً أنه يولد لهم مشاكل في التجارة والسياسة لا تعد ولا تحصى. يضاف إلى ذلك أن ملك كجرات السلطان محمود قد استعان بالسلطان سليمان القانوني، وطلب منه أن يمده من

جراء أنه سلطان المسلمين ولا يرضى أن يهان ملك مسلم فيتغافل عنه مما زاد في النخوة وحرك أمر الإسراع فأودع هذه المهمة إلى أمير أمراء مصر (واليها) سليمان باشا، ولذا منحه سلطة إصلاح السواحل في الجزيرة العربية، ومنع التجاوزات البرتغالية في الهند.

أعد الأمير العدة، وفي أواخر محرم الحرام سنة ٩٤٦ هـ نهض من ميناء السويس، بقوة بحرية متكونة من أسطول محتوٍ على ٣٠ قادرغة، ومن سفائن عديدة تحمل العسكر، ولكن ماذا يؤمل من أمير البحرية (أميرال) إذا كان قد بلغ الثمانين، ونال من العجز حده!.

أراد الأميرال أن يولد رعباً في الأعداء، ويبعث أملاً في نفوس رجال الدولة ومن على شاكلتهم، فمضى من سواحل العرب حتى وصل إلى جدة، ومن هناك توجه نحو جزيرة قمران. وفي ١٣ ربيع الأول مخر البحر الأحمر، وفي أربعة أيام بلياليها استمر الأسطول سائراً في طريقه، وفي ١٧ منه وصل إلى ميناء عدن. وكانت هذه المدينة بتوابعها يحكمها عامر بن داود[١]، وبتدابير حسنة استولى عليها الأسطول وهناك اتخذ برج أحكم بناؤه، وأقيم فيه محافظون، ووجهت ايالته إلى بهرام بك ثم مضى الأسطول في سبيله إلى الهند.

وفي غرة ربيع الأول وصل الأسطول إلى سواحل الهند الغربية. وافوا أمام قلعة (غوآ)، وفي بادىء الأمر استولى على هذه، وبعدها سيق الجيش من طريق البحر فحاصر بلدة (كوه) و (كاره) الواقعة في شمال تلك، وبعد التخريب استولى الجيش عليها وعلى سابقتها، وفي أثناء الحصار والتضييق هلك كثير من البرتغال، فقتل نحو ألف نفر منهم، وهكذا مضوا إلى الشمال فساروا نحو مدينة (ديو)، شرعوا في التضييق

---

(١) من بني طاهر في اليمن. شعبة حكمت بلدة عدن. ويدعون أنهم من بني أمية. (دول إسلامية ص ١٣٣).

عليها وأخرج إلى البر نحو عشرين ألف جندي، ومعهم نحو ٥٠ مدفعاً، وكانت هذه محكمة، وفيها خنادق، وليس من السهل الاستيلاء عليها كما أن المؤونة كانت قليلة، والمصاعب كثيرة، فاستعصى الأمر.

وفي هذه الأيام كان أرسل خبر إلى السلطان محمود ملك كجرات[١] ليرسل المؤونة إلا أنه مضى شهر ولم يرد جواب منه الأمر الذي أدى إلى مصاعب وحدوث مجاعة في الجيش حتى تزايد شأنه بل عظم خطره، يضاف إلى ذلك أن المحصورين طيروا خبراً إلى السلطان محمود بأن سليمان باشا قتل أمير عدن عامراً وهكذا يفعل بك، فالأولى أن تتفق معنا، ولا ترسل أرزاقاً لجيش الباشا وإلا نالك ما نال الأمير المذكور. ومن ثم وحذرًا من سوء القصد اتفق مع هؤلاء وامتنع من إرسال المؤونة، بل ساعد المحصورين فعلاً ومال لجهتهم. فعلم الباشا بالأمر، فلم ير بدأ من رفع الحصار، وتحميل المدافع والجيوش في السفن، والإقلاع عن هذه المواطن، فسار في البحر قافلاً من الطريق الذي أتى منه، قطع ٢٠ يوماً في البحر، فوصل إلى سواحل جزيرة العرب الجنوبية، فحط في الشحر. وكان حاكم البلد قد أبدى طاعة وقام بكل ما يجب من تقديم أرزاق، ومساعدات للجيش، ثم أقلعت السفن من هناك فوافت عدناً، ثم مرت بميناء زبيد. وفي هذه الأثناء وجد أن الأمير أحمد استولى على هذه البقاع، وأعلن إمارته هناك. وكان هذا الشيخ اتخذت معه لطائف الحيل، فاستولت الحكومة على ما بيده، وقضى على غائلته، ووجهت ايالة اليمن إلى مصطفى بك آل بيقلي محمد باشا.

أما سليمان باشا فإنه أقام هناك مدة شهر، نظم في خلالها أمور

---

(١) ابن لطيف خان. دامت حكومته من سنة ٩٤٤ هـ إلى سنة ٩٦١ هـ. (دول إسلامية ص ٤٨٢).

الحكومة وطرق محافظتها ثم عاد إلى جدة. فخرج من السفن ومضى لأداء فريضة الحج، وذهب من طريق البر إلى مصر. ومنها مضى إلى استانبول.

ونظراً لما قام به هذا الباشا من الخدمات قبل السلطان منه ما قام به، وأنعم عليه برتبة الوزارة. وصار في عداد رجال الديوان.

هذه أول وقائع العثمانيين في البحر الهندي. ولم تكن هناك علاقة للعراق بهذه الحوادث إلا أن الموضوع قد اتصل بهذه الواقعة اتصالاً مكيناً... وهنا لا نريد أن نتعرض إلا لما له مساس بحوادثنا[1].

٢ ـ وقائع بيري رئيس:

مر الكلام على ما جرى لسليمان باشا في الهند من الحوادث. وفي هذه المرة كانت الدولة شعرت بالضعف، وعرفت طريق سياستها، وعدتها الحربية في البحر الهندي، فكان الواجب يدعوها أن تقوم بما يلزم من إعداد العدة والعدد، وتهتم اهتماماً أكثر. فإن الاستيلاء على عدن أعقبه اتفاق العرب هناك مع البرتغال للوقيعة بالجيش التركي، واستعادة البلد منه. تولدت المشادة بسبب الاستيلاء والنهب، وقتل الحاكم هناك مما آلمهم.

وفي هذه الحالة سيرت الحكومة أسطولها تحت رياسة أمير بحريتها قائد بحرية مصر (پيري بك) المشهور وهذا صاحب (كتاب البحرية)، وابن أخت كمال رئيس. سار لاستخلاص البلد واستعادته، فاسترد عدن حرباً، الأمر الذي دعا أن يعرض والي مصر داود باشا أمره إلى السلطان ببيان خدماته، ومن ثم قبل السلطان ذلك بالقبول الحسن، وزاد في راتبه وجعلت له زعامة بمبلغ (مائة ألف آقچه). ثم أرسل مرة أخرى إلى

---

(١) تحفة الكبار في أسفار البحار ص ٥٨.

سواحل جزيرة العرب، لينظم إدارتها، وأن يستعيد المواطن التي استولى عليها البرتغال. ففي سنة ٩٥٩ هـ تحرك من ميناء السويس بـ (٣٠) قطعة قاليته، وقادرغة وباشتارده (باشترده)، وقاليون. ومن هذه تكون الاسطول، ومعهم فرقة من العساكر المصرية، فوافى جدة، ثم إنه اجتاز مضيق باب المندب، ومضى إلى عدن. وهناك أظهر سطوته، ثم توجه نحو شحر وظفار من طريق رأس الحد، ومسقط التي وقعت في أيدي البرتغال. وبينا هو مجتاز في الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب من سواحل الشحر، وظفار إذ ظهر ريح زعزع فتبعثرت السفن، وتفرقت نوعاً، حتى أن بارجة منها من نوع القاليون اصطدمت في أرض من سواحل الشحر فغرقت ولكن بعد أن سكن هائج الرياح عادت السفن فاجتمعت، وسارت في طريقها، فمضت من رأس الحد، فوصلت إلى أمام قاعدة عمان وهي (مسقط). فافتتحتها هذه القوة البحرية.

وهذه المدينة لها موقع ممتاز في أنها حاكمة على مدخل خليج البصرة، وأنها تقع على الطريق. فلها أهمية خاصة، ومكانة لا تنكر. فأشغلها البرتغال نظراً لأهميتها هذه. ذلك ما دعا پيري بك أن يخرج جيشاً إلى البر، ويتخذ التدابير لمحاصرة المدينة والتضييق عليها دون إضاعة وقت. فدافع عنها البرتغال، ولكنهم لم يستطيعوا أن يصدوا الهجوم الذي قام به الجيش العثماني، فتمكنوا من ضبطها والاستيلاء عليها. وأسروا جيش البرتغال. ومن هناك تحركت السفن إلى مضيق هرمز فتمكنوا من ضبطه بعد حرب قوية وهجوم عنيف. وكذا استولوا على جزيرة هرمز وبرخت (كشم)، ومن هناك توجهوا نحو البصرة. وكانت قد دخلت البصرة قبل مدة في حوزة العثمانيين لما رأوا من حاجة لوصل البصرة بمصر.

وفي أثناء وصول الأسطول إلى البصرة شاع أن البرتغال عزموا على قطع خط الرجعة، وأملهم أن يأتوا بقوة عظيمة إلى مضيق

هرمز، فارتاب پيري بك، وأبدى خوفاً لا يأتلف وما كان قد أبداه سابقاً. فترك الأسطول في البصرة، وسار بثلاث قطع قادرغة خاصة به، وبمفرزة صغيرة، فعاد إلى السويس. فكانت حركته هذه داعية للارتياب لا سيما وأنه لم يستأذن فيما فعل. فسار بما أخذه فوصل البحرين، وهناك جلست إحدى القادرغات على البر فتفككت، وغرقت، وعاد إلى السويس بالباقي وبقيت السفن الحربية الأخرى في البصرة، فكان هذا الفرار منه أكبر باعث إلى نكبته. وكانت حكومته تأمل منه أعمالاً كبيرة، فخاب الأمل فيه. ومن ثم صدر الأمر السلطاني بإعدامه لما ارتكب من هزيمة، فأعدم بمصر. ويقال إنه حاول تهريب الأموال التي استولى عليها. اتهم بذلك في حين أن القوة كانت ضعيفة، والانتحار محقق، فرأى أن يمضي بالقوة الكافية للنجاة ويتأهب للأمر كما تبين ذلك من تكليف علي بك المصري وكان قائد الحملة وامتناعه من قبول قيادة الأسطول وما ذلك إلا لعدم صلاح البحرية للمرور وقدرة الدفاع.

ولما أعدم پيري رئيس بمصر وجدت لديه أموال كثيرة، استولت عليها الحكومة. أما أمير الجيش علي بك فلم يوافق على قيادة الأسطول، وعاد من طريق البر إلى مصر ولم يقبل بتكليف والي البصرة (قباد باشا)[1] في أن يعهد إليه الأسطول. فتبعثر أمر السفن الحربية، ولما سمع والي مصر أخبر الدولة بما جرى. فكان ما كان. ثم جاء أهل هرمز إلى مصر فشكوا پيري رئيس، وقالوا: نهب أموالنا وعذبنا، فلم تسمع لهم دعوى وأرسلت الأموال إلى الدولة.

ثم ظهر مؤخراً أن قتله لم يكن بحق. وكانت الأسباب لذلك كثيرة

---

(١) والي البصرة قباد باشا سعى بقتلة بيري رئيس عند السلطان فقتله سنة ٩٦٢ هـ. ذكره في تهذيب التواريخ، وفي تاريخ تركية لأحمد رفيق، وفي عثمانلي مؤلفلري.

منها أنه كان من رجال إبراهيم باشا المقتول، وأنه لم يعط إلى قباد باشا دراهم، فكان فداء لخيانات ذلك الزمن. ويعد من أفذاذ الرجال. وكتابه (بحرية) شاهد ذلك.

ألفه سنة ٩٣٢ هـ بأمر من السلطان. ومعه أطلس جغرافي. طبع على الزنك سنة ١٩٣٥ م بمطبعة الدولة باستانبول وله مؤلف في بحار الصين والهند في مجلدين. وهو ابن أخت كمال رئيس القبطان البحري الشهير.

٣ ـ واقعة مراد رئيس:

كان هذا سماه صاحب التحفة (مراد قپودان)[١] وهو معزول من لواء القطيف، وكان في البصرة في تلك الأثناء بقي في البصرة حينما عاد پيري بك فوجهت إليه قيادة أسطول مصر (البحر الأحمر) وكان ترك پيري رئيس في البصرة بارچتين وخمس قادرغات وقاليته في بندر البصرة والباقي سار به نحو السويس حسب الأمر الصادر إليه إلا أن قادرغة واحدة كانت قد احترقت في البصرة. فكان أخذ معه ـ عدا ما أبقاه وما غرق ـ (١٥ قادرغة). وبارچتين، فتكون أسطول منها، وسار في البحر، فورد مضيق هرمز. تمكن من الوصول إلى هناك دون أن يرى عارضة إلا أنه عند المعبر اصطدم بأسطول البرتغال، وكانوا قد تأهبوا للحرب، ينتظرون الأسطول العثماني ويترقبون وروده. فابتدأت الحرب من الصبح واستمرت بشدة إلى المساء، وذهبت ضائعات كثيرة من الطرفين، واستشهد كل من (سليمان رئيس) فارس سفينة القائد، و (رجب رئيس) فارس سفينة أخرى، فكان فقدهما من أعظم الضائعات، والذين

---

(١) مراد رئيس أصله من فاس. وكان من مشاهير رجال البحرية أيام السلطان سليمان. عرف في كثير من المحاربات البحرية ببسالته. وصار متصرف لواء القطيف (الأسفار البحرية وكتاب حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٤١).

استشهدوا، وجرحوا من سائر أفراد الجيش كثيرون جداً، وكذا السفن قد تضعضعت كثيراً من جراء طلقات العدو.

ذلك ما جعل الأسطول العثماني لا يستطيع الدوام في الحرب، أيسوا من أوضاعهم. واستفادة من اختلاط الظلام والكف عن الحرب بسبب الليل عادوا، ومن ثم صار مراد بك يفكر في أمر الاحتفاظ بالباقي من السفن، ويراعي سلامتها، فاستفاد من ظلمة الليل فعاد إلى البصرة، دون أن يضيع الفرصة. ونظراً لزيادة الظلمة بسبب الليل قد اصطدمت إحدى السفن المسماة (بارجة) بالبر في جانب اللار، وإن قسماً من الجيوش فيها نجوا سالمين، وقسم منهم مع السفينة صاروا في أسر العدو.

وفي هذه الحرب خذل الأسطول العثماني، ولم يتيسر له الانتصار إلا أن هذه لم تكن الحرب الحاسمة وإنما هي رجوع بانتظام، والعدو في هذه الحرب أصابته خسائر كبيرة وناله ضرر عظيم أيضاً إلا أن العثمانيين لم يستطيعوا تعقب أثره لما نالهم من ضعف حذروا من المجازفة. والعدو بالرغم من التلفيات لا تزال قوته كبيرة...

ولما وصل الأسطول إلى البصرة أخبروا الدولة بما جرى. ذلك ما دعا أن توجه أميرالية مصر إلى سيدي علي رئيس ومن ثم سار في طريقه إلى البصرة.

قبطانية مصر توجه إلى سيدي علي رئيس:

بعد خذلان مراد رئيس عرض الأمر على السلطان سليمان فعهد بالمهمة إلى (الكاتبي الرومي).

وهذا هو (سيدي علي بن حسين). وكان متضلعاً في علم البحار، فتح جزيرة رودس. ومن ذلك الحين إلى يومنا هذا كان ولا يزال في

بحر المغرب (البحر الأبيض المتوسط) في كافة الغزوات والفتوحات بصحبة المغفور لهما (خير الدين باشا) و (سنان باشا) وسائر القبطانية وقام بأنواع الخدمات وتجول في جميع أطراف بحر المغرب وأكنافه فحصل على جميع ما يتعلق بعلم البحار واكتسب الخبرة الوافرة. ألف في علم الهيئة وفي الحكمة وسائر متعلقات علم البحار تآليف مهمة، وفي أحوال النجوم. ومما أهله للمهمة أن أباه وجده وأسلافه من أيام فتح القسطنطينية كانوا كتخدائية دار الصناعة (الترسانة) العامرة في غلطة. وكل واحد منهم كان ماهراً في العلوم البحرية فانتقلت هذه إليه إرثاً واكتساباً.

رأى السلطان فيه من الكفاءة والقدرة على الأمور البحرية فأودع إليه قبطانية مصر في ذي الحجة سنة ٩٦٠ وأمره أن يذهب بالسفن الموجودة في بندر البصرة إلى مصر. صدر إليه الفرمان بذلك فنهض في أول المحرم سنة ٩٦١ من حلب فكانت وجهته البصرة.

سيدي علي في طريقه إلى بغداد:

خرج من حلب متوجهاً إلى الموصل وبغداد، فعبر الفرات من أمام بيره جك فجاء الرها (أورفة) وزار هناك مقام إبراهيمعليه السلام وسار في طريقه إلى نصيبين ومنها ورد الموصل وزار مراقد يونسعليه السلام وجرجيسعليه السلام والشيخ محمد الغرابيلي، وفتح الموصلي، وقضيب البان الموصلي ثم مضى إلى بغداد ومر بمدينة تكريت ومنها جاء إلى سامراء وزار فيها الإمام علياً الهادي والإمام حسناً العسكري وسار من بلد العاشق والمعشوق ومنها مضى في الطريق المار إلى قصبة حربي، وقصر سمكة (سميكة) فبلغ بغداد وعبر دجلة (شط بغداد) من الجسر وزار مدة بقائه يوشععليه السلام والإمام الأعظم، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام أبا يوسف والإمام محمداً، والإمام محمداً الغزالي، وعيص بن إسحاقعليه السلام والإمام

موسى الكاظم، والإمام محمداً التقي وقنبر علي، والشيخ عبد القادر الكيلاني، وجنيداً البغدادي، ومعروفاً الكرخي، والشيخ الشبلي، وسريًا السقطي، والحلاج، وبشراً الحافي، وجومرد القصاب، وبهلول دانه وفضيل بن عياض، والشيخ شهاب الدين السهروردي، والشيخ داود الطائي، ثم مر من أمام قلعة الطيور وذهب إلى قلعة پيره (الظاهر قلعة البير). وعبر الفرات من أمام قصبة المسيب فوصل الحائر (كربلا) وهنا زار حضرة الإمام الحسين، ومشهد الشهداء، والحر الشهيد، ثم مضى من جهة شفاثة (شفاثى) من طريق البر إلى المشهد وفي اليوم الثاني وصل إلى الغري (النجف) وزار آدم ونوحاً وشمعون عليهم السلام والإمام علياً المرتضى (رض)، ثم ذهب إلى الكوفة وهناك زار مسجدها ومحاريب الأنبياء عليهم السلام وشهادة الإمام علي المرتضى ومقام قنبر ودلدل ثم جاء إلى قلعة الحسينية وفي طريقه زار ذا الكفل بن هارون عليه السلام ومن هناك مضى إلى الحلة وفيها مقام صاحب الزمان (الإمام محمد المهدي)، والإمام عقيل أخو الإمام علي (رض)، وزار (مسجد شمس)[1] ومن هناك عبر الفرات أيضاً وعاد إلى بغداد. كل ذلك قصه في رحلته[2].

سيدي علي رئيس في طريقه إلى البصرة:

ثم ركب السفينة ومضى إلى البصرة وفي طريقه مر بالمدائن ورأى طاق كسرى وقصر شاه زنان، وزار سلمان الفارسي (رض) ثم عبر خليج العمارة فوصل إلى زكية من طريق واسط وزار العزير عليه السلام ومن هناك وصل قلعة صدر السويب بعد أن مر من قلعة عجل، وقلعة مزرعة. ثم وصل شط البصرة وفي آخر صفر سنة ٩٦١ هـ دخل المدينة.

---

(١) قال الدكتور (مصطفى جواد) صوابها الشمس.

(٢) مرآة الممالك ص ١٦.

سيدي علي رئيس في البصرة:

في اليوم التالي من وصوله ذهب إلى مصطفى باشا (حاكم البصرة) وقدم له الفرمان وعرفه بما جاء من أجله وحينئذ سلم إليه خمس عشرة قدرغة، وعمر ما تمكن من تعميره مما يحتاج إلى المرمة وحشى المفكك منها فأصلح ما استطاع إصلاحه. ولما لم يحن وقت الذهاب بعد بقي في البصرة نحو خمسة أشهر، في خلالها زار (مسجد الإمام علي)، و(الحسن البصري)، و (طلحة)، و (الزبير)، و (أنس بن مالك)، و (عبد الرحمن بن عوف) وشهداء الصحابة (رض).

ومما أرعبه في بقائه أنه رأى رؤيا مؤداها أنه وجد أن قد فقد سيفه فتطير من ذلك لما علم أن الشيخ محيي الدين بن عربي نقل أن الرسولﷺ فقد سيفه فحدثت له هزيمة وحينئذ بادر بالدعاء والاستغاثة بالرسول. فلاح لقلبه أن عسكر الإسلام منصور فانتبه مذعوراً لما رأى إلا أنه لم يقصص هذه الرؤيا على أحد واغتم لها كثيراً...

وقعة الحويزة ـ ابن عليان:

ومما اتفق أن مصطفى باشا عزم أن يفتح الحويزة وينتزعها من طائفة المشعشعين فسار إليها وأرسل سيدي علي رئيس إلى الجزائر علي بن عليان لئلا يضر بـ (البصرة) استفادة من هذه المشغلة فذهب بخمس قدرغات. وفيها عساكر مصرية فلم يتيسر الفتح. واستشهد من جماعة سيدي علي أكثر من مائة ممن تعودوا ضرب البنادق فاضطرب لهذا الحادث إلا أنه ظن أن الرؤيا صدقت فعلاً بهذا الحادث ولكن التقدير غلب التدبير[1].

وهذا الحادث لم يدون من صاحب گلشن خلفا ولا غيره وإنما انفرد به صاحب مرآة الممالك مما يدل على أن المؤرخين لم يذكروا إلا

---

(١) مرآة الممالك: سيدي علي رئيس ص ١٧.

بعض الوقائع ولا تزال خفايا كثيرة مجهولة ووقائع مهملة. وما نقله صاحب (جامع الدول) أخذ من هذا المرجع. وهكذا غيره ممن تلاه.

سيدي علي رئيس في طريقه إلى مصر

ولما قرب حلول الموسم واقتضى الذهاب أرسل مصطفى باشا في پركنده أي فرقته (Frigate) رجلاً ماهراً في علم البحار يقال له (شريف)[1] إلى هرموز للتفحص فبقي نحو شهر يتجول في السواحل فلم يجد للبرتغاليين سفناً سوى أربع بوارج. وهذه سفن الموسم. فجاء بهذا الخبر. وحينئذ ركبت الجيوش السفن، وتوجهت بصحبة سيدي علي رئيس إلى مصر.

أقلعت السفن في أول شعبان لسنة ٩٦١ هـ ـ ١٥٥٤ م ووصلت مع (فرقتة) شريف إلى هرموز. كان رافقهم في طريقهم. أرسل معهم لهذا الغرض، فتحركوا من شط العرب إلى عبادان. وزار مقام الخضرعليه السلام. ثم مضى إلى سواحل دسفول وتستر (ششتر) وجاؤوا إلى جزيرة (خارك) وزار فيها محمد بن الحنفية (رض) وشهداء الأصحاب (رض). ومن هناك مضى إلى ريشهر (الظاهر أبو شهر) من بنادر شيراز وقطعا سواحل بر فارس. وفي طريقهم رأوا جلبة (چكلوه)[2] فاستطلعوا أحوال العدو فلم يتمكنوا من معرفة شيء. ثم مالوا إلى هجر من بر العرب أي أنهم وصلوا القطيف. وهناك رأوا (شايتي). استطلعوا الأخبار منها فلم يعثروا على أمر يخص العدو. ثم صاروا إلى البحرين وهناك التقى بحاكمها مراد رئيس[3] فبين له أن ليس في هذا البحر برتغالي.

---

(١) من البحارة المعروفين استخدم للمهمة وكان قد ورد بلفظ (شريفي باشا).

(٢) مركب صغير يسير بالشراع أو المجاذيف لنقل الحمل ويسمى Sacoleve كذا في الترجمة الإنكليزية لرحلة سيدي علي.

(٣) هذا أصابته الضربة من أسطول البرتغال ولم يستطع الذهاب إلى مصر فخلفه سيدي علي رئيس.

ومن غريب ما شاهد هناك وعجب منه أن البحرانيين يأخذون بأيديهم قربة صغيرة (جودا) ويغوصون إلى قعر البحر نحو ثمانية باعات أو أكثر وحينئذ يملأون ذلك الجود من ماء عذب يخرج من عين داخل البحر يعرفون موقعها ويأتون بالماء دائماً إلى مراد رئيس فيشرب منه بارداً في الصيف وهو ألطف كل المياه وأعذبها. قدم إلى سيدي علي رئيس منه رعاية له فأعجبه وانبهر من قدرة الباري ونهاية عظمته مما لم ير نظيره في البحار الأخرى ويقول الأهلون إن آية ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ وردت فيها حتى أن وجه التسمية بالبحرين كان هذا سببه. ثم رحل فوصل إلى جزيرة قيس أي جزيرة هرموز القديمة[١] وجزيرة برخته، والبحر الأخضر. شاهد كثيراً من الجزائر هناك فلم يتمكن من الحصول على خبر فعبر هرموز[٢]. وعند ذلك أذن (لشريف) وكان رافقه وسار معه من البصرة. كتب كتاباً معه إلى مصطفى باشا يذكر فيه أنه عبر هرموز بصحة وسلامة، وبعد ذلك سار من سواحل (جلفار) و (جادى) فمر بـ (كيمزار) و (ليمة). ثم وصل إلى قرب مدينة خورفكان وفي ١٠ رمضان بعد أربعين يوماً من حركتهم جاءتهم على حين غرة أساطيل العدو وبينها

---

(١) لفظها ابن بطوطة (هرمز) وفيه بعض التوضيح في رحلته ج ١ ص ١٦٤ وما بعدها. بيّن الدكتور (مصطفى جواد) ان جزيرة قيس قديمة الاسم ومنهم من يسميها (كيش) كما في المعجم. وفيه أيضاً هرمز أو هرموز عن لفظ آخر، مدينة في البحر على بر فارس وهي فرضة كرمان، ولا تزال جزيرة قيس معروفة بجزيرة كيشم مقابل بندر عباس ولعلها هي هرمز الأصلية في مضيق هرمز الحالي، وأقول وردت هرمز في صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٤٩ فأوضح عنها كثيراً.

(٢) أورد الدكتور داود الجلبي طريق البحارة إلى هرموز من سواحل العرب ومن سواحل العجم ومنها إلى سواحل العرب الجنوبية على بحر عمان حتى باب المندب ثم يمر في سواحل اليمن إلى جدة، حتى يصل إلى السويس ومنها إلى سواحل مصر والحبشة حتى آخر سواحل إفريقيا. أو يسير من هرموز إلى سواحل الهند وفيها تفصيل أكثر وبيان لمواقع عديدة من عارف بها. نقلاً من رسالة بحرية. (لغة العرب ج ٩ ص ٤٠٥ وما بعدها).

أربع قطع (كوه) مما يعادل قراقه، وثلاث قليونات Galleon وست قراولات بورتغالية واثنتا عشرة قطعة غربان أي قاليته Galley، والخلاصة هاجم العدو بخمس وعشرين سفينة وهم في الحال أنزلوا التنتات[1] وتسلحوا وأعدوا آلات الحرب وتهيأوا للكفاح متوكلين على الله ورفعوا الفلانديرات (الرايات الصغيرة)، ونشروا الأعلام فأقدموا للقراع فباشروا الحرب بذكر الرسولﷺ والاستغاثة به وأخذوا بالضرب بمدافع وبنادق حتى أنه لا يستطيع المرء وصف هول ما جرى فأصيب قليون للعدو بمدفع فانسحب إلى جزيرة فك الأسداد وغرق.

وأورد سيدي علي لمسيحي:

غالباً كو مدى چشم أنجم
بو قدر حادثهٔ عظما يى
بيلمز كيم نيجه تعبير أيده يم
سكا بوواقعهٔ كبرايى

يريد أن عين النجم لم تر في غالب أحوالها هولاً كهذا فلا أدري كيف أعبر عن هذا الحادث الجلل وهذه الواقعة العظمى...

دامت الحرب إلى العشاء فكانت في أشد ما يتصور. ثم أشعل فانوس القبطان وحينئذ أطلق العدو مدفعاً لتنبيه سفنه أن تقلع عن الحرب وعلى هذا انسحبت بوارجه بعد أن اختلت آلاتها ورجعت إلى هرموز. وبهذا تغلب سيدي علي رئيس على العدو وانتصر عليه. فانهزم.

ثم إنه اشتد الظلام ظهر تشوش في الجو وبدت زوبعة كما حدثت أمطار فابتعدت السفن عن الساحل وسلكت الطريق. ساروا بمشقة حتى

(١) التنتة معروفة في اللغة العامية ومستعملة في اللغة التركية وتعني الظلال والستائر.

وصلوا مدينة خورفكان في اليوم التالي وبعد أن أخذ الجيش ماءه مضوا في طريقهم حتى وصلوا إلى ولاية عمان، وجاؤوا إلى بلدتها صحار[1]. ثم مضوا في البحر نحو ١٧ يوماً أيضاً. وفي ٢٦ من شهر رمضان ليلة القدر فاجأتهم سفن العدو مرة أخرى. جاءت من قرب مدينة مسقط وقلهات[2] هاجمتهم سحراً من ميناء مسقط وهي اثنتا عشرة بارجة واثنان وعشرون غراباً فالمجموع ٣٤ قطعة من السفن. صال بها كوه ابن الحاكم وهو القبطان ومعه جيوش لا تحصى فنصب الشراع وتقدم ببوارجه وقليوناته ونصب (مايسترا) أي (شراعاً) وبنتة (شراعاً صغيراً) لكل منها، وكذا نصبوا للقراولات شراعها، وزين العدو سفنه بفلانديرات (رايات أو أعلام صغيرة) ومشى عليهم، وهم أيضاً طلبوا العون من الله وتأهبوا في جانب من الساحل فجاءتهم البوارج فاصطدمت بالقدرغات واشتعلت نيران البنادق والمدافع فيما بين الفريقين، وتعاطوا رشق السهام وتضاربوا بالسيوف فآل الأمر إلى حالة لا يستطيع المرء وصفها.

كان هولها عظيماً حتى هلكت بوارج للطرفين واحترق بعضها وكانت ضائعات سيدي علي بارجة وست قدرغات، لحد أن أنهكت قوى الطرفين وصارت الحرب في أطراف السفن.

وكان من ضايعات العثمانيين (علمشاه رئيس)، و (قره مصطفى)، و (قلفات ممى). وقائد المتطوعين مصطفى بك الدرزي، وسائر أفراد مصر، وأصحاب الآلات، فكان المجموع نحو مائتين. وحينئذ رمى

---

(١) في معجم البلدان تفصيل عن صحار فتحها المسلمون سنة ١٢ هـ. وفي رحلة سيدي علي وردت بلفظ (سخار) وليس بصواب.

(٢) جاء في لغة العرب أنها قريات، فحرف أو صحف حين الطبع وهو بلد معروف بهذا الاسم والصواب أنها (قلهات). ومسقط وردت في معجم البلدان. وتلفظ مسكت.

العرب الذين كانوا من أصحاب المجاذيف بأنفسهم إلى الساحل فاستصرخوا عربان نجد هناك فابتدروا لمعاونة المسلمين فصاروا أدلاءهم لجانب البر، وأخذ البرتغال الذين كانوا في بوارج العدو يرمون بأنفسهم أيضاً. وكذا العرب الذين كانوا مستخدمين عندهم انسحبوا إلى بلاد العرب.

قال سيدي علي رئيس: ويعلم الله أن (خير الدين باشا) في حربه مع (آندريه طوريه) Andreas Doria لم ير هذه الدرجة من شدة وعظمة. فاضطر سيدي علي رئيس أن يبتعد عن الساحل فأمر بنصب الشراع ضرورة فانفصل عن بر العرب ودخل في بحر عمان وفي النتيجة وصل إلى بر جاش[1] من كرمان وليس في هذه السواحل ميناء يلجأ إليه. وبعد اللتيا والتي وردوا (كيچى) من ولاية (مكران) إلا أنه لم يتيسر الوصول إلى الساحل بسبب الظلام فوقفوا في البحر. ولما أصبح الصباح وصلوا بكل محنة ومشقة إلى الساحل إلى (بندر شهبار). ذهب جماعة منهم فأفهموا الأهلين أنهم مسلمون وطلبوا الماء فوافق ذلك النهار يوم العيد فصار الحصول على الماء أكبر عيد لهم. ومن هناك وبواسطة الدليل مضوا إلى بندر كوادر. أهلوها من البلوج. ملكهم جلال الدين ابن ملك دينار وأن حاكمها جاء إلى الأسطول ورحب بهم وأحضر لهم ما يحتاجون إليه من عدة كافية كاملة وكتب إلى الملك وطلب منه رباناً ومعلماً أي دليلاً للبحر في عمان وسواحله ففعل وأبدى الطاعة والانقياد للسلطان.

ثم أقلعوا من بندر كوادر ومضوا إلى بحر الهند وساعدهم الريح مدة فجاؤوا إلى ساحل اليمن مرة أخرى. ساروا في البحر أياماً عديدة

---

(١) ويقال جسك. ميناء إيران على مقربة من بلوجستان. قاله في ترجمة الرحلة إلى الإنكليزية.

ومروا من نحو رأس الحد. جاؤوا إلى ما يقارب ظفار وشحر فعاكستهم الرياح فلم يستطيعوا إدارة الشراع أو ينزلوها لشدة هذه الرياح المسماة بـ (طوفان الفيل) مع ريح (داماني) أو كما يقولون (كون باتيسي) أي ريح المغيب هذه تعد الرياح الزعازع في بحر المغرب بالنظر إليها كقطرة من بحر. ومن ثم ولشدة هذه الرياح عادوا أو جرفتهم الرياح دون أن يتمكنوا منها فصاروا إلى سواحل الهند مرة أخرى.

وصف سيدي علي هولها بأشنع أشكاله ومن ثم تغير الوضع واضطرب الأمر وكان الرئيس ينصح بحارته ويوعز إليهم بلفظ (سوغوريه) أي تأهبوا وكونوا على بصيرة. عسى العاقبة خيراً داموا عل هذا عشرة أيام. ولا تسل عما أصابهم من ارتباك ولقيهم من رعب وخوف حينما علموا أنهم في مقربة من ديار العدو. ضاق بهم الأمر ولم يبق لهم أمل إلا أن ينظروا ما يجري عليهم من قضاء. وفي خلال ذلك كان سيدي علي ينصح القوم ويوصيهم بالصبر.

مضى على ذلك عشرة أيام في البحر بين مده وجزره وزوابعه وأمطاره، فوصلوا قريباً من خليج جكد. وحينئذ صاح المعلمون بالويل والثبور لما رأوا من تغير مياه البحر وما شاهدوا من حيتانه وحيواناته فظنوا أن هذه سورة بحر الهند والورطة التي فيه (تيار أودردور). وهي قرب السند وتعرف بتيارها وخطرها لا خلاص للسفن منه فطرحوا الأثقال وبعض آلات واشتغلوا يوماً وليلة بلا توقف وباستمرار فنجوا من الخطر.

ركد الهواء نوعاً وساروا صباحاً فنظروا إلى الأطراف فرأوا أنهم في سواحل ولاية جامهر[١] شاهدوا دار الأصنام لها. ومن هناك ساروا فمروا من فورميان ومنگلور ومضوا إلى سومنات[٢] Some nat ثم وصلوا

---

(١) تقع في مقاطعة بومبي.

(٢) بلدة في جنوبي شبه جزيرة كاثياوار.

إلى (ديو) Dio وكانت بيد البرتغال، فاستولى عليهم الخوف ولا يستطيع القلم أن يعبر عما أصابهم من هول وهلع فكأنهم في يوم محشر... فوصلوا بشق الأنفس إلى ولاية كجرات من الهند. وهناك صادفهم خطر آخر وهو الشق (السورة) فزاد المصاب ولم ينجوا منه إلا بعد جهد جهيد، فوصلوا إلى (فشت قيدسور) وهذا ما بين (ديو) و (دمن) Daman[1] فلم يستطيعوا الركون إليها فمضوا إلى بندر (دمن) فحمدوا الله على السلامة بعدما لاقوا كل الأخطار والصعاب والأمطار وهذا موسم الأمطار ويقال له بارصاد. وكان ملك كجرات السلطان أحمد[2] وحاكم (دمن) ملك أسد تابعاً له. وهذا حذر من البقاء ونصح بالذهاب إلى سورت خوفاً من البرتغال فلم يتمكنوا من البقاء فقام سيدي علي رئيس بمن تبعه من البحارة فمضى بالسفن إلى سورت فوصلوها ففرح المسلمون بهم وقالوا لم نر طوفاناً مثل هذا من قديم الزمان، ولا رأينا قرصاناً أي قبطاناً[3] ماهراً في علم البحار مثلك.

ولا ننكر القدرة العلمية والمهارة الفنية في مثل هذه الأمور وإن كان التوفيق حليف القدرة البحرية في العدد وكمال العدد وقد اتخذ العدو لها الأهبة، ولم يترك وسيلة لا سيما في وقت لم تتغير فنونه الحربية، بل تكاد تكون مشتركة بين الفريقين ولم تختلف إلا في الكمال، والنقصان، ولم تعرف الأوضاع الجديدة بعد مما تعد من أركان السيطرة على الأمم والبحار...

---

(١) مستعمرة برتغالية في خليج كمباي.

(٢) هو أحمد شاه الثاني ابن محمود شاه ولي سنة ٩٦١ هـ ودام حكمه إلى سنة ٩٦٩هـ. (دول إسلامية ص ٤٨٤).

(٣) عند الغربيين يقال Corsair أو Corsaire ويطلق على السفن الخاصة بتعقب العدو. وأصحابها قراصنة. ثم صار يسمى سراق البحر من أصحاب السفن بهذا الاسم. وألغيت القرصانية أو القرصنة سنة 1856 م.



زيارة السلطان سليمان مشهد الإمام الحسين ـ كتاب فضولي

ثم تفرق أعوانه وتركوا ما لديهم من سفن وساروا من طريق البر حتى عادوا إلى بغداد براً بعد سياحات طويلة.

ذلك ما دعا أن يكتب سيدي علي رئيس (مرآة الممالك) فيوضح فيها ما جرى عليه من الأهوال وكيف تفرق عنه أعوانه واضطر أن يبيع السفن وأن ترسل أثمانها إلى السلطان[1].

والحاصل شرح قصته ووصف ما رأى من بلاد في ممالك مختلفة فكانت رحلته هذه خير أثر، وفيها الكثير من مصطلحات البحارة وإيعازاتهم وآلاتهم. وسياحته براً أبدع. سار بمن صحبه من جماعته حتى عادوا إلى بغداد[2].

العلاقة البحرية الأولى
بالعراق والسواحل العربية

إن جهود الدول الإسلامية المبذولة ـ وللعراق النصيب الأوفر منها ـ في خلال العصور الماضية من سياحات واكتشافات لأصقاع وممالك نائية أدت إلى تكوين أساطيل قوية، وتوسيع في القدرة البحرية. فسهلت أن تكون تجارتها طليقة، وأوضاعها في صالح نفعها. وهذه اكتسبت شكلاً ثابتاً مشت عليه في خلال القرون العديدة فلا يحتاج إلى تجديد عهد، أو مفاوضات مستمرة ولم يكن ليخطر بالبال أن تنتهك حرمة هذا البحر، أو ما يشوش أمر هذه التجارة، أو يحاول أجنبي أن يقضي عليها أو يخرج على المقرر المعتاد... لذا فكر المحصورون من الغربيين أن يستغنوا عن الاتصال بالهند بواسطة مصر من جراء سيطرة الدولة العثمانية

---

(١) في المجلد الثاني من منشآت فريدون صور الكتب المرسلة إلى ملك كجرات وإلى حاكم سورت وفيها إيضاح رسمي (ج ٢ ص ٢١٩ و ٢٢٠).

(٢) مرآة الممالك (رحلة سيدي علي رئيس) ص ٢٧، وتحفة الكبار ص ٦٦ والتفصيل في هذين الكتابين.

على البحر الأبيض المتوسط فالتمسوا أن يكون طريق تجارتهم أوسع أو حراً خالصاً لهم، فصاروا يتحرون ما يسهل أمر هذه التجارة وأن يأتوا من طريق أخرى لعلهم يستفيدون منها ويخرجوا إلى مواطن جديدة. فكانت نتائج ذلك أن اكتشف الأسبان أميركا من ناحية نائية لم تمس حقوق التجارة الإسلامية والشرقية كما أن البرتغال اكتشفوا «رأس الرجاء الصالح» ويسمى (رأس عشم الخير) عند المصريين، فجعلوا سفنهم تتجول في سواحل إفريقيا، وسواحل العرب، وسواحل الهند.. كان ملك البرتغال عمانوئيل الأول قد أمر واسكو دوغاما الأميرال أن يذهب بسفنِهِ لاكتشاف طريق الهند فسار من لشبونة سنة ١٤٩٧م ـ ٩٠٣هـ خرج إلى سواحل إفريقيا الغربية حتى وافى رأس الرجاء الصالح. وتمكن من السيطرة على تلك الأنحاء. وإن سلطة العثمانيين كانت قوية في البحر الأبيض المتوسط، والصلة بمصر للاتصال بالهند كانت مخطرة صعبة جداً على البرتغاليين، فالتمسوا الطريق إلى الهند، فتمكنوا من الوصول إلى الغرض. وسيطروا على سواحل المحيط الهندي، وقطعوا الصلة بالتجارة إلا من طريقهم.

ذلك ما هدد تجارتنا وتجارة الهند معاً، أو حول وضعها، ومثلها تجارة إيران، ومصر وصرف وجهتها ومبدأ ذلك على ما دونه مؤرخونا قد تعين أيام السلطان الغوري. فتغيرت الحالة.

قال في الشذرات: «في آخر أيام الغوري[1] في حدود سنة ٩٢٠هـ ظهر البرتقال على بنادر الهند، استطرقوا إليها من بحر الظلمات (البحر

---

(١) الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن عبد الله الجركسي المشهور بالغوري (٩٠٦ هـ: ٩٢٢ هـ) وخلفه طومان باي ابن أخيه من سنة ٩٢٢ هـ: سنة ٩٢٣ هـ) وهذا آخر ملوك الدولة الجركسية بمصر فانقرضت دولتهم باستيلاء السلطان سليم الياوز من ملوك العثمانيين عليها وقتله في ١٢ جمادى الأولى سنة ٩٢٣ هـ ـ ١٥١٧ م.

المحيط الأطلسي المعروف بالأتلانتيكي) من وراء جبال القمر منابع النيل (اجتازوا من رأس الرجاء الصالح) فعاثوا في أرض الهند ووصل أذاهم وفسادهم إلى جزيرة العرب وبنادر اليمن وجدة. فلما بلغ السلطان الغوري ذلك جهز عليهم خمسين غراباً مع الأمير حسين الكردي[1] وأرسل معه عسكراً عظيماً من الترك والمغاربة واللوند وجعل له جدة إقطاعاً وأمره بتحصينها. فلما وصل حسين الكردي شرع في بناء سورها وإحكام أبراجها وهدم كثيراً من بيوت الناس مع عسف وشدة ظلم بحيث بنى السور جميعه في أقل من عام ثم توجه بعساكره إلى الهند في حدود سنة ٩٢١هـ. فاجتمع بسلطان كجرات (خليل شاه)[2] فأكرمه وعظمه وهرب الفرنج عن البنادر لما سمعوا بوصوله. ثم عاد حسين الكردي إلى اليمن فافتتحها من (بني طاهر) ملوكها وقتل سلاطينها في هذه السنة وترك فيها نائباً في زبيد اسمه (برسباي الجركسي). وتم الأمر الذي لا مزيد عليه له وللسلطان الغوري... ثم عاد حسين إلى جدة وقدم مكة فبلغه زوال دولة الغوري. وورد أمر السلطان سليم بقتل حسين الكردي فأخذه شريف مكة بغتة وقيده وشمت به وأرسله لبحر جدة فغرقه فيه»[3].

ويوضح هذا ما جاء في البرق اليماني في الفتح العثماني:

---

(١) قال عنه في سجل عثماني: «هو كردي وأن البرتغال بدأوا في ضبط كجرات ودكن واليمن في سنة ٩٠٠ هـ فأرسل عليهم الغوري قوة عسكرية فكان قائد الحملة. وفي سنة ٩١٧ عمر جدة وفي سنة ٩٢٢ سد البرتغال المضيق واتفقوا مع أمير اليمن عامر وأخذوا منه المؤونة وحاربوا للمحافظة عن عامر وفي السنة المذكورة ضبط اليمن ثم عاد إلى جدة فبين له الشريف أبو نمي بعد أن ضبط السلطان مصر أنه يقدمه إلى السلطان فقتله وكان ظالماً سفاكاً». (ج ١ ص ١٨٢).

(٢) لم يعرف هذا الاسم بين سلاطين كجرات، وقد رأينا في البرق اليماني أنه مظفر شاه وهو الأولى والأصح موافقاً لما في تواريخ عديدة. (منها دول إسلامية).

(٣) الشذرات ج ٨ ص ١١٥. واللوند جيش بحري. (وخان اللاوند) محلة ببغداد كانوا فيها.

«وقع في أول القرن العاشر من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرتقال من طائفة الفرنج... إلى ديار الهند، وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة في البحر ويلجون في الظلمات، ويمرون خلف جبال القمر.. ويصلون إلى المشرق، ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق أخذ جانبه جبل، والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الأمواج، لا تستقر به سفائنهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد، واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون في ذلك المكان ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند إلى أن خلص منهم غراب إلى الهند، فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد[1] صاحبه كبير الفرنج وكان يقال له الأملندي[2] وعاشره في السكر فعلمه الطريق في حال سكره. وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا في البحر ثم عودوا، فلا تنالكم الأمواج، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من السكر كثير من مراكبهم، فكثروا في بحر الهند.. ثم أخذوا هرموز وتقووا هناك وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتغال، فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً، ويأخذون كل سفينة غصباً إلى أن كثر ضررهم على المسلمين وعمّ أذاهم على المسافرين، فأرسل السلطان مظفر شاه[3] بن محمود شاه بن محمد شاه سلطان كجرات يومئذ إلى السلطان الأشرف قانصوه

---

(١) هذا الشخص الماهر. قد عبر عنه الغربيون بأنه (كاناكا) ويراد به الرياضي الفلكي ولم يسموه باسمه واللفظة جاءت من الهند، ويقصد بها العالم بأمر البحار. ويعنون ابن ماجد.

(٢) ويقال الملندي أو الميرانتي لفظة إسبانية يراد بها أميرال أو ربان البحر (الملاح العربي ص ١١).

(٣) توفي سنة ٩٣٢ هـ ـ ١٥٢٥ م وترجمته في النور السافر ص ١٩١ ـ ١٩٢ طبعة بغداد ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٤ م.

الغوري يستعين به على الإفرنج . .» هـ[١].

وجاء في النصوص الغربية ما يؤيد ما ذكره العرب وأوضح عنها الأستاذ محمد ياسين الحموي في رسالته الملاح العربي[٢]، وكذا جاء خبر هؤلاء في النور السافر أيضاً. وهذه وثائق معاصرة تعين مبدأ دخول البرتغال، وطريقته إلا أننا نقطع بغلط الرواية القائلة بأن واسكو دوغاما أسكر أحمد بن ماجد فباح له بسر عبور رأس الرجاء الصالح، واجتياز تياره المحدق بالخطر من جراء أنه أي أحمد بن ماجد يفتخر بأنه حاج الحرمين، ويبين وصفه العلمي، وإذا كان قد جاء من الغزل، أو التغني بشرب الخمر في أوائل منظوماته البحرية فهذا تحبيب لحفظها كما هو شأن العرب في نظمهم وتشبيبهم أو غزلهم، أو تقديم ما ولع به المرء من شرب الخمرة. . . وجاءت النصوص الغربية المعاصرة والتالية مكذبة لهذا الخبر. وفي النور السافر تعرض لذكر بعض وقائعهم. وعبر عنه بـ (الإفرنج) فبين وقائعهم في عدن وكذا في الشحر[٣].

إن آمال البرتغال كانت مصروفة إلى النهب والسلب، والاستعمار وإلى ترويج تجارتها، أو التوسط في تجارة غيرها ونقلها لمن تحتاجه فكانت البذرة الأولى لانتزاع التجارة من المسلمين وتحويلها إلى جانب أوروبا واستعمار البلاد الكثيرة بالقضاء على استقلالها وقد جاء عن هذا الحادث من ناحية العراق وفارس أيضاً في (كتاب وجهة الإسلام) ما نصه:

«لما احتل البرتغاليون هرمز في الخليج الفارسي في القرن السادس

(١) البرق اليماني في الفتح العثماني.

(٢) الملاح العربي ص ٧ و ١٠ طبعت سنة ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م في المطبعة الهاشمية بدمشق وله الأسطول العربي أيضاً.

(٣) النور السافر ص ٩٧ و ٢٠٨.

عشر قطعوا كل صلة بحرية بين الهند وفارس ليفوزوا باحتكار هذا الطريق...» اهـ.

وأقول بل بين الهند والعراق ومصر أيضاً وحولوا وجهتها إلى ناحيتهم فقبضوا عليها بيد من حديد[1]...

ومن ثم انتهت حكومة الچراكسة في التاريخ المذكور وكان لهم أسطول[2]. وابتدأت علاقات الترك العثمانيين البحرية مع حكومة البرتغال فإنهم ورثوا حكومة مصر. وكانت سابقاً تجارة الهند مرتبطة بالغرب من طريق مصر والبندقية (ونديك) ومن طريق الشرق بالعراق وبنادر العجم. فالوجهة تغيرت بمزاحمة الإسبان والبرتغال فالأولى اكتشفت أميركا والأخرى وجدت طريقاً للهند من جنوبي إفريقيا من رأس الرجاء الصالح. وأول ما عرف من علاقاتهم أنهم عاثوا في أنحاء البحر المحيط الهندي وسواحل العرب وإيران فقام ملك مصر بما قام به على يد قائده حسين الكردي. كانت قتلته السبب في تمكن البرتغال في تلك الأنحاء دون معارض أو مقاوم. والبحرية العثمانية في ذلك الحين لم تؤسس في البحر الأحمر (بحر القلزم) ومشغوليات العثمانيين في الفتوح والحروب البحرية الأخرى ألهتهم عن الالتفات كثيراً إلى البحرية في تلك الأطراف...

ذلك ما دعا أن تنقطع المواصلات بين الهند ومصر والبندقية وبين الهند والعراق وتتوجه إلى البرتغال من طريق رأس الرجاء الصالح أو على يدهم في العراق وبذلك تمكنوا من قهر السواحل لهم وإذعانها

---

(١) وجهة الإسلام ص ٢٢.

(٢) تاريخ أسطول مصر من أيام الأيوبيين مذكور في قوانين الدواوين لأسعد بن مماتي، ومن أيام من بعده في خطط المقريزي، وفي كتاب حقائق الأخبار في دول البحار في المجلد الثاني منه.

لمطالبهم... بقوا بلا مزاحم أو معارض. ولا يزال النبز عندنا بـ (پورتكيشي) أي برتغالي معروفاً وهذا يعني السفاك المعتدي الأثيم...!!

والحكومة العثمانية ـ بعد أن استولت على أكثر الممالك الإسلامية ـ صارت ترى نفسها المالكة لبلاد المسلمين، الوارثة لها المسيطرة على مصالح المسلمين بل الحامية لها. فلا يوافق مصلحتها أن تجعل جزيرة العرب وسواحل الهند تحت تحكم البرتغال وعتوهم بل لا ترضى أن يتجاوز أمثال هؤلاء على مصالح المسلمين ويجعلوها تحت نفوذهم. ففكر السلطان سليمان القانوني في الأمر وكان آنئذ أكبر ملوك الأرض. ففي سنة ٩٣٢ هـ نصب قائداً على أسطوله في البحر الأحمر أحد المشاهير هناك وهو (سليمان رئيس) وتحت نظارة هذا القائد بدأت الحكومة بتأليف عمارة (أسطول) وتجهيزه في بندر السويس فتمكن من عمل أسطول قوامه من ٢٠ قادرغة.

فكان هذا الأميرال أول من فوض إليه أمر تكوين الأسطول العثماني في البحر الأحمر وهكذا تولى بعده من تولى بالوجه المبسوط.

أما البرتغال فإنهم استفادوا من انحلال حكومة مصر. والعثمانيون كانوا آنئذ في حروب بحرية وبرية دامية في البحر الأبيض المتوسط، والممالك الأخرى كمحاصرة فينة والتوغل في تلك الأنحاء مما لم يعد بالفائدة فهمهم المطاحنة مع الأصل لا القرصنة في بحر عظيم لا يدرك له منتهى. وعلى هذا فالبرتغال اكتشفوا جزيرة زنكبار عام ١٥٠٣ قبل كل شيء، فكانت قاعدة وفي عام ١٥٠٧ وصلوا إلى مسقط من جزيرة العرب، وعام ١٥٠٨ ضبطوا بوغاز هرمز، وفي سنة ١٥٠٩ نصبوا أميراً لمستملكاتهم في الهند سواء في مليبار، وسرنديب وما لاقه مما لا يسع المقام تفصيله[1].

(١) أسفار بحرية عثمانية ج ١ ص ٤١٦.

والحكومة العثمانية في هذا الحين لم تنظر إلى ما يهدد سلامة الحكومات الإسلامية في سواحل إفريقيا والهند إذ لم يصف لها الجو لانشغالها بحروب أخرى إلا أن الذي أثار ذلك، ونبه على الخطر المحدث كان ملك كجرات «الملك محمود» ابن مظفر شاه[1]. فقد استعان بالسلطان سليمان وكانت قد طبقت شهرته الآفاق وحاول الملك محمود بذلك رفع سيطرة أولئك.

ومن ثم تأهب السلطان للأمر تأميناً لسواحل العرب وتخلصها للحكومة العثمانية من جهة، ومنع تجاوز البرتغال على الهند من أخرى وفوض أمر القيام بذلك لأمير أمراء مصر آنئذ سليمان باشا عام ٩٣٧ هـ وكان اتخذ له أسطولاً اشتغل بإعداده من سنة ٩٣٢ هـ إلا أن الأمر لم يتم وذلك لأن أمير أمراء مصر رافق السلطان سليمان في فتح بغداد. فتأخر أمر ذلك لمدة.

وبعد أن تم الفتح عاد سليمان باشا لمهمته الأولى. من جهة أن بهادر شاه حاكم كجرات وهو أخو محمود شاه قد التجأ أيضاً إلى السلطان وطلب حمايته من جراء المهاجمة التي أصابته من همايون شاه من آل بابرشاه. وورد السفراء من بهادرشاه[2] عام ٩٤٣ هـ وبينوا أن مهاجمة همايون شاه واستيلاءه مما يسهل للبرتغال فتوحهم وقوى آمالهم فاكتسحوا بندر ديو من كجرات. ذلك ما عجل القضية وسرع فيها ولم يمكن من إتمامها فسار في أواخر محرم الحرام[3] سنة ٩٤٦ فيما عهد

---

(١) محمود شاه الثاني. ولي الحكم سنة ٩٣٢ هـ - ١٥٢٥ م ودام إلى نفس السنة (١٥٢٦ م) فخلفه بهادر شاه أخوه.

(٢) في ثالث رمضان سنة ٩٤٣ هـ - ١٥٣٧ م قتل السلطان بهادر ابن السلطان مظفر صاحب كجرات في (بندر الديو). (النور السافر ص ٢١٠).

(٣) في كتاب محاربات عثمانية أنه سار في ١٥ المحرم سنة ٩٤٥ هـ الموافق ١٣ حزيران سنة ١٥٤٨ م من السويس ووصل عدن في ٧ ربيع الأول (ص ١٩ منه).

إليه بالوجه المذكور فلم يتيسر الاستيلاء نظراً لقلة ذخيرة العسكر، والتجهيزات. ومما عسر الأمر أن جهان شاه قد توفى في الأثناء فخلفه السلطان محمود ملك كجرات[1] فلم يساعد مما صعب الأمر ودعا للعودة. ولم تعرف آنئذ قدرة العثمانيين من جهة أن الأسطول البرتغالي لم يستطع أن يقاومهم، أو يتحارب معهم. وعلى كل أصابته الرهبة والظاهر أنه فر من وجههم خوفاً ورعباً، أو لم تكن فيه استطاعة لمقاومته فلم يتأهب للطوارىء، وأن سطوة الأسطول العثماني كانت ظاهرة للعيان من جراء اكتساحها مدينتين عظيمتين من مستملكات الهند. فكانت هذه السفرة من بواعث الأسفار الأخرى فقد دعت إلى آمال السيطرة على البحر المحيط الهندي[2]...

ومن ثم تزايدت علاقات الحكومة العثمانية بالهند وأمرائه ففي سنة ٩٥٠ هـ أرسلت الحكومة العثمانية سفينة حربية بقيادة (يوسف تركي)، وأخرى بقيادة (حسين تركي) إلى حاكم كجرات وفيها من المهمات وآلات الحرب مع عساكر لمعاونة الحاكم المشار إليه إلا أنه لا تعطف أهمية كبرى لأمثال هذه وإنما تعد العمارة الكبرى ما كانت أيام سليمان باشا فإنها يحسب لها حسابها.

وإن العثمانيين بعد أن سحبوا أسطولهم «أيام سليمان باشا» عاد البرتغال إلى عدن فاتحد الأهلون معهم وسلموا البلد إليهم لما رأوا من العثمانيين ما أبعدهم عنهم. وفي تلك الأثناء كان الأميرال في البحر الأحمر (پيري بك رئيس) المشهور فأرسلته الحكومة إلى تلك الأطراف للتنكيل بالعدو فتمكن من استرداد عدن. ذلك ما دعا السلطان أن يبتهج

---

(١) في ١٣ ربيع الأول سنة ٩٦١ هـ ـ ١٥٥٤ م توفي محمود شاه ابن لطيف شاه المذكور. قال في النور السافر في زمنه أخذ الإفرنج (البرتغال) الديو من المسلمين (ص ٢٥٢) هذا مع أن مدينة ديو قد استولى عليها البرتغال قبل سلطنته.

(٢) أسفار بحرية عثمانية ج ١ ص ٤٢٢ ومرآة الممالك ص ٤.

به ويزيد في راتبه، ويجعل زعامة البحر الأحمر له وسماه (قبودان بحر القلزم). وفي المرة الثانية جرد عمارته وصدر إليه الأمر ليتجول في سواحل جزيرة العرب. ولينظم أمورها ويستعيد المواقع الأخرى التي كان قد استولى عليها البرتغال فقام من ميناء السويس عام ٩٥٩ هـ ـ ١٥٥٢ م فجرى ما مر تفصيله...

والحاصل أن الحروب الأخيرة قد خذلت العثمانيين ولم يعد بالإمكان إعادة الحياة لهم من جراء ما أصاب (سيدي علي رئيس) من ضربة قاسية والبرتغال اهتموا من عهد الحروب الأولى واتخذوا العدة الكافية وحكموا السواحل. فلم يكن في الإمكان للعثمانيين أن يستعيدوا نشاطهم فاستولى البرتغال على السواحل المهمة، ووضعوا أيديهم على الاقتصاديات فكانت سفرة (سيدي علي رئيس) هي الأخيرة فلم يطيقوا القيام بأخرى بعدها أقوى منها ليبالوا المركز اللائق في جزيرة العرب وسواحلها، والهند وما والاه. وعلى كل كانت أغلاط العثمانيين كبيرة، ابتدأت بقتلة (حسين الكردي)، ثم التعديات والقسوة في سواحل اليمن،ثم في سواحل عدن. وللشائعات الرديئة أثرها في النفوس. ومن جهة أنهم لم يهتموا الاهتمام كله بل كانت اشتغالاتهم في الأنحاء الأخرى أكبر وهي غير مجدية أيضاً.

ولو كان العثمانيون نجحوا على يد سيدي علي أو غيره لتبدلت الحالة، ولتمكن هؤلاء من تأسيس بحرية صالحة وأسطول مهم، ولكان تعرف القوم بأحوال البحار هناك من طريقها العلمي بما عثر عليه سيدي علي رئيس من مؤلفات بحرية من جهة واستعانة بالعرب ممن مارس الأسفار البحرية من أخرى.

هذا، ولم يكن الأمر مقصوراً على البرتغال وإنما دخلت السياسة الغربية في الهند من كل صوب فضيقت الخناق على التجارة وعلى

الصلات إلا من طريقها. أعقبت البرتغال دول أخرى في التسلط على الهند من طرق مختلفة فكانت أول شركة للدانيمارك دخلت في سنة ١٦١٢ م وانحلت هذه سنة ١٦٣٤ م، ثم دخلت شركة هولندية في سنة ١٥٩٤ م. وهكذا الشركة الإنكليزية دخلت الهند بعد الهولنديين، وسميت (شركة الهند الشرقية). كان ذلك سنة ١٦١٠ م وهذه الشركة تملكت مدراس سنة ١٦٣٩ م. وتمكنت من التوسع سنة ١٦٨٦ م. وفي أيام (أورنك زيب) جرت معركة كادت تقضي على شركتهم لولا أن إمبراطور المغول صالحهم، فثبت وضعهم. وهكذا دخل الفرنسيون الهند.

وكان البرتغال حاولوا التسلط على البحر المحيط الهندي من ناحيتين إحداهما أن يجعل لهم مستقر في البحر الأحمر، وآخر في جزيرة هرموز، فتمكنوا من هرموز بعد سعي طال من سنة ١٥٠٧ م إلى سنة ١٥١٥ م فتوصلوا إلى الاستيلاء عليها ولم يشاؤوا إلا أن يسيطروا على تجارة الهند وأن لا تكون إلا من طريقهم. وهكذا كان عمل الدول الأخرى، ولم تكن لهم آمال الاستيلاء على إيران أو العراق وإنما إيجاد صلات تجارية[1].

الأسطول العثماني وما يتألف منه

إن العثمانيين لم يكونوا في الأصل محاربين بحريين، ولا أرباب بحرية، ولا كانت لهم علاقة في محاربة أعدائهم في الأنحاء البعيدة التي يفصل بينهم وبينها البحر. ولهم في المواطن البرية الكفاية. في أول أمرهم استغنوا بالچكديرمات المسماة (قره مرسل). وهذه من نوع زوارق

---

(١) تاريخ سياست خارجي إيران ص ٥٠ وما بعدها لمؤلفه الدكتور كاظم صدر وترجمه جواد صدر طبع سنة ١٣٢٢ ش.هـ.

بحر المرمرة مما يستعمل للتقليات التجارية في أيامنا بصورة معتادة.

وقد مرت الأيام على ذلك ثم إنهم كونوا بحريتهم الأخيرة التي قارعوا بها أكبر الحكومات البحرية آنئذ. فاحتذوا البندقية (ونديك) في سفنهم الحربية فزادوا في جسامتها وبدلوا أشكالها، وغيروا هيئاتها فتجاوزت أنواعها العشرة وصارت صنوفاً عديدة لكل منها اسم وقد مر بنا أسماء بعضها. وهذه بصورة عامة كانت تتحرك بالشراع تارة، وبالمجاذيف أخرى. ويفرق بين صنوفها بسهولة بالنظر لما تحتوي عليه من مقاعد للبحارة وذلك:

١ ـ (فرقته) Frigate وتحتوي على عشرة مقاعد إلى سبعة عشر[1].

٢ ـ (قرلانغيج) وهي أصغر أنواع (فرقته) وتسير مجاذيفها بواسطة شخصين أو ثلاثة. وهذه سريعة السير. ولها شراع.

٣ ـ (البركنده) Brigantin وفيها 18 مقعداً، أو 19.

٤ ـ (القاليته) Galley تحوي 20 إلى 24 مقعداً. وتسير بالمجاذيف وبالشراع.

٥ ـ (القادرغه) Galley تحوي على (25) مقعداً.

ويطلق على هذه جميعها (عمارة صغيرة).

٦ ـ (باستاره)، أو (باشتارده). Bastard تحتوي على 26 إلى 36 مقعداً.

٧ ـ (باشتاردة الباشا) الباشتاردة بعينها وفيها ٣٦ مقعداً تاماً.

٨ ـ (ماونة) من نوع سابقتها، وكل مجذاف منها يجذف به خمسة أشخاص، أو ستة، أو سبعة.

---

(١) قال شمس الدين سامي: كل سفينة قديمة لها ثلاث سوار تسمى بهذا الاسم.

وتسمى عند الترك ماعونه أيضاً. وأصلها معونة العربية وعند البنادقة Mahon. وهي الشلندى المعروف عند اللاتين بـ Chelandium واستعملها العرب باسم صندل. قال في تاريخ الأسطول العربي:

«من المراكب الحربية الكبيرة مسطحة لحمل المقاتلين والسلاح. وتعادل في أهميتها الشونة... ولها ساريتان أو ثلاث سوار. يبلغ طولها ١٩٥ قدماً وعرضها ٣٣ قدماً. وكانوا يجهزونها بـ ٢٤ مدفعاً وحمولتها ٦٠٠ شخص»(١).

والصندل كان يعمل من شجر الصندل فسمي بذلك وهو زورق عريض. ويقال له (فلكه) أو (فولوقه).

٩ ـ (كوكه) و (كوه). وهذه تزيد على الماونة في أنها تحتوي على مخزن للمدفع أو بالتعبير الأصح الجهة السفلية منها كالماونة والفوقية كالقاليون. وقد صنع منها أيام السلطان بايزيد الثاني اثنتين لمرة واحدة تحوي كل واحدة منها ١٥٠٠ (طن).

والسفائن المذكورة كلها من نوع (چكديرمه) أو (چكديرى).

١٠ ـ (القاليون) Galleon. وتحتوي في الأصل على أكثر من جانب ولا تسير في الغالب إلا بالشراع. وهذه أشهر أنواعها:

(١) قاراقا Carack. استعملت في أيام السلطان سليمان القانوني وحملها بين (1500 و 2000) طن. والظاهر أنها (الحراقة)(2).

---

(١) تاريخ الأسطول العربي ص ٣٨: للأستاذ محمد ياسين الحموي طبع بدمشق سنة ١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٥ م.

(٢) قلت لعلها الحراقة فبين الدكتور (مصطفى جواد) أنها من السفن النهرية لا السفن البحرية، وأن حمولتها لا تكون ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ طن، وأقول ألا يصح استعارتها لنوع من السفن البحرية. والمهم أن يرجع إلى تاريخ هذه اللفظة. وربما كان العرب استعاروها من أصل.

(٢) بارچه. وهي من السفن الجسيمة الحربية.

(٣) قاراوه لا Caravella سفينة حربية قديمة.

(٤) پولاقا Polacca.

(٥) پورتون Portolano. استعمل في الأيام الأخيرة أي بعد الألف ويحمل 40 إلى 45 مدفعاً.

(٦) كوكه (كوره). من نوع قاليون. أول من استخدمها السلطان بايزيد الثاني وتعد من نوع چكديرمه أيضاً. مر الكلام عليها.

(٧) قپاقا. أحدثت سنة ١٠٩٣ وتحمل ٨٠ مدفعاً.

(٨) انبارلى. تحمل ١١٠ مدافع. وكان منها محمودية وسليمية فبقيتا إلى الأيام الأخيرة.

ومن ثم يظهر نوع السفن المذكورة في الوقائع التاريخية إلا أن هذه المصطلحات وصلت إلى العثمانيين من البندقية ولم يستعمل إلا لفظ (غراب) في مصطلحات الكتب القديمة وكذا (بارچه) وهي البارجة العربية بعينها. وتسهل المعرفة والمقابلة بالسفن العربية من طريق الحمل أو عدد المقاتلة، أو مقابلة اللغات.

هذا، وأوضح كاتب چلبي في كتابه (تحفة الكبار في أسفار البحار)[1] أنواع السفن البحرية العثمانية، وما تكون منه أسطولها أيام عزها، وذكر الوقائع البحرية إلا أن غالبها مما يعود للبحر الأبيض المتوسط، وليس لوقائع الهند إلا النصيب القليل، فلم يتوسع في الإيضاح. والمصطلحات تابعة لمواطن صنع السفن، والأخذ به من علمائها ورجال صناعتها، فشاعت ألفاظ، وعارضتها أخرى، فنرى الاختلاف بينها كبيراً. وفي (كتاب أسفار بحرية) تفصيل للمصطلحات

(١) تحفة الكبار طبع مصوراً في سنة ١٣٢٩ رومية باستانبول في المطبعة البحرية.

ومقابلة لغاتها ومباحث موسعة في تاريخ السفن البحرية. وتصاوير مهمة[1].

وفي أيام الدولة الأيوبية ذكر لأسماء المراكب البحرية ذكرها ابن مماتي في كتاب قوانين الدواوين[2] وإن أسماء السفن جاء ذكرها في مجلة (العالم الإسلامي البغدادية في المجلد الأول منها). وفي لغة العرب، وفي رحلة ابن بطوطة وفي كتاب (تاريخ الأسطول العربي)، وفي كتاب (الملاح العربي)، وفي خطط المقريزي. وفي كتب ومجلات عديدة[3].

مؤلفات العرب في علم البحار
وكتاب المحيط

مؤلفات العرب في الهيئة كثيرة. توغلوا في علومها وتفرعاتها، وإن علم البحار يتناول الوجهة التطبيقية والعملية من هذا العلم مع اتصال بالجغرافية وبالتجارب الفعلية. وهذه مما يخص علم البحار.

وكان الرئيس سيدي علي في رحلته قد مر بالهند، وهناك رأى آثار العرب القديمة والحديثة في علم البحار، فصرف أكبر همه في أن يعرف ما يقع نظره عليه، أو تصل إليه يده مما يتعلق بالمحيط الهندي وما جاوره من بحار كالخليج الفارسي، وبحر القلزم (البحر الأحمر)، وسائر السواحل المتصلة أو كان مما يبحث في علم الأنواء، أو أبعاد البحار أو حالات طبيعية وطرق ومد وجزر ورياح وتعيين جهات... فظفر ببغيته،

---

(١) كتاب أسفار بحرية عثمانية طبع سنة ١٣٠٦ هـ للأستاذ محمد شكري مدرس التاريخ في مكتب البحرية.

(٢) قوانين الدواوين ص ٣٣٩.

(٣) المقتطف ج ١٣ ص ٥٠٥ وج ٤٤ ص ٤٠١ وج ٨٤ ص ٦٢ وص ١٨٤.

ونال رغبته. فنقل ذلك من كتب انعرب، وتكونت منها له مجموعة كبيرة سماها بـ (المحيط) كما سبقه پيري رئيس في (كتاب البحرية). وممن نقل آثارهم من مؤلفي العرب:

١ ـ ابن ماجد:

رئيس علم البحر وفاضله، وأستاذ هذا الفن وكامله الشيخ شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمر بن فضل بن دويك بن يوسف ابن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي المعقلي، ابن أبي الركائب النجدي. ومن هنا نعلم أنه من أهل نهر معقل من البصرة.. وكان من أكابر علماء الفن ووالده كان من البحارة العلماء، وكذا جده...

جاء ذكره في النص المنقول من البرق اليماني في الفتح العثماني وعلاقته بالبرتغال معلومة وتعين تاريخه.

ومؤلفاته:

(١) كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد. ألفه لركاب البحر ورؤسائه. ألفه سنة ٨٨٠ هـ.

(٢) حاوية الاختصار في أصول علم البحار. أرجوزة نظمها سنة ٨٦٦ هـ. وذكر فيها الرياح ومواعيدها، والمنازل وما فيها من مصطلحات، وأوضح عن المواسم وأوقاتها، وذكر سواحل عديدة، وعلاقة الفلك بأقطار عديدة والبلدان التي على سواحلها.

(٣) الذهبية. أرجوزة. وشرحها أيضاً. ألفها في سلخ جمادى سنة ٨٦٥ هـ.

(٤) المعربة. أرجوزة أيضاً.

(٥) أرجوزة في تعيين القبلة.

(٦) أرجوزة بر العرب في خليج فارس.

(٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣) كلها أراجيز.

(١٤) السبعية. ألفها سنة ٨٩٦ هـ وجاء اسم مؤلفها في آخرها وهو ابن ماجد الموضوع البحث.

(١٥) هادية المعالم.

وهذه المجموعة من الرسائل والأراجيز جاءت في مجموعة خزانة باريس وطبعت بالزنك في مجلدين.

(١٦) الميل. وجدت في مجموعة الدكتور داود الجلبي. وجاء فيها أن السبعية من مؤلفاته فتعين أنها لأحمد بن ماجد المذكور، فزال الشك فيها. ولا عبرة بغلط الاسم.

(١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٦) وهذه كلها قصائد في أغراض بحرية مختلفة.

ظفر الأستاذ سيدي علي رئيس بمؤلفاته فنقلها إلى التركية وجمعها في كتابه (محيط)، وإن الغربيين استعانوا بآثاره ونقلوا (محيط) إلى اللغة الألمانية. فكانت الاستفادة عامة من كتب ابن ماجد.

٢ ـ ماجد بن محمد:

وهذا من مشاهير البحريين العلماء وله من المؤلفات:

(١) الأرجوزة الحجازية. وتتجاوز ألف بيت.

٣ ـ سليمان بن أحمد بن سليمان المهري المحمدي:

لم نستطع أن نعين تاريخه ولا التعرف بمعاصريه.

والملحوظ أنه لم يتعرض لذكر ابن ماجد ومؤلفاته بقبول أو ردّ. والظاهر أنه قبله. ومن مؤلفاته:

(١) رسالة في علم التواريخ سماها (قلادة الشموس واستخراج قواعد الأسوس). في معرفة السنين المشهورة عند الجمهور القمرية، والشمسية والرومية والقبطية والفارسية.

(٢) تحفة العقول في تمهيد الأصول. ذكر فيها أن له كتاباً سماه (المنهاج) وشرح تحفة العقول أيضاً. وهذا الكتاب في صفة الأفلاك والكواكب، والمقاييس من درجة، وأزوام، وأصابع، ودبان ومصطلحات أخرى.

(٣) العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية.

يتناول موضوع هيئة وجغرافية مع بيان علاقتهما بعلم البحار، والمواقيت، وكذا الرياح ومواسمها بالنظر للمواطن التي يجري السفر فيها. وفيه السفر من جدة إلى عدن وهكذا يمضي في ذكر أسفار عديدة. والمؤلف لم يكتف بالمؤلفات العربية، وإنما كان يعتمد على كتب الهند والعجم.

(٤) كتاب المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر:

جامع لعلم البحور المعمورات. وفي كتابه (تحفة العقول في تمهيد الأصول) صرح أن المنهاج له.

وهناك رسائل لم يعرف مؤلفوها جاءت في المجموعة البحرية طبعة باريس، وكذا في مجموعة الأستاذ الدكتور داود الچلبي وهي مصورة.

وهذه المجموعات من الآثار الجليلة المتعلقة بعلم البحار. ولها قيمتها. وفيها ما يكشف عن بعض الغموض عن هذا الفن الجليل. وباقي الرسائل في مجموعة الدكتور جاءت متأخرة، وقريبة من عصرنا كما يفهم من تواريخها. فكانت مكملة لما في المجموعة الباريسية...

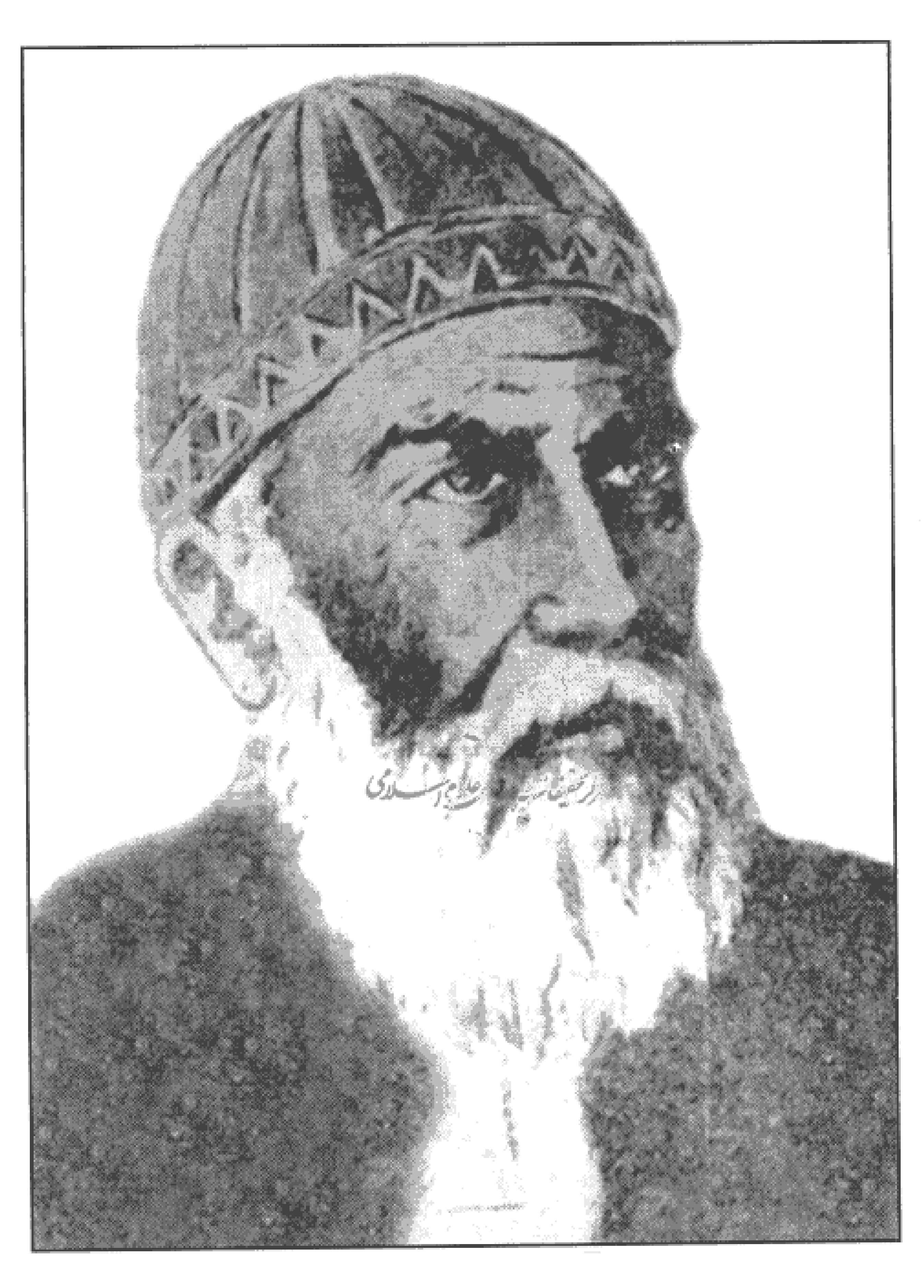
وفي مجموعة الدكتور كتاب (فكرة الهموم والغموم والعطر

المشموم في العلم المبارك المقسوم والمسافات والنجوم) جاء وصفه في مخطوطات الموصل، وفي لغة العرب، ولم يعرف مؤلفه.

والحاصل أن (سيدي علي رئيس) أخذ الكثير من هذه الرسائل القريبة من عصره وجمعها في كتابه (المحيط). واستفاد من اتجاه كتب العرب وترجم رسائلهم وجعلها من فصول كتابه لخدمة أمته لعلها تعود مرة أخرى. نقله إلى اللغة الألمانية الأستاذ هامر. وطبع ولم يطبع الأصل في تركيا. والأمل أنه لا يهمل.

ولا شك أن الاستفادة من مؤلفات العرب كان نصيب الأقوام الآخرين انتفع منها الغربيون حتى تقدمت عندهم علوم البحار، وتولدت السفن البخارية. ومن ثم تغيرت الوجهة تماماً.

وعلم البحار في هذا العصر يتصل بناحيتين إحداهما مؤلفات العرب من طريق بحارتهم وعلومهم، وثانيتهما الهنود وما قاموا به. وأما الإيرانيون فقد كان لهم اتصال بالاثنين إلا أننا لم نقف لهم على آثار خاصة بعلوم البحار، ولكن (كتب الهيئة) أو (علم الفلك) والتقاويم وتواريخ السنين وضبط يوم النوروز وما ماثل مما لها علاقة كبيرة به. فجاءت آثار العرب المذكورين مجموعة صحيحة في علم البحار، ولكنهم تأثروا ببحارة إيران ومصطلحاتهم باللغة الفارسية ومصطلحات الهيئة الإيرانية كما تأثروا بالهنود أيضاً ومصطلحاتهم عين مصطلحات الإيرانيين أو أغلب ما فيها. فلم يلتفت ابن ماجد والمهري إلى علوم العرب وحدها، وإنما أخذوا بما عند غيرهم أيضاً فجاء المجموع كاملاً. ولو طبعت مجموعة الجلبي، وكتاب فكرة الهموم المذكور لكملت المجموعة، وتم المراد. ومن ثم نلاحظ تقدمات علم البحار عند الغرب واستفادته من العلوم الجديدة والمخترعات العصرية، فنكون قد جمعنا بين المصطلح، وتاريخ العلم، وتطور الفن.



فضولي البغدادي الشاعر ـ كتاب فضولي

هذا. والاستفادة من هذه المجموعات كبيرة في تقرير المصطلحات من أسماء السفن في الدولة العباسية وأساطيلها والأندلس وما كان فيه، ومثلها ما جاء في الدول التالية في العراق وفي المملكة المصرية والتركية العثمانية.

وابن ماجد اعتمد مؤلفين ومؤلفات عديدة ومهمة في الهيئة وعلم البحار تتعلق بالأزمنة السابقة له. ولا مجال لنا أن نتوسع في بحثها. ومراجعة رسائله متيسرة.

حوادث سنة ٩٦٣ هـ ـ ١٥٥٥ م

عودة إلى أحوال الوالي

إن أحوال هذا الوالي معلومة، وإنه كان عاد من همذان اتباعاً للأمر السلطاني ولكننا لم نسمع عنه شيئاً بعد هذا. وفي سجل عثماني أنه عزل من إمارة بغداد سنة ٩٦٨ هـ وأن ابنه محمود باشا كان والياً في الموصل. وأن خضر باشا خلفه في (سنة ٩٦٨ هـ). وهذا مخالف لما جاء في النصوص القديمة. ففي گلشن شعرا أن خضر باشا نصب والياً لبغداد سنة ٩٦٣ هـ[1] كما أن صاحب مرآة الممالك عاد إلى بغداد بعد أسفاره البحرية وضياع سفنه وهلاك أكثر من كان معه فسار في طريق البر من الهند حتى وصل إلى بغداد في سلخ ربيع الآخر سنة ٩٦٤ هـ فشاهد والي بغداد خضر باشا ونال منه أنواع اللطف والإعزاز ثم عاد إلى بلاد الروم[2]. وفي هذا ما يؤيد أن الباشا المشار إليه قد عزل عام ٩٦٣ هـ وحل محله خضر باشا، فتمكن سيدي علي رئيس من ملاقاته.

---

(١) تذكرة عهدي البغدادي ص ٨٢ وورد في كلشن خلفا إلا أنه لم تعين سنة نصبه ص ٦٤ ـ ١.

(٢) مرآة الممالك ص ٩٣.

والي بغداد خضر باشا

ولي هذا الوزير منصب الولاية سنة ٩٦٣ هـ بالوجه المشروح. وذكر صاحب السجل أنه تخرج من البلاط وصار ميراخور ثم وجهت إليه إمارة إيالات عديدة منها بغداد وتوفي بعد سنة ٩٧٥ هـ وكان معتدلاً، خالياً من الأطماع. كما في گلشن خلفا أيضاً. وبين عهدي البغدادي عند الكلام على (حقيقي). قال إن أصل اسمه أي اسم حقيقي مصطفى بك بن عثمان باشا من أمراء (باشوات) السلطان سليمان ولد في بغداد. وكان ماهراً في اللغة الفارسية و (قول أغاسي) في بغداد إلا أنه لم يلتئم مع أمير أمراء بغداد خضر باشا الذي كان قد عين لمنصب بغداد سنة ٩٦٣ هـ فترك الديار العراقية وذهب إلى بلاد الهند للسياحة وله شعر جيد في اللغة التركية... وبهذا عرفنا تاريخ ولاية خضر باشا[١]... ولما لم نقطع في حدود سني ولايته فمن المحتمل أنه ولي بغداد لمرتين إحداهما هذه والأخرى سنة ٩٦٨ هـ. وعلى كل نبهنا على الناحيتين إلى أن يظهر من النصوص ما يزيل الإبهام. ولا نعلم من خلفه في هذه المدة...

الطاعون في بغداد:

في هذه السنة حدث الطاعون في بغداد والأنحاء العراقية. وفيه توفي الشاعر العراقي المشهور فضولي.

فضولي البغدادي

من أشهر شعراء الترك، عراقي اسمه محمد بن سليمان البغدادي وأصله من قبيلة البيات القديمة السكنى في العراق[٢] اكتسب الصيت في

---

(١) تذكرة عهدي البغدادي ص ٨١.

(٢) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٣.

بغداد فنسب إليها ويلقب عند العثمانيين بـ (رئيس الشعراء) كان ولا يزال من فحول الشعر، مبدعاً في نهجه الأدبي. ومكانته في الصف الأول ويعد الترك أكابر أدبائهم المؤسسين (سنان باشا) وفضولي. وله نحو خاص في نظمه ونثره لا يكاد يضارعه فيه أحد. واليوم نرى الترك لا يقدمون عليه أحداً.

ولأدباء إيران في العراق مثل سلمان ساوجي، وخواجو كرماني، وعبيد زاكاني وحافظ... تأثير كبير عليه، وهو أيضاً ذو ثقافة كاملة، وفكر وقاد. والقطر مساعد على التفكير والتأمل يفيض عليه بإلهامه. فلا بدع أن ينبغ كما نبغ سابقوه في آدابهم ومناحي تربيتهم وثقافتهم. والأدب العراقي زاخر به وبأمثاله. وله في اللغة الإيرانية وآدابها المكانة المعروفة، يحتل مركزاً لائقاً بين شعراء إيران وديوانه في لغتهم معروف، متداول. وله شعر عربي أيضاً.

جاء في گلشن شعرا ما معناه:

«مولانا فضولي البغدادي كامل بكمال المعرفة. فاضل بفنون الفضائل، رقيق الطبع، حلو الصحبة، من أهل الحكمة في علم الحياة والأبدان، ومن خدام شيوخ الطريقة. لا ند له في بلاغته في اللغات الثلاث، قادر على صنوف الشعر، وطراز المعميات، ماهر في العروض، وأسلوب إنشائه السلس يضاهي أستاذ العالم (خواجهٔ جهان)، وقصائده الفصيحة تضارع الخواجه سلمان، وفي النحو المثنوي نرى مجنون ليلاه كالدر المكنون وله رسائل تركية وفارسية عديدة. ترجم روضة الشهداء للمولى حسين الواعظي وسماها (حديقة السعداء). تشهد أنه مبدع في أسلوبه، وبرهان ساطع في اختراع معانيه، وحدث عن السبك ولا حرج في صوغ كلماته، فهي أشبه بحلة ذهبية اكتستها المعاني، وأشعاره في العربية ذائعة بين فصحائها، وأقواله مذكورة بين

ترك المغول، وديوانه الفارسي مقبول لدى أبناء الفرس، وأشعاره التركية مقبولة عند ظرفاء الروم. توفي سنة ٩٦٣ هـ بمرض الطاعون» اهـ. وأورد له جملة صالحة من الشعر التركي والفارسي ونقل له بيته المشهور:

دوست بي پروا، فلك بي رحم، دوران بي سكون
درد چوق هم درد يوق دشمن قوى طالع زبون

نكتفي بإيراده... ومعناه عاد الصديق الحميم لا يأبه ولا يبالي، والفلك ليس له رأفة، والدهر قاس دائب لا هوادة له ولا سكون. توالت العلل بكثرة ورمت المصائب بفداحة. لا مواسي بها، والعدو قاهر متسلط، قوي ولا مساعد، ليس هناك حظ، بل الطالع في ضعف ووهن. فأين المهرب. أو أين المفر. وهو كثيراً ما يتمثل به.

ومن مطالعة كتابه حديقة السعداء وديوانه الفارسي والتركي يظهر أنه من نوع نسيمي، ومن صنف الغلاة في التصوف أو في الابطان. ولا محل لاستقصاء ذلك فله موطن غير هذا.

ومن مؤلفاته غير ما ذكر:

١ ـ ديوان فارسي يحتوي على ثلاثين ألف بيت (كذا). منه نسخة مخطوطة كتبت ببغداد سنة ٩٥٩ هـ في مكتبة المرادية. وأخرى في مكتبة خالص أفندي. ومطلعه جاء باللغة العربية:

باسمك اللهم يا فتاح أبواب المنى
يا غني الذات يا من فيه برهان الغنى

وعندي ديوان فارسي له ناقص قليلاً من الأول ومن الآخر. لا يبلغ ما ذكر من الأبيات.

٢ ـ ديوان عربي رآه لبيب أفندي صاحب الجواهر الملتقطة. منه نسخة في مكتبة لننغراد من متحف آسيا مهداة من ورشچن، ضمن مجموعة تحوي الكثير من آثاره، وبينها:

١) شاه وكدا. فارسي.

٢) أنيس القلب. قصيدة فارسية.

وديوانه العربي الموجود في هذه المجموعة المسماة (كليات فضولي) يحتوي على ٤٦٥ بيتاً، وأطول قصيدة فيه ٦٣ بيتاً، ولا يعرف ما إذا كانت هذه المجموعة تحتوي على جميع شعره العربي أو أن هناك غيرها.

وهذه النسخة كانت قد دخلت في سلك ملك حسن كدخدا (كتخدا) في مدينة السلام بغداد سنة ٩٩٧ هـ.

ويلاحظ في شعره العربي أنه أراد تبليغ فكرته إلى قراء العربية فكتب ما كتب، وهو متأثر بنسيمي، وأنه عارف بشعره أيضاً[١].

٣ ـ رندا وزاهد. محاورة فارسية. جاء ذكرها في كشف الظنون.

٤ ـ صحة ومرض. مطبوعة وهي رواية يستنطق بها النفس والأمزجة والعوامل الروحية. كتبها بأسلوب حكيم. وهذه فارسية إلا أن ترجمتها إلى التركية مطبوعة ولم يذكر مترجمها.

٥ ـ مطلع الاعتقاد. في علم الكلام. (لم يعين محل وجوده). وكان يوضح وضعه في العقيدة ولكن يؤسف لعدم الاطلاع عليه.

٦ ـ ترجمة حديث الأربعين لملا جامي ترجمه من الفارسية (ذكره صاحب كشف الظنون).

٧ ـ ديوان تركي. طبع مراراً بطبعات مختلفة. والطبعة التي في تبريز مصدرة بمقدمة للمؤلف وأن النسخة الخطية التي عندي تعين مكانته وطريق نهجه، وشعوره في شعره. هذا مع العلم بأن لغته آذرية وهي متمكنة في العراق، وقريبة من التركية وقد سبقه نسيمي.

---

(١) راجع ترك ديلي مجلد ٢ عدد ٣ ـ ٤ لسنة ١٩٤٠.

٨ ـ حديقة السعداء. رأيت في مكتبة فاتح نسخة مصورة منها بتصاوير ملونة وهي برقم ٤٣٢١ وبخط جميل، فيها عناية زائدة كتبت سنة ١٠٠٢ هـ ولم يعرف كاتبها ولا محل كتابتها وعندي مخطوطة كتبت سنة ٩٩٨ هـ مجذولة بالذهب وهي أولها نقوش بديعة مزينة بأبدع زينة.

٩ ـ شكوى (شكايتنامه). كتب بها إلى نشانچي محمد باشا أبدع فيها غاية الإبداع في الصناعة الأدبية. وتلاعب بالبيان. أبرز نفسية فذة، وأبدع إبداعاً لا يسع القارىء إلا أن يميل إليه، فهو الأديب الذي لا يباري. ولو كان منتظم الفكرة لما سبقه سابق.. قال ذلك صاحب (نمونهٔ أدبيات) وعده من الكرد.

١٠ ـ پنك وباره. منظوم تركي. ذكره في كشف الظنون ولم يتعرض لوصفه.

وديوانه التركي وكذا الفارسي لا نرى مجموعة عراقية فيها منتخبات الشعر الفارسي والتركي إلا وفيها مقطوعات أو مفردات منهما، تأثر به شعراء كثيرون جداً، وهو بمنزلة المتنبي في الشعر العربي وكثرة الاستشهاد. وكثيراً ما نرى ذكر شعر له ويتبعه غيره بقولهم (وله، وله.. الخ)..

عندي نسخة مخطوطة من ديوانه التركي ليس لها تاريخ ولكنها أقدم من الطبعة التركية بلا ريب.

١١ ـ رسائل فضولي بالتركية. نشرها صديقنا الاستاذ عبد القادر قره خان باسم (فضولي مكتوبلري) بحروف لاتينية مع تصوير أصل الرسائل بحروفها العربية. طبعت سنة ١٩٤٨ م باستنبول. وكانت عزيزة المنال فكشف بها الاستاذ صفحة عن حياة شاعرنا الكبير، وهو مؤلف كتاب (فضولي) الأثر النفيس.

ونرى ترجمة فضولي في كتب كثيرة. ومن الترك اليوم من أفرد له

ترجمة بكتاب على حدة[1]... وقد مر بنا ذكر علاقته بولاة بغداد وقضاتها وسائر رجال الدولة وبينهم من ضاع عنا خبره:

١ ـ اياس پاشا والي بغداد.

٢ ـ محمد پاشا والي بغداد.

٣ ـ فتح الجزائر في البصرة.

٤ ـ قاضي بغداد السيد محمد.

٥ ـ السلطان سليمان.

٦ ـ جعفر بك.

٧ ـ قادر چلبي.

٨ ـ إبراهيم بك.

٩ ـ رستم پاشا.



١٠ ـ ويسي بك.

١١ ـ السلطان إبراهيم، وغيرهم.

ذكر هؤلاء يوضح الوقائع الموجودة في گلشن خلفا وكذا يساعد على ذلك گلشن شعرا. وهذا الديوان وگلشن شعرا من الوثائق الفريدة في بابها. ومن جهة أخرى يعين لنا مكانة اللغة التركية وآدابها في العراق، وهو متمم لگلشن شعرا بل يعد من أهم المراجع.

فضلي بن فضولي البغدادي:

وفضلي هذا ابن سابقه. ونعته عهدي البغدادي بقوله:

«صافي الذهن، مستقيم الذكاء والطبع. لا يزال مشغولاً في علوم

---

(١) كوبريلي فؤاد، سليمان نظيف، وهاشم ناهيد، وعثمانلي مؤلفلري وغير هؤلاء.

الظاهر، معتزلاً في زاوية بقناعة تامة، أخذ بنواصي الشعر في اللغات الثلاث وله مهارة في المعمى، وقدرة معجزة في التواريخ، وأبيات عشقية فريدة جاذبة آخذة بمجامع القلوب. وأورد له أمثلة لا محل لإيرادها. والمفهوم أنه كان لا يزال حياً عند تحرير التذكرة (گلشن شعرا).

ومن تذكرة عهدي البغدادي وتاريخ بناء جامع المرادية سنة ٩٧٨ هـ أنه لا يزال حياً إلى هذه السنة والملحوظ أنه بقي إلى ما بعد وفاة عهدي البغدادي.

والتراجم قليلة في بيان أحواله، وقد تحرينا مراجع عديدة فلم نظفر ببغية في تاريخ وفاته.

جاء في كتاب (دانشمندان آذربيجان ص ٣٠٠ ما يؤيد أن هذا الشاعر استمرت حياته إلى ما بعد سنة ٩٧٨ هـ.

أورد أبياتاً باللغة التركية لفضلي في سنة ٩٨٨ فأكتفي هنا بالإشارة إليها[١].

رضائي:

هو أخو عهدي البغدادي الأكبر. وله ميل طبيعي للنظم، وقد صاحب أرباب الآداب، ومال إلى الظرفاء والشعراء بكليته... قضى أوقاته في التجارة والصناعة حتى توفي في هذه السنة (٩٦٣ هـ). سيرته فاضلة، وصحبته طيبة، وله أسلوب أدبي خاص. فريد في تزيين المجالس بأقواله، ومعمياته، وأما غزله فلا يباريه فيه أحد. وله شعر تركي وفارسي. وأورد له جملة أبيات[٢].

---

(١) عن الملحق الرابع.

(٢) كلشن شعرا. عهدي البغدادي.

حوادث سنة ٩٦٤ هـ - ١٥٥٦ م

عودة سيدي علي رئيس إلى العراق

في سلخ ربيع الآخر من هذه السنة عاد سيدي علي رئيس المشهور إلى العراق من طريق خراسان وشاهد والي بغداد آنئذ (خضر پاشا) كما صرح في كتابه مرآة الممالك. وأنه رأى منه رعاية زائدة. وكان بعد أن أصابته الضربة من البرتغال ومن الرياح العاصفة سار من طريق البر. تجول في بلاد الهند والترك ثم عاد إلى بغداد وقد ذكر قصته في كتابه (مرآة الممالك) وصل إلى جبال نهاوند ومنها جاء إلى جبل بيستون وورد الإمام قاسماً وزاره ومنه مضى إلى (أويس القرني) ثم قصر شيرين ومنها إلى قلعة زنجير ومنها سار إلى (طقوز أولوم) المعروف بنهر ديالى ومنه إلى شهربان ثم بغداد...

رجوعه إلى بلاد الروم:

إن الموما إليه غادر بغداد في أوائل جمادى الأولى سنة ٩٦٤ هـ ومنها اجتاز الشط بعبوره في سفينة بعد أن زار المشاهد التي كان قد زارها أولاً ثم سار من طريق سميكة، وتكريت - الموصل وذهب من طريق الموصل القديمة والجزيرة إلى نصيبين ومر بديار بكر وماردين، وهكذا مضى. وفي آمد لقي إسكندر پاشا ورأى منه لطفاً ورعاية كبيرة. وباقي ما ذكره لا يخص العراق وهو مذكور في كتابه مرآة الممالك.

ملحوظة:

إن عهدي البغدادي ذكر سيدي علي رئيس في گلشن شعرا بعنوان (كاتبي أفندي) وأثنى عليه ثناء عاطراً من ناحية اتقانه لعلوم البحار وما يتعلق بذلك وأشار إلى ما أصابه في سفره من هول وأورد له بعض المنتخبات من شعره وعده من الطبقة العليا[1]... وكان أديباً شاعراً، له

---

(١) گلشن شعرا ص ٣٠٦.

قدرة على البيان فهو من أكابر رجال العلم والأدب ومن مؤلفاته مرآة الكائنات وهو كتاب جامع لربع المجيب والاسطرلاب وربع المقنطرة والجيب. وله (ترجمة فتحية) في الهيئة وسماها خلاصة الهيئة، وأصلها رسالة للمولى علاء الدين علي بن محمد المعروف بالقوشجي المتوفى سنة ٨٧٩ هـ، ألفها للسلطان محمد الفاتح لما ذهب إلى محاربة السلطان حسن الطويل من آق قوينلو وكان معه في هذه الحرب والمترجم نقلها إلى التركية. وفي كشف الظنون شروح وحواش عليها.

مر بنا الكلام على المترجم. ومؤلفاته. توفي سنة ٩٧٠ هـ وفي عثمانلي مؤلفلري ترجمته وبيان مؤلفاته كما في ج ٣ ص ٢٧٠ وهناك تفصيل.

حوادث سنة ٩٦٩ هـ - ١٥٦١ م

قضاء بغداد

في ربيع الآخر من هذه السنة ولي قضاء بغداد دولگرزاده محمد أفندي وفي المحرم سنة ٩٧٤ أحيل للتقاعد وتوفي سنة ٩٧٧ هـ. والمعروف أنه عالم فاضل وشاعر في التركية والعربية وخطاط كتب بخطه تفسير أبي السعود، والتلويح، والدرر الغرر[١].

حوادث سنة ٩٧٤ هـ - ١٥٦٦ م

الوالي اسكندر باشا

ولي بغداد في هذه السنة (٩٧٤ هـ). وعزل الوالي السابق. وإن إسكندر باشا من الچراكسة من قبيلة قبارتاي. كان من مماليك خسرو باشا والي ديار بكر. تخرج وزادت رتبته حتى صار رئيس البوابين، ثم رئيس الجاووشين ولما عزل من هذا المنصب عهدت إليه دفترية حلب

---

(١) سجل عثماني.

وبعدها دفترية الأناضول. وهكذا حتى صار والي وان وهناك قام بخدمات جلى وأوقع خسائر كبيرة بالعجم. ثم نال إمارة الأناضول فهزم ابن الشاه. وفي سنة ٩٥٨ هـ ولي ديار بكر وفي سنة ٩٧٢ عزل منها.

وفي سنة ٩٧٤ هـ صار والياً على بغداد وأطاعته العشائر. وفي سنة ٩٧٧ هـ صار والياً على مصر وبعد سنة ونصف عزل فورد الآستانة. توفي سنة ٩٧٧ هـ ودفن في جامع قاكليجه وأنشأ بجوار هذا الجامع مدرسة وكتاباً وحمامين وأنشأ ببغداد جامعاً.

وكان عاقلاً، كاملاً، صالحاً، عدلاً شجاعاً. وله ابن اسمه أحمد باشا[١].

نصب والياً قبل وفاة السلطان سليمان المتوفى في ٢١ صفر سنة ٩٧٤ هـ.

حوادث سنة ٩٧٥ هـ - ١٥٦٧ م

البصرة - ابن عليان

كان الوالي إسكندر باشا من حين ولي بغداد نصب قائداً إلى أطراف البصرة فظهرت له خدمات جلى هناك وذلك أن آل عليان في البصرة كانوا قد أذعنوا بالطاعة للحكومة قهراً، وأن العشائر في أنحاء البصرة وبراريها من أقربائهم، وفي تصرفهم بعض القرى والنواحي فكان ولاة بغداد والبصرة يقسون عليهم في التكاليف الشاقة التي لا تطاق. وقبل سنة ٩٧٤ هـ ثاروا عليها مراراً بمن معهم من العشائر فأحدثوا أضراراً كبرى في الممالك المجاورة لهم مما يعود تصرفه للحكومة فسيرت عليهم الدولة ألفين من الينكجرية وما يكفي من المدفعية والعرباتية وجعل اسكندر باشا قائد الحملة ومعه ولاة شهرزور والبصرة

---

(١) سجل عثماني ص ٣٤٦.

والأمراء الذين اختارهم من الأكراد... جهزهم جميعاً فتقدموا على تلك النواحي والقرى فأشعلوا فيها نيران النهب والغارة. وأطاعوا القائد قسراً وبنى هناك قلعة سميت (بالاسكندرية)...

ثم عاد ظافراً إلى بغداد وتفصيل الحادث كما جاء في تحفة الكبار في أسفار البحار:

هو أن أنحاء واسط كانت ولا تزال تقطنها العشائر، وأن (ابن عليان) يتولى رياستها منذ أمد، وكان يبدي الطاعة للدولة مرة، ويعصي أخرى، وبعد جلوس السلطان سليم الثاني أظهر ابن عليان العصيان. وكان قد ولي بغداد اسكندر پاشا الجركسي الذي هو عارف بتلك الأنحاء، كان أمير أمراء ديار بكر لمدة خمس عشرة سنة. فاختارته الدولة للقيام بهذه المهمة، ودفع الغائلة التي قام بها ابن عليان، وعهد إلى مظفر پاشا بإيالة (شهرزول) أو شهرزور فأمر أن يلحق به عسكر الأكراد، وعهدت القبطانية إلى جانبولاد بك متصرف (كلس).

وفي معبر الفرات عند پيره جك تداركت الحكومة ٤٥٠ سفينة جعلتها أسطولاً مائياً حسب الفرمان الصادر وجهزت ألفين من الينكچرية، ومائتين من المدفعية، كما أن الأمير المزبور جهز جيشاً من العرب والأكراد هناك يبلغ ستة آلاف ليكون في هذه الحملة، فوضعت المهمات والمعدات في السفن المذكورة، وسارت في ٤ المحرم سنة ٩٧٥ هـ ـ ١٥٦٧ م نهض الجيش والأسطول من پيره جك، فوصل إلى (بالس)، وبعد الاستراحة يوماً أو يومين مضوا في طريقهم فمروا بـ (جعبر)، و (الرقة)، و (صفين)، و (الرحبة)، و (عانة)، و (حديثة)، و (هيت)، و (الفلوجة). وفي الفلوجة هذه استراحوا بضعة أيام. ثم مضوا في طريقهم إلى الحلة وهناك أقاموا مدة شهرين للاستراحة بأمل أن يزول الحر، ويحل زمن البرد.

ومن جهة أخرى إن الوالي اسكندر پاشا كان قائد القوى البرية،

فنهض من بغداد أيضاً وسار في طريقه للمحل المطلوب. أما الأسطول فقد تحرك من الحلة إلى لواء الرماحية والسماوة، وفي طريقه مر بنهر (أبو كلبين)، اجتاز من صدره، ومن هناك مضوا حتى وصلوا إلى ملتقى النهرين (دجلة والفرات)، جاؤوا إلى محل في رأس الجزائر يقال له (صدر الدار)، والعشائر هناك حاولوا الدفاع، واتخذوا متاريس، ولكنهم حينما رأوا الأسطول تركوها ومضوا إلى جهتهم. وكانوا قد ذهبوا إلى جزائر الشلب في أسفل من هذه.

ومن ثم اجتاز الجيش بسهولة، ولم يدخل حرباً. فاتصلوا حينئذ بجيش اسكندر پاشا قرب قلعة (زرتوك)، وهناك وافت نحو ١٥٠ سفينة فالتحقت بالأسطول أيضاً أتت من بغداد من طريق (دجلة)، ومن هناك مضوا إلى الداخل إلى (صدر الدار)، وبنو قلعتين متقابلتين في كل جانب ووضعوا بهما قوة، ثم مضوا إلى قرب (زرتوك) فبنوا قلعتين أخريين كل واحدة بجانب وهكذا مضوا إلى جزيرة مشهورة يقال لها (صدر البحران)، وهناك تجمعت الجيوش العربية ووضعوا المتاريس فيها، ومن ثم وبلا توقف باشروا الحرب، ومن قواد الجيش (جانبولاد) تمكن من الوصول إلى الساحل، هاجم هؤلاء ببسالة، فكان إقدامه مشكوراً مما أدى إلى انتصاره وتبعثر جيش العرب، وقتل منهم ما لا يعد من النفوس. وكذا مات في هذه الحرب جملة من رجال الترك المشاهير. وبعد أن تمت الهزيمة بنيت قلاع متقابلة أيضاً. وفي هذه المواطن لا يظهر البرد وفي أكثر الجزائر نشاهد القلاع مبنية مثل هذه. ولكن الحرب لم تنقطع مع العرب بل بقيت مستمرة، لا هوادة فيها. ولما كانت عيشة العشائر على النخيل، وما يتحصل منها، اضطرت القوة إلى قطع هذه النخيل جميعها، وبذلك أذعنوا وقدموا الطاعة فأظهروا أنهم يسالمون الحكومة، ولكن لا ثبات في أقوالهم، فلم يلتفت إلى ذلك. وكأنهم في ذلك يحاولون القضاء عليهم.

كانت الهجومات والحروب تتكرر بعد ذلك من الطرفين ووقعت حروب دامية جداً، فانفل جيش العرب، وقتل أكثرهم. ولما تمت القلاع تأهب الجيش للوصول إلى ابن عليان للحرب وحينئذ جاء ابن أخيه يرجو الصلح، والمفتي هناك (محمد الحارث) جاء معه أيضاً، وفي الديوان المنعقد من جانب اسكندر باشا طلبوا ذلك فخلع عليهم الباشا بخلع ثمينة، وفي الديوان الثاني (الجلسة الأخرى) قيل لهم إن ابن عليان إذا كان صادقاً في طلب الصلح وجب عليه أن يؤدي في كل سنة لخزانة البصرة خمسة عشر ألف دينار ذهباً، وأن يترك رهائن في البصرة جملة من أولاد الشيوخ، فقبل السفراء ذلك وذهبوا. وبهذا تم تسخير الجزائر جملة، ونهض الجيش والأسطول من هناك فوصل إلى المحل المسمى (صاعبة)، فجاء حينئذ أخو ابن عليان مير سلطان بخمسين سفينة فأظهر الطاعة والانقياد، وفي هذا المحل وافى أسطول البصرة المتكون من تسعة أغربة مع علي باشا فالتقوا هناك، فنزلوا قلعة (فتحية)، ومن ثم جاء السردار من البر وكذا وافى شيوخ الجزائر ورؤساؤهم إلى الباشا، وأعطوا الرهائن، وأطاعوا ولكن عرب (نهر الطويل) مقابل قلعة الرحمانية لا يزالون على عنادهم وتصلبهم، ولم يلبوا الدعوة، وأن رئيسهم (فضل) لم يأت إلى الوزير ليبدي طاعته. ومن ثم سارت إليه الجيوش، وطالت المحاربات معه نحو خمسة أيام، فهلك من العربان هناك ما لا يحصى، وتشتت الآخرون فانتهب الجيش عيالهم وأموالهم، وأحرق قراهم، وقطع أشجارهم (نخيلهم).

وفي محل اجتماع ثلاثة أنهر بنيت قلعة، وقطعت المياه عنهم. ومن ثم أعطى لواء بواب إلى مير سلطان. وفي أوائل رمضان عاد الأسطول إلى بغداد، وأذن للجيش بالإجازة[1]...

---

(١) تحفة الكبار ص ٨٥.

هذا ما قاله كاتب چلبي، ولم نر هذا التفصيل في غيره، ولكن من المؤسف أننا لم نعلم العشائر الموجودة آنئذ، ولم نقف على أخبارها منه، كما أنه عد هذه الوقعة من الوقائع البحرية، وهي أول تجربة للأنهر استعان بها الجيش للقضاء على غائلة العشائر، وأبدى أن المحاربة النهرية لم تكن خارجة عن (أسفار البحار)، وقد تدعو الحاجة أن تتكرر أمثالها، وسمى هذه الجزائر بـ (جزائر شط العرب)[1] ومن ثم نعلم أن الجيش استفاد من الأنهر لدفع الغوائل الداخلية والقضاء عليها، فربح القضية من هذه الطريقة ولكن لم يكن ربحاً حقيقياً فقد رأوا من العرب ما رأوا . . . وابن عليان هذا من أمراء طيىء.

سبق في تاريخ العراق ذكر ابن عليان من أمراء الجزائر وأنه من طيىء القبيلة المعروفة، ولم تتغير سلطة آل عليان إلى تلك الأيام[2].

في مجموعة مخطوطة في (خزانة جامع الخلاني) أن الوالي اسكندر باشا كتب كتاب تهديد إلى الأمير علي ومحمد بن الحارث وجعفر الدجيلي وسائر مشايخ (معوية) كذا يحذرهم بطش الدولة وعواقب العصيان، فأجابوا أنهم مستعدون للحرب، لا يهابون احداً وليس في الكتابين تاريخ.

شمسي البغدادي:

لم يعين تاريخ وفاته بالضبط إلا أنه توفي بعد سنة ٩٧٥ هـ فإنه في هذا التاريخ كان حياً وقد ترجمه ابنه عهدي البغدادي فقال:

«من أهل العلم، ووالد راقم هذه الحروف (عهدي البغدادي)

---

(١) تحفة الكبار في أسفار البحار ص ٨٣ ـ ٨٥.

(٢) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٣.

مشغول ليل نهار بالمطالعة للكتب المتداولة... واختار القناعة فاعتزل الخلق، وصار يدعو للسلطان بالعز والرفعة ونظم باسم السلطان ثلاثة دواوين على بحر المثنوي. وكل منها مقبول لدى فصحاء العصر، وفاق به فحول الشعراء، وله قصائد في نعت الرسول والأئمة الكرام. وله ديوان في الغزل معتبر عند أصحاب العرفان. وكان ممن ملك أزمة البلاغة فانقاد له البيان. وصار يعد في مقدمة الأدباء الأفذاذ...» اهـ وأورد له بعض المقطوعات الشعرية في الفارسية والتركية، منها:

منجم گرشمارد اختران دائم رقم گيرد
أگر روى ترابيند حساب ازماه كم گيرد
وگر حسن خطت راخوش نويسى در نظر آرد
محالست اينكه أزحيرت دگردستش قلم گيرد

إلى أن يقول:

سيه چشمان بغدادي بشمسي رهنمون گشتد
كه در ملك عرب سازد وطن ترك وعجم گيرد

ومعناه: أن المنجم أو الفلكي المنهمك بحساب النجوم والمتوغل في تعدادها دائماً، لو رأى طلعتك لما تمكن من الحساب ولغلط حتى في البدر وعده ناقصاً. ولو أن الخطاط المتقن الخط شاهد خط محياك لاستحال عليه أن يمسك بالقلم لما أصابه من حيرة وذهول. إلى أن يقول: إن سود الحدق من البغداديين (يريد العرب الموصوفين بنجل العيون) اهتدوا بشمسي الذي اتخذ بلاد العرب وطناً له في حين أنه من الترك وصار يقتنص العجم.

وقد رأيت له ديواناً باللغة الفارسية في مكتبة كوپريلي قسم الأدبيات رقم ٢٩٤ سماه (منظر الأبرار) في مجلد واحد بين فيه أنه مغرم بالآداب الصوفية وعاشق لها... ويرى أنه ممن تخرج بنظامي وسار على آدابه... أوله:

بســـم الله الـــرحـــمـــن الـــرحـــيـــم

مـــطـــلـــع پـــرنـــونـــور كـــلام قـــديـــم

هـــركـــه از وگـــفـــت أزل كـــام يـــافـــت

دســـت بـــهـــر كـــار زد اتـــمـــام يـــافـــت

وفيه مقالات يتخللها حكايات عن الصالحين وغيرهم وفيها ما يتعلق ببغداد. وفي خاتمته يذكر اسمه.. وهو بخط ابنه عهدي كتبه في جمادى الأولى سنة ٩٧٥ وختمه عهدي بهذا البيت:

دستـم بـزيـر خـاك چـو خـواهـد شـد تـباه

بـــاری بـــیـــادگـــار بـــمـــانـــد خـــط ســـيـــاه

والكتاب من موقوفات الحاج أحمد ابن الوزير الأعظم نعمان وقد نسب لعهدي غلطاً. وعلى كل مواضيعه تنبىء عن قيمة الرجل ودرجة علمه في إيراده الحكايات عن بغداد وأمرائها وغيرهم... وخط عهدي تعليق جميل ويعد بهذا خطاطاً ولم يشر ابنه إلى أن والده قد توفي فالظاهر أنه حي إلى ذلك العهد...

وأولاد شمسي وأقاربه:

١ ـ عهدي ابنه.

٢ ـ رضائي ابنه الكبير. مر ذكره.

٣ ـ مرادي ابنه الصغير.

وهم من الشعراء ولهم بعض المختارات.

٤ ـ رندي البغدادي ابن أخي شمسي. ونظمه مقبول.

٥ ـ عبد الملك البغدادي أبو شمسي.

٦ ـ محمد بن عبد الملك المذكور.

وعلى كل إن المترجم والد عهدي. وهذا صهر نظمي البغدادي

والاتصال العائلي موجود وأسرته جماعة ومنهم من مر القول فيه ومنهم من سيأتي الكلام عليه في حينه.

الوالي مراد باشا:

ثم عهد إيالة بغداد إلى مراد باشا. وهذا لم يبين عنه صاحب گلشن خلفا سوى بناء الجامع المعروف باسمه. وكأنه جاء بهذه المهمة فأتمها كما أتم منارة جامع الكاظمين، وذهب.

حوادث سنة ٩٧٧ هـ - ١٥٦٩ م

كتاب من الآستانة

ورد في هذه السنة كتاب من استانبول مؤرخ في ٢٢ شوال سنة ٩٧٧ إلى والي بغداد في أنه كان قد ورد كتاب الوالي مخبراً أن الأمن والأمان على نصابهما، وأنه ساع في تحصيل الأموال الأميرية وتوفيرها في حين أن الخزانة العامة الآن في ضرورة إلى المال الوافر سوى أنه من أهم الأمور الحاجة إلى ملح البارود فإذا وصل إليكم الأمر فالسرعة السرعة في إرسال مقدار ثلاثة آلاف قنطار منه ولزوم تحميله على الإبل وإيصاله بهمة زائدة..

وفي هذا ما يعين الحالة والعلاقة معاً[١].

حوادث سنة ٩٧٨ هـ - ١٥٧٠ م

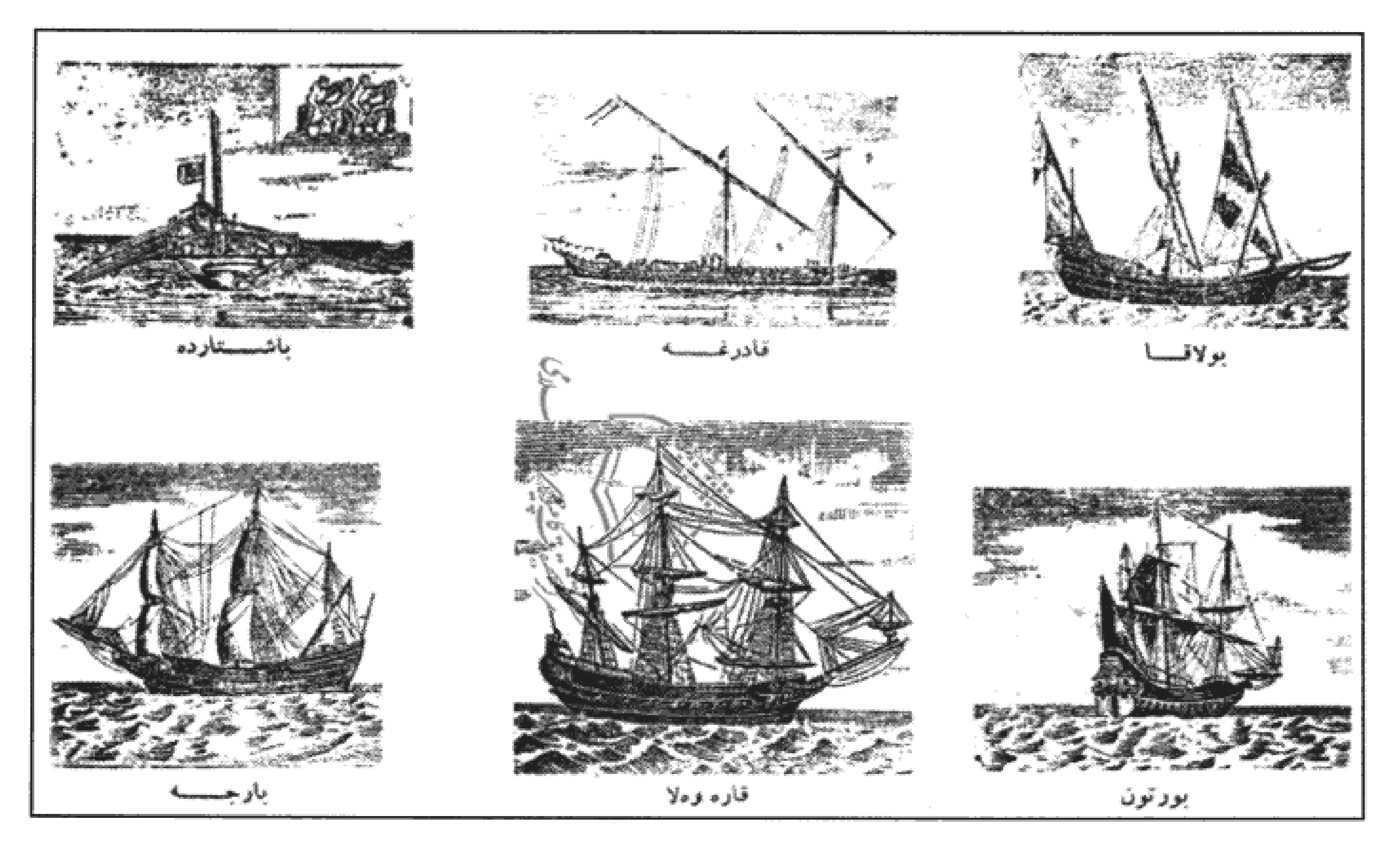
جامع المرادية

بنى الوالي هذا الجامع وأجرى له الاحتفال. عمر في محلة الميدان وقد أرخه الشاعر فضلي[٢] ابن الشاعر فضولي فقال:

---

(١) تاريخ أنجمني مجموعة سي عدد (٢) ص ٦٩.

(٢) مر الكلام عليه عند ذكر والده فضولي.



السفن البحرية الحربية ـ كتاب مصور أسفار بحرية عثمانيه

سلطان جوان بخت سليم أول شه عادل
كم در كهنك خادميدر چرخ معلا
أول سرور إسلام خداوند ممالك
داراى عبادتكه دين وملجأ دنيا
بغداده بر أهل كرمى ايلدى والى
كم قلدى انوك همتى بو مسجد انشا
پاشاى فلك قدر مراد اولكه أزلدن
لطف ايتمش اكا عز وعلا حضرة مولى
فضلي ديدى بو مسجد ايچون صدقله تاريخ
كل مسجده اي پاك مراد ايله تمنى

وذلك سنة ٩٧٨ هـ. والملحوظ أن هذه التعميرات كانت من مالية الوقف وكانت تصرف على المساجد وسائر الأعمال الخيرية. وبهذه التسميات الجديدة تغيرت معالم الأوقاف القديمة ولم يعد يعرف ما كان هناك من مساجد وما كان أصلها لنعرف الصلة بالماضي ومؤسساته. والغاية في الحقيقة مصروفة إلى إزالة تلك المعالم وإظهارها بشكل عليه طابع القوم. وإن الجامع المذكور لا يزال معروفاً بهذا الاسم إلى الآن. فيسمى بجامع المرادية[١]...

وقد أوضحت عنه في كتاب المعاهد الخيرية. وذكرت ما لحقه من تعميرات وما جاء من شعر في تاريخه نطق به فضلي بن فضولي البغدادي فكان التعليق في تاريخ مساجد بغداد غير صحيح لظن المعلق أن فضولي وفضلي واحد[٢].

---

(١) كلشن خلفا ص ٦٥ ـ ١ ورحلة أوليا جلبي ج ٤ ص ٤١٩.

(٢) تاريخ مساجد بغداد ص ٦٤.

جامع الكاظمية:

في هذه السنة تمت منارة هذا الجامع وبذلك تم بناؤه في سنة ٩٧٨ هـ. وكان في ٦ ربيع الثاني سنة ٩٢٦ هـ قد أتم عمارة مشهد الشاه إسماعيل الصفوي، ولم يتعين لنا تاريخ بناء الجامع وإتمامه أيام السلطان سليمان ولقد استمر إلى أيام السلطان سليم، فتمت منارته أيام هذا الأخير. ينطق تاريخها بذلك بلسان الشاعر فضلي ابن الشاعر فضولي البغدادي. وما جاء في تاريخ مساجد بغداد مغلوط في التاريخ، وفي الأعلام والألفاظ. أوضحنا ذلك في كتابنا (المعاهد الخيرية). وجاء التاريخ: (أولدى بو جانفزا مناره تمام) في بناء المنارة سنة ٩٧٨هـ[١].

ولم يرد لهذه التعميرات ذكر في گلشن خلفا.

الوالي علي باشا الصوفي:

ثم آلت إدارة بغداد إلى الوالي علي باشا الصوفي. وجاء في سجل عثماني أنه وليها عام ٩٧٧ هـ. وهذا لا يأتلف مع تاريخ بناء جامع المرادية أيام سلفه والظاهر أنه سنة ٩٧٨ هـ. وذلك بعد بناء الجامع، أو أن هذا تاريخ التعيين لا الدوام في المنصب. وقال عنه إنه توفي سنة ٩٧٩ هـ وهو من أهالي بوسنة، تخرج في البلاط الملكي، وصار متصرفاً في بعض الألوية ثم صار مربياً للشهزادة السلطان سليم وتقلب في عدة إمارات وقضى مدة في معية الشهزادة السلطان سليم وأرسل سفيراً إلى إيران وبعد عودته ولي مصر سنة ٩٧١ هـ وفي سنة ٩٧٣ هـ عزل ثم صار أمير أمراء بغداد وكان عدلاً مجتنباً الأطماع، صالحاً، ديناً[٢]. وگلشن

(١) تاريخ مساجد بغداد وآثارها ص ١١٨.
(٢) سجل عثماني ص ٥٠٠.

خلفا لم يذكر شيئاً من وقائعه وإنما بين أنه ولي بعد مراد باشا ووقف عند ذلك.

الوالي حسين باشا:

قال عنه صاحب گلشن أنه پتور حسين باشا ولي بعد علي باشا الصوفي، وقال عنه صاحب سجل عثماني إنه من أهالي هرسك وهو (بودور حسين باشا) تربى في البلاط وصار مير لواء ثم صار أمير أمراء بودين وفي سنة ٩٧٩ هـ ولي بغداد وفي سنة ٩٨١ هـ صار أمير أمراء مصر وتقلد مناصب أخرى وتوفي بعد سنة ١٠٠٣ هـ وهو مائل للعدل، مبتعد عن الظلم، رافع للبدع. وبنى جامعاً في پراجه[١]...» اهـ ونعته في گلشن خلفا بأنه كان رافع البدع وجامع الطرفين. ولم يزد على ذلك[٢].

الوالي عبد الرحمن باشا:

ولي بغداد سنة ٩٨١ على ما جاء في سجل عثماني[٣] وقال عنه: «كان عالماً، ثم صار تذكرجي لرستم باشا، وبعدها نال دفترية مصر، ثم تيمار روم ايلي وإثر ذلك وجهت إليه إمارة بروسه، ومرعش. وفي سنة ٩٨١ هـ حصل على منصب بغداد وانفصل عنه عام ٩٨٢ هـ ثم توفي» اهـ. وجاء عنه في گلشن خلفا أنه معروف بتصلبه وخشونته فشاع بين الناس بـ (عدو الرحمن). نال الولاية من طريق الكتابة والتحرير. وكانت وفاته ببغداد» اهـ[٤].

---

(١) سجل عثماني ج ٣ ص ١٨٥.
(٢) كلشن خلفا ص ٦٥ ـ ١.
(٣) ص ٣١٢.
(٤) كلشن خلفا ص ٦٥ ـ ١.

حوادث سنة ٩٨٢ هـ ١٥٧٤ م

الوالي علي باشا الدرويش

ولي بغداد سنة ٩٨٢ هـ. وهذا الوالي كانت عهدت إليه إدارة الأحساء وولاية البصرة ثم وجهت إليه ايالة بغداد، ومات فيها. والظاهر أنه توفي في سنته كما يفهم من تاريخ من أتى بعده.

الوالي الوند زاده علي باشا

نشأ في سلك الأمراء وولي بغداد سنة ٩٨٢ هـ إثر جلوس السلطان مراد الثالث. وانفصل عنها سنة ٩٩٥ هـ[1]. ثم ولي إدارة نجد والأحساء وفي سنة ١٠٠١ هـ انفصل من هناك وسكن حلباً وفي ربيع الآخر سنة ١٠٠٧ هـ[2] ولي بغداد أيضاً، وبعد شهرين في جمادى الثانية توفي ونقل نعشه إلى حلب وكان شيخاً جليلاً من أهل الثمانين. (كذا في سجل عثماني)[3]. والمستفاد من گلشن خلفا أنه أورده في حوادث سنة ٩٨٤هـ. ولكنه نسب إليه من الحوادث ما جرى سنة ٩٨٢ هـ. وقال صاحب گلشن إنه إثر وروده وبأمر من السلطان مراد الثالث عمر جامع الحسين رضي الله عنه سنة ٩٨٤ ومرقده المبارك سنة ٩٩١ هـ ومنارته سنة ٩٨٢ هـ كما أنه عمَّر جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله... ويستفاد من نص گلشن خلفا أنه ولي بغداد سنة ٩٩١هـ ودام فيها إلى سنة ٩٩٥ هـ... وليس بصواب بالنظر لتاريخ بناء المنارة.

وهذه المنارة وتعرف بمنارة العبد هدمت قبل بضع سنوات أي قبل الحرب العالمية الثانية في سنة ١٣٥٦ هـ ـ سنة ١٩٣٧ م ـ ولم يبق لها

---

(١) وما جاء في سجل عثماني من أنه ولي سنة ٩٩٩ هـ فإنه يخالف صراحة گلشن خلفا مما لا يقبل الريب.

(٢) الظاهر سنة ١٠٠٦.

(٣) سجل عثماني ص ٥٠٤.

أثر، وكانت منارة بيضاء بلا كاشي، بنيت في الجهة اليسرى من نفس الحضرة.

والحاصل أن الوقائع لم تردنا مطردة. وعلى كل ندون ما جرى على ترتيب السنين بقدر ما نتمكن من تدوينه على أن ما ذكره الغرابي في تاريخه يدعو للالتفات فيما يخص جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني.

حوادث سنة ٩٨٥ هـ - ١٥٧٧ م

حسيني البغدادي

في هذه السنة توفي حسيني البغدادي، وإن الموما إليه كان آباؤه وأجداده من أعيان بغداد، وحصل هو أيضاً على مكانة وغنى... إلا أنه مال إلى التصوف واختار العزلة فقطع العلاقة مع الأمور الدنيوية فتجول كثيراً في الأقطار فاختل عقله. وكان قد نظم في اللغتين الفارسية والتركية وصف بها الجمال والحسن بأجلى بيان فهو من الشعراء المشاهير ذكره عهدي وأورد له بعض الأشعار والرباعيات الفارسية والتركية[1]...

ومن هذه الترجمة وغيرها يظهر أن عهدي البغدادي قد زاد في گلشن شعرا بعد أن أتمه في سنة ٩٧١ هـ فمضى به إلى هذا التاريخ.

حوادث سنة ٩٩١ هـ - ١٥٨٣ م

عمارة مرقد الحسين (رض) وجامعه

في هذه السنة عمر الوالي مرقد الحسين رضي الله عنه وجامعه. وقد مرت الإشارة إلى ذلك. وذكرت التفصيلات في (كتاب المعاهد الخيرية). وفي كتاب (تاريخ جغرافياي كربلاي معلى) الفارسي بعض التوضيح.

---

(١) گلشن شعرا - عهدي ص ١٥٦.

حوادث سنة ٩٩٢هـ ـ ١٥٨٤م

جاء في كشف الظنون أن الوالي علي باشا غزا المولى سجاداً المشعشع في هذه السنة، فكتب نيازي الشاعر كتاباً في غزواته باسم (هزنامه علي باشا) ويسمى (ظفرنامه). والولي سجاد ابن السيد بدران. ولي سنة ٩٤٨ هـ فأخرجه منها السيد مبارك بن مطلب بن بدران. وتوفي سنة ١٠٢٥ هـ ـ وقيل سنة ١٠٢٦ هـ[1].

حوادث سنة ٩٩٣ هـ ـ ١٥٨٥ م

دفترية عالي أفندي في بغداد

في أواخر هذه السنة نال عالي أفندي دفترية بغداد. وهو أديب كامل ومؤرخ فاضل، صاحب تاريخ (كنه الأخبار) في مجلدات بعضها لا يزال مخطوطاً، وله (كتاب مناقب هنروران) وفيه بيان عن الخطوط والخطاطين وهو أيضاً من مشاهير الخطاطين وأمثال هؤلاء الفضلاء تأثروا بالقطر وثقافته والأدلة على ذلك عديدة. ومؤلفاته كثيرة والمطبوع منها (فصول الحل والعقد وأصول الخرج والنقد) ولم يذكر فيه اسم مؤلفه دامت مدة بقائه في الدفترية إلى سنة ٩٩٤ هـ فعزل من بغداد. توفي سنة ١٠٠٨ هـ. وترجمه ابن الأمين محمود كمال بك بترجمة ضافية في كتاب مناقب هنروران. وابن الأمين كان مدير متحف الأوقاف الإسلامية في استانبول رأيته هناك سنة ١٩٣٤ م، أديب فاضل وله آثار كثيرة. وعالي أفندي عرفنا بخطاطين عراقيين في كتابه مناقب هنروران، وفي أوليا چلبي ذكر له بيتين في نخيل بغداد[2]. والموما إليه تأثر كثيراً بالعراق وكتابه وأدبائه، ونقل الخط ورجاله ودواوين شعرائه وعرف بهم وهكذا فعل في الممالك الأخرى مما زاد في الثقافة التركية وأضاف إليها آداباً جديدة. . .

---

(١) يانصد ساله خوزستان ص ٦٦ وكشف الظنون.

(٢) أوليا جلبي ج ٤ ص ٤٣٠.

حوادث سنة ٩٩٥ هـ ـ ١٥٨٦ م

الوالي جغاله زاده سنان باشا

ولي بغداد وقيادتها للمرة الأولى في هذه السنة. وهذا هو المعروف بـ (سنان باشا) واسمه الأصلي (يوسف). كان قد جاء بجيش عظيم... وإثر وصوله سار إلى محاربة العجم في أنحاء (چمچمال) فساق الجيوش إليها وافتتح قلعتي (بيلور) و (ناور)[1] فانتصر على العجم وعاد ظافراً...

حوادث سنة ٩٩٦ هـ ـ ١٥٨٧ م

دسفول ـ نهاوند

وفي هذه السنة استولى الوالي سنان باشا على دسفول فافتتحها. ثم مضى إلى نهاوند فاكتسحها وكانت هذه عاصمة الشاهات. وبعد أن استولى عليها عهد بمنصبها إلى كتخداه محمد باشا وعين لها المهمات والمستحفظين... وتوجه نحو همذان ونكل بجيوش العجم كثيراً ودمرهم فعاد إلى بغداد[2]...

وجاء في (عالم آراي) أن جغاله زاده أمير أمراء بغداد ساق جيشاً إلى نهاوند وسلب ونهب، وسحب كثيراً من القبائل والعشائر في عليشكر (قطر معروف) إلى جبال اللر فأسكنهم فيها. فأظهر (شاه ويردى) طاعته لحكومة الروم (العثمانيين) والاتصال بولاة بغداد. ولما تصالحت إيران مع العثمانيين بقي شاه ويردى على حياله ولكنه أبدى الطاعة لإيران ولم يترك باباً من أبواب الحيل إلا ولجه، وآماله مصروفة إلى أن ينال حكومة إيران يوماً... هكذا كانت تحدثه نفسه...

---

(١) الاختلاف بين النسخة المطبوعة والمخطوطة في هذين العلمين في كلشن خلفا ظاهر ففي المطبوعة كما ذكر وفي المخطوطة جاء (بيلور) و (تادده).

(٢) ديوان روحي البغدادي ص ١٣.

جامع الكيلاني ـ تعميراته:

كان هذا الجامع في الأصل مدرسة لأستاذه أبي سعيد المخرمي. يقع في محلة باب الأزج. ولكثرة الاتصال بهذا الجامع صارت المحلة تدعى بمحلة الشيخ أو محلة (باب الشيخ). ومنارته البيضاء موجودة من أيام السلطان سليمان القانوني. وقد مر الكلام على تعمير قبة الشيخ عبد القادر الكيلاني.

ومن أعمال الوالي سنان باشا تعمير (جامع الشيخ)، ودار السبيل للحضرة الگيلانية ذكر ذلك روحي البغدادي في ديوانه وبين تاريخاً لذلك قال:

«جامع أهل دعا جشمه آب حيات».

قال الغرابي في تاريخه:

«وبعده أسس سنان باشا بحذاء القبة ـ قبة الشيخ عبد القادر الكيلاني ـ جامعاً ولم يتفق له إكماله، وإنما بنى منه مقدار ثلثه، وبعد مضي سنوات كمله والي بغداد علي باشا الوند في العقد التاسع من المائة العاشرة...» اهـ.

وهذا النص يخالف ما في گلشن خلفا، ومن غيره تعين لنا أن التاريخ عن الولاة غير متقن ولا مضبوط.

طال أمد تعمير هذا الجامع حتى ظهر بهذه العظمة. فإن قبة المصلى كبيرة جداً لا يوازيها في الأقطار التي رأيتها ما هو بعظمتها وسعتها وجليل بنائها. ويقال إن باطنها قد ملىء تبناً وعوض به عن معتمد أو مستند للبنائين في صنع تلك القبة وبنائها دون استخدام (الصقالة) أو (السكلة).

حوى هذا الجامع ريازة معتبرة كما أنه جمع خطوط خطاطين

تصلح أن تعد نموذجاً لخطاطينا عدا التزويقات والنقوش...

وفي الجامع اليوم مدرستان. ويطول الكلام الآن في التوضيح.

وقد فصلنا القول فيه في كتاب (المعاهد الخيرية).

الطريقة القادرية

تكية الشيخ عبد القادر الكيلاني غير منفكة عن الجامع، وإن الدراويش يسكنون الجامع في حجر خاصة، وتاريخ تكونها قديم يرجع إلى تاريخ تكون الطريقة. فهما متلازمان.

والشيخ عبد القادر الكيلاني كان ورد العراق شاباً، وأخذ العلم من مشاهير علماء بغداد. ومن أشهرهم المخرمي صاحب مدرسة باب الأزج وكان أكثر اتصالاً به، واشتهر بالوعظ كما عرف بالزهد والتقوى، فصار من العلماء المعروفين، والوعاظ المقبولين، خلف أستاذه في التدريس بمدرسته فمالت إليه القلوب، ولهج به الناس، وحصل على الثقة من كافة الطبقات، ويعد سلوكه المرضي، وزهده وصلاحه (طريقة)، عرفت أخيراً بـ (الطريقة القادرية) ونهجها اتباع الكتاب الكريم والحديث الشريف.

وهكذا مال القوم من قديم الزمان إلى أهل الصلاح والتقوى، بحيث صار الناس يقتدون بهم في زهدهم وصلاحهم، بل روعيت كافة أعمالهم الدينية، وتعبداتهم، فاتخذت نهجاً لما نالوه من منزلة مقبولة في النفوس، فصار ذلك منشأ الطرائق... ومنها هذه.

عاصر حضرة الشيخ عبد القادر جماعة من الزهاد الأكابر... ثم دخل كثيرون من أرباب الزيغ من غلاة التصوف هذه الطريقة، فأفسدوا الكثير منها ولم يعهد أن ذم أحد الزهد والصلاح والتقوى إلا أن دخول أهل الابطان بين صفوفهم أخرجهم عن نهجهم، وجعلهم (فلاسفة) من

رجال (الأفلاطونية الحديثة) لا من رجال العبادة والتقوى. والبر معروف، والفاجر كذلك. ولم ينجح الغلاة في التدخل بهذه الطريقة.

نالت هذه الطريقة رغبة لما عرفت بالصلاح والزهد، ولم يدخلها الغلو المعروف عن الكثيرين من المتصوفة، فلم تعهد فيها النزعة القائلة بالوحدة، أو بالاتحاد، والحلول، بل لم يتمكنوا منها... ونتناول هنا ما قامت عليه من أصول الزهد والصلاح...

كان الشيخ عبد القادر عرف بالصلاح، وذاعت آثاره، وانتشرت في الأقطار ومن كتبه (الغنية)، و (فتوح الغيب)، وجاءت ترجمته في كتب عديدة، وبينها ما خلص لذكر مناقبه في الزهد والتقوى وأنه كان مدرساً معروفاً، زاول التدريس والوعظ في مدرسة شيخه المخرمي، وكان من علماء السلف، حنبلي المذهب، وكذلك كان خلفه الشيخ عبد القادر...

ويهمنا أكثر من كراماته، وما ينسب إليه من خوارق أمر صلاحه وتقواه، وحوادث وعظه ونصيحته للمسلمين، فإن تلك اعتادتها الطوائف لإكبار صاحب طريقتها أو نحلتها... وما قيمة من يمشي على الماء، أو يطير في الهواء، ولا يذعن لقدرته تعالى وطاعته بل يدعي ما انفرد به الواحد الأحد، ويحاول أن يزاحم الباري في قدرته. فجل ما يصلح أن يكون قدوة للمسلمين التزام الشرع، وما أوصى بمقتضاه، وخلصت عقيدته فوافقت القرآن، ولم تخرج عليه قيد شعرة، بل إن حسن العقيدة والسلوك المقبول إنما يكون في متابعة أوامر الله، وما قرره في كتابه العظيم من اجتناب نواهيه. وهذه هي سبيل المؤمنين، وطريق المسلمين الصالحين المتقين، ويشتركون في اتباع هذه الطريقة. ولا يهمنا عمل الشخص والتزامه أموراً شاقة ليكون قدوة، وإن كانت لا تخلو من حب تفوق.

ويعين طريقته ما مضت عليه في مختلف العصور من تعاليم قويمة

لمريديها، والراغبين في سلوكها. أخذها شيوخ عن شيوخ، ومن هؤلاء يعرف أن شيوخ الجيلي بل أجل شيوخه أبو سعيد المبارك المخرمي[1] الشمطي الحنبلي، وهو أخذ عن الشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن يوسف القرشي الهكاري عن الشيخ أبي الفرج يوسف الطرسوسي عن الشيخ أبي الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز التميمي اليماني، عن الشيخ الشبلي، عن الجنيد، عن سري السقطي عن معروف الكرخي عن علي ابن موسى الرضا عن آبائه حتى الإمام علي بن أبي طالب... وهؤلاء شيوخهم معروفون. لكل واحد شيوخ متعددون لا محل لتعدادهم. إلى أن يتصلوا بالرسولﷺ.

ومن تلقيناتهم:

لا إله إلا الله حصني فمن قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي.

حديث ينقلونه، ويتناقلونه.

«قل هو الله أحد».

والوصايا بالذكر: «يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض...».

والصلوات الخمس «أقيموا الصلاة...».

ومحبة الله. «والذين آمنوا أشد حباً لله».

وهذه وصية الشيخ التي يتناقلونها المؤكدة لمراعاة أحكام الكتاب، أوصى بها بعض أولاده فقال:

«أوصيك يا ولدي بتقوى الله وطاعته ولزوم الشرع، وحفظ

---

(١) ورد في إجازات الطريقة بلفظ (المخزومي) وليس بصواب. توفي سنة ٥١٣ هـ.

حدوده، واعلم يا ولدي ـ وفقنا الله تعالى وإياك والمسلمين أجمعين ـ أن طريقتنا هذه مبنية على الكتاب والسنة، وسهل الصدور، وسخاء اليد، وبذل الندى، وكف الجفا، وحمل الأذى، والصفح عن عثرات الإخوان.

وأوصيك يا ولدي بالفقر وهو حفظ حرمات المشايخ، وحسن العشرة مع الإخوان، ونصيحة الأصاغر والأكابر، وترك الخصومة، لا ترك أمور الدين.

واعلم يا ولدي ـ وفقنا الله وإياك والمسلمين أجمعين ـ أن حقيقة الفقر أن لا تفتقر إلى من هو مثلك، وحقيقة الغنى أن تستغني عمن مثلك، وأن التصوف حال، لا الأخذ بالقيل والقال، وإذا رأيت الفقير فلا تبدأه بالعلم وابدأه بالرفق، فإن العلم يوحشه، والرفق يؤنسه.

واعلم يا ولدي ـ وفقنا الله وإياك والمسلمين ـ أن التصوف مبني على ثماني خصال أولها السخاء، وثانيها الرضا، وثالثها الصبر، ورابعها الإشارة، وخامسها الغربة، وسادسها لبس الصوف، وسابعها السياحة، وثامنها الفقر، فالسخاء لنبي الله إبراهيم، والرضا لنبي الله إسحاق، والصبر لنبي الله أيوب، والإشارة لنبي الله زكريا، والغربة لنبي الله يوسف، ولبس الصوف لنبي الله يحيى، والسياحة لنبي الله عيسى، والفقر لسيدنا وشفيعنا محمد ﷺ.

أوصيك يا ولدي أن تصحب الأغنياء بالتعزز، والفقراء بالتذلل، وعليك بالإخلاص وهو نسيان رؤية الخلق، ودوام رؤية الخالق، ولا تتهم الله في الأسباب واستكن لله في جميع الأحوال، ولا تضع حوائجك اتكالاً بأحد لما بينك وبينه من القرابة والمودة والصدق، وعليك بخدمة الفقراء بثلاثة أشياء أحدها التواضع، والثاني حسن الآداب، والثالث سخاء النفس. وأمت نفسك حتى تحيى، وأقرب الخلق

إلى الله أوسعهم خلقاً، وأفضل الأعمال رعاية التسري عن الالتفات إلى شيء يؤذي الله. وعليك إذا اجتمعت بالفقراء بالتواصي بالصبر. إن الفقير لا يستغني بشيء سوى الله تعالى.

يا ولدي إن الصولة على من هو دونك ضعف وعلى من هو فوقك فخر، وإن الفقر والتصوف جد فلا تخلطهما بشيء من الهزل.

هذه وصيتي لك...» اهـ.

هذه الوصية ليس فيها ما يخالف الشرع، بل كلها تقوى، وأخلاق مرضية ورعاية للسلوك المرضي وتكرار لفظة الشهادة.

جرى هؤلاء على الذكر، وشيخ الذكر يقال له (شيخ الحلقة)[1]. وليس لديهم إلا ترديد (كلمة الشهادة)، ولا يقصد من ذلك إلا رسوخ التوحيد، وتكرار أمره، وحسن تلقينه وتلقيه.

وإن عاتكة خاتون[2] صاحبة المدرسة رصدت من وقفها بعض الغلة للذكر وشيخ الذاكرين ومعه عدد منهم، والحث على الوصايا الفاضلة التي تصلح أن تكون سلوكاً عاماً شاملاً.. وفي آية ﴿**اتقوا الله ما استطعتم**﴾ ما يؤيد هذه الوصايا، وقد اتخذ القوم أعماله قدوة، على أساس آية ﴿**ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى**﴾.

وهنا نقول إن القوم وأمثالهم من أرباب الطرق تجاوزوا الحد في الاتباع، وإنما يراد بذلك ﴿**سبيل الله**﴾ وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وهي ﴿**سبيل المؤمنين**﴾ يدل على ذلك آية ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إليها أنا ومن اتبعني**﴾. فالأخذ رأساً وبلا واسطة هو المطلوب، وهو

---

(١) لا يزال شيخ الحلقة منصبه متوارثاً، وآل شيخ الحلقة معروفون آخرهم السيد محمد نجيب توفي سنة ١٣٦٦ هـ.

(٢) ذكرتها في كتاب المعاهد الخيرية.

سبيل المؤمنين. فلا نعرف سواه حذر أن يشاد أحد في هذا الدين، أو يكلف نفسه بما لا يطيقه عامة المسلمين فالانقطاع إلى الله مقبول ممن كلف نفسه ورغب في ذلك، واتباع أمره مرضي أيضاً في لزوم الأخذ بما خلق المرء لأجله فلا يمنع من ملاذ الحياة المشروعة. نقل القرآن عن عباده المؤمنين دعاءهم:

﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار﴾

وجاء في أخبار عديدة منها «كل ما ليس عليه أمرنا فهو رد»، ويدل على التزام الشرع فإذا كان الشيخ رحمه الله، ورضي عنه سار على طريقة المؤمنين، وهي الدين القويم المبين في القرآن الكريم، فلا ريب أن يدعو إلى هذه الدعوة، وأن يسير كل مسلم على هذا ولن يشاد أحد في هذا الدين إلا غلبه، فلا شك أنه لا يتأخر لحظة عن اتباع القرآن الكريم، **﴿ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى...﴾**.

نعوذ بالله من الخروج عن جادة الصواب والغلبة، وفي هذه الأيام شاع في اتباع هذه الطريقة من خرج عن الصدد وزاغ عن الطريق السوي، فصارت متابعة الطريقة أشبه بالخروج عن الإسلام لما دخلها من بدع وشذوذ مما لم يؤثر عليها. نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. تكلمت في (عشائر العراق الكردية) عن الطريقة. وهي منتشرة في الهند وبلاد الترك وسوريا ومصر وبلاد المغرب...

الأسرة الكيلانية

هذه أسرة قديمة تبتدىء بحضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ. جاء بغداد من جيل في لواء كركوك وتسمى گيل أو من گيلان وكان من تلاميذ المبارك بن علي بن الحسين بن بندار المخرمي باني مدرسته المعروفة بمدرسة (باب الأزج) أو (مدرسة المخرمي)، ثم عرفت (بمدرسة الشيخ عبد القادر الگيلاني). وتعد أسرته من أقدم الأسر

العراقية، عرف مؤسسها بالوعظ والتدريس من أيام وفاة شيخه المخرمي المذكور سنة٥١٣ هـ، وكان الشيخ حنبلياً ويعد من أكابر العلماء في عصره، وجاء ذكر معاصريه في كتاب بهجة الأسرار. ودامت الأسرة إلى اليوم تتولى أوقاف الحضرة القادرية.

وفي بغداد منها (آل عبد العزيز)، و (آل عبد الرزاق) من أولاد حضرة الشيخ إلا أن التولية والنقابة كانتا ولا تزالان لهذا العهد بيد (أولاد عبد العزيز) ابن الشيخ. وفي هذا العهد أصابتهم نكبات من الدولة الصفوية، وترك الكثيرون منهم بغداد، ذهبوا إلى مختلف الأنحاء إلى حلب، وإلى الشام ومصر، وإلى استانبول.. وكان ذلك في أيام دخول الشاه إسماعيل بغداد سنة ٩١٤ هـ.

كان تأثيرهم على العالم الإسلامي كبيراً وكلمتهم مسموعة في بيان فظائع الصفويين. والحق أن هؤلاء لم يمنعهم حنقهم من الوقيعة والنكاية بالمسلمين لأغراض مذهبية.

ومن مشهوري الأسرة جماعة ذكرهم صاحب قلائد الجواهر منهم الشيخ شمس الدين والشيخ زين الدين، وهم من آل عبد العزيز أهل التولية والنقابة في الوقت الحاضر. وفي خلال المدة بين حكم العجم والعثمانيين لم تنقطع علاقة الأسرة بالحضرة الكيلانية مما يتعلق بإدارة المدرسة أو الجامع، والتكية القادرية. فهم شيوخ الطريقة تؤخذ عنهم ومعروفون بالعلم أيضاً.

وكل ما عرف من أحوالهم في هذا العهد ما جاء منصوصاً عليه في قلائد الجواهر. وأشرنا إليه في تاريخ العراق(١). ولا نمضي دون بيان أن الموقوفات الموجودة التي يتمتع بها آل الگيلاني كانت من موقوفات

---

(١) تاريخ العراق بين احتلالين المجلد الثالث.

السيد الشيخ شمس الدين الكيلاني والسيد الشيخ زين الدين الكيلاني من أسرة الشيخ عبد القادر من أولاد عبد العزيز ابنه في هذا العهد، وقد أنعم السلاطين العثمانيون إنعامات كثيرة في إعفاء الموقوفات من التكاليف والرسوم الأميرية بل وقفوا عليها الرسوم وقفاً إرصادياً، وجعلوها للحضرة القادرية.

وأما أسرة عبد الرزاق منهم فإنها لم تكن لها نقابة ولا تولية في العهد الذي نكتب عنه، ولم تنل مكانة إلا بعد هذا التاريخ، فقد زاحموا أولاد عبد العزيز ونازعوهم النقابة، فتولاها كثيرون منهم، وفي أيام الوالي محمد نجيب باشا سنة ١٢٦١ هـ عادت النقابة والتولية مستقلة إلى السيد علي ابن السيد سلمان النقيب من آل عبد العزيز، فاستقرت فيهم ولا تزال إلى اليوم غير مزاحمة لطول عهدها بالتولية والنقابة...

وعرف من أسرة (عبد الرزاق) السيد علي، والسيد عبد الرحمن، والسيد عبد العزيز، والسيد رمضان، والسيد محمود بن زكريا وغيرهم. وأما أسرة عبد العزيز فقد عرف منها السيد علي ابن السيد سلمان، وابنه السيد سلمان ثم ابنه السيد عبد الرحمن، والسيد محمود حسام الدين ابن السيد عبد الرحمن، والسيد عاصم. وهو نقيب الأشراف اليوم ابن السيد عبد الرحمن، ومتولي الوقف القادري وكان قد زاحمه في التولية فخامة السيد رشيد عالي الكيلاني. فولي الوقف مدة.

وللتفصيل عن الأسرة الگيلانية موطن آخر.

عزل الوالي سنان باشا:

ثم طوى ذكر هذا الوالي وسماه صاحب سجل عثماني (چغاله زاده سنان يوسف باشا) وهو اسم ولقب جمع بينهما وقال: «هو من بوسنة، ابن قبطان الفرنك چغاله. أخذ والده في عصر السلطان سليمان وتربى في البلاط ونال مناصب عديدة منها ولاية بغداد، وقبطانية البحر وآخر ما

عهد إليه سردارية العجم فتوفي بتاريخ رجب سنة ١٠١٤ هـ. وكان محارباً جسوراً، وله ابن اسمه محمود باشا»[١].

دامت ولايته إلى سنة ٩٩٨ هـ فعزل.

الوالي قاضي زادة علي باشا:

ولي بغداد سنة ٩٩٨ هـ، وبعد أن عزل حصل على منصب بودين وهكذا تقلب في مناصب عديدة وتوفي سنة ١٠٣٢ هـ وكان صادقاً، متديناً، عاقلاً[٢].

وهذا لم يذكره صاحب گلشن خلفا. وإنما مضى رأساً إلى چغاله زاده سنان باشا. والحال أن روحي البغدادي ذكره في ديوانه ص ١٥. ومن الغريب أن مرتضى آل نظمي لم ينقل من ديوان روحي البغدادي، ولعله لم يصل إليه. وجاء في روحي البغدادي تاريخ ولايته وتصادف هذه السنة التي ذكرها صاحب سجل عثماني. وتاريخه:

«علي باشا عادل حامىء دار السلام أولدى».

قضاء بغداد:

في هذه السنة ولي (قضاء بغداد) رضوان أفندي وهذا جعل الملا غانماً البغدادي مدرساً في المدرسة المستنصرية[٣].

حوادث سنة ٩٩٩ هـ ـ ١٥٩٠ م

چغاله زادة سنان ـ ولايته الثانية:

في هذه السنة ولي بغداد چغاله زاده سنان باشا مرة ثانية وكان كاتب ديوانه (حسن أفندي) ولروحي البغدادي قصيدة في مدحه أطرى

---

(١) سجل عثماني ص ١١١ ج ٣.
(٢) سجل عثماني ج ٣ ص ٥١٠.
(٣) فذلكة كاتب جلبي ج ٢ ص ٦.

فضله وتفوقه في الشعر والكتابة[١]... وإن الوالي سنان باشا رأى العجم استعادوا نهاوند فتقدم نحوهم وسار إليهم فافتتحها وكان جيشه متكوناً من عسكر بغداد وقليل من عسكر شهرزور ومن ثم عين لها أمير أمراء، وجيشاً وقام بما لزم لتنظيم إدارتها. وفي هذه الأثناء كان حاكم لرستان (شاه ويردى خان)[٢] وهذا أصابته من الوالي ضربة موجعة كما أن هذا الوالي أسَرَ حاكم همذان قورقمز خان وعاد منصوراً، قص ذلك كله في كتاب عرضه لدولته ونقله صاحب گلشن خلفا. مدحه روحي البغدادي بقصيدة في فتح نهاوند وبأخرى رحب بها بقدومه[٣]...

خان جغان والقهوة والسوق:

وبعد أن أتم حروبه مع العجم عاد إلى بغداد بالغنائم. عمر فيها خاناً وقهوة وأسواقاً في أطرافهما. قال صاحب گلشن ولا يزال هذا الخان معروفاً (بخان چغاله زاده). مدحه عليه شعراء ذلك الزمن بأشعار تركية. وأقول كان هذا الخان قائماً ويسمى خان الصاغة أو (خان جغان) بتحوير طفيف في أصل اللفظ ولكنه في سنة ١٣٤٨ هـ ـ ١٩٢٩ قلع من أصله وبني مجدداً واتخذت فيه أسواق لبيع الأقمشة الحريرية وما ماثلها ولم يبق منه للصاغة إلا قسم قليل. امتلكه السيد مناحيم دانيال صاحب المبرات العديدة والصديق السيد صالح قحطان المحامي وشركاء آخرون.

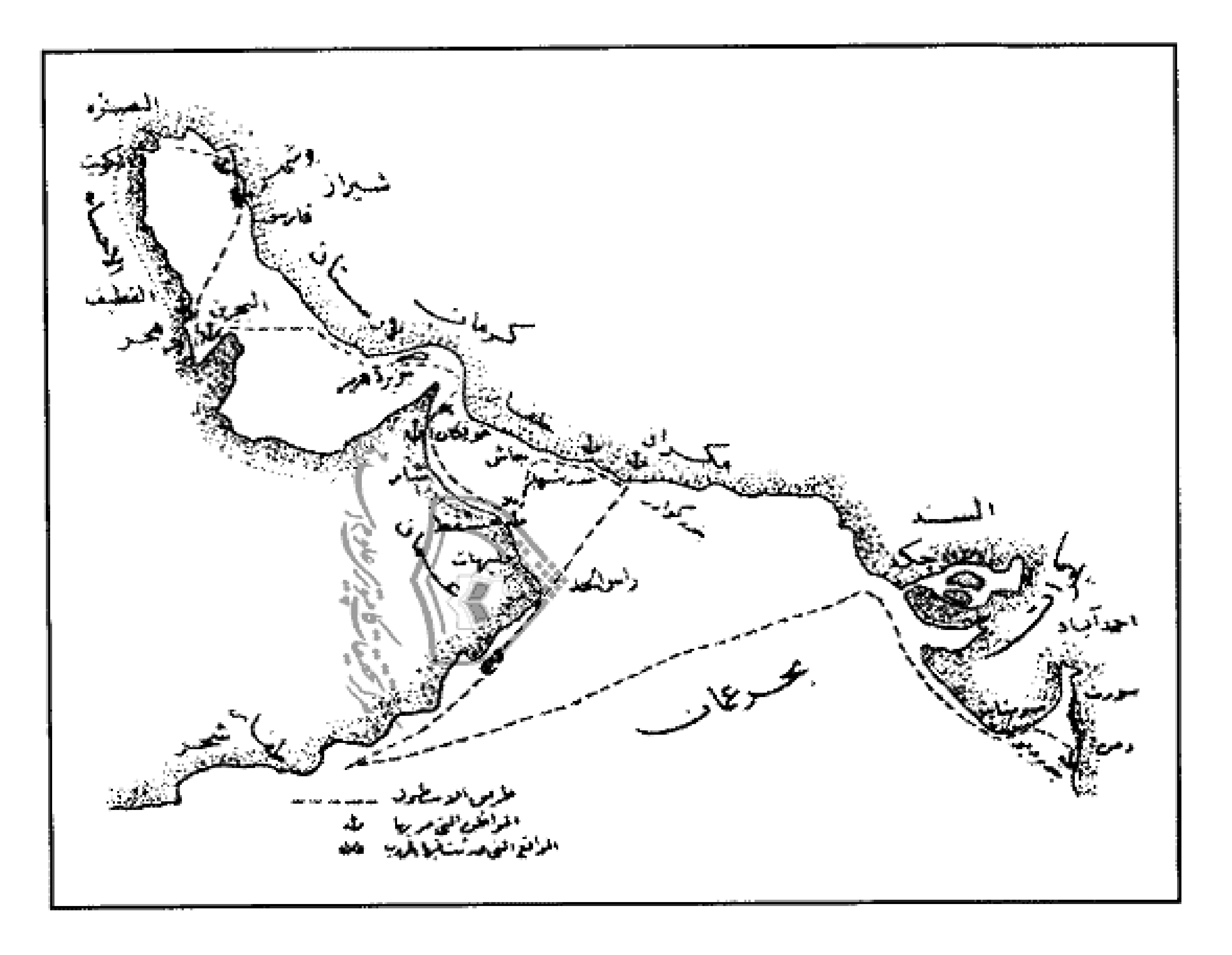
وكان كتب على بابه حين بنائه:

---

(١) ديوان روحي ص ٤٧.

(٢) كان شاه ويردي يلعب على الاثنين. يرى ضعفاً في حكومة إيران. ذكر ذلك صاحب (عالم آراي عباسي) إلا أنه مال للإيرانيين حينما رأى أن الشاه نظم داخلية إيران على أحسن ما يرام فأخذ يميل إليه ويتوسط لقبوله وقد وسعنا القول فيه في (تاريخ اللر الفيلية).

(٣) ديوان روحي ص ٢٠ إلى ٢٥ وكلشن خلفا ص ٦٥ ـ ٢.



خارطة المواقع التي مرّ بها سيدي علي رئيس من البصرة إلى بر العرب فالهند

«عمر هذا الخان وما فيه من البنيان في أيام دولة السلطان ابن السلطان مراد خان خلد الله ملكه وسلطانه وأفاض على كافة العالمين عدله وإحسانه ٩٩٩» اهـ.

والملحوظ أن ذلك كان أيام السلطان مراد الثالث، وهو بخط الخطاط العراقي صاحب الثلاث تسعات عبد الباقي المولوي المعروف (بقوسي) وكانت هناك كتابة تركية زالت معالمها ولم يبق إلا ما ذكر مما عثرنا عليه. أوضحت في (تاريخ الخط العربي في العهد العثماني) عن خطاطه.

وأما القهوة فهي الآن الخان المسمى بـ (خان الكمرك) وكانت عليها كتابة إلا أن هذه نقلت إلى دار الآثار في القصر العباسي. وهي أبيات تركية ذكرها صاحب گلشن خلفا[1].

تكية المولوية في بغداد:

هذه التكية تسمى (المولاخانه) أيضاً. والآن تعرف بجامع الآصفية. عمرت في أيام هذا الوالي سنة ٩٩٩ هـ عمرها محمد چلبي كاتب الديوان في بغداد. وهذا يأتي الكلام عليه عند بيان وقائع أحمد الطويل.

تضاربت الأقوال في أصل هذه التكية المسماة في هذه الأيام بالمولاخانه، وفي تاريخ تأسيسها. وجل ما تحققناه من نصوص عديدة أن هذه التكية كانت تسمى (رباط دير الروم). وهي من بناء الخليفة المستنصر بالله العباسي، وتقلبت بها الأحوال حتى صارت تعرف بـ (تكية المولوية). وما جاء في تاريخ الغياثي عن القلندر خانة يستبعد أن يكون هذا المحل مع أننا ظننا أنها قد صارت قلندر خانة (تكية). أوضحنا

---

(١) گلشن خلفا ص ٦٦ ـ ١.

ذلك في المعاهد الخيرية. ثم صارت (جامع الآصفية)[1] والتسمية الأخيرة لداود باشا فإنه عمرها فأضيفت إليه باعتبار أنه آصف وقته. ذكرنا ما جرى عليها في أيامه وأوضحنا الوثائق التي دعت إلى تعميرها.

ومحمد چلبي باني التكية لم يعرف عنه شيء غير قتلته ابن الطويل، وأنه كان كاتب الديوان، ولو لم يتعرض لقتلة الوالي المتغلب لما عرف بل كان في عداد المهملات[2]. ومما علمناه أن (الخطاط قوسي) كان قد كتب لوحاً في التكية سنة ٩٩٩ هـ، مما يعين أن هذه التكية كان بناؤها سنة ٩٩٩ هـ. وهذا تاريخ تجديد بنائها من محمد چلبي المذكور[3].

---

(١) تاريخ العراق ج ٢.

(٢) كلشن خلفا ص ٦٦ ـ ٢.

(٣) بين الدكتور ـ مصطفى جواد ـ أصلها (دار القرآن المستنصرية) ثم أوضح عن محلة (دار الروم)، أو (دير الروم) بنصوص من ياقوت في مادتي (دير الروم) و(دور) واستبعد أن تكون في الآصفية مع أن صفي الدين عبد الحق لم يعين محلة (دار الروم) واستدل من هذه الأقوال أنها مجاورة لمشهد الإمام أبي حنيفة ومحلة الخضريين أو الخضيرية حتى عُدَّ من فضول القول التقريب بين دار الروم في شرقي الاعظمية وجامع الآصفية في رأس الجسر الأعلى، واستدل بتقسيم المياه في الخطيب البغدادي ج ١ ص ١١٥ وأيده بمختصر مناقب بغداد. وبين أن جامع الوزير لم يكن المسجد ذا المنارة الوارد في ص ١٤٣ وقال: هذا مبني عن ظن أن الآصفية (دير الروم) استدلالاً بالكتاب المسمى بالحوادث الجامعة، والحال أنه المدرسة التتشية.

وأقول إن تتبع الدكتور يستند إلى استنتاجات بعيدة، واستدلالات من اسم المحلة وتعيين موقعها في حين أن الموضوع (رباط دير الروم) وهذا الرباط متعين في أنه هو الدار المستجدة، أو الدار المستجدة لرباط دير الروم. أو دار الروم الملاصق للمدرسة المستنصرية من أعلاها، والمجاور للمسجد ذي المنارة فهو بينهما، فالنصوص التي عينت موقع الرباط كثيرة منها الكتاب المسمى (الحوادث الجامعة) ص ٢ وص ٥٣. فالمستنصرية متعينة وتوضح اتصال الرباط أو الدار المستجدة بها، وهو أيضاً متصل بالمسجد ذي المنارة فهو بينهما. =

والملحوظ أن هذه التكية تخرج منها خطاطون عديدون بل أساتذة أكابر من شيوخها كان لهم الذكر الجميل في جودة الخط وإتقانه. وقد تعرضنا لذكر جماعة منهم في كتابنا (تاريخ الخط العربي في العراق). وسنتناول بعض المعروفين في الطريقة خاصة وفي مواهب أخرى.

الطريقة المولوية

ولما تعين لنا بناء تكية هؤلاء المتصوفة في بغداد لزم أن نتكلم في أصل هذه الطريقة وكيف نالت شهرتها في المملكة العثمانية مع أنها لم يستقر لها قدم ثابت في بغداد ولم تنل رواجاً، وذلك أن الموظفين الواردين من الآستانة كان كثير منهم ينتسبون إلى هذه الطريقة إلا أنهم لم يؤثروا التأثير الكافي ولأنهم في عزلة، عن الاحتكاك بالأهلين. ومن جهة أخرى لم تقبلها نفوس الأهلين ومع هذا لا يزال في هذا الحين وبعده بمدة طويلة لها شيوخ تجري على مراسيم القوم وتقاليدهم المعروفة. لا سيما وقد رأوا من رجالها خدمة لا تقدر...

والمولوية شائعة في بلاد الترك وكان رئيس الإرشاد يقلد السلطان سيفه إثر جلوسه على العرض ومؤسس هذه الطريقة جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ اشتهر بكتابه (المثنوي) ويحتوي على أكثر من ٤٧

= وقال ظهير الدين الكازروني في تاريخه: «ثم تقدم ـ الخليفة المستنصر بالله ـ بعمل رباط دير الروم فتم في ثامن رجب سنة ٦٢٦ وجعل له منارة للتأذين...» اهـ.

وفي الصفدي: نقلاً عن تاريخ ابن الساعي أن الدار المستجدة مجاورة للمدرسة المستنصرية. وتقع في الأعلى منها، وأنها لم ير مثلها أحد (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ٤ ص ٤٣). وكان جامع الآصفية ملاصقاً لجامع الوزير (المسجد ذي المنارة) قبل فتح الطريق. وأعتقد أنه زال الإشكال (التوضيح في كتابنا المعاهد الخيرية). والملحوظ أن دار القرآن من المستنصرية. والدار المستجدة (الرباط) بنيت قبل المستنصرية. فالرباط ثابت، وما استبعده الدكتور لم يكن بعيداً في الحقيقة. وهذا ما يبطل الاستنتاج بأن المحلة بعيدة عن الرباط.

ألف بيت. وله ديوان أيضاً في ثلاثين ألف بيت. وهو في الأصل من خراسان. ولد ببلخ. وخراسان في الأصل منبع الغلو وكان قد لقن تصوف (فريد الدين العطار) حفظ كتابه (أسرارنامه). و (تصوف الحلاج)، وأخذ عن ابن عربي، وعن القنوي والغلاة أمثال هؤلاء. اتصل (بشمس تبريزي) فلم ينفك أحدهما عن الآخر والمتصوفة يقولون إنه كان قد استولى عليه العشق الإلهي (الجذبة). وغيرهم يقول إنه قد تبله الشمس التبريزي حباً واستأسره في عشقه فامتلك مجامع قلبه حتى إنه يقال إن ديوان الشمس التبريزي قاله جلال الدين على لسانه ونطق باسمه. ويدل شعره على أنه من الغلاة أرباب نحلة الاتحاد والحلول من الباطنية. ونبه العلماء على لزوم نبذه... أما صناعته الأدبية فهي ليست براقية تماماً ولكن الرغبة مصروفة إلى ما فيه من غلو وعقيدة باطنية.

يدعو لنبذ التقليد، وطرح العقيدة الموروثة ويريد أن يستميل بهذه إلى طريقته. وهي لم تكن بالأمر الجديد ولا الغريب.

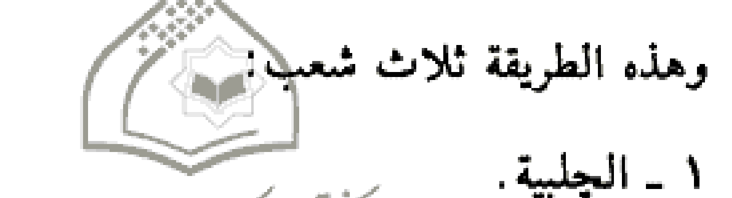
ومن وقف على آراء فريد الدين العطار، وسائر الغلاة عرف طريقة هؤلاء وتلخص في صد الناس عن القرآن الكريم تارة بتأويل أحكامه، وصريح نصوصه إلى ما يخرجها عن معناها، وطوراً بتلقين عقائد وحدة الوجود والحلول والاتحاد وآونة بترك الفرائض والرسوم الشرعية بزعم أنها لا تخصهم وأنهم الواصلون فلا تسري الأحكام عليهم وأمثال ذلك مما يدخل في دعوة أهل الابطان... ولا يترددون في تسمية أنفسهم أنهم من أهل الباطن، ورجال الشرع والدين من أهل الظاهر. فلا فرق بين هؤلاء وبين فرق الباطنية المتكتمة إلا أنها جاءت بشكل توهم أنها غير تلك. وأما السماع، والرقص وما يتعلق بهما من ناي أو عود فإنه تلاعب باسم الدين ولهو لا يرضى به الله **﴿اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور﴾**. وفي (رسالة ناصحة الموحدين وفاضحة الملحدين) للعلاء البخاري ما يبين عن أغراضهم وفيه

رد عليه وعلى محيي الدين ابن عربي والحلاج. والكتب عنهم وعن أضدادهم كثيرة جداً لا محل لاستقصائها...

ومن الكتب المؤلفة في المولوية باللغة التركية (حديقة الأولياء)، منها رسالة خاصة (بالمولوية) ولعبد الغني النابلسي (العقود اللؤلؤية في الطريقة المولوية) كتبه باللغة العربية. وباللغة الفارسية نفس (المثنوي)، و (مجالس سبعة مولانا)، و (مكتوبات جلال الدين الرومي). وهذه كتبت باللغة الفارسية. والمخطوطات والمطبوعات في هذه الطريقة كثيرة جداً.

وهؤلاء توغلوا في المملكة العثمانية، وعمروا تكايا اصطادوا بها كثيرين، ونسبوا لشيوخها تصرفات وكرامات... إلا أن العرب لم تمض عليهم مغازي هؤلاء فكانوا في دائرة ضيقة لم تلبث أن زالت من العراق ولم يبق إلا اسمها...

وهذه الطريقة ثلاث شعب:



١ ـ الجلبية.

٢ ـ القلندرية.

٣ ـ الددوية.

وفي إيران الطريقة الجلالية تنسب إلى جلال الدين نفسه. وعندهم المثنوي لا يعادله كتاب. وهم كثيرون. وطبع المثنوي عندهم مرات.

جامع الصاغة أو جامع الخفافين ومدرسته:

يعرف اليوم بـ (جامع الصاغة) أو (جامع الخفافين). وكان هذا الوالي قد عمره. وفيه لوح كتب لمدرسته سنة ٩٩٩ هـ، وهو بخط الخطاط الشهير في ذلك العهد (قوسي البغدادي) ونصه «إنما يخشى الله من عباده العلماء...» لا يزال ناطقاً بتاريخه.

يعد من الجوامع القديمة. ونسي اسمه الأصلي، فتضاربت الآراء فيه. والصحيح أنه (مسجد الحظائر) من تأسيس أم الخليفة الناصر لدين الله العباسي. والمدرسة في هذا الجامع قديمة. ويرجع تاريخ تجديدها إلى هذا العهد. واللوح المذكور يشير إلى ذلك. والتعميرات الجديدة من عمل آل الپاچه چي. والتفصيل لا يسعه هذا المقام. والتولية على الجامع اليوم بيد آل مصطفى سليم.

دار القرى:

هذه من عماراته أيضاً دامت إلى ما بعد السلطان مراد الرابع. ذكرها أوليا چلبي في رحلته. ولم يبق لها الآن أثر. قال أوليا چلبي إنها لا تزال موجودة أي في أيامه إلى سنة ١٠٦٧ هـ، ولا شك أنها دامت إلى ما بعد هذا التاريخ[١].

عزل الوالي:

ثم إن هذا الوالي انفصل عن ولاية بغداد ولم يعرف عنه أكثر من أنه حارب العجم، أراد أن يستفيد من حالة إيران المضطربة فلم يتمكن أكثر مما أشير إليه. وبعودته صرف جهوده للعمارة فبنى الخان وتوابعه. ولروحي قصائد فيه مذكورة في ديوانه[٢].

حوادث سنة ١٠٠٠ هـ ـ ١٥٩١ م

والي البصرة

جاء في سجل عثماني ج ٣ «أن سنان باشا ولي البصرة سنة ألف وعزل منها سنة ١٠٠١ وكان رئيس بوابين أيام محمد باشا الصوقوللي

---

(١) أوليا چلبي ج ٤ ص ٤٢٠.
(٢) كلشن خلفا ص ٦٥ ـ ٢.

وقد استشهد في الحرب سنة ١٠٠٧ هـ وهو أمير أمراء مرعش[١]. وهذا لم تتعرض له نصوص التواريخ الأخرى.

حوادث سنة ١٠٠١ هـ ـ ١٥٩٢ م

الوالي جعفر باشا

وفي هذه السنة قد ولي بغداد (خادم جعفر باشا). قال فيه صاحب گلشن خلفا إنه حكم ايالة تبريز لمدة ثماني سنوات فكانت مساعيه هناك مشكورة، وله حروب مع إيران مشهورة. فأنعم عليه السلطان بمنصب بغداد.

حوادث سنة ١٠٠٢ هـ ـ ١٥٩٣ م

عهدي البغدادي

في سنة ١٠٠٢ هـ توفي عهدي الشاعر الكاتب المؤرخ المشهور، ابن شمسي البغدادي المذكور في حوادث سنة ٩٧٥ هـ. وأكثر ما عرف برحلته العلمية إلى استانبول (گلشن شعرا) المسماة (تذكرة أرباب الصفا)، وفيها أبدى من المقدرة والعلم الغزير، والانتباه القوي في نعوت الأدباء والعلماء، ورجال الدولة باستانبول كما أنه عرف بوالده، وببغداديين كثيرين. عندي نسخة مخطوطة منها، وكذا في المكتبة العامة باستانبول نسخة أخرى. والترك اليوم يعولون عليها في تراجم المعاصرين ممن عرف بهم.

إن المؤلف ذهب إلى استانبول سنة ٩٦٠ هـ وعاد إلى بغداد سنة ٩٧١ هـ واتصل في طريقه بمختلف الطبقات واستطلع ما عندهم من علم وأدب وفضل. عاشر ضروب الناس من أرباب المشارب فلم يترك شيخاً

---

(١) سجل عثماني ص ١١٠.

إلا تحرى ما لديه ولا شاباً إلا سبر نياته، ولا أرباب المناصب إلا أخذ من معارفهم ولا أهل التصوف إلا اقتبس منهم فحصل من المعرفة صنوفاً، ومن العلوم أنواعاً فوقف على ما عند أهل الدنيا، وما في خزائن أهل الزهد والتقوى من رجال الآخرة...

وصل إلى استانبول فرأى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت... وبين أنه لم يتمكن من تدوين كل ما رأى من فضل وأدب جم، ومعرفة غزيرة. فكانت هذه ـ كما قال ـ عجالة سريعة. ونزراً قليلاً تنبىء عن معين لا ينضب.

اكتسب ما اكتسبه من مجالسة الشعراء المجيدين، والأمراء الكرام ومن معاشرة العلماء الأبرار، ومن مصاحبة أهل الفصاحة والبلاغة من عنادل البيان، ومن الاطلاع على أغاريدهم اللطيفة. كل ذلك بطريق المحادثات، أو المطارحات الشعرية، أو المذاكرات العلمية...

وفي هذه كان طالباً متتبعاً لازم القوم حتى أتقن لغتهم وتمكن أن يحذو حذوهم حتى صار كأحدهم بل صار فريداً في الشعر...

وفي سنة ٩٧١ هـ دعاه داعي الوطن وحبه من الإيمان فقال في التشوق إلى بغداد:

دل از طوربتان روم چون عهدي پريشانست

هواي ديدن بغداد وخوبان عجم دارد

يقول إنه مغرم بجمال الروم إلا أن هوى بغداد والشوق إليها وإلى الحسن الفارسي ملك زمام لبه وأخذ بمجامع قلبه فمال به. وقال:

ـ إنني عزمت على العودة فدونت ما خطر لي من خواطر وما عن لي عن السلاطين العظام، والعلماء الفخام، وأرباب الدولة والشعراء الأخيار مما جرى في مجالسهم وما عرفته عنهم وما اقتبسته من صحبتهم

فجعلته في أربع روضات أكتبها حسب الطاقة وأجمعها من أوراق متفرقة. . .

جعل الروضة الأولى في بيان صفات السلطان العادل وأبنائه ذوي الخصال الجميلة، والروضة الثانية في علماء زمانه العظام والموالي الكرام والمدرسين النبلاء، والروضة الثالثة في الأمراء والدفتريين ومنتخبات أشعارهم، والروضة الرابعة في مشاهير الشعراء مرتباً لها على ترتيب حروف الهجاء مع ذكر نتف من أشعارهم.

وفي هذه الروضات أورد مقداراً وافراً من شعره. . . ثم إنه قدم كتابه إلى السلطان متوسلاً قبوله. قال:

جمع أيدوب أرباب نظمي ايتدم أول سلطانه عرض
عادت أولمشدر صونر بنده شه دورانه عرض
خاكپايندن بتر مقصودي أرباب دلك
نوله صونسه خاكپايه عهدي فرزانه عرض

والمؤلف لم يكتف بذكر رجال الروم وعلمائهم بأن تعرض للبغداديين ممن نبغ في أدب أو علم وأضاف ترجمة والده شمسي البغدادي وبعض من لهم به لحمة نسب أو اتصال أدب وكثيرين ممن لا يزالون في خفاء عنا أو لا نعلم عنهم شيئاً كثيراً، أو أكثر مما بينه بل لم يقف عند تاريخ هذه التذكرة وإنما زاد عليها. وتجاوز التاريخ المرسوم لها.

وهذه قائمة بأسماء من ذكرهم مع بيان نتف يسيرة عنهم:

١ ـ داعي: بغدادي المولد وفي الأصل من الفرس المدرسين. ذكر في كشف الظنون له ديواناً.

٢ ـ حقيقي بك: من الأمراء ولد ببغداد واسمه مصطفى وهو ابن عم عثمان بك ترك بغداد أيام خضر باشا سنة ٩٦٣ هـ لمنافرة حدثت بينه

وبين الوالي وكان (قوللو أغاسي)، ومن أمراء الألوية. له شعر في الفارسية والتركية.

٣ ـ فكري بك: ولد ببغداد وهو من البيكات الممتازين. أبوه سنان الطويل الذي كان في خدمة السلطان ثم صار والياً ببغداد، وله أشعار في اللغات الثلاث. فقد بين عهدي أحد أولاد سنان باشا المترجم، ولم يعرف له ذكر في المؤلفات الأخرى. وسيأتي ذكر ابن سنان الطويل أعني سنان باشا وهو (محمود باشا) الذي تنسب إليه (المحمودية).

٤ ـ سليمان أفندي: من العلماء دخل في سلك الحكومة فقام بوظائف كثيرة. ثم صار دفترياً ببغداد. شاعر وأديب.

٥ ـ أكرم بك ابن قايتمز بك: من بغداد وأصل نسبه من قره قويونلي. ابن عم علي باشا والي بغداد. شاعر في اللغات الثلاث صاحب عهدي في الآستانة.

٦ ـ محمد بك. من غلمان السلطان سليمان. عين دفتري تيمار اتخذ لقب (فيضي) عنواناً له. مشهور في النظم والنثر.

٧ ـ أحمد الحريري من العلماء بغدادي، وهو صوفي مشهور.

٨ ـ أحمد ظريف، بغدادي، ينتسب إلى العالم المشهور المولى محمد الشيرازي.

٩ ـ آتشي: بغدادي من أرباب الصناعة وهو شاعر.

١٠ ـ جوهري: بغدادي وهو السيد حسني شاعر أيضاً.

١١ ـ ابن رفيق: من بندنيج دخل في السپاه ببغداد وهو صوفي شاعر ذهب إلى بلاد الروم عدة مرات.

١٢ ـ حسيني: من أعيان بغداد ومن عشاق المتصوفة. توفي سنة ٩٨٥ هـ.

١٣ ـ خادمي: بغدادي من محلة قنبر علي شاعر صوفي.

١٤ ـ ذهني چلبي: بغدادي اسمه عبد الدليل شاعر اشتهر بالموسيقى.

١٥ ـ روحي البغدادي: أشهر من قفا نبك شاعر معروف اسمه عثمان. رومي الأصل ومن مماليك اياس باشا والي بغداد. ولد ببغداد وتزوج فيها. دخل في المتطوعين وتوفي سنة ١٠١٤ هـ وديوانه مطبوع يأتي ذكره.

١٦ ـ ضائعي: بغدادي من أهل العلم. ثم مال إلى الشعر بكليته.

١٧ ـ طرزي: من أهل دزفول. ورد بغداد بأمل السياحة ولكن طاب له الوطن فأقام وهو صديق حميم لعهدي. ويعد من حلالي المشاكل في الآداب.

١٨ ـ فضولي البغدادي: هو محمد بن سليمان شاعر مشهور في الفارسي والتركي والعربي اشتهرت دواوينه. توفي بالطاعون سنة ٩٦٣ هـ وفي كشف الظنون سنة ٩٧١ هـ. مر الكلام عليه.

١٩ ـ فضلي بن فضولي البغدادي: شاعر كوالده.

٢٠ ـ كلامي: كربلائي شاعر صوفي كان في الخانقاه في مشهد الحسين (رض) نزعت نفسه إلى التطلع إلى العالم ومشاهدة الأقطار. يعرف (بجهان دده) والظاهر أن آل الدده في كربلاء الآن ممن يمتون إليه والخانقاه لا يزال في أيديهم. وهم في الأصل من البكتاشية.

٢١ ـ نادري: بغدادي الأصل سكن الموصل وهو شاعر أيضاً.

٢٢ ـ محيطي: من القضاة ولد في جزيرة رودس. ودرس العلوم عن بوستان زاده محمد چلبي من الموالي العظام تولى النيابة في الشام وأدرنة والأستانة أمداً طويلاً. وقد تقلب في مناصب شرعية حتى صار

قاضي الفيلق. وله وقوف على العلوم العربية وشعر لطيف وعين ابنه أحمد أفندي دفترياً لبغداد سنة ٩٩٦ هـ. ذهب لزيارة مشهد الحسين (رض) ونظم قصيدة في الغزل قدمها للحضرة. شعره في الغزل معروف. ومقطعاته جميلة رقيقة وله (فتح نامه) تتضمن وصف الحروب في الجبهة الشرقية. فكان ممن توطن بغداد.

٢٣ ـ نصرتي: من الفرس توطن بغداد مدينة السلام مدة طويلة وهو ابن أخت المولى الرازي الشيرازي. وكان يحفظ خيار الشعر.

٢٤ ـ والهي البغدادي: من زمرة أرباب الأقلام. كان من أهل المعارف والعلوم. وسعى سعيه للتحصيل وله شعر لطيف رقيق.

هذا ما أمكن الاطلاع عليه في تذكرة عهدي من بغداديين.

أما عهدي فإنه شاعر أديب ومؤرخ. أما اطلاعه على التركية، فمما لا نزاع فيه.. وكذلك يقال عن تضلعه في الفارسية. ولا ريب أنه يتقن اللغة العربية. فإنه عاش في محيط عربي.

ذكره مؤرخون عديدون كصاحب (قاموس الأعلام). و (صاحب سجل عثماني)، و (كشف الظنون) في مادة تذكرة الشعراء و (عثمانلي مؤلفلري) وغيرهم وبينهم روحي البغدادي ذكره في ديوانه وأطراه إطراء عاطراً. وكفى أن يعرف كتابه گلشن شعرا.

ويصح أن يعد من أول السياحين العراقيين إلى بلاد الترك في عهد العثمانيين كتب رحلته العلمية فجاءت بأفضل المطالب وأجل المباحث وإن كانت ليست من نوع السياحات التي تعين موطن الحركة والقيام والقعود والأيام والليالي، ولكنه كتب كل ما أراد، وأوضح عن القطر التركي بل عن استانبول إيضاحاً لم يسبق إليه.

حوادث سنة ١٠٠٣ هـ ـ ١٥٩٤ م

الشيخ عبد الله الكردي البغدادي:

اشتغل بالعلوم أولاً وفاق بها أقرانه ثم غلب عليه الحال ورمى كتبه في الماء وسلك الطريقة، نزل دمشق وعزيت إليه فيها كرامات. كذا قال صاحب خلاصة الأثر وبئس ما فعل. توفي سنة ١٠٠٣ هـ تقريباً[١].

حوادث سنة ١٠٠٥ هـ ١٥٩٦ م

البصرة ـ حكومة افراسياب

مر بنا ذكر ولاة كانوا حكموا البصرة. أكثرهم لا نعلم عنهم شيئاً مهماً. ومن هؤلاء الولاة (علي باشا) حكمها إلى سنة ١٠٠٥ هـ وأن وقائعها خلال الحكم العثماني متقطعة فلم تصل إلينا تامة، بل بقيت في غموض فالمدونات عنها قليلة جداً تكاد تكون معدومة وغاية ما نعلمه أنها بيد المتغلبة وليس للوالي أمر أو نهي إلى أن انتزعت تماماً... أما بعد هذا التاريخ فقد وصلت إلينا وثائق مهمة مثل (زاد المسافر ولكنة المقيم والحاضر)[٢] و (منظومة في آل أفراسياب)[٣] في تاريخ وقائعهم الأخيرة وفيها مطالب مهمة، وكذا (كتاب قطر الغمام) ووقائع تاريخية مفرقة في كتب كثيرة كلها تبحث في أيام تغلب هذه الإمارة على البصرة. أما العثمانيون فلم يتعرضوا إلا لما وقع في أيامهم ولا يهمهم غير ذلك...

---

(١) خلاصة الأثر ج ٣ ص ٨٥.

(٢) طبع في بغداد سنة ١٣٤٢ هـ ـ ١٩٢٤ م بمطبعة الفرات. وكان عني بتصحيحه وترتيبه الأستاذ خلف شوقي الداودي صاحب جريدة شط العرب. ويأتي الكلام عليه في المجلد الآخر من هذا الكتاب.

(٣) وهذه نظم العلامة الشيخ ياسين بن حمزة آل شهاب البصري الشافعي ذكر فيها واقعة حسين باشا بن علي باشا آل أفراسياب في البصرة وما جرى عليه مع مصطفى باشا والي بغداد وباقي الوزراء وفيها تفاصيل لا توجد في غيرها سواء من ناحية المواقع التاريخية أو الأشخاص المشاهير.

ومن مطالعة هذه الوثائق تبين أن والي البصرة (علي باشا) باع البصرة بدراهم معدودة إلى أفراسياب ومضى لوجهه ولم يذكر عنه العثمانيون شيئاً يستحق التدوين سوى هذه الصفقة الخاسرة.

يقال إن أفراسياب كان كاتباً للجند المحافظ في البصرة. وإن الأهلين قاطعوا واليهم، وأضربوا عن الاختلاط به أو الرجوع إليه، وبسبب ذلك قلت مداخله وعجز عن القيام بأرزاق الجند وأقواتهم فلم ير بداً أن يبيع البلدة من أفراسياب بثمانية أكياس رومية[1] وكان الكيس ثلاثة آلاف محمدية على أن لا يقطع اسم السلطان من الخطبة فرضي بذلك أفراسياب واشترى البصرة وذهب حاكمها إلى استانبول سنة ١٠٠٥ هـ.

ومن العبث في حال كهذه أن نلتمس لهذا المتغلب أصلاً بعد معرفة الطريقة التي توصل بها أو أن نركن إلى الأقوال في ذلك فهو عصامي حصل على الحكومة وصارت تدعى باسمه (الافراسيابية) أو (السيبية)، وتنسب إليه بعض العمارات مثل (السيب) ولم نعرف عن حاله السابق أكثر من أنه (ديري) نسبة إلى نهر الدير من أنهار البصرة في شماليها، فاستخدم كاتباً للجند إلا أن صنائعه لم يكتفوا بذلك وإنما استنطقوه، أو أخذوا إشارة من بعض أخلافه فبنوا عليها وقالوا إنه من آل سلجوق. والمتزلفون كثيرون في كل حين. ونسبه إلى آل سلجوق عبد علي الحويزي في كتابه (قطر الغمام)، فهو بصري وعندي أنه لما كان بصرياً فالافتخار به أولى من إلصاقه بآخرين من الأجانب. وقال الحويزي إن نسبته إلى الدير باعتبار أن أخواله من هناك.

---

(١) الكيس خمسمائة قرش وهنا يراد بالكيس ما شرحه النص ثلاثة آلاف محمدية، والمحمدية عشر أقجات. ضربت أيام السلطان محمد الفاتح. والأقجة كانت تعتبر نصف مثقال من الفضة وتسمى بالعثماني، ولكنها تغيرت كثيراً حسب العهود المختلفة. أوضحت عنها في كتاب (النقود العراقية لما بعد العهد العباسي).

والمطلوب بيان أعماله، وما قامت به أسرته من الحضارة أو التخريبات ولا يهمنا ما يتوسل به رجال هذه الأسرة أو المتزلفون لهم من الانتساب إلى أكبر أسرة، أو أعز قوم، أو أشرف قبيلة في حين أن المؤسس إنما قام بمقدرة ذاتية، ومواهب نفسية. ولم يكن المعول عليه النسب في أصل تسنمهم المكانة الرفيعة.

والمعروف عن هذا المؤسس أنه راعى رغبة الأهلين في الأمور النافعة ونشر العدل والعلم فقوي سلطانه وزادت شوكته فحبب نفسه من الأهلين، وفتح القبان. وكان يحكمه رجل يقال له (بكتاش آغا) فانتزعه منه وقضى على نفوذ (حاكم الدورق) وهو بدر ابن السيد مبارك و (حاكم الحويزة) السيد مبارك[1] اللذين صار لهما شأن استفادة من ضعف حاكم البصرة. فلما تمكن أفراسياب قضى على أمثال هؤلاء أو تمكن من فتح أكثر الجزائر، وكذا امتنع من إعطاء الجوائز إلى السيد مبارك وهي رسوم كان يأخذها وكذا رده عما كان يأخذه من شط العرب من القسم الشرقي منه. واستمرت حكومته لمدة سبع سنوات ثم خلفه ابنه (علي باشا) ولم نعثر على تفاصيل كافية عن أيامه وعلى كل تصادف زمن تأسيس حكومة وتنظيم إدارة فلا يؤمل منها أكثر مما عرف عن والده. ويأتي بنا ذكر حوادثهم في حينها.

حوادث سنة ١٠٠٦ هـ - ١٥٩٧ م

الوالي الوزير حسن باشا

قال في جامع الدول: «في هذه السنة (١٠٠٦ هـ) خرج خارجي من جانب البصرة يقال له السيد مبارك فاجتمع إليه جمع عظيم من أوباش العرب والعجم فنهبوا البلاد وأفسدوا فيها ولما عرض ذلك إلى الباب العالي وجه ايالة بغداد إلى الوزير حسن باشا بن محمد باشا

(١) هذا ابن سجاد المذكور في تاريخ العراق بين احتلالين ج ٣.

الطويل (الطوبال) وأمر بدفع غائلة الخارجي وأرسل إلى صوبه» اهـ[1].

وفي فذلكة كاتب چلبي في حوادث سنة ١٠٠٦ هـ اختير هذا الوزير لمنصب بغداد في أوائل شهر رمضان من هذه السنة، وصار سرداراً على الأمراء والجيش في شهرزور وفي الحدود لما قام به السيد مبارك من أعمال نهب وإفساد فتجاوز على أنحاء البصرة، وسواحل الأحساء وحدودها ليقوم بدفع غائلته، وكان أهل تلك الأصقاع استمدوا من شاه العجم، فكان ضرر جيشهم أكبر، فاستعانوا بالدولة العثمانية. وفي ذي الحجة من السنة المذكورة كتبت الدولة العثمانية لشاه العجم لدفع غائلته إلا أن صاحب الفذلكة أسدل الستار عن النتائج[2].

والسيد مبارك هذا هو أمير المشعشعين وله ابن اسمه السيد بدر ولي الدورق، ومنهم السيد خلف ذكرهم أبو البحر الخطي في ديوانه[3].

ومثله في تاريخ نعيما. بين أن حسن باشا عهد إليه بوزارة بغداد في رمضان هذه السنة وعين سرداراً على الأمراء والعساكر في بغداد وشهرزور وفي الثغور اختير لدفع غائلة السيد مبارك الذي عاث في أنحاء البصرة بجموعه فانتهب قرى البصرة والأحساء وأحدث فيها ضرراً كبيراً وأدى إلى قتل نفوس بريئة في القرى والقصبات والبنادر فكانت الخسائر فادحة[4]... وزاد صاحب سجل عثماني أنه أي الوالي الابن الكبير

---

(١) جامع الدول ج ٢ ص ١٠٩١.

(٢) الفذلكة ج ١ ص ١٠٦.

(٣) الخطي أبو البحر شرف الدين جعفر بن محمد توفي سنة ١٠٢٨ هـ. كذا قال صاحب السلافة وترجمته في خلاصة الأثر أيضاً. عندي نسخة مخطوطة من ديوانه. جمعه السيد الشريف جعفر بن عبد الجبار الموسوي لما بينهما من الألفة والاختصاص كذا ذكر عند إيراد قصيدة في مدحه. والديوان لا يخلو من فوائد تاريخية عن القطيف والبحرين وصحار. أوضحنا عنه في التاريخ الأدبي.

(٤) تاريخ نعيما ج ١ ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

لمحمد باشا الطوبال (لا الطويل) الصوقوللي ولي بغداد سنة ١٠٠٦ هـ وعزل سنة ١٠١٢ هـ وقتل سنة ١٥١٣ هـ في حرب قره يازيجي من الجلالية وكان چلبياً، شجاعاً، ميالاً إلى الأبهة، بنى في بغداد (جامعاً ورواقاً). وله كرسي من فضة يجلس عليه، ذو أزهار وأشجار صناعية[1]...

وفي گلشن خلفا أنه سنة ١٠٠٤ هـ عهد إلى الوزير حسن باشا بحكومة بغداد وأكثر التواريخ على أن ولايته كانت سنة ١٠٠٦ هـ.

وفي ديوان روحي البغدادي قصيدة في مدح الوزير حسن باشا. ليس فيها تاريخ[2].

حوادث سنة ١٠٠٨ هـ - ١٥٩٩ م

جامع الوزير

بنى حسن باشا الجامع المعروف باسمه ويقال له (جامع الوزير) ولا يزال معروفاً بهذا الاسم، وبعد تلك الوقائع عاد إلى بغداد وبنى الجامع سنة ١٠٠٨ هـ. مكتوباً عليه بخط قديم أنه عمره الوزير حسن باشا بن محمد باشا، و (تاريخ الجامع) يعين أن ذلك كان سنة ١٠٠٨هـ والظاهر أنه تاريخ تمامه.

والمشهور أن هذا الوزير عمر الجامع من أموال التجار المنتهبة من الأعراب، كانوا هاجموا سفن التجار ثم استحصلت منهم. اختلطت فلم يعرف أصحابها ولم يستطيعوا أن يعينوها وباقتراح منهم على الوزير طلبوا أن يعمر جامعاً بها فعمر هذا الجامع من أموال التجار وسمي باسمه. أنقل هذا الخبر عن المرحوم السيد محيي الدين الگيلاني عن والده المرحوم

(١) سجل عثماني ص ١٢٧.

(٢) ديوان روحي ص ٣٥.

فخامة السيد عبد الرحمن أفندي الكيلاني نقيب الأشراف ببغداد.

وهذا نص ما كتب في باب المصلى:

«بسم الله الرحمن الرحيم. إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر. عمر هذا المسجد في أيام خلافة خليفة الرحمن السلطان ابن السلطان، السلطان محمد خان ابن السلطان مراد خان خلد الله ملكه وسلطانه. صحب البناء والإنشاء الغازي الوزير حسن باشا ابن الوزير المعظم المرحوم محمد باشا في سنة ١٠٠٨ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية» اهـ.

والآن لم يبق من هذا الجامع إلا منارته القائمة ورقعته الواسعة. ولم يعمر بعد. وهذا الجامع لا علاقة له بحسن باشا المذكور في تاريخ مساجد بغداد للأستاذ الآلوسي في صفحة ٣١ فإن تلك الصفحة في (جديد حسن باشا) الذي مر الكلام عليه باسم (الجامع السليماني). وأصل هذا الجامع من بناء الخليفة المستنصر بالله العباسي. ويسمى بـ (المسجد ذي المنارة). وفي كتابنا (المعاهد الخيرية) تفصيل عنه في ما جرى عليه من تعميرات، وما ورد فيه من نصوص[١].

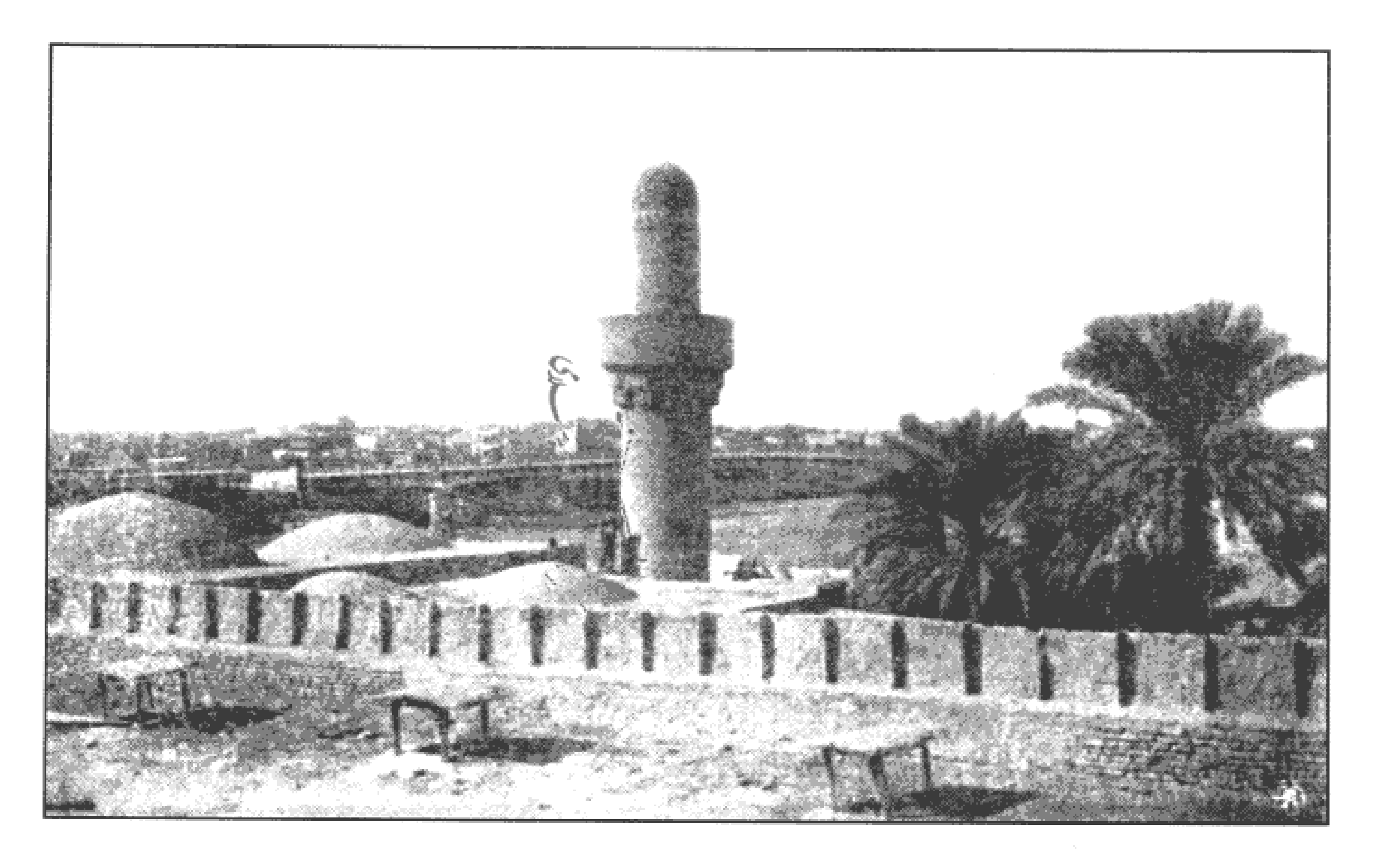
كاخ بهشت:

وهذا الوزير مائل إلى استخدام الحشم والأعوان بحيث يضارع الملوك في أبهتهم وسائر أوضاعهم فهو معجب بنفسه ومعروف بالچلبية والشجاعة. ولما كان والياً ببغداد اتخذ له سريراً فخماً بقيمة أربعين ألفاً أو خمسين ألف قرش، سماه (كاخ بهشت) وزينه بأشجار وأثمار من فضة خالصة مما جعل الناس في حيرة من أمره[٢]...

---

(١) كلشن خلفا ص ٦٦ ـ ١ ورحلة أوليا جلبي ج ٤ ص ٤١٩.

(٢) كلشن خلفا ص ٦٦.



جامع الصاغة (مسجد الحظائر) - دار الآثار العراقية

ترجمة كتاب مناقب الكردري:

وفي أيامه كان مفتي بغداد المولى حسين ابن الحاج حسن الأدرنوي وبرغبة من حسن باشا الوزير ترجم إلى التركية مناقب البزازي المعروفة بمناقب الكردري وهو الإمام محمد بن محمد الكردري المعروف بالبزازي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ وكتابه المناقب عربي طبع في الهند مع مناقب الموفق. وهذا في أبي حنيفة (رض) وتاريخ حياته.

حوادث سنة ١٠١١ هـ - ١٦٠٢ م

أمير قشعم

أظهر العصيان أمير قشعم فحاربه والي بغداد محمد باشا وانكسر عسكر بغداد. هذا ما ذكره صاحب عمدة البيان في تصاريف الزمان إلا أننا لا نعرف والياً ببغداد لهذا التاريخ بهذا الاسم. نثبت ما ذكره هنا. ولعل النصوص الأخرى تعين ذلك، وكذا ما ذكره عن خان چغاله بين أنه بناه سنان باشا ابن چغاله سنة ١٠١٣ هـ وهذا ليس بصواب قطعاً. وذكر أنه بناه للينكچرية.

عزل الوالي:

عزل هذا الوالي. واختلف في تاريخ عزله. جاء في تاريخ نعيما أنه انفصل سنة ١٠٠٨ هـ ووجهت ايالة بغداد إلى طرنقچي حسن باشا فلم يذهب، ثم وجهت سنة ١٠٠٩ هـ إلى محمد باشا آل سنان باشا[1]. أما الوزير حسن باشا فإنه قتل سنة ١٠١٠ هـ. ولم يعرف عنه سوى بناء الجامع، وشراء العرش لإظهار الأبهة والعظمة. كأن أمثال هذه تزيد من خشية الناس له، أو تكبر عقلاً، أو ترمز إلى حسن تدبير، أو تعين اقتداراً. والآراء أمثال هذه موجودة في صنوف من الناس. وذكر صاحب

---

(١) جاء في عمدة البيان اسم محمد باشا ولم يوضح عنه.

سجل عثماني أنه عزل سنة ١٠١٢ هـ إلا أننا نقطع ببطلان ذلك والأمر المهم أن صاحب الفذلكة ذكر حربه لليازيجي الجلالي في حوادث سنة ١٠١٠ هـ فمن المستبعد جداً أن نقبل ما ذكره صاحب سجل عثماني فقد ولي الشام قبل هذا ثم صارت الحرب[١].

إن حسن باشا بن محمد باشا الوزير ابن الوزير كان نائب الشام. ولي في مبدأ أمره كفالة حلب، دخلها ولم يلتح أو لم تكمل لحيته، ثم ولي بعدها كفالة الشام سنة ٩٨٥ هـ وعزل عنها وولي ولاية أناطولي (الأناضول) ثم ولاية أرزن الروم. وكان الوزير الأعظم فرهاد باشا سرداراً على العساكر العثمانية لغزو العجم فاجتمع به في ولايته المذكورة ووقع بينهما أمور طويلة بسبب أن فرهاد باشا كان بنى بعض القلاع في ديار الشرق ودفع حساب كلفته عليها في دفتر وطلب من بقية الأمراء إمضاء ذلك الدفتر فمنهم من أمضاه ومنهم من رده وكان صاحب الترجمة ممن رده وعرض على السلطان أن المبلغ الذي رفع حسابه فرهاد باشا ليس كما ذكر. (وعلى هذا) بادر صاحب الترجمة إلى الرحيل فرحل إلى دار السلطنة. (وحينئذ) أقبل السلطان عليه وولاه الشام للمرة الثانية وكان ذلك في حدود سنة ٩٧٧ هـ واستمر بها حاكماً مدة تزيد على سنتين. ثم عزل وأعيد ثالثاً.

ولما عزل صاحب الترجمة عن الشام في هذه المرة سافر إلى دار السلطنة وتقلبت به الأحوال إلى أن صار حاكماً في بلاد الروم واستمر هناك ونسبوا إليه في حكومته أموراً لا أصل لها فورد حكم سلطاني بقتله فلم يسلمه العسكر للقتل ثم حضر بعد ذلك إلى جانب السلطنة وبحث عن أصل الحكم الذي ورد بقتله فلم يجد له أصلاً. ولم يزل يحاول الخروج من القسطنطينية حتى أعطى ولاية بغداد وما يليها من بلاد عراق

---

(١) فذلكة كاتب جلبي ص ١٧٣.

العرب. فذهب إليها بعسكر جرار ودخلها بأبهة عجيبة وأظهر فيها من الحجاب ما لم يعهد لمثله ولم يزل بها حاكماً حتى حدثته نفسه بحفر نهر أخذه من دجلة فأجراه يسقي أماكن كثيرة قيل إن محصولها يزيد في السنة على عشرين ألف دينار ذهباً. وحدث بينه وبين العسكر العراقي أمور أدت إلى أن عرض أمرهم على الحضرة السلطانية فأمروه بالخروج من بغداد فخرج منها خائفاً من شق العصا وأقام بالموصل أياماً ثم نازلهم منازلة المحارب إلى أن جاءه الأمر بالانفصال بعد أن نهبت جماعته فتوجه إلى ديار بكر فبينا هو فيها إذ بالأمر السلطاني جاءه أن يصير اصفهسلاراً (أصله سپهسلار بمعنى قائد عام) على العساكر ويذهب لقتال عبد الحليم اليازيجي الباغي الناجم في نواحي سيواس هو والطائفة الكيانية. . (فكانت النتيجة) أن قتل في توقات. في سنة ١٠١٢ هـ[١].

وقال في (عمدة البيان في تصاريف الزمان) عن حسن باشا ما نصه:

«وهو لما ولي بغداد أجرى شعبة من الدجيل، فكان محصولها عشرين ألف دينار» اهـ. ذكر ذلك في حوادث سنة ١٠١٢ هـ.

ولم يتعرض صاحب گلشن خلفا لهذا الحادث فجاء هذا النص موضحاً لما في خلاصة الأثر.

وتاريخ نعيما يفيد أن حسن باشا عين سرداراً للقيام بتنكيل عبد الحليم قره يازيجي والجلالية سنة ١٠٠٨ هـ ولعله تأخر قليلاً وذهب[٢]. . . وهذا هو الأجدر بالقبول، وأن تاريخ العراق غامض من هذه الناحية فلم يعرف بالضبط تاريخ الولاة ولا تاريخ ولايتهم ولا أيام عزلهم.

---

(١) خلاصة الأثر ج ٢ ص ٤٥.
(٢) نعيما ج ١ ص ٢٤٥.

وفي هذه النصوص كلها ما يوضح الوضع أكثر، ويدل بصراحة على أن الأخبار جاءتنا مبتورة ناقصة... وقد انكشف نوعاً بعض الغموض وإن كان هذا المؤرخ أيضاً لم يعين تاريخ ولايته على بغداد ولا تاريخ انفصاله منها. ولعل الصحيح ما بينه نعيما في تاريخه لاستقائه من المنابع الرسمية.

حوادث سنة ١٠١٢ هـ - ١٦٠٣ م

الوالي صارقجي مصطفى باشا

هذا ولي بعد الوزير حسن باشا. والظاهر أنه طرناقجي حسن باشا وأن صاحب السجل قال عن صارقجي: «تربى في البلاط فصار رئيس البوابين (قپوچي باشي) ثم نال منصب سلحدار. وفي ١٧ ربيع الأول سنة ١٠٠٥ هـ ولي رياسة الينكچرية، وبعد مدة قليلة ولي إمارة وان، ثم صار والياً على بغداد. وبعد ذلك انفصل منها وجاء الآستانة توفي في شعبان سنة ١٠١١ هـ. وقال مشتهر بسوء الاعتقاد» اهـ. والملحوظ هنا أن صاحب گلشن خلفا أورد شعراً جاء تاريخه (باغ داد) ومن مجموع حروفه يتحصل لنا تاريخ (١٠١٢) هـ ونراه الصحيح اللائق بالقبول وهذا هو والد محمد باشا الطيار. توفي ببغداد ودفن في الأعظمية وابنه كانت له الأعمال المجيدة في تسهيل الفتح.

وفاة افراسياب:

في هذه السنة تخميناً توفي أفراسياب مؤسس الإمارة الأفراسيابية في البصرة ذكرنا أعماله وبينا أنه كان همه مصروفاً إلى تثبيت الملك وتقوية دعائم الاستقلال في البصرة. أما خلفه ابنه (علي باشا) فقد وجد البناء ثابت الأساس فحول وجهه نحو العلوم والآداب فنالت في أيامه نشاطاً.

ابن الطويل:

جاء في تاريخ (عيون أخبار الأعيان) في وقائع سنة ١٠١٢ هـ ما نصه:

«في هذه السنة ـ سنة ١٠١٢ هـ ـ ١٦٠٣م ظهر في بغداد محمد بلوك باشي بن أحمد الطويل واستقل بحكومتها، فسار لإزالته والي ديار بكر نصوح باشا مع أربعين ألف مقاتل فبرز إليه ابن الطويل، فتصافا خارج بغداد، فكان الفرار نصيب نصوح باشا. ثم إن كاتب ابن الطويل محمد أفندي دبر قتله بيد زوجته، فجلس مكانه أخوه مصطفى بك... فأرسل السلطان لإزالته الوزير محمود باشا ابن جغال» اهـ[١].

ومن هنا يفهم أن تاريخ ظهوره في تلك السنة وأن مصافه، ومقاتلته نصوح باشا كان في سنة ١٠١٥ هـ.

قال في گلشن خلفا:

«كان بلوك باشي أي رئيس كتيبة الخيالة وبسبب سوء إدارة الحكم تغلب وحكم بالاستقلال...» اهـ[٢].

والملحوظ أن صاحب گلشن خلفا ذكر هذا الحادث سنة ١٠١٧هـ، وبين أنه انتصر على نصوح باشا بسبب خيانة السكبانية[٣]. وإن محمد چلبي باني تكية المولوية غدر به فقتله ونصب أخاه مصطفى مكانه. ولعل واقعة نصوح باشا كانت في تلك السنة التي ذكرها صاحب گلشن خلفا.

---

(١) تاريخ الغرابي مخطوطتي ج ٢ ص ٩١.

(٢) گلشن خلفا ص ٦٦ ـ ٢.

(٣) السكبانية. نوع جند أهلي من المشاة.

حوادث سنة ١٠١٤ هـ ـ ١٦٠٥ م

روحي البغدادي

أصل نسبه من الروم إلا أن والده كان من مماليك أمير أمراء بغداد اياس باشا، التحق بجيش المتطوعين ببغداد، وأن ابنه روحي واسمه عثمان ولد ببغداد فنعت بالبغدادي وأن خلقه مرغوب المحبين، ووجوده طاهر، وذهنه مستقيم قوي، وبلاغته روضة أريضة، وله نظم جميل منعش، ومعرفة لا توصف... غني بالشعر فبرع فيه. وصار يغرد فيه الأدباء فله طبع شعري لا يزاحم، وفيه رقة لا تقدر... اتفقت الكلمة على حلو ألفاظه، وحسن انسجام أسلوبه سواء في التركية أو في الفارسية فقد برع في النظم باللغتين[١]... وقد طبع ديوانه التركي سنة ١٢٨٧ هـ كما أن عهدي أورد له جملة من المختارات. نال شعره رغبة فائقة ولا يزال معتبراً حتى أيام عهدي دون عنه في تذكرته. أورد له ضيا باشا في كتابه (خرابات) موشحه المسمى بـ (تركيب بند) وعارضه بآخر مثله.

وقال فيه صاحب (قاموس الاعلام) إنه شاعر جذاب، ومن مشاهير شعراء القرن العاشر وتركيب بنده مشهور معتبر. وله ميل إلى السياحة يتجول دائماً. ذهب مرة إلى الاستانة ثم مضى إلى قونية ومنها إلى الشام فتوفي هناك عام ١٠١٤ هـ[٢].

وقال صاحب خلاصة الأثر: «روحي الشاعر البغدادي المشهور، كان من أعاجيب الدنيا في صنعة الشعر التركي، له التخيلات اللطيفة، والألفاظ الرشيقة، وديوانه مشهور، يوجد كثيراً بأيدي الناس وكان على أسلوب السياح، وله في سياحته ماجريات ووقائع كثيرة، واستقر آخر

---

(١) عهدي: تذكرة الشعرا ص ١٨٩.

(٢) قاموس الأعلام ص ٣١٤.

أمره بدمشق... كانت وفاته سنة ١٠١٤ هـ» اهـ[١].

ولا مجال لذكر ما قيل فيه سوى أننا نقول مع الاعتراف بقدرته الشعرية إنه تصوفي بكتاشي كما يستفاد من قصيدته (قصيدهٔ حقيقت انگيز) ومن عرف مرامي القوم يقطع بأنه من الحروفية[٢]... ولا شك أنه حفظ لنا بعض الوقائع التاريخية وعين لنا أن هناك ولاة لم يذكرهم المؤرخون مثل سليمان باشا حاكم بغداد فإنه مدحه في قصيدة ولم نقف على ترجمة له[٣]... والمهم أكثر في ديوانه أنه عرفنا بعصبة أدب وشعر ليس في أيدينا من آثار توضح عنها، وذلك أنه كتب قصيدة من الشام أرسلها إلى رفقائه في بغداد يسأل عن كل واحد منهم[٤]. خاطب بها النسيم فجعله رسوله إليهم... حفظ بها ما اندثر أو كاد يندثر.

وممن ذكرهم (في تلك القصيدة الأدبية):

١ ـ كشفي: أمير الكلام وزبدة الأفاضل.

٢ ـ طبعي: صاحب ديوان. وله طبيعة عالية.

٣ ـ داعي: ظهير أهل الكمال، ومقرىء القرآن. وهذا مذكور في گلشن شعرا لعهدي البغدادي.

٤ ـ فيضي: ذو الذوق، وصاحب الفيض من رجال عهدي.

٥ ـ حسن بك الدفتري: لروحي قصيدة في رثائه...

٦ ـ أحمد الحريري: من رجال تذكرة عهدي.

---

(١) خلاصة الأثر ج ٢ ص ١٧٢.

(٢) مر الكلام على الحروفية عند الكلام على فضل الله الحروفي ونسيمي البغدادي في المجلدين الثاني والثالث من تاريخ العراق.

(٣) ديوان روحي ص ٣٢.

(٤) ديوان روحي ص ٥٧.

٧ ـ عبد الرحيم: الفائق في الفارسية القديمة.

٨ ـ سلمان: الذي ليس له نظير في الفارسية. من رجال التذكرة.

٩ ـ كلامي: في كربلاء، منطيق بارع، وعارف وحيد في العالم. مر في التذكرة.

١٠ ـ مهدي: عندليب روضة العرفان. الماهر في الغزل.

١١ ـ فضلي: مؤرخ الكون. والظاهر أنه بقي حياً لما بعد عهدي وروحي.

١٢ ـ رندي: أستاذ في فنون الشعر، نابغة في اللطائف.

١٣ ـ خاكي بك.

١٤ ـ طرزي.

١٥ ـ منلا شريف: شريف الذات وخطاط ماهر.

١٦ ـ أميني: من المغرمين بفغاني، وله مباراة لقصائده.

١٧ ـ جوهري: له في المآسي، والبكاء على جور الزمان. من رجال عهدي في تذكرته.

١٨ ـ نصرتي: متفوق في تركيب بند، ويأخذ بمجامع القلوب فيجعل سامعه متحيراً... مدون في التذكرة.

١٩ ـ آتشي: له شعر يكاد يلتهب... من رجال التذكرة.

٢٠ ـ علمي: كامل في الغزل.

٢١ ـ نقدي: مادح آل الرسول.

٢٢ ـ گاهي: متصوف.

٢٣ ـ حميدي.

٢٤ ـ فهمي: مولع في الصناعات الشعرية.

٢٥ ـ ندائي: صاحب غزل. وإنشاد بديع.

٢٦ ـ شيخي: درويش عاشق.

٢٧ ـ حزمي: قارىء غزل، ومؤانس... رئيس الفقراء وهو مبتلي بليلاه.

٢٨ ـ منلا حسن: من أهل الغم والبؤس.

٢٩ ـ قاسم علي: من أهل الذوق.

٣٠ ـ حسن سيرين: مولع ببنت العنب.

٣١ ـ علي خان أكرمي: من إخوان الصفا.

٣٢ ـ محمدي.

٣٣ ـ عثمان: ورد في التذكرة.

٣٤ ـ الأستاذ أحمد.

٣٥ ـ ساقي.

٣٦ ـ مريدي.

٣٧ ـ حاجي.

٣٨ ـ ثاني.

وأعقب قصيدته التي عدد بها هؤلاء الفضلاء بأخرى ولم نقطع في سبق إحداهما الأخرى جاء فيها يطلب أن يبشره ريح الصبا عن رجال في بغداد ولعل فيها ما يكرر أسماء الماضين ولكنه يذكرهم بأسمائهم الصريحة لا بالمخلص أو على العكس... وغرضه المداعبة معهم وبيان أوصافهم في نظره وإننا نذكرهم هنا حاذفين المكرر لعل في المستقبل يظهر ما يميط اللثام عن الجهالة...

١ ـ عالي بك دفتري بغداد: هو صاحب مناقب هنروران وكنه الأخبار. مر الكلام عليه.

٢ ـ سليمان الموري.

٣ ـ محمود.

٤ ـ علي بك.

٥ ـ نعمان: قاضي بغداد.

٦ ـ محمد چلبي.

٧ ـ حكمي: مخلص صاحب الديوان.

٨ ـ محمد بك: فارس ميدان الشطرنج.

٩ ـ أهلي بك.

١٠ ـ لمعي.

١١ ـ محمد دده.

١٢ ـ علي فاقي.

١٣ ـ محمد چاوش.

١٤ ـ فنى مصلى چلبي.

١٥ ـ عهدي: هو صاحب التذكرة (گلشن شعرا).

وممن ذكرهم من أعيان بغداد:

١ ـ أحمد چاوش بياني زاده. رثاه بقصيدة (ص ٦٦).

٢ ـ يوسف چلبي.

هذا والديوان أثر نفيس، خالد، منبعث من روح أدبي وثاب. وقد أفردنا الموضوع في كتاب (تاريخ الأدب التركي في العراق).

ورد ذكر بعض رجال البكتاشية وهنا أبين تكاياهم المعروفة:

تكايا البكتاشية

١ ـ في كربلاء في صحن الإمام الحسين (تكية الددوات) وهي (تكية البكتاشية)، وتوليتها بيد (آل الدده). لا تزال موجودة. وكانت بيد السيد الفاضل المرحوم حسين الدده مدة طويلة إلى أن توفي في صيف سنة ١٩٤٨ م في خراسان في المشهد الرضوي. ويرجع عهدها إلى أول الفتح العثماني وأن من مشاهيرها (كلامي) المعروف بـ (جهان دده). وأن فضولي الشاعر ممن دفن فيها. وهناك مراقد آل الدده. والتولية منحصرة فيهم. وهم شيعة إمامية. ولا تعرف عنهم البكتاشية ولا اعتناق طريقتها. فهم أصولية.

وهذه التكية من أقدم تكايا البكتاشية في العراق، ولم ينقطع اتصالها بالبكتاشية من الترك إلا بعد الحرب العامة الأولى لسنة ١٩١٤. وزاد الانقطاع بإلغاء التكايا في الجمهورية التركية.

٢ ـ في (النجف) تكية للبكتاشية أيضاً، ولا شك أنها ترجع في القدم إلى مثل تكية (كربلاء) إلا أننا لا نقطع في تاريخها لما قبل الفتح العثماني. ولعل الوثائق تظهر تاريخها، وتعين وقت تكونها مع العلم بأن الحروفية كانوا يعتقدون بأكابر رجالهم مثل فضل الله الحروفي. وكان في النجف في تكية البكتاشية الحاج السيد أحمد ويراني سلطان. وهذا معتبر عند البكتاشية والكاكائية معاً[1]. ناله الظهور ورفع إلى السماء وصار أسداً. ولا تزال قلنسوته في هذه التكية موضوعة على دكة يزورونها ويبدون لها غاية الاحترام والخضوع. فهو من أكابر شيوخ البكتاشية. ولم يعين تاريخه، ولا شك أنه سابق للتاريخ العثماني بل إن تاريخ الحروفية يتحقق في تاريخ فضل الله الحروفي مؤسس الحروفية.

---

(١) الكاكائية في التاريخ. طبع ببغداد سنة ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٩ م.

لازم الخلوة والطريقة في حضرة الإمام علي في النجف مدة طويلة فلا ريب أنهم يرجعون في طريقتهم إليه وهي لا تختلف عن البكتاشية بوجه.

٣ ـ في بغداد (تكية البكتاشية) كانت في محلة الجعيفر في القسم الغربي من البلد، وتسمى تكية خضر الياس، استولت عليها مياه دجلة، ولم يبق لها أثر، وكانت رباطاً أنشأه الخليفة الناصر لدين الله العباسي. والتربة المجاورة له تربة سلجوقي خاتون بنت قلج أرسلان ملك الروم وهي الجهة السعيدة للخليفة.

كان تزوجها نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا. فلما توفي تزوجها الخليفة الناصر. توفيت سنة ٥٨٤ هـ فوجد عليها الخليفة وجداً عظيماً ظهر للناس كلهم. وبنى على قبرها تربة وإلى جانب هذه التربة بنى الرباط وهو في محل يقال له الرملة في باب البصرة من جانب الكرخ من بغداد. بنيت بقربه قلعة الطيور (قلعة الطير). فلما دخل العثمانيون اتخذوا هذا الرباط تكية للبكتاشية. وتاريخ ما جرى عليها أوضحناه في موطن غير هذا.

٤ ـ تكية بابا گور گور: للبكتاشية أيضاً. والآن زال أثر البكتاشية منها. كانت مسجداً فعادت كذلك. وهي ببغداد.

٥ ـ في داقوق (دقوقا) تكية يقال لها تكية دده جعفر. ولا تزال.

٦ ـ في كركوك تكية يقال لها تكية مردان علي، كما أن تلعفر وسنجار فيها الكثير من باباواتهم.

ومن رجال هذا العهد في البكتاشية (فضولي الشاعر)، و (روحي البغدادي)، و (جهان دده) المذكورون وكلهم حروفية، وقد سبق أن ذكرنا عن هؤلاء، وعن الحروفية أيضاً ما فيه الكفاية[1] فلا محل لإعادة القول، وكان قصدنا هنا مصروفاً إلى بيان الصلة بين البكتاشية وبين الحروفية.

---

(١) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٢.

ويأتي الكلام على كل تكية بظهور حادث معروف لها في حينه، فلا نعجل بالتفصيل، وقد أفردنا تكايا البكتاشية وطريقتهم بكتاب على حدة.

طريقة البكتاشية

هذه الطريقة لم تعرف قبل دخول العثمانيين بغداد سنة ٩٤١ هـ والطرق في الأنحاء العراقية كثيرة. وفي الأصل أسسها أهل الصلاح من الأهلين وشاعت. وترجع إلى العهود العباسية في قدمها، ولكن هذه الطريقة جاءتنا من الترك العثمانيين وهي خاصة بهم، فلم تعرف البكتاشية عندنا قبل ورودهم. وإنما كانت الحروفية معروفة على يد فضل الله الحروفي ومن كتبها جاودان، وعلى يد نسيمي البغدادي وأتباعه...

وطريقة البكتاشية في الحقيقة كانت طريقة زهد وتقوى، لم تدخلها البدع، ولا الابطان إلا من حين دخل الحروفية والأخية بين صفوفهم.

وكان قد ألغى السلطان محمود الثاني تكايا البكتاشية سنة ١٢٤١هـ عندما قضى على الينكجرية ولكن ذلك لم يتم إلا أيام رئيس الجمهورية التركية السابق المغفور له أتاتورك (مصطفى كمال)، فكان القضاء المبرم.

لم تنل هذه الطريقة رواجاً في العراق ولا في البلاد العربية. ومؤسسها الأصلي الحاج (بكتاش ولي) المتوفى سنة ٧٣٨ هـ. والكلمة متفقة على أنه كان من أهل الصلاح والتقوى، إلا أن الحروفية دخلوها فأفسدوها من جراء أن هؤلاء استغلوا شهرة بكتاش فمالوا إليها.

وبدخول العثمانيين تأسست في العراق، فاتخذت جملة تكايا فتمكنوا من تكوين طريقتهم في بغداد والأنحاء العراقية الأخرى، فتكونت لهم (تكية خضر الياس) و (تكية بابا گور گور). كان مسجداً، فصار تكية لهم. وتكايا أخرى في النجف وكربلا وغيرهما.

وهؤلاء أهل ابطان تستروا بالتشيع، وإن مؤلفاتهم التي عرفت لحد الآن تنبيء عن أنهم من الغلاة دخلوا من طريق التصوف بل إن تصوفهم كان غالياً وفي العراق ظهرت بعض حوادثهم. وتأتي في حينها. وعندنا من أهل العناصر القريبة منهم العلي اللهية، والكاكائية، والقزلباشية، والباباوات، ولا يفرقون عن غيرهم إلا بما دخل هذه الطوائف من أمور دخيلة مما فرضه الرؤساء، وقد تكلمنا عليهم في كتاب (الكاكائية في التاريخ). وكلهم اليوم في قلة. وفي كركوك تكية للبكتاشية يقال لها (تكية مردان علي)، وفي دقوقا (تكية دده جعفر).

وهم في العراق لم يحدثوا تأثيراً كبيراً على الأهلين بالرغم من وجود مؤسساتهم فهي ضعيفة الأثر. ولما كان بحثنا يتناول الموجود في هذا العهد فلا يسعنا أن نتناول كل تكية بحالها، ولا أن نتكلم على (تكية باب گور گور) ولا ما حدث بعد هذا التاريخ.

اشتهروا في حكاياتهم التي يندِّدون بها بالأمور الشرعية، والفرائض المكتوبة، ويقولون بترك الرسوم الدينية، وتتداول بين الناس هذه الحكايات يحفظها الكثيرون في مقام يعين وضعهم في شرب الخمر وسائر المنكرات والتهاون بالعبادات إلا أنهم يتظاهرون بأنهم اثنا عشرية وهم بعيدون عنهم، فأبطنوا ما أبطنوا. ولولا ما قامت به السلطة من التنكيل بهم، أو القضاء عليهم فأدى إلى انتشار كتبهم لبقوا على هذا التكتم مدة أطول.

ومن أهم الكتب الموضحة لهذه الطريقة:

١ ـ كاشف أسرار بكتاشيان. للخواجة إسحاق. وهذا يوضح أغراضهم ويرد عليهم. وهو من أجل الآثار في التعريف بهم، وبما يكتمون.

٢ ـ دافع المفاسد وكاشف المقاصد. وهذا رد على سابقه. وفيه

ما يبين مؤلفه أنهم مسلمون، ويتنصل مما عزي إليهم في كتاب كاشف أسرار بكتاشيان.

٣ ـ تاريخ البكتاشية. للأستاذ بسيم أتالاي. ويعد من أجل الآثار.

وبعد القضاء على التكايا أيام المغفور له أتاتورك ظهرت آثارهم وتبين صدق ما أوضح صاحب كتاب (كاشف أسرار بكتاشيان). وأن كتبهم (كتب الحروفية) وقد أوضحت عنها وقدمت قائمة بأسمائها، وعينت أوضاعها في المجلدات السابقة من (تاريخ العراق بين احتلالين) ولا تزال مخطوطات من مؤلفاتهم عندي ومنها ولايتنامه. وبحث الترك العثمانيون كثيراً، ونشروا في بيان هذه الطريقة وأسرارها وما تكتمت به، فوضح المبهم ولم يبق خفاء. وفي دائرة المعارف الإسلامية بحث في البكتاشية.

وعندنا من العارفين بالآداب البكتاشية التركية الأساتذة بهاء الدين نوري، توفيق وهبي، أحمد حامد الصراف، وآخرون لا محل للتوسع في ذكرهم.

حوادث سنة ١٠١٥ هـ ـ ١٦٠٦ م

أحوال بغداد

من سنة ١٠١٢ هـ إلى هذه السنة السنة (١٠١٥ هـ) لم تتوضح وقائع الولاة، ولم تعرف بوجه القطع... ومن النصوص التاريخية المتقدمة أن طرناقجي حسن باشا قد ولي بغداد بعد أن غادرها الوزير حسن باشا ثم عزل عنها ولا يعرف من خلفه... ثم عاد إليها مرة أخرى وجاء في گلشن خلفا أنها وليها بعده صارقچي مصطفى باشا وأرخه في سنة ١٠١٢ هـ.

ومن ثم أسدل الستار عما وقع...

طاعون في الموصل:

جاء في عمدة البيان في تصاريف الزمان أنه حدث في هذه السنة في الموصل طاعون خفيف امتد خمسة أشهر.

نصوح باشا ـ محمد بن أحمد ابن الطويل

وفي ٤ المحرم سنة ١٠١٥ هـ توجه نصوح باشا إلى بغداد بأمر من الوزير الأعظم ليكون والياً على بغداد، فصدر الأمر السلطاني بذلك. ولما ورد قرب الفرات لقي في طريقه پيالة باشا[١] المعزول من ولاية البصرة. وهذا بين له أن محمد بن أحمد الطويل قد أبرز أمراً مزوراً وبه استولى على بغداد وتابعه الجيش الأهلي الذي تمكن من أن يستميله لجهته وأعلن ولايته فيها... وكان سبب تغلبه سوء التدبير الحاصل من الحكام فاستقل في بغداد.

ومن ثم سارع الباشا إلى نصيبين فاستقبله حاكم الجزيرة مير شرف الذي كان أميرها عن وراثة وأمير أمراء الرقة والتزم أن يساعد الوزير في استمالة الأكراد ومن ثم قدم نصوح باشا الخلع إلى كل من سيد[٢] خان وأمراء سهران من الأكراد، وكذا أمير العربان الأمير أحمد بن أبي ريشة ودعا الكل على السفر إلى بغداد اتباعاً للأمر السلطاني وأن يكونوا مع السردار نصوح باشا...

أما ابن أبي ريشة فإنه خدع القوم وقال لهم: امضوا لجهتكم ونحن نمضي من هذا الجانب والملتقى في الجانب الغربي من بغداد. وهكذا

---

(١) الظاهر أنه كان قديماً في ولاية البصرة أي قبل علي باشا الذي كان باعها إلى أفراسياب وإلا فلم يعهد في هذا التاريخ أثر للحكم العثماني هناك. وربما عين للبصرة، وبقي ببغداد.

(٢) ورد في مواطن أخرى بلفظ (ابن سيد خان) وليس بصواب.

فعل سيد خان وسائر الأكراد فكانت مواعيدهم غير صحيحة وأن الباشا توقف، في الموصل نحو أربعين يوماً فلم يظهر أثر من أعمال أولئك. . . وبينا هو في حيرة من أمره منتظراً ما تأتي به الأخبار إليه إذ عثر على كتاب من سيد خان أرسله إلى محمد الطويل فقبض عليه وفحواه أننا تمكنا أن نؤخر نصوح باشا هذه المدة، وخذلنا أكراد سهران ومنعناهم من الذهاب فعليك أن تثبت كالرجل الشجاع والعاقبة لك فلا تخرج بغداد من يدك، وأن تسعى جهدك.

فلما رأى نصوح باشا ذلك انفعل غاية الانفعال وارتبك عليه أمره، كانت آماله قوية في الاستيلاء على بغداد لولا هذه الخيانة فتعسر عليه الأمر. . . وحينئذ ورد إليه الأمر السلطاني بلزوم إقدامه والذهاب لافتتاح بغداد فسار اضطراراً وكان معه أمير أمراء شهرزور ولي باشا، وبياله باشا ومير شرف، ولما وصل إلى إربل كتب أيضاً إلى أمراء سهران وإلى سيد خان فلم يتل منهم مرغوباً ولم يلتفتوا إلى رسائله. وهكذا فسد عليه أمر طوائف التركمان الذين كانوا صحبوه فاستهووهم بالأموال وبان سوء قصدهم. . .

والحاصل أن نصوح باشا اعتماداً على مواعيد ابن أبي ريشة نزل في أنحاء بغداد في ٣ شعبان سنة ١٠١٥ هـ وكان هذا التاريخ موعد وصول ابن أبي ريشة المذكور فلم يظهر له أثر. أما ابن الطويل فقد جاء المدد من أتباعه وأعوانه ومن ابن أبي ريشة ومن سيد خان فدخل العربان والأكراد بغداد وتحصنوا بها. . . وحينئذ خرج القوم من بغداد صفوفاً لمقابلة نصوح باشا. وفي هذه الأثناء تمكن ابن الطويل من إرسال ثلاثين ألفاً من الدنانير إلى السكبانية ليكونوا معه فاستهواهم. وعند تقابل الجموع في ٦ شعبان مال السكبانية إلى جهة البغداديين، انفصلت كتيبة منهم بصورة ظاهرة للعيان والتحق آخرون بناء على أمر بيت ليلاً والباقون تفرقوا في الصحراء وانهزموا. . . فأصاب الجيش وهن وضعف. أما

الأمراء فقد ثبتوا مدة تحاربوا في خلالها حرباً وبيلة فاستشهد ولي باشا أمير أمراء شهرزور وجرح نصوح باشا بجرحين. وكان أكثر رجالهم من أتباع مير شرف فاستشهد أكثر أمرائهم...

وعلى هذا انسحب نصوح باشا بمن بقي فعادوا إلى الجزيرة موطن مير شرف فاستراحوا هناك إلى نهاية الشتاء وعرضوا ما جرى.

ولم تمض مدة حتى قتل ابن الطويل في بغداد(١).

ونصوح باشا هذا من قرى كوملجنة دخل الحرم وصار من زمرة زلغلو بالطه جي وعين لخدمة أحد ندماء السلطان ثم خرج من الحرم إلى المتفرقة وصار مدة (ويودة) أي متصرفاً على ايالة زيلة ثم صار كهية البوابين سنة ١٠٠٧ هـ، ثم صار أمير آخور صغير ثم صار مير ميران حلب. ثم عين سرداراً كرة بعد أخرى لدفع غائلة الجلالية فانكسر منهم في كل مرة فولي بغداد فجرى بينه وبين عسكر بغداد نزاع أدى إلى القتال ثم نقل إلى ديار بكر وبقي فيها مدة... وكان قد صالح الشاه عباس ورجع إلى دار السلطنة فدخلها في شعبان سنة ١٠٢١ هـ وأكرم بمصاهرة السلطان وبقي في الوزارة إلى أن قتل في ٢٣ رمضان سنة ١٠٢٣ هـ وكان مرتشياً، سفاكاً، جباراً كذا قال عنه صاحب جامع الدول(٢) وترجمته في خلاصة الأثر أيضاً.

حوادث سنة ١٠١٦ هـ - ١٦٠٧ م

وفاة محمد بن عبد الملك البغدادي

«هو محمد بن عبد الملك البغدادي الحنفي، نزيل دمشق الشام. الشيخ الإمام المحقق. كان من كبار العلماء خصوصاً في المعقولات

---

(١) تاريخ نعيما ج ١ ص ٤٥٨ وفذلكة كاتب جلبي ج ١ ص ٢٨٣.

(٢) جامع الدول ج ٢ ص ١١٢٤.



لوح بخط قوسي البغدادي في جامع الصاغة - دار الآثار العراقية

كالإلهيات والطبيعيات والرياضيات، وهو من جماعة علامة زمانه منلا مصلح الدين اللاري. قيل أخذ عن أخيه شمسي البغدادي[1]. وكان في الأصول والفقه علامة. وله اليد الطولى في الكلام والمنطق والبيان والعربية. قدم دمشق سنة ٩٧٧ هـ وحضر دروس البدر الغزي ولازم أبا الفداء إسماعيل النابلسي وقرأ فقه الشافعي على الشهاب العيثاوي ثم تحنف وولي وظائف تدريس منها المدرسة الدرويشية، وفي الجامع الأموي وتولى تصدير الحديث بالجامع المذكور. وكان له في صندوق السلطنة في كل يوم ما يزيد على أربعين عثمانياً[2] وتولى مشيخة الجامع فسمي شيخ الحرم الأموي. وتولى تولية الدرويشية وعظم أمره وتردد إلى القضاة. وشمخ بأنفه حين رجع الناس إليه. وكان يحضر درسه أفاضل الوقت. ودرس التفسير بالجامع. وكانت في لسانه لكنة عظيمة حتى أنه كان لا يفصح في كلامه أبداً. وشاع ذكره في الأقطار الإسلامية. توفي ليلة الاثنين في العشرين من شعبان لسنة ١٠١٦ هـ وقد احتال القاضي والنائب هناك لسلب أمواله استفادة من غياب أقاربه عنه. ثم جاء بعد مدة ابن عم له من بغداد إلى دمشق فصالحه النائب على شيء من المال ثم ذهب فشكاه إلى الوزير نصوح باشا. وكان الوزير المذكور رأس العساكر إذ ذاك بحلب فوردت الأوامر بطلب النائب بسبب ذلك إلى حلب» انتهى ملخصاً من خلاصة الأثر.

ويظهر من ترجمته هذه أنه رجل عظيم لا يقل عن شمسي وعهدي وإن كان لم يعرف له تأليف فخدمته للتدريس والإرشاد غير قليلة أنجبه العراق واستفادت منه دمشق والمنفعة حاصلة منه على كل حال وليس هذا أول من رباه العراق واقتطف ثمرته قطر آخر...

---

(١) مرت ترجمته في حوادث سنة ٩٧٥ هـ.

(٢) أي درهماً عثمانياً ويراد به (الأقجة). وتساوي نصف مثقال من الفضة ثمّ تغيرت.

حوادث سنة ١٠١٧ هـ - ١٦٠٨ م

قتلة ابن الطويل

لم نعثر على بيان شاف عن تدخلات محمد بك ابن أحمد الطويل في الإدارة ولا عن أسباب حركته هذه ومتابعة البغداديين له وكذا غيرهم وعصيانه على حكومته كما يقولون وكل ما نعلمه عنه أن والده أحمد الطويل كان رئيس كتيبة خيالة (بلوك باشي) فلما توفي والده قام هو مقامه. وقال عنه صاحب سجل عثماني ولي بغداد عام ١٠١٣ هـ فخلفه في أمور الإدارة أخوه مصطفى فأنقذها منه محمود باشا چغاله زاده. وأما مصطفى فإنه مضى إلى إيران وتوفي هناك.

أما قتلته فإن المؤرخين لم يبدوا تفصيلات عنها أوسع مما جاء في گلشن خلفا وذلك أنه في سنة ١٠١٧ هـ بعد أن خذل نصوح باشا وعاد إلى محله مقهوراً لما أصابه من خيانة السكبان استقر الطويل في حكومة بغداد مستقلاً ومن ثم اغتاله محمد چلبي كاتب ديوانه ومحرم أسراره ولم يوضح عن سبب قتلته فخلفه أخوه مصطفى...

وذكر صاحب الفذلكة خبر وفاة محمد ابن الطويل في حوادث سنة ١٠١٦ هـ وسيأتي تفصيل حوادثه.

عودة إلى حوادث بغداد
الوالي محمود باشا جغالة زاده

واستخلاص بغداد

إن هذا الوالي هو ابن سنان باشا المذكور، كما أن له ابناً آخر هو فكري بك وقد مر ذكره. وكذا محمد بك. عهد إليه بمنصب بغداد وأن يقوم بأمر إنقاذها فعين سرداراً، فذهب نحو بغداد في غرة شوال سنة ١٠١٦ هـ وأخذ معه جيشاً عظيماً وبين هؤلاء حاكم أدنه، وأحمد بن أبي

ريشة ومير شرف من أمراء الأكراد، فقطعوا مراحل للوصول إلى بغداد. وإن هذا الوالي القائد كانت له معرفة سابقة بآل قشعم، وبسيد خان، ويحاكم سهران وسائر عشائر الكرد والعرب... ومن ثم اختار من صنوف الجيش عسكراً مرتباً وتوجه نحو بغداد فوصل إلى الموصل وهناك كتب رسائل إلى البلوكباشية القدماء[1]، وإلى أغوات الجيش. بعثها إليهم سراً وفيها من الاستمالة والترغيب الشيء الكثير... وفي الليلة التي جاءتهم الرسائل قتلوا السكبانية[2] وعند الصباح مضوا لإلقاء الحصار على مصطفى باشا في القلعة الداخلية أمام السراجخانة وأعلموا محمود باشا بما وقع. ذلك ما أنعش الوالي وبعث فيه الفرح والأمل فعجل بالسير في أوائل ربيع الآخر سنة ١٠١٧ هـ فوصل حوالي بغداد وقوي نشاط الثائرين كما أن جيوش الوالي هاجمت المحصورين وشددت الحصار عليهم وبتوسط من أرباب المصلحة منح مصطفى باشا لواء الحلة وشتت شمل العصاة في أواخر الشهر المذكور واستقر الوزير في حكومة بغداد. ولا يزال سوق السراجخانة من آثاره. فقضى على هذه الغائلة[3].

وهذا الوالي لم يعرف عن وقائعه، ولا عن إدارته وأعماله في العراق ولعله اشتغل بتثبيت الإدارة وترتيب الحكومة... وقبل وروده إلى بغداد تقلب في مناصب عديدة ففي الأصل كان مير لواء ثم صار أمير أمراء. وفي سنة ١٠١٣ هـ ولي ديار بكر، وفي سنة ١٠١٦ هـ ولي بغداد

---

(١) رؤساء كتائب الخيالة.

(٢) صنف من الجيوش المحلية يتكونون من أهل القرى المتطوعين في أدنى خدمات الجيش من المشاة (عثمانلي تشكيلات وقيافت عسكريه سي) ص ٩ للمرحوم محمود شوكت باشا وهو الأخ الأكبر لفخامة الأستاذ الجليل السيد حكمت سليمان. وعندنا السكماني يراد به من يجيد الرمي مأخوذ من هذا اللفظ.

(٣) كلشن خلفا ص ٦٦ ـ ١، وفذلكة كاتب جلبي ج ١ ص ٢٩٧ وص ٣٠٩.

ثم رفعت عنه الرتبة وبعدها أعيدت إليه والحاصل لم ينفع لأمر ما فتوفي سنة ١٠٥٢ هـ كذا قال عنه صاحب السجل[١].

وجاء في تاريخ الغرابي ما نصه:

«ثم إن كاتب ابن الطويل محمد أفندي أعمل الحيلة في قتله بيد زوجته فجلس مكانه أخوه مصطفى بك فأرسل السلطان لإزالته الوزير محمود باشا بن چغال. فلما وصل إلى الموصل راسل من تابع مصطفى بك من عسكر بغداد إذ كان له معهم معرفة حين كان والياً بها، فأرسلوا له خبراً أن احضر ونحن معك فلما جاء إلى بغداد أظهروا أنواع الجلادة ثم توسطوا بالصلح فأعطى محمود باشا لابن الطويل حكومة الحلة فرضي بها وخرج إليها، وحكم ابن چغال في بغداد وذلك في سنة ١٠١٧ هـ. ثم إن ابن الطويل فر إلى العجم، وبقي هناك. ولما لم يبق في قطر الأناضول من المخالفين أحد قصد الوزير الأعظم بلاد العجم وذلك في سنة ١٠١٩ هـ» اهـ[٢].

المحمودية:

اليوم تعد من أقضية بغداد المعمورة والكبيرة، كانت مقاطعة في تملك والي بغداد محمود باشا چغاله زاده بن يوسف سنان باشا والي بغداد الأسبق، ثم صارت قرية. والآن هي قضاء. ولا تزال معروفة باسمه. وكانت من أوقاف آل قره علي وآل الغرابي. لهم عقرها مسجل باسمهم ووقفهم هذا على الذرية. ذكرت نص الوقفية في محل غير هذا، وهناك علقت ما لزم عن أسرة آل قره علي، وعرفت بهم كما أني ذكرت (مدرسة الغرابي) وموقوفاتها مما لا مجال لتفصيلها هنا.

---

(١) سجل عثماني ص ٣١٩.

(٢) تاريخ الغرابي ص ٩١.

حوادث سنة ١٠١٩ هـ - ١٦١٠ م

الوالي قاضي زادة علي باشا

في هذه السنة (١٠١٩ هـ) ولي بغداد أمير أمراء روم ايلي. وهذا هو المعروف بقاضي زاده. مر الكلام على ولايته الأولى في بغداد سنة ٩٩٨ هـ ولم يتعرض صاحب گلشن خلفا لحكومته الآنفة الذكر في بغداد كما أن صاحب سجل عثماني لم يبين ولايته الثانية وإنما ذكر أنه صهر قپوجي مراد باشا وكان صادقاً، متديناً، عاقلاً[١]، ولم يعين تاريخ انفصاله...

حوادث سنة ١٠٢٢ هـ - ١٦١٣ م

صلح إيران وشروطه

في هذه السنة عقد الصلح مع الشاه وكان من شروطه أن لا يسب الصحابة ولا الأئمة المجتهدون ولا أم المؤمنين عائشة الصديقة، فتعهد الشاه بذلك كما كان سبق أن تعهد الشاه طهماسب بذلك، وأن يزول العداء لأهل السنة وأن يؤذن لمن أراد المجيء إلى هذه الأنحاء باختياره فلا يمنع، وأن تراعى الحدود التي كانت أيام السلطان سليمان، فلا يتعرض للقلاع والبقاع، وأن تكون البلدان والممالك التي بيد مبارك بن سنجار[٢] تابعة لبغداد وأن لا يعاون المرقوم، ولا يحمي بوجه وأن البقاع والبلدان التي استولى عليها (هلوخان)[٣] من لواء شهرزور إذا كانت قد استردت منه فلا يساعد، ولا يمد بمعاونة ما، وأن يذهب حجاج إيران من طريق حلب والشام لا من طريق بغداد والبصرة حيث لم

---

(١) سجل عثماني ص ٥٠٩.

(٢) السيد مبارك بن سجاد من المشعشعين. وهو الصواب. وجاء ذكر سجاد في تاريخ العراق ج ٣.

(٣) من أمراء أردلان.

يكن الطريق فيها أميناً. إلى آخر ما جاء مما لا يخص العراق. وفي هذه المعاهدة جاء ذكر والي ايالة بغداد الحافظ محمود باشا، وأمير الأمراء محمد باشا وأنهما أودع إليهما أمر تحديد الحدود[1].

وهذه المعاهدة غالبها يخص العراق والعلاقة به. فهي مما تهمه أحكامها، وتعين الجهات المختلف فيها.

حوادث سنة ١٠٢٤ هـ - ١٦١٥ م

الوالي دولار باشا

هذا ما جاء في گلشن خلفا - ولي بعد علي باشا قاضي زاده فنال منصب حكومة بغداد برتبة وزارة. والظاهر من سجل عثماني أنه بقي إلى سنة ١٠٢٤ هـ لأنه صار بعدها والياً في ديار بكر في التاريخ المذكور. وجاء عنه في تاريخ جامع الدول أنه «كان قد تخرج من البلاط برياسة الجاشنگيرية، أي رؤساء الميرة[2]. ثم ولي قبرص وبغداد وديار بكر ثم صار وزيراً أعظم بعد عزل حسين باشا إلى آخر سنة ١٠٣٠ هـ وقتل يوم ٧ أو ٩ رجب سنة ١٠٣١ هـ»[3].

الوالي حافظ أحمد باشا

ثم ولي حافظ أحمد باشا، ذكره صاحب گلشن خلفا ولم يعين تاريخ حكومته في بغداد. وليس في التراجم الموجودة لدينا ما يعين ولايته أو يشير إلى أنه ولي بغداد في هذه الأيام. وإنما كان حارب العجم، فلم يفلح في حروبه، ولا نعلم عن ولايته شيئاً.

---

(١) فذلكة كاتب جلبي ج ١ ص ٣٥٤.

(٢) أصلها من يذوق الطعام للسلطان. فارسية. فأطلقت على من يقوم بالميرة من الجند.

(٣) جامع الدول ج ٢ ص ١١٣٢.

حوادث سنة ١٠٣١ هـ ـ ١٦٢١ م

الوالي يوسف باشا

وهذا آخر ولاة الترك في بغداد لهذا العهد ومنه انتزعها المتغلبة وفي رأسهم بكر صوباشي. وكان النفوذ على الولاة قبل هذا التاريخ مشهوداً إلا أنه لم يظهر كما ظهر في هذه المرة بمجابهة أصل الحكومة والثورة في وجهها. وهذا الوالي لم يعين صاحب گلشن خلفا تاريخ ولايته إلا أنه ذكره بعد أن أورد حوادث سنة ١٠٢٦ هـ مما يشير إلى أنه كان قبل هذا التاريخ ولعله أورد أسماء الولاة مطرداً ثم مال إلى الوقائع في أيامهم. وصاحب السجل يشير إلى أنه ولي بعد سنة ١٠٣٠ هـ لأنه ذكر أنه ولي إمارة روم إيلي سنة ١٠٣٠ هـ ووجد في حرب لهستان ثم عهدت إليه ولاية بغداد فقتل فيها عام ١٠٣٢ هـ في الثورة التي قام بها بكر صوباشي. وكان من بوسنة فتخرج في البلاط ثم صار آغا الينگچرية وبعدها ولي روم إيلي بالوجه المشروح[1].



بكر صوباشي

١ ـ جداله:

قالوا تزايد نفوذ بكر صوباشي من سنة ١٠٢٨ هـ وكان في بادىء أمره من أفراد الينگچرية فصار في رتبة (صوباشي)[2]، ثم صار آغا الينگچرية ومن ثم جمع له أعواناً في الخفاء واكتسب نفوذاً. تابعه نحو اثني عشر ألفاً من الجيش الأهلي (قول بغداد). وكان قد خافه جماعة من الأعيان أيضاً فمالوا إليه رهبة لا رغبة وانضم إليه الأهلون من كل

---

(١) سجل عثماني ص ٦٥٥.

(٢) الصوباشي. له كسوة خاصة. ويقوم بأعمال الشرطة ومهمات البلدية وفي أيام الحرب يؤدي الواجب العسكري (قيافت وتشكيلات عسكرية ص ٦٠).

صوب فتأثيره كان كبيراً، وبقي في هذا المنصب مدة حتى نال النفوذ المطلق بحيث صار الوالي يهابه. لا يستطيع مخالفته، ولا يخرج عن رأيه خصوصاً حينما رأى الأهلين معه وهم قوة لا يستهان بها ولم يكن آنئذ للولاة اتصال بحكومتهم. فكانوا يتوقعون منه كل شر. ولما كان عسكر بغداد بيده من مدة فليس للولاة غير الاسم المجرد. والحكم كله له. وهكذا مضى، ولا يزال يتكامل جمعه، وتقوى عصبته.

استثقل يوسف باشا هذه الحالة وصار يترقب الفرصة للوقيعة به، وفي سنة ١٠٣١ هـ عصى بعض العشائر في الأنحاء القاصية وزاد ضررهم فتحتم إرسال قوة تأديبية لدفع غائلتهم فذهب (بكر صوباشي) بنفسه لتسكين هذه الفتنة وأقام ابنه محمداً مقامه. وكان آنئذ رئيس كتيبة الخيالة (بلوك باشي) ومحمد آغا العقيد (البيكباشي) فاستمال يوسف باشا محمد آغا المذكور فهرب أولاد بكر صوباشي وأخذت أموالهم وسدت أبواب بغداد وتهيأ يوسف باشا للقتال. ولما كسر بكر صوباشي تلك العشائر وعاد بلغه الخبر، فحاصر بغداد. انضم إليه جمع عظيم لهذا الغرض وكان من جملة من سافر مع بكر صوباشي (عبد الله الرئيس ابن محمد قنبر أغا العزب)[١]، وتفصيل الخبر أن محمد قنبر هذا استفادة من غياب بكر صوباشي صار يشوق الأهلين على بكر صوباشي ويحثهم أن يقوموا عليه. فعل ذلك بإغراء الوالي يوسف باشا وبين أن بقاء الحالة بهذا الوضع مما يخل بسمعة البلدة، ويقضي على مصالح الأهلين ويضر بحقوقهم.

وحينئذ دعا السپاه[٢] والعزب والأشراف والأعيان ممن في بغداد

---

(١) العزب صنف من الجيش الأهلي من قسم المشاة. ويشترط أن يكونوا غير متزوجين، ومن ثم سموا بـ (العزب).

(٢) السباه. جيش من صنف الخيالة يستخدم في الحرب وفي أيام السلم يقوم بانضباط المملكة ويجمع الأعشار. يقوم بتجهيزه التيمار. وله كسوة خاصة. (تشكيلات وقيافت عسكرية ص ٦٢).

وشاورهم في الأمر واتفقت كلمتهم على لزوم استئصال بكر وأعوانه وإبادتهم كلهم ووجوب مراعاة النظام وإنهاء هذه الحالة المضطربة.

سمع محمد بن بكر أغا وكتخداه عمر أغا بما وقع عليه الاتفاق فتمكن محمد من الفرار وأما عمر أغا الكتخدا فإنه جيء به إلى محمد قنبر أغا فصار يتضرع إليه ويتوسل به. يبكي ويستغيث طالباً أن لا يقتل وأنه يقوم بما يلزم لتأديب بكر وأعوانه. فأبدى بعض الحاضرين لزوم اغتنام الفرصة وأن يقتل لحينه ولكن محمد قنبر قد غر وظن أنه سيكون من أعوانه، يستميله إليه بالعفو. وعند ذلك أطلق سراحه، وذهب إلى بيته ومن ثم تقلد سيفه وتقدم في المعمعة وصار يترقب ما تأتي به الأقدار. وبهذا غفل محمد قنبر عن مكر الأعداء وغره ما أظهروا.

وحينئذ ذهب الوجوه والأعيان وكافة الأشياع إلى القلعة ووصلوا إلى الوزير يوسف باشا فأعلموه بدخائل الأمور وحقائقها وأن الأعداء أشعلوا نيران الفتن والشرور وأوصوه أن يتخذ ما يلزم من التدابير إلا أن هذه كانت في غير أوانها بل شغل الوزير عن اغتنام الفرص بتوجيه المناصب بدل من شغرت مناصبهم. وكان الأولى به أن يراعي التدابير الواقية حذراً من أن يستفحل الأمر فلم يفعل.

وبهذا تمكن الثائرون من لم شعثهم ومن تدارك الأسلحة خلال غفلة هؤلاء. جمعوا الأشياع والأحزاب ونهضوا. فاحتلّوا منعطفات الطرق وممر الناس. وكذا المواطن الأخرى التي رأوا ضرورة في لزوم احتلالها. ولم يكتفوا بذلك بل أغاروا على القلعة الداخلية والميدان وباشروا الجدال. رشقوا أتباع الباشا بنيران البنادق حتى سقط الكثير منهم قتلى.

ومن ثم عاد بكر صوباشي وحاصر البلد بل ضيق الخناق على الوالي. ذلك ما دعا الوزير أن يخاطر بنفسه وبمن معه فهاجم صوب

الميدان وحمل على أعدائه فدامت المعركة بين الطرفين بضع ساعات في خلالها قتل خلق لا يحصى. فكانت النتيجة أن انتصر بكر صوباشي وأتباعه وخذل أتباع الوزير. وحينئذ لجأ أعوانه إلى القلعة الداخلية وفي الحال اتخذ القوم المتاريس والخنادق حولهم فحصروهم.

رأى محمد قنبر أغا هذه الحالة بأم عينه وشاهد الخطر المحدق فأخذته الحيرة من خفوق مسعاه وصار لا يدري أين يتوجه. ارتبك عليه الأمر وأضاع رشده. قطع الأمل من النجاة. لا سيما بعد أن علم أن الكتاب الذي أرسله إلى ابنه قبض عليه بكر صوباشي وكان يحثه به أن يسرع بمن معه من العزب، ويتخذ تدبيراً عاجلاً، وأن يستأصل بكراً وأتباعه ويأتي بباقي العسكر بلا تأخر. وعندما وقف على منطوياته أمر بالقبض على ابنه عبد اللّه الرئيس وكان نائماً فاعتذر لنفسه ودافع بكل ما أوتي من بيان فلم ينجع. وإنما ضرب عنقه. وفي الحال تفرق أتباعه من العزب في البراري منهزمين ورجع بكر صوباشي لحينه إلى بغداد فعلم بذلك محمد قنبر أغا وشعر بما حل بابنه من الرزية. وما سيناله من مصيبة.

إن بكر صوباشي وأتباعه وافوا على عجل وعبروا دجلة ومالوا ميلة واحدة على أعدائهم فأذاقوهم وبال أمرهم. وفي المعركة قتل الوالي. كان واقفاً على تل الطوب فأصابته طلقة نارية أردته قتيلاً. واستمر الباقون لبضعة أيام على حصارهم، وقد قيل (المحصور مغلوب) فلم يروا بداً من التسليم وطلب الأمان.

وهنا تلاعبت أقلام كتابهم في بيان أعمال بكر صوباشي وتمثيله بالمحاربين، وقسوته، وأنه لم يقبل أماناً وإنما غصب ودمر ما شاء أن يدمر[1]. وقالوا نهبت العتاد (الجبه خانه) المخزونة من أيام السلطان

---

(١) خبر صحيح، كلشن خلفا، جامع الدول ج ٢ ص ١١٣٧، وفذلكة كاتب جلبي ج ٢ ص ٣٩.

سليمان ومن بعده، وذهبت أموال كثيرة لا يحصيها قلم، وكثر السلب. فأصبح كثير من الأغنياء والمتمولين لا يملكون شروى نقير.

٢ ـ تخلص بغداد له:

ومن ثم وقعت بغداد في قبضة بكر صوباشي، فصار حاكمها المستقل. وقالوا إنه بث العيون للاطلاع على أحوال الناس فصار يذيق المخالفين أنواع العقوبة، وضروب القسوة. ولم نجد أثراً عراقياً سوى گلشن خلفا يعين نفسية الأهلين تجاه هذا الحادث الذي لم يطل في بغداد أمد حكمه بسبب الهجومات القوية المتوالية عليه من العثمانيين إلا ما جاء في تاريخ الغرابي. قال:

«وفيها ـ في سنة ١٠٣٢ هـ ـ تغلب بكر صوباشي في بغداد. فقتل حاكمها يوسف باشا، وأرسل إلى محافظ ديار بكر حافظ أحمد باشا يطلب منه أن يعرض إلى حضرة السلطان مراد... هذه الأحوال وأن يجعله حاكماً في بغداد. فلما بلغ هذا الخبر إلى السلطنة جعلت سليمان باشا حاكماً على بغداد، وأمر حافظ أحمد باشا أن يسير بعكسر ديار بكر إلى بغداد ويزيل بكر صوباشي، ويجلس سليمان باشا» اهـ[1].

٣ ـ الوالي سليمان باشا:

وبعد أن تم لبكر صوباشي أمر بغداد حاذر من موقفه هذا وما سيجر من النتائج فعرض الحال على السلطان وطلب العفو وذكر أن يوسف باشا كان السبب فلا يتوجه عليه لوم والتمس أن تنعم عليه الدولة بمنشور الولاية. راجع بذلك والي ديار بكر حافظ أحمد باشا لكن الحكومة اعتبرته عاصياً فلم تمنحه الولاية. فعهدت بإيالة بغداد إلى

---

(١) تاريخ الغرابي ج ٢ ص ٩٩.

سليمان باشا وأرسل هذا (متسلمه)[1] إليها فمنعه بكر صوباشي من الدخول وكان أمله أن يولى هو دون غيره فلما شاهد ذلك قال: «لا حاجة لنا إلى أمير أمراء!» وبهذا عارض رغبة الدولة العثمانية[2].

أما الوالي فإنه لما سمع من بكر صوباشي الرد وأنه متأهب للقتال عزم على حربه وكان معه أمير أمراء الموصل، ووالي كركوك، وأمراء الكرد فساروا بعشرين ألفاً من الخيالة وتقدموا نحو بغداد فوصلوا إلى قرية الجديدة (ينگيجه) وآمالهم مصروفة إلى حصار بغداد وكانت المدينة آنئذ في قحط عظيم ولكن الوالي بقي في محله ولم يجسر على التقدم. دام مكثه بضعة أشهر فاتخذ الشدة تارة والسهولة أخرى فلم تظهر نتيجة. ومن ثم قام من مكانه وتوجه إلى ما يقابل (بعقوبا) و (بهرز) فاتخذ هذه المواقع مضرب خيامه. وصاروا يعيثون في القرى نهباً وغارة.

ولما علم بذلك بكر صوباشي أرسل كتخداه عمر آغا لحراسة القرى وصيانتها من التعديات وكان معه من جيش بغداد نحو ثمانية آلاف خرجوا من (الباب الأبيض) المسمى (آق قپو) فعبروا نهر ديالى من شريعة (صفوه)[3] (كذا) وصاروا تجاه الوالي سليمان باشا في محل يقال له (قباب ليث).

---

(١) المتسلم من ينوب عن الوالي في استلام أمور الإدارة والقيام بها إلى حين وروده إلى محل منصبه. وإن الغاية من إرساله أن تتيقن الدولة درجة الطاعة والامتثال وإلا جهزت الجيوش وقضت على أرباب الزيغ. وهذا أول متسلم عرف في بغداد. وكذا يراد بالمتسلم متصرف اللواء التابع لإيالة الوالي، أو من كان دونه في نطاق السلطة.

(٢) جامع الدول ج ٢ ص ١١٣٧.

(٣) قال الدكتور (مصطفى جواد) لا يزال هذا الاسم (صفوة) معروفاً في آثار مدينة النهروان العتيقة في شرقي محطة كاسل بوست بينهما نهر ديالى. ومنهم من يسميه صفي وصافي، والظاهر أنه قبر الشيخ صفاء من أصحاب السيد تاج العارفين كما ذكر في كتاب مناقبه المؤلف في أواخر القرن الثامن للهجرة المحفوظ في دار =

ومن ثم جرد الوالي عليهم حملة تقدر بخمسة آلاف. عهد بقيادتها إلى بوستان باشا والي كركوك. جاء لمقابلتهم، وصاروا يتضاربون، واغتنم جيش بغداد الفرصة فعبر النهر وهاجم الجيش العثماني. وفي المعركة جرح بوستان باشا. وفي تلك الليلة استولى الرعب على جيش الوالي فانهزم سحراً قبل أن يلتقي الجمعان. فولى الوالي الأدبار. وعاد إلى جهة الشام وأخبر حكومته بما جرى فاهتمت للمعضلة وبذلت ما في وسعها للتنكيل بهذا الثائر ودفع غائلته. أرسلت إلى أمير أمراء ديار بكر حافظ أحمد باشا ليكون قائد الحملة[١]...

حوادث سنة ١٠٣٠ هـ ـ ١٦٢٠ م

ملا غانم البغدادي

إن بكر صوباشي في هذه السنة قتل أحد العلماء مفتي بغداد (ملا غانم)، وكان لهذا أقارب في بغداد من العزب. يخشى منه أن يخالفه فغدر به.

أبدع الترك في تمثيل هذه المأساة فرأوا أنه حين قتله كان مشغولاً بقراءة القرآن. يقرأ سورة (يس) وقبل أن يتمها قضى نحبه ولكنه ـ كما قالوا ـ استمر في القراءة حتى أتمها وهو ميت. وعدوا هذا الحادث كرامة تذكر له. وقالوا إن قتله أحدث حزناً في القلوب، ودعا إلى استياء عام.

قال كاتب چلبي: «ولد في بغداد وحصل العلوم فاستولى عليه

= الكتب الوطنية بباريس وأما قباب ليث فقد ذكر ياقوت في معجمه أنها (قرية قريبة من بعقوبة..» وزاد في المراصد أنها «من طريق خراسان» وأقول إن صافي في انحاء سلمان الفارسي ومن أوقافه فهي بعيدة عن قباب ليث.

(١) كلشن خلفا ص ٧٠ ـ ١.

العشق (اعترته الجذبة) فصار يتجول نحو ١٢ سنة في الصحاري والبراري، ثم إنه وصل إلى الشيخ علاء الدين في عينتاب فسلك عليه. ولما ولي رضوان أفندي منصب قضاء بغداد سنة ٩٩٨ هـ سمع عنه أوصافاً جميلة فمال إليه ومن ثم أصلح حاله. فجعله مدرساً في المستنصرية وكانت من أجل مدارس بغداد فصار يقضي أيامه في التدريس. فظهر علمه وبان فضله، ونعت بأعلم العلماء، وفي سنة ١٠٣٠ هـ قتل أيام الاضطراب في بغداد.

كان هذا الولي وصل إلى درجة الكمال في علوم الظاهر والباطن. وله اليد الطولى في الفقه. صار مرجع الفتوى ومن آثاره (ملجأ القضاة)[1] المعروف بترجيح البينات، وكتاب (مسائل الضمانات) وله كتاب في النحو لم يتمه، وله (حصن الإسلام) فيما يتعلق بألفاظ الكفر...»[2].

القحط:

في هذه السنة استولى القحط على بغداد فلم تنزل الأمطار وقلت الأعمال بسبب هذه المصائب وأخذ يهجر الناس أوطانهم. وإن العربان عدموا الأمطار ولم يجدوا أثراً للكلأ فرموا بأنفسهم إلى بغداد وصاروا يشكون الجوع فاستولى الغلاء على البلدة وصار الناس في فقر وفاقة، فكان المصاب فادحاً مؤلماً[3].

---

(١) طبع مراراً. وكذا طبع كتاب الضمانات.

(٢) فذلكة كاتب جلبي ج ٢ ص ٦.

(٣) كلشن خلفا ص ٦٨ ـ ١.

حوادث سنة ١٠٣٢ هـ - ١٦٢٢ م

حافظ أحمد باشا وبغداد

في (سنة ١٠٣٢ هـ) نال السلطان مراد الرابع السلطنة. وكان موصوفاً بالشجاعة والسطوة والقوة. وفي أيام جلوسه كانت الإدارة في تذبذب واضطراب لم يعهد مثلهما، وأن الجيش والينگچرية جمحوا فلم يتمكن أحد من ضبطهم، فحدثت غوائل منها (حادثة بغداد) فأبرز من الشدة والحزم ما مكنه من إزالة الاضطرابات وإرجاع الإدارة إلى نصابها فتولد نشاط وجدة نوعاً...

وقبيل جلوس السلطان كانت الحكومة رأت ما رأت في بغداد من رد متسلمها أرسلت سليمان باشا والياً بالوجه المذكور وهذا خذل. وحينئذ زاد حنقها واهتمت أكثر لدفع الغائلة ففوضت حافظ أحمد باشا أمير أمراء ديار بكر وهو من قدماء الوزراء. جعلت معه ولاة مرعش وسيواس والموصل وأمراء كردستان. فكان من رأي أحمد باشا المداراة وتولية بغداد لبكر صوباشي وإلا فإنه يتوقع أموراً ليست في الحسبان.

وأكثر ما كان يخشى منه أن يميل هذا المتغلب إلى إيران ويسلم بغداد إلى العجم عناداً فيدعو الشاه لصد العثمانيين فيولد مشاكل خارجية فلم يلتفت أعيان الدولة إلى رأيه بل حملوا ذلك على سوء الظن به. اتهموه بأنه أخذ مالاً من بكر صوباشي من جراء المراجعة والتوسط لحكومته.

ولما وصل خبر ذلك إلى حافظ أحمد باشا سار إلى بغداد فقاتل هذا الثائر. فكسره فتحصنوا في المدينة، وشرع في الحصار والقتال في أطراف بغداد. بدأ بالتضييق على بغداد وهاجم عدة هجومات، جرت خلالها مصادمات فاضطر أخيراً جيش بغداد إلى الهزيمة، فأضاعوا ثلاثة آلاف وسبعمائة جندي وألفين وخمسمائة أسير. أما الأسرى فإنهم حينما

حضروا إلى القائد أمر بقتلهم ولم يقبل منهم عذراً، ولا رحم شيخاً ولا شاباً.

بغداد وشاه العجم:

ولما وصل خبر هذه المغلوبية إلى بكر صوباشي ورأى أن الخناق قد ضاق على بغداد كتم غيظه ولم يبال بما جرى على القتلى والأسرى ورأى الصواب في أن يسلم مفاتيح بغداد إلى الشاه عباس الكبير. نظراً لما ناله من الحصار ولما أصاب بلاده من القحط الشديد من جراء ذلك.

وعلى كل لم يطق بكر صوباشي صبراً على هذه الحالة ولم تبق له قدرة المقاومة والتزام الجيش لمدة طويلة فاضطر إلى الاستمداد من الشاه عباس والاستعانة به مبيناً له أنه إذا أنقذه من هذه الورطة وخلصه من الترك فسوف يسلم له بغداد خصوصاً بعد أن عقد مجلساً للمذاكرة مع أعيانه واتضح للجميع أن العثمانيين لو ظفروا به وبأعوانه لا ينجو منهم أحد فاستولى اليأس عليهم بسبب الضعف عن المقاومة... ورجحوا أسر العجم على هلاكهم من جانب الترك فقرروا لزوم تسليم بغداد إلى الشاه صيانة لحياتهم. وافق الكل على هذا. وكتب بكر صوباشي كتاباً يتضمن أنه منقاد لإيران وعرض المفاتيح والكتاب مع رسول يسمى (عباساً). فذهب هذا لبلاد العجم مسرعاً...

جاء في خلاصة الأثر عن هذا الكتاب «... كتب ـ (بكر صوباشي) ـ للشاه كتاباً يقول له أسلمك بغداد بشرط أن تكون الخطبة والسكة باسمك فقط فرضي الشاه بذلك» اهـ.

وفي هذه الأثناء كان الشاه في سفر قندهار فأرسل إليه بريد سريع قدم إليه الرسالة والمفاتيح فخلع الشاه على الرسول وأكرمه إكراماً زائداً إذ إنه كان يترقب هذه الفرصة آناً فآناً. ولما حصلت بادر للمساعدة.

وحينئذ رتب أمير همذان (صفي قولي خان) سرداراً وجعل معه كلًا من حاكم اللر (حسين خان) وحاكم أردلان (أحمد خان) خان أوشار (أفشار)، وقاسم خان وأمراء آخرين. كتب أن يذهبوا معاً على جناح السرعة لإنقاذ بكر صوباشي من مخالب حافظ أحمد باشا وأن يستولوا على المدينة وعين من يذهب تواً لتنفيذ هذا الأمر وإعطائه إلى السردار. فكان ما أمده به من الجيوش يبلغ نحو ثلاثين ألف جندي.

فلما ورد إليهم الأمر نهضوا مسرعين متوالين الواحد إثر الآخر فذهبوا إلى بغداد وتسابقوا في الوصول إليها فوصلوا إلى خانقين وضربوا خيامهم هناك. وحينئذ وافى الخبر إلى حافظ أحمد باشا وهذا رأى أن الخطر قد حل به من جهة أن الجيش قد استولى عليه التعب من مشاق السفر والحروب فإذا سمع بورود الجيوش الإيرانية تولد الوهن في قوته المعنوية. ولو خرجت عليهم الجيوش المحصورة أيضاً فلا يتيسر صد الاثنين بوجه. ولا قدرة حينئذ على مقاومتهما...

وحينئذ فكر في اتخاذ تدبير ناجع للنجاة من هذا المأزق الحرج فرأى أن يؤيد بكر صوباشي ويقره في منصبه بإرسال فرمان إليه بمنصب بغداد مع الخلعة السلطانية الفاخرة. وكان الرسول إليه (سيد خان) حاكم العمادية.

ومن ثم أبدى له أن قد عفا السلطان عن جميع أعماله السابقة وجدد المحبة معه بكتاب أرسله إليه موضحاً فيه أن الماضي لا يذكر، وأن يحافظ على مدينة السلطان من تطاول الأيدي إليها. لئلا يؤدي ذلك إلى وقائع مؤلمة في النفوس. مخربة للبلاد، وأن يهتم بالدفاع بما استطاعه من حول...

إلى آخر ما جاء في الكتاب من النصائح وأضاف إليه ولاية الرقة. ووجه لواء الحلة لابنه فتمكن من جلبه إليه. وبعد أن بعثه إليه عجل

بالذهاب إلى دار الأمان والنجاة من الخطر بالانسحاب إلى موقع بمعزل عن التقرب إلى أحد الجيشين. . .

ثم ورد إلى حافظ أحمد باشا سفير من العجم. أتى بكتاب إليه يقول فيه إن بكر خان دخيل الشاه، لا تتحركوا بما يخالف الصلح. ارحلوا عن بغداد. وإلا يختل السلم.

فأجاب حافظ أحمد باشا أننا لم نكن في مملكة الشاه وإنما عصى أحد رجال السلطان فجئنا لتأديبه. فقال له السفير إن بكر صوباشي استمد بالشاه فلو أن طيراً لجأ إلى قشة لحمته فأجابه أن الطير لا يزال في قفصنا. فلو فر وذهب إليكم لكان لكم العذر في حمايته. وكان قوله الأخير: أقسم وأقول الحق أنكم إما أن ترحلوا أو أن يأتيكم أمير أمرائنا (خان خانان) بثلاثين ألفاً من جنده. وحينئذ استعدوا للنضال. فأجابه: إذا فسد الصلح فالحكومة العثمانية غير عاجزة عن المقابلة.

وعلى هذا نهض السفير ورجع.

دخل بغداد نحو ثلاثمائة من العجم وعرف بواسطة الجواسيس أن السكة ستضرب يوم الجمعة باسم الشاه. فبقي حافظ أحمد باشا متحيراً فاتخذ التدبير الآنف الذكر ووجه ايالة بغداد لبكر صوباشي. بعد أن كان أعلن داخل البلدة أن بغداد للشاه وبكر خان عبد الشاه وضربت النقود باسم الشاه كما شاع على الألسنة. وحينئذ ورد إليه فرمان الايالة وفيه «وجهت إليك بغداد فكن على بصيرة وابذل ما تستطيعه من قدرة لحفظ الايالة وحراستها».

قال أوليا چلبي: اضطر بكر صوباشي إلى الالتجاء إلى إيران، فأخبر القائد حافظ أحمد باشا دولته، فاضطر الصدر الأعظم (مره حسين باشا) أن يصدر الفرمان السلطاني بولايته[1].

---

(١) أوليا جلبي ج ٤ ص ٤٠١.

فرح كثيراً بمنشور الولاية وندم على دعوة الشاه عباس والركون إليه بالدخالة فاتخذ التدابير لإعادة صفي قولي خان. فكتب إليه يرحب به بعد أن قام بضيافته وقدم له أفخر الهدايا واعتذر له ولكنه أي صفي قولي خان لم يكن ممن يقعقع له بالشنان أو يكتفي بالمدح الفارغ والألفاظ اليابسة وإنما كلفه بتسليم المدينة إليه حسبما عهد إليه. وكان قد قال له بكر صوباشي في كتابه:

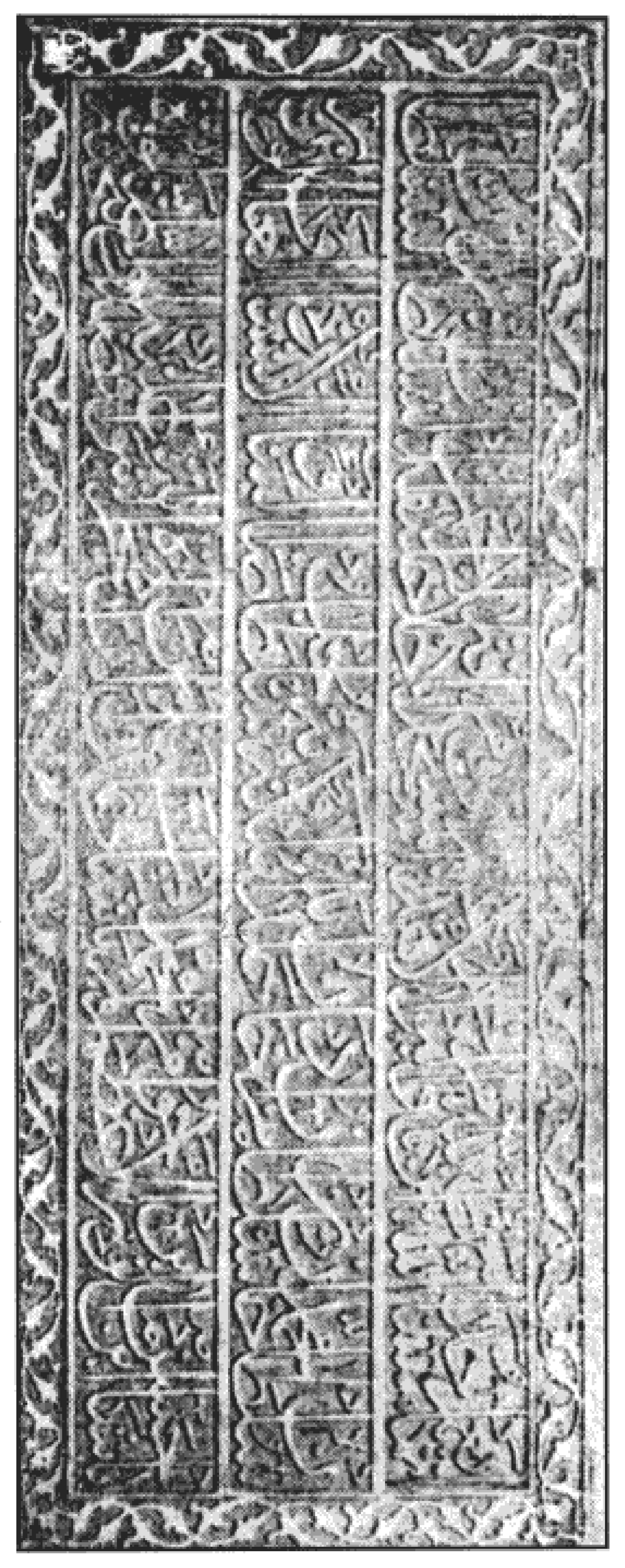
ـ إننا عبيد الشاه القدماء وبيننا حقوق الجوار فنشكره على ما أسداه إلينا من المعاونة وما أجراه من الالتفات ونذكر له هذا الصنيع ونثني عليه من أجله دائماً ونقدم له هدايانا الحقيرة مع ما استطعنا تقديمه من النقود ولا نزال على عرض العبودية...

أما صفي قولي خان فإنه تهور وأطال لسانه. ويقال إنه قتل بعض من جاءه وألقى القبض على آخرين...

مجيء الشاه عباس إلى بغداد:

إن صفي قولي خان كان قد وصل إلى خانقين. وتقدم نحو بغداد. فلما سمع بكر صوباشي ندم على ما فعل. وصار يلتمس الوسائل لرفعهم عن بغداد. ولذا استقبله بواسطة أعيان البلدة لإجراء لازم الضيافة وترصيناً للوداد فأنزلهم خارج الباب المظلم (قراكلق قپو) وقام بضيافتهم ثلاثة أيام وقدم لهم الهدايا ورحب بهم غاية الترحيب وكتب بكر صوباشي بذلك كتاباً. وقدم لهم بضعة أكياس من النقود.

وفي گلشن خلفا ذكر أنه استشاط غضباً حينما فتح الكتاب وعرف منطوياته وقال إني لم آت لهذا الغرض وسأخبر الشاه بما وقع فأرسل بعض رجاله بصورة مستعجلة إلى الشاه وأخبره بالحالة. وكان الشاه أتم سفر قندهار وعاد إلى أصفهان عاصمته وصار يترقب الأخبار عن بغداد وبينا هو كذلك إذ جاءه الرسول... وحينئذ تهور أكثر وصار يتطاير من



لوح خطي في جامع الوزير ـ دار الآثار العراقية

عينيه الشرر. وفي الحال عين قارجغاي خان قائداً وأرسله وجهز معه من كان لديه من الجنود وأمراء خراسان وگرجستان وگيلان ومازندران ثم توجه هو نحو بغداد بسرعة لا مزيد عليها...

أما بكر صوباشي فإنه تأهب للمقارعة. أعد جيشه وهيأه. وفي هذه الأثناء ـ قبل أن يأتي الشاه ـ عبر صفي قولي خان إلى الجانب الغربي. فلما علم بذلك بكر صوباشي أرسل كتخداه عمر آغا، جعله قائد الحملة. وبعد عبورهم من جسر بغداد تحاربا مع عسكر صفي قولي خان ودامت الحرب بضع ساعات ومن ثم ظهرت علائم الانكسار في جيش عمر آغا. وأسر من قبل العجم في هذه المعركة. وبعض الأكابر قد اعتقلوا وأرسلوا إلى جانب الشاه.

ثم إن قارجغاي خان وصل إلى بغداد، وحاول افتتاحها فلم يفلح وبعد ١٤ يوماً جاء الشاه بنفسه فحاصرها من جميع أطرافها واتخذ المتاريس ورتب الأبنية والألغام ونصب المدافع وصار يطلق النيران على بغداد ويمطرها بوابل من القنابل.

أما حافظ أحمد باشا فإنه كان في أثناء الطريق. وصل إلى (درتنك) فأعلمه بكر صوباشي بواسطة رسوله أن يأتي لإمداده. ولكن الباشا كان قد سرح من معه من الجند وفي الحال تدارك قسماً من السكبانية والعساكر وأرسل إليه من أمراء الموصل حسين باشا المعروف بشجاعته ومن قدر على تجهيزه من الجند وأخبر استانبول بأن الشاه حاصر بغداد.

ولما كان صادف ذلك أيام جلوس السلطان مراد الرابع لم يعبأ رجال الدولة بأمور مهمة مثل هذه بل ولا فكروا فيها فلم يحصل أمل من هذه المخابرة.

وفي هذه الأثناء ورد كتاب من متسلم ديار بكر يتضمن أنه من

المحتمل مجيء إبازه باشا إلى ديار بكر فاضطر حافظ أحمد باشا أن يتحرك من الموصل ويتوجه نحو ماردين فذهب إليها . . .

وإن حسين باشا حينما أراد الذهاب إلى بغداد ظهر من أمامه قارجغاي خان ومعه بضعة آلاف جندي فتحارب معه في مكان بعيد عن الشط يقال له (قزل خان)[1]. وهو خان لا سقف له فحاصر حسين باشا هناك مدة، بقي خلالها بلا مهمات ولا لوازم وعتاد، وحينئذ أرسل إليه قارجغاي خان من يفاوضه في الصلح مبيناً أن غرضه إنهاء الصلح مع الحكومة العثمانية وقد بعثني الشاه للمفاوضة في أمر الصلح.

وبأمثال هذه الحيلة تمكن من إغوائه فخرج إليه من حصاره. وهذا القائد لم يراع تعاليم الشاه فلم يؤمن الباشا وقتله في الحال، كما أنه قتل أكثر جنوده ولم يبق إلا القليل وهؤلاء أرسلهم إلى الشاه أحياء. ولما رآهم الشاه أظهر غضبه ـ بصورة ظاهرية ـ على قائده قارجغاي وعاتبه على صنيعه. ولإثبات نواياه وتأييدها أطلق سراح الأسرى فأبعد التهمة عن نفسه وأنه لم يرض بقتلهم.

سمع بهذا حافظ أحمد باشا وهو في الطريق فتألم كثيراً ولكنه نظراً لما جاءه من الخبر ولحوق موسم الشتاء اضطر إلى العودة.

وكان ورد إليه كتاب من (بكر باشا) مؤداه أنه قد حفرت الألغام في أماكن متعددة من السور وعدتها ٥٤ لغماً فبقي عاجزاً عن المقاومة والدوام على المحاصرة فطلب الإمداد السريع والنجدة العاجلة. فأجابه الباشا بأن الوزير الأعظم سيوافي بقوة لإمداده وأنه في انتظار مجيء الخبر إليه من استانبول. فلم يظهر أثر من هذه المخابرة وسمع أيضاً بأن ابازه رجع عن الفرات وعاد.

---

(١) قزل خان ذكر في رحلة المنشي البغدادي ص ٨٧ الهامش.

أما القحط في بغداد فإنه بلغ حده حتى أن الأمهات وصلن إلى درجة أكل أبنائهن وبناتهن وبلغت قيمة الحمار ألف أقچه...

وبهذه الصورة بدت ـ أثناء الحصار ـ علائم الضعف في بكر صوباشي وقلت ذخائره الحربية ومعداته وأن ابنه الكبير محمداً لما شاهد هذه الحالة استولى عليه اليأس...

مضت بضعة أيام والمدينة تحت حراسة محمد بن بكر صوباشي وكان الأمل أن يأتي الله بفرج من عنده فلم يجد ما يزيل المصيبة أو يدفع هذا الشر. وعجز القوم عن المقاومة مع أن القوة كانت كافية للمقاومة فأرسل سفيراً إلى الشاه وأبدى أنه يسلم بغداد. وعلى هذا أرسل الشاه عيسى خان ومعه بضعة آلاف من العساكر الذين كانوا في الصحراء فدخلوا المدينة بلا عناء ولا تعب وتصرفوا بها.

كان استيلاء الشاه عباس الصفوي على بغداد يوم الأحد ٢٣ من شهر ربيع الأول سنة ١٠٣٢هـ ونال عطف هذا الشاه كل من محمد (درويش) بن بكر (صوباشي) وعبد الرحمن جلبي وبعض نفر فتحوا له المدينة فنجوا من القتل. ثم تعقب الآخرين ممن دخلوا في خصام فعاقبهم بضروب العقوبات كما سمى الآخرين بـ (باقي الظلمة وأهل العدوان) فأوقع بهم جزاء أعمالهم...! ووجهت ولاية بغداد إلى صفي قلي[١].

وتفصيل هذا الحادث في (تاريخ العصامي)، وفي (عنوان المجد لابن بشر، وفي (تاريخ الدولة العثمانية) للمستشرق همّر المعروف (ج ٩ ص ٢٣)، ومثله في كتاب (أربعة عصور من تاريخ العراق الحديث) ص ٦١ الطبعة العربية الأولى سنة ١٩٤١م وما فيها من هامش، والطبعة الثانية سنة ١٩٤٩ ص ٥٤ مع الهامش أيضاً.

---

(١) عالم آراي عباسي ج ٣ ص ٧٥٧.

وفي ذيل عالم آراي عباسي أن بكتاش خان لم يستطع أن يسيطر على الجيش في تنفيذ شروط التسليم فدخل في معركة وليس له قدرة ولا زاد ولا عدة ليبرر موقفه، فبقي الوالي في حيرة لعلمه بهلاك الجيش وتيقنه من عدم التمكن من الاحتفاظ به لدولته. ولذا ركن إلى الترياك وعده ترياقاً لتسكين اضطرابه إذ لم يجد مخلصاً من هذه الخسارة. فمات. كما أن الشاه نفسه اضطر إلى قبول شروط الصلح[1].

وفي تواريخ تركية عديدة أن هذا الفتح كان في الليلة الثانية من صفر سنة ١٠٣٣ هـ ـ ١٦٢٣ م في تشرين الثاني[2] إلا أن صاحب خلاصة الأثر بين أن الاستيلاء وقتل بكر صوباشي وأخاه عمر وولده كان في سنة ١٠٣٢ هـ وهذا يوافق ما جاء في النصوص المنقولة عن المصادر الإيرانية ففي مجمل التواريخ وهو كتاب مختصر في التاريخ مفيد عام، فيه تفصيل أمر الصفوية أكثر، كتبه مؤلفه في أيام الشاه عباس الثاني، ومنه نسخة خطية لدى الأستاذ عباس اقبال، وأخرى في الخزانة العامة لوزارة المعارف الإيرانية. جاء فيه أن الشيخ لطف الله العاملي توفي سنة ١٠٣٢ هـ ثم تصرف الشاه عباس في تلك السنة ببغداد. وبين ميرزا عبد الله أفندي في كتابه (رياض العلماء) نقلاً عن عالم آرا أن الشيخ لطف الله توفي في أوائل تلك السنة قبل فتح بغداد وأن تاريخ فتح بغداد جاء في يوم الأحد ٢٣ ربيع الأول سنة ١٠٣٢ هـ ـ ١٦٢٣ م.

وعلى كل حال إن تاريخ السنة يوافق ما ذكر في خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٨٢ و ٤٥٥ ولكن ما ورد في رياض العلماء قد وافق ما جاء في عالم آراي عباسي، وخلاصة الأثر، وفيه ضبط للتاريخ[3]...

---

(١) ذيل عالم آراي عباسي المطبوع سنة ١٣١٧هـ ـ ش.

(٢) جامع الدول ص ١١٣٧ ج ٢ وغيره.

(٣) مجلة يادكار العدد الأول سنة ١٩٤٥ للأستاذ عباس إقبال.

ومن ثم نرى تفاوتاً بين المنقول عن جامع الدول وعن عالم آراي عباسي وعن رياض العلماء وخلاصة الأثر.

وحينئذ استولى الإيرانيون على الأبراج وأطلقوا المدافع للإعلام بالاستيلاء على البلدة فعلم الأهلون بما وقع واطلعوا على حقيقة الوضع واستولى عليهم الخوف والهلع واضطربوا لهذا المصاب كثيراً حينما رأوا في وجه النهار تبدل الحالة وأطلق الاعجام النيران وقتلوا أكثر أهل السنة...

وبعد أن ألبسوا الخلع إلى محمد بن بكر صوباشي وتوابعه وأكرموهم بإنعامات أعلن للعموم بأن يبقى كل في مكانه وباستراحته وأن الشاه آمن الكل وأنه لا ضرر على الشيعة والسنة وأن تفتح الأسواق كالمعتاد... ثم ألقوا القبض على (بكر صوباشي) وعلى أخيه (عمر أفندي). ولمدة شهرين عذبوهما بأنواع العذاب فقتلوهما بسيف الغدر الذي قتلوا به محمد قنبر آغا وسائر العرب وأولادهم...

وكان حينما ألقي القبض على بكر صوباشي جيء به إلى الشاه فرأى ابنه جالساً قرب الشاه بجانبه وحينئذ عاتب الشاه بكر صوباشي بكلمات منها: قمت بهذه الأعمال الشائنة فأجابه أن الأعمال الرديئة هي من ابن الزنا هذا وأشار إلى ابنه وابتدر ابنه بالسب والشتم وبكى. أما الشاه فإنه أمر بحبسه في الحال.

وفي تاريخ الغرابي ما نصه:

«فلما أتى حافظ أحمد باشا إلى بغداد ليزيل بكر صوباشي، ويجلس سليمان باشا مكانه بلغ هذا الخبر بكر صوباشي فأرسل إلى الشاه عباس بأني أنقاد لك، فأمدني بعسكر كي أدفع هذه الغائلة، فلما أتى الحافظ إلى بغداد قابله بكر صوباشي خارج بغداد للقتال فلم يكن نصيبه غير الهزيمة، فتحصن في بغداد وبقي الحافظ متوقفاً خارج بغداد

من غير قتال راجياً أخذ البلد بالسهولة فبينما هو منتظر التسليم أتاه الخبر بأنه من طرف الشاه أتى إلى مشهد الحسين (رض) خمسة آلاف مقاتل لإمداد بكر صوباشي، وأكثر عساكر الشاه قد اجتمعت في (درنة ودرتنك) فخاف سوء العاقبة، وأرسل منشوراً إلى بكر صوباشي يتضمن أننا جعلناك والياً على بغداد فاحفظها ولا تسلمها للشاه، وارتحل وذهب إلى ديار بكر ثم إن بكر باشا أخذ في تحصين السور وأرسل خبراً لمن أتى لإمداده من عساكر الشاه أن اذهبوا إلى مكانكم فقد حصل المطلوب.

بلغ هذا الخبر الشاه فاستشاط غضباً. فأتى إلى بغداد وحاصرها فقام بكر صوباشي بحفظ القلعة أحسن قيام لكن ابنه درويش محمد بعث خبراً إلى الشاه أني أسلمك البلاد إن أنعمت بها عليَّ فوعده الشاه بذلك ففتح لهم باب السر التي في جانب الشط فدخل منها نحو عشرة آلاف شخص وضربوا البوق وقت السحر فلما تمكنوا من البلد أمسكوا بكر باشا وقتلوه شر قتلة وقتلوا القاضي نوري أفندي، وقتلوا من أهل السنة والجماعة خلقاً كثيراً».

قال الغرابي:

«ولقد رأيت جماً غفيراً ممن أدرك هذه الوقعة فكانوا يقولون: ما سلم درويش محمد البلد طمعاً فيها بل لما رأى من القحط والغلاء حيث أكلت الناس الكلاب» اهـ[1].

وبعد ثلاثة أيام من فتح بغداد والاستيلاء عليها فرق بدفاتر (أسماء أهل السنة) و (أسماء الشيعة) ودونها وأودع من السنة من لا يحصون بيد الشيعة فعذبوهم بأنواع العذاب وقتلوا فيهم كثيراً ليضطروهم على بيان أموالهم وسائر ممتلكاتهم. وكان في نية الشاه أن يقضي عليهم جميعاً

---

(١) تاريخ الغرابي ج ٢ ص ١٠٠.

ولكن الكلدار للإمام الحسين (رض) نقيب الأشراف في بغداد (السيد دراج)[1] من رؤساء الشيعة وله جاه عند الشاه استشفع بالكثيرين إذ إنه أدخلهم في دفتره وبين أنهم من محبي أهل العبا فتمكن من إنقاذهم. وكان صاحب رحمة وشفقة. فقام بما قام به وأنقذ الكثيرين...

ثم إن السنة المدونين في دفتر الشاه قتلوا جميعاً ومثلوا ببعض العلماء وأنالوهم أنواع العذاب والأذى وقضوا عليهم بصورة يقشعر منها بدن الإنسانية...

وممن قتل في هذه الوقعة:

١ ـ قاضي بغداد نوري أفندي. كذا في (خبر صحيح) وفي تاريخ الغرابي. وفي خلاصة الأثر لم يسمه وفي فذلكة كاتب چلبي سماه بهذا الاسم[2].

٢ ـ نائب المحكمة السيد محمد أفندي. وقد نعته صاحب الخلاصة بالخطيب العظيم وهو على مذهب الإمام الشافعي وخطيب الجامع الكبير (الظاهر أنه جامع الخلفاء) وذكر له في الخلاصة فتوى في فسخ النكاح بسبب تعذر النفقة كما هو مذهب الشافعية.

وممن نقل عنهم بعض الحوادث عن بغداد (الشيخ عثمان الخياط البغدادي) وهذا لم نعرف عنه أكثر مما نقله صاحب خلاصة الأثر.

قتلة بكر باشا:

وأما بكر باشا فإنه وضع في قفص من حديد ولم يدعوا له مجالاً أن ينام لمدة سبعة أيام وأكرهوه على إبراز ما عنده من الأموال بطريق

---

(١) والسيد دراج هذا هو من أجداد نقيب كربلاء السيد حسن وقد ذكره صاحب خلاصة الأثر في المجلد الأول منه عند الكلام على حافظ أحمد باشا...

(٢) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٨٣ وفذلكة التواريخ لكاتب جلبي ج ٢ ص ٥٠.

التعذيب وكووه بالنار إلى أن اشتوى لحمه ليبين مواقع أمواله. . . وأن ابنه يشاهده بهذه الحالة ولا يبالي بل كان يشرب ويضحك على أبيه المتألم. وبعد أن بين جميع أمواله ولم يبق أمل في إخراج غيرها أمر الشاه أن يوضع في سفينة ويصب في أطرافه النفط والقطران ويشعل بالنار فأحرقه وأخاه عمر.

وجاء عنه في خلاصة الأثر:

«وبكر باشا هذا رومي الأصل سكن بغداد وصار من أكابر عسكرها، تغلب عليها وانبسطت يده على مملكتها حتى صار إذا جاءت وزراؤها متولين عليها لا ينفذ من حكمهم إلا ما نفذه وهو الذي أدخل الشاه بغداد وقتله الشاه وأخاه عمر وولده شر قتلة وكان قتلهم سنة ١٠٣٢ هـ[١].

وقائع ومظالم أخرى:

ثم إن ابنه لم ينل حظاً من الشاه. سخط عليه بعد ذلك فخابت آماله وخسر وناله ما نال والده فقتل.

وفي تاريخ الغرابي:

«ثم إن الشاه أخذ درويش محمد إلى العجم، وعين له مرسوماً يعيش به، فبقي هناك إلى أن هلك» اهـ[٢].

وكذلك هتكت حرمات وأستار وأرملت نساء وأوتمت أطفال وأتلفت ثروات والحاصل تدمرت البلدة وشوهد ما لم يشاهد واستغاث الناس وتطاول الأشرار حتى على البيوت فصارت بغداد دار المحنة لا مدينة السلام. ولا تسل عن الجوامع والمساجد والمدارس فإنها دمرت

---

(١) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٨٢ و ٤٥٥.

(٢) تاريخ الغرابي ج ٢ ص ١٠١.

وجعلت والأرض البسيطة سواء حتى إن المراقد المباركة مثل مرقد الإمام الأعظم والشيخ عبد القادر وسائر الأئمة قد أهينت وهدمت وانتهبت منها المعمولات الفضية...

ثم إن الشاه قام على العشائر ونكل بهم وأجرى أنواع المظالم، وقد عدد في خلاصة الأثر أمثال ذلك مما لا محل لإيراده فقد مضى لها من الأعمال الشائنة وفيها من القسوة ما لا يقبلها دين، أو ترضى بها طائفة.

وإثر واقعة بغداد أخذ الشاه عبد الباقي المولوي خطاطاً لجامع أصفهان وكان من أساتذة الخط ومشاهيره. ولا تزال إيران والمملكة التركية تنتفع من العراق، من أدبائه وعلمائه وخطاطيه كما وقع أيام عالي أفندي الدفتري وغيره بل ولا يزال الترك يتغذون بشعر فضولي، وبشعر روحي وأضرابهما إلى هذه الأيام. وإن الإيرانيين كانوا أقرب إلى الأخذ وألصق بالعراق، فكان أخذ هذا الخطاط من الوقائع المهمة، ولعله آخر من أخذ من العراق. أوضحت عنه في تاريخ الخط العربي في العراق[1].

حوادث سنة ١٠٣٣ هـ - ١٦٢٣ م

الاستيلاء على البلاد الأخرى

١ - الموصل وكركوك:

إن الشاه بعد أن استولى على بغداد شكا أهل الموصل أمرهم له من جراء ما كان ينالهم من ظلم كور حسين[2] باشا وحينئذ سير الشاه

---

(١) فذلكة جلبي ج ٢ ص ٦٥ وتواريخ عديدة.

(٢) وهذا نال مناصب عديدة ومنح منصب الموصل. وفي واقعة بغداد أرسل مدداً وجاء إليه (قره جغاي خان) فحاصره في (قزل خان) خمسة وعشرين يوماً فاستشهد مع سائر السكبانية المحصورين معه. كان ذلك في هذه السنة وهو مشهور في رمي السهام هو وأحمد باشا أخوه.

إليهم قاسم خان. أما والي كركوك وهو بستان باشا فإنه حينما علم بالأمر وتيقن أن لا قدرة له على المقاومة ترك البلدة وتوجه نحو ديار بكر، رآها العجم خالية فاستولوا عليها وذهبوا تواً إلى الموصل وكان واليها آنئذ أحمد باشا أخا كور حسين باشا ولم تكن محكمة السور فتمكن قاسم خان من الاستيلاء عليها في مدة قصيرة فأقام قاسم خان فيها وتولى إدارتها، وسير كتباً إلى أنحاء ديار بكر يدعوهم بها للطاعة[1]...

٢ ـ استعادة الموصل:

إن كوچك أحمد كان من أعيان السپاهية[2] أخذ معه جماعة نحو الخمسمائة من السكبان الأرناوود فهاجم بهم الموصل. ولما قرب من المدينة ظن قاسم خان أن السردار قد وافى لمقابلته فهرب إلى جهة بغداد وترك البلدة بمن معه فعلم أحمد آغا بالأمر فتسلم المدينة بمساعدة الأهلين. وحينئذ جاء إليه أمير سنجار فألقى أحمد آغا القبض عليه وقتله قبل أن يصل إليه المدد. أما أحمد آغا فإنه كتب إلى الوزير السردار أحمد باشا بما جرى والتمس أن توجه ايالة الموصل إلى ابن أخيه سليمان بك ففوضت إليه كما طلب...

حوادث سنة ١٠٣٤ هـ ـ ١٦٢٤ م

_ آلتون كوبري ـ كركوك

إن والي قرمان حسن باشا الچركسي كان قد شتى في الجزيرة

---

(١) فذلكة كاتب جلبي ج ٢ ص ١ وجامع الدول ج ٢ ص ١١٣٧.

(٢) من صنف الخيالة. وهم أصحاب تيمار وزعامة. ويقومون في أيام السلم بجمع الضرائب، وبإدارة الأمن الداخلي. وفي زمن الحرب يتبعون إدارة الوالي التابعين له وأوامره. ولهم كسوة خاصة بهم في كل ولاية. (تشكيلات وقيافت عسكرية ص ٦٢).

و(حصن كيفا) المسماة عند الترك (حسن كيف)، فعلم أن قد تجمع الأعداء في آلتون كپري وكركوك وعلى هذا سار عليهم مع كوچك أحمد. كان هؤلاء في جانب من نهر آلتون كوپري وعدوهم في الجانب الآخر فتضاربوا على البعد إلى المساء وظهرت علائم النصر للقزلباشية وحينئذ هاجمهم أحمد آغا بأتباعه فأعادهم إلى الوراء فمزق شملهم في حين أنه كان معه نحو أربعة آلاف وكان القزلباشية اثني عشر ألفاً. فر فريق منهم إلى كركوك وهناك لم يستقر لهم قرار فخرجوا من المدينة وانهزموا على وجههم فجاء بوستان باشا فدخل كركوك. واستعادوها من أيدي العجم[1]...

حكومة صفي قلي خان في بغداد:

إن الشاه عباس قد أسكرته خمرة النصر في بغداد فعزم على تنفيذ آمال أكبر، ورأى أن يمد يده على بلاد الكرج. فأودع حكومة بغداد إلى (صفي قولي خان) وعاد هو إلى إيران وهجم بقائده قارجغاي خان على الكرج وكان معه نحو ثلاثين ألفاً فحدثت حرب بينه وبين أقدم حكام الكرج وهو (طهمورث) وكان هذا قد فاجأ العجم على حين غرة فقتل في هذه المعمعة قرجغاي خان وابنه ولم يبق من جنده سوى ثلاثة آلاف فروا بأرواحهم وأكثرهم جرحى وهلك الباقون.

أما حكومة بغداد فقد كانت مهددة بهجومات الترك ولم يعرف عن داخليتها أكثر من التحدث بأمر الحرب.

مراد باشا يسير إلى بغداد:

إن مراد باشا كان والي حلب فمنح منصب ديار بكر برتبة الوزارة.

---

(١) فذلكة كاتب جلبي ج ٢ ص ٦٧.

وفي هذه الأثناء جاءت الأخبار بأن العجم خرجوا من بغداد وذهب أكثرهم لزيارة الإمام علي (رض) وعلى هذا سير قائداً على حملة تبلغ خمسة عشر ألفاً لتكون كمقدمة للجيش إلى الحلة والكاظمية ليحاصر بغداد وليمنع اتصال العجم بها. . . وهكذا ذهبت العساكر بصورة متلاحقة. وأرسلت قوة أخرى مع آغا الينگچرية.

وبهذا انتهت هذه السنة.

حوادث سنة ١٠٣٥ هـ ـ ١٦٢٥ م

بقية وقائع العثمانيين

جاء في تاريخ الغرابي: «أن الوزير حافظ أحمد باشا سار مع جيوش كثيرة إلى بغداد، فلما أتاها أخذ في محاصرتها، فجاء الشاه عباس، ونزل على نهر ديالى تقوية لمن في بغداد من العسكر فحاصر الحافظ بغداد تسعة أشهر، فلم يحصل منها بطائل بل رجع خائباً، وهلك أكثر من كان معه لاستيلاء القحط والمرض عليهم، وألقى كل ما كان معه من الثقل والآلات» اهـ[1].

هذا، وفي التواريخ العثمانية جاء تفصيل أكثر. وذلك أن السردار حافظ أحمد باشا في المحرم من هذه السنة نزل بجيوشه كركوك وحينئذ عقد مجلس شورى فاستطلع آراء الأمراء وكبار الجيوش لتعيين الخطة الواجبة العمل وقال: إن مراد باشا ذهب إلى بغداد ليمنع الواردين من دخول بغداد. ومع هذا قد دخل بغداد ثمانية آلاف إيراني مع صاروخان ومير فتاح. وإننا ليس لنا قدرة المحاصرة إذ لم تكن لنا مدافع ومن المحتمل أن يوافي الشاه لإمداد المحصورين فهل الأصلح أن نمضي إلى جهة أحمد خان بن جلو خان (هلو خان) ونهاجمها فنصل إلى درنة

---

(١) تاريخ الغرابي ج ٢ ص ١٠٣.

ودرتنك فنضبط مضايقهما ونمنع الصلة بين المحصورين وإيران ثم نمضي إلى بغداد؟ فوافق جماعة على هذا الرأي وآخرون لم يوافقوا وظهر من كل رأس فكر فاضطربت الآراء ثم استقرت في أن يذهبوا إلى بغداد رأساً ويحاصروها نظراً لحلول موسم الخريف وذلك لأن موسم بغداد الشتاء ولا يتيسر الحرب أيام الصيف من جراء شدة الحر. وقالوا إننا حاضرون أن نفدي بأرواحنا ورؤوسنا فقال لهم السردار مهما كان الأمر فليكن، قوموا بالواجب!

وفي اليوم التالي جاءهم ثلاثة أو أربعة من العجم يحملون كتاباً من أحمد خان كتب فيه أن بغداد مملكتكم فقبل أن تذهبوا إليها وتخربوها ابعثوا برسول إلى الشاه واطلبوها بصورة معقولة وأن السفير الوارد هو بياله بك فسألوه عن أحوال الشاه فقال إنه بعد عشرين يوماً سيلاقيكم. وفي ذلك المنزل سير سليمان باشا والي الموصل لإرسال أرزاق وذخائر. وأعيد بستان باشا إلى كركوك لمحافظتها. وفي اليوم التالي رحلوا وذلك في ١٠ صفر فنزلوا قرب الإمام الأعظم... وفي اليوم التالي ساروا إلى الجهة الجنوبية من بغداد على الشط وحطوا أمام (الباب المظلم) (قره كوقبو) ولما مضوا بمجموعهم ضربوهم من القلعة بعدة طلقات من المدافع. أما أراذل الجيش فإنهم صاحوا بالسردار لا نعدل إلا أن نستولي على المفاتيح وحينئذ ترتبت الجيوش في ١٢ صفر ودخلوا المتاريس واجتازوا برج العجم وذلك أن والي حلب مصطفى باشا صار في ساحل النهر، وآغا الينگچرية والوزير القبطان تجاه برج العجم، وفي الوسط أمير أمراء روم إيلي محمد باشا الگرجي ووالي الأناضول الحاج الياس باشا ووالي مرعش نوغاي باشا، ووالي سيواس محمد باشا الطيار ووالي قرمان حسين باشا الچركسي كل من هؤلاء بسكبانيتهم دخلوا المتاريس. وأرسل إلى ديار بكر، والبصرة لإحضار مهمات... وإن بغداد لم تكن مستحكمة لدرجة فائقة إلا أن النخيل وما

مائل قد جعلتها محكمة فاتخذ الجيش تلولاً (توابي) وصاروا يشتغلون بالمتاريس وأن حافظ أحمد باشا كان يشجع القوم وينعم بإنعامات عديدة عليهم ويستميلهم بكل ما أوتي من قوة والجيش لم يقصر في الخدمة والعمل وكان اشتغالهم لمدة شهرين بسعي متواصل واتخذوا في هذه المدة ألغاماً من اثنين وخمسين موقعاً فعلم العدو بها وأجرى عليها الماء فبطل عملها وكان العمل متواصلاً بشدة من الجانبين وقد قطعت آلاف من النخيل لرميها في الخندق ودفنه بالتراب. ولإتمام المحاصرة قد جرت الإحاطة من كافة الجوانب ونصب جسر فعبروه إلى الجانب الآخر من جهة (قلعة الطيور) (جانب الكرخ).

وفي اليوم الثاني والسبعين من أيام المحاصرة ترتب الجيش سحراً وتأهب للهجوم وقد بقي من الألغام واحد فلما اشتعلت فتيلته أخذت جانباً من السور إلا أن العجم كانوا قد اتخذوا خندقاً وراءه وجعلوا بعده سياجاً (حائطاً قوياً). فلما اجتاز العسكر تولاه الإيرانيون بالبنادق فاضطروا إلى العودة وقد ذهبت منهم خسائر عظيمة.

أما الشاه فإنه جاءه الخبر فنهض حتى وصل إلى درتنك ومنها مضى إلى شهربان وعلم الوزير الأعظم أن قد وافى زينل خان بجيوشه. مر بجسان فعبر ديالى.

ويلاحظ هنا أن قاسم خان أرسل كلب علي خان بخمسمائة فارس وحملوا باروداً كل واحد حمل كيساً. فاخترقوا سحراً وعلى حين غرة صفوف العثمانيين واجتازوهم فوصلوا إلى المحصورين فأمدوهم. وبهذا رفع قاسم خان عنه عار الهزيمة السابقة. ومن ثم عقد العثمانيون مجلس شورى من كبار رجالهم وقال لهم حافظ أحمد باشا إن الشاه جاء لإمداد القلعة ولم يبق من المهمات والبارود إلا القليل. وكان من رأي مصطفى باشا أن ينهضوا ويقارعوا الشاه أو يعودوا لبلادهم وإلا فلا فائدة من

الحصار فلم يوافق الينكجرية وأصروا على لزوم المحاصرة فحصل الاتفاق على الدوام في الحصار وكتب إلى إستانبول لإمدادهم بمدافع ومهمات وكذا كتبوا إلى الأطراف والبصرة. وجاءهم الخبر من البصرة بأن ستأتيهم مدافع تطلق أحجاراً بوزن ٤٩ أوقية. وقد سبق لهم مثلها. . .

عزل الدفتري عمر باشا:

في هذه الأثناء وردت من ديار بكر معدات حربية اثنا عشر كيساً وأربعة وعشرون كلكاً ذخائر وكانت قد وردت بمحضر القاضي محمد أفندي الحافظ والدفتري عمر باشا وسائر الأمراء وغيرهم فأمر أن يوزن البارود ويثبت في دفتر ويوضع في قلعة الإمام الأعظم. . . وفي تلك الليلة ظهرت غائلة وولولة مؤداها أن عمر باشا تبين أنه عدو لنا أعطى الأعداء البارود فانتهبوا خيمته وألقوا القبض عليه وسلموه إلى القاضي فأمر الوزير بإجراء محاكمته أمام القاضي فتحقق أن لا أصل لما نسب وكان بعضهم فعل فعلته هذه وهو مجنون. وعلى هذا أمر بقتل ذلك المجنون وعزل عمر باشا ونصب مكانه عثمان أفندي الطوقاتلي دفترياً. وحدوث أمثال هذه الوقائع في جيش مما يمنع أن يؤمل له نجاة وكانوا يتحرون الطريقة لإيجاد الشغب. . .

وعلى كل حال لم تكن القيادة مسيطرة على الجيش بل كان يسوده الاضطراب.

مجيء الشاه إلى ديالى وذهاب مراد باشا إليه:

في غرة رجب وافى الشاه عباس إلى نهر ديالى وفي الليلة التي حط رحاله هناك سمع المحصورون فأظهروا فرحاً وسروراً وأبدوا مراسم الاحتفال وظهروا على السور. . . وبهذا عرف مقدار الموجود منهم وأن التضييق لما كان قد جرى من جميع الأطراف فالجنود هناك في درجة

كافية للحصار. فما كان يعده حافظ أحمد باشا سهلاً قد تبين أنه من أصعب المصاعب. ولا مجال من وقوع المقدر ولا مفر من الصبر.

أطلقوا على المحصورين نيران المدافع بطلقات عديدة وكانت هذه بمقام تسل وعادوا. وفي الأثناء عقد الوزير الأعظم مجلس شورى فقر الرأي على أن يذهب للحرب مراد باشا ووالي الأناضول الياس باشا وأعطى لهما سبعة مدافع.

وفي هذا الحين جاءهم (مدلج العربي) ببضعة آلاف فذهب مع أولئك فصار مجموعهم نحو العشرة آلاف وكان ذلك اليوم فيه ريح عاصف مملوء بالعج لحد أن الواحد لا يكاد يرى الآخر فتحارب مع العجم فغلب وعاد إلى الفيلق مكسوراً وأكثر سكبانيته قد غلبوا وتشتتوا وتركوا المدافع.

وفي المساء هاجمهم القزلباشية فوصل حافظ أحمد باشا إلى الخندق فانتظروا حتى الصباح وأن الكتخدا للوزير الأعظم وهو حسين آغا قد أرسل ليأتي بالمدافع المتروكة فجاء بها واستشهد بعض الأمراء وحدثت ضايعات كثيرة...

وفي تلك الليلة قرب الصباح أطلقت على بغداد عدة مدافع وحينئذ حاول بعض الأعجام الدخول إلى المدينة فلم يتمكنوا فقتل بعضهم وأسر الآخرون وبين هؤلاء برخوردار بك كان عظيم الجثة وهو صاحب لغم، ومدفعي فجاؤوا بهم إلى الوزير الأعظم فأمر بسجن المرقوم وقتل الباقين...

وفي ٢ شعبان كان حافظ أحمد باشا في الامام الأعظم فرأى قيام عجاجة تبين منها كتائب القزلباشية فتأهب الجيش العثماني، فركب الخيالة خيولهم، ودخل المشاة خنادقهم، وأخبر حافظ أحمد باشا بذلك فجاء أحد المشاة من العجم. وافى من جانب الشاه وأعطى إلى الباشا

كتاباً كان معه... وطلب الرسول جواب الكتاب فقال له الباشا سأرسل معك الجواب بعد الحرب فتأهب للنضال واصطفت الجيوش على الأصول المعهودة فجرى بينهم تعاطي بعض نيران المدافع والبنادق وانسحب القزلباشية فكانت الحرب بسيطة.

الغربان والمدافع
تاتي من البصرة

وبعد يوم ورد بكر آغا وعلي آغا البصريان مع بضع مئات وبعض النجارين فخلع عليهم وأسكنهم في الأعظمية. جاؤوا بثلاث قطع من الغربان (سفن حربية من نوع قدرغة)[1] ولم تكن لها قنوات في مؤخرتها وأعلاها يرفع بألواح عالية، وفيها ثقوب (مزاغيل) لضرب الأعداء، وأن مجاذيفها تسحب من ثقوب فيها وسواريها كالقدرغة. حملوها تمراً وافراً. وفي اليوم التالي وردت المدافع أيضاً وعهد إلى مراد باشا بأخذها. فذهب بها إلى الجانب الآخر وأخذ معداتها[2]. وكذلك وردت المدافع من الحكومة العثمانية تسمى (بال يمز) فأعدت في رأس الخنادق ووضعت في المتاريس فلم يتمكنوا من استعمالها فأعيدت إلى الفيلق.

والبصرة كانت آنئذ بيد علي باشا بن أفراسياب وهذا بقي محتفظاً بالبصرة، أراد نصرة الدولة العثمانية ليبقى استقلاله مصوناً فناصرها بما تمكن منه...

---

(١) في كتاب الطراز للخفاجي أن للمراكب أسماء منها الأسطول للمعد للقتال وغراب لكبارها. تسير بالمجاذيف كما قال ابن الساعاتي. وقد غلط في ترجمته إلى الرومية لأن اسمها عندهم (قادرغة). أما (الغايغ) فهو الزورق، ولم يكن محرفاً، أو متصرفاً به من قادرغة، فصار قارغة. أي غراب، ثم قايغ. نقلاً من مجموعة خطية. ومر بنا أصل لفظها.

(٢) فذلكة كاتب جلبي ج ٢ ص ٨٠.

ذهاب عمر باشا لمحافظة الشط:

إن شاه العجم وصل نهر ديالى وبث العساكر في الأطراف وهؤلاء كان غرضهم أن يقطعوا طريق النهر (دجلة) لئلا تصل الكلكات إلى الجيش فتمدهم. وقع فعلاً نهبهم بعض الكلكات ومن ثم أرسل الوزير الأعظم أحد أتباعه عمر باشا الأرناود لمحافظة تكريت. وهذا لقي الأعداء فحاربهم ألا أنهم تغلبوا عليه واستولوا على ما معه ففر إلى الموصل. فانتهبوا ما ترك. وكذا انتهبوا المؤونة في الفلوجة فلما سمع حافظ أحمد باشا بما جرى أمر بمحافظة هذه المواقع وكتب إلى يعقوب باشا وكان في رأس الكوپري[1].

رسول الشاه وجواب السردار:

في هذه الأثناء جاء رسول من الشاه يحمل كتاباً يقول فيه إنني أخذت بغداد من يد جلالي[2] وإني مرسل إلى السلطان برسول وكتاب راجياً أن يترك بغداد لابني وإذا أبى فإني أسلمها لكم فلا تدخلوا معي الآن في حرب.

أجابه حافظ أحمد باشا بقوله أنا وكيل السلطان المطلق وجوابه عندي فلا حاجة لكتابة كتاب إليه رأساً. نحن لا نترك بغداد بأمثال هذه الأقوال.

وفي هذا الحين هب الهواء العاصف وكسر الجسر واعتلى العج بحيث لا يتمكن الواحد من رؤية الآخر وهكذا استمر الريح العاصف في اليوم التالي ولم يتمكنوا من نصب الجسر إلا بكل صعوبة[3]...

---

(١) فذلكة كاتب جلبي ج ٢ ص ٨١.

(٢) يريد المتغلب لأن الجلالية ثاروا على الحكومة العثمانية وصار يسمى كل ثائر عليهم جلالياً...

(٣) فذلكة كاتب جلبي ج ٢ ص ٨١.

الحرب الثانية:

وفي الحال علم أن القزلباشية جاؤوا إلى قلعة الطيور (جانب الكرخ) وسيضعون العتاد هناك فكان من رأي الوزير أن يتخذ ما يلزم. وأرسل بعض رجاله وبينا هم متأهبون إذ ظهرت جيوش العدو للعيان في (جانب الرصافة). جاؤوا من ثلاثة مواقع فتأهبوا للمقارعة وتركوا تلك الإجراءات. مضى إلى جانب الكرخ حسن باشا وفي هذا الجانب جرت المضاربات بمدافع وبنادق ثم عاد الطرفان مساء إلى مواطنهم... وفي اليوم التالي قتل بعض الأمراء ودخل العدو متاريسهم واستشهد كثيرون ليلاً.

ثم أمد الشاه بالعتاد وغيرها. كما جاءت السفن حاملة ما يحتاج إليه الجيش العثماني فاستولوا عليها حرباً وبشق الأنفس. وقد فصل صاحب الفذلكة ذلك مما لا نرى ضرورة لذكره.

الحرب الثالثة:

وفي آخر شعبان شاع خبر دخول الشاه في الحرب وفي ١٢ رمضان هاجم عسكر الشاه من ناحية الشرق ومن الغرب وبعض القزلباش تأهبوا للقراع وكانت جيوش العثمانيين كثيرة، وإن كاتب چلبي كان شهد هذه الواقعة. وقف عقب جيش السلحدار على تل عال فجرى الحرب وأطلقت المدافع من ناحية برج العجمي واشتد القتال إلا أن الحرب سكنت قبيل الظهر. وفي هذا الحين تحفز الأفراد للهجوم وطلبوا الإذن لهم في الحرب فكان حافظ أحمد باشا يمنعهم ويقول لهم أنتم لا تعرفون شيئاً التزموا مكانكم...

ثم تحاربوا من ثلاثة مواطن فكانت هذه الحرب مؤلمة جداً. وصف كاتب چلبي هولها وأوضح حالة الجيش العثماني ومغلوبيته، وأن المشاة منهم صدوا الهاجمين وصاروا يذبحونهم في الخنادق... وأما

الغبار فصار لا يستطيع معه الواحد أن يرى الآخر، وأن حافظ أحمد باشا عاد لا يتمكن أن يرى جيشه كما وأنه قتل له أمراء كثيرون ودمر له جيش عظيم...

ثم انجلى الغبار فكان الجيش التركي في مكانه والعجم قد انسحبوا... والجيش التركي ظهرت عليه علائم الهزيمة وصار لا يلوي إلى جهة إلا أن أعداءه لم يعلموا بالخبر لما ثار من الغبار والريح الزعزع... ولو بقي الجيش على حالته لساء أمره... حدثت تلفيات من الجانبين كثيرة لا تقدر... فعاد الجيش إلى خيامه...

وفي ٢ شوال يوم السبت اجتاز العجم دجلة وجاءوا إلى الجسر على حين غرة وهناك جرت معركة عظيمة، وأن يعقوب باشا (كافر أوغلي) والي الموصل قد جرح عند قلعة الطيور فكانت الحرب مؤلمة بسبب الجهود المبذولة لإيصال العناد. ثم ورد رسول من الشاه يطلب إرسال رسول من جانب الوزير للمذاكرة في الصلح وبعد ذلك وافى من العجم (توخته خان). وهذا قدم الكتاب باحتفال وانعقد المجلس فلما أعطى الوزير الأعظم كتاب الشاه أخذه ووضعه تحت مخدته وقال له أنت اليوم ضيفنا وغداً نتواجه وختم المجلس...

وفي كتابه يقول:

«قد هلكت الرعية. فما الباعث للنزاع بين المسلمين، أنا انتزعت بغداد من جلالي[1]، وأرجو من السلطان أن يمنحها لابني وأنا وكلت توخته خان في جميع الأمور» اهـ.

وهذه الألفاظ نسمعها دائماً في مواطن كهذه. ولا شك أنهم رأوا العطب من العثمانيين...

---

(١) مر تفسير الجلالي.

ولما سأله الوزير الأعظم عن فكره باعتباره وكيلاً للشاه أجابه بأن (الصلح خير) جئت للصلح بين الطرفين فسأله على أي شيء نتصالح؟ فلم يتم بينهما صلح.

قال الوزير أنا لم آتكم لأسلم لكم المدينة وحينئذ صاح الجيش لا نرجع حتى نأخذ المدينة...

فصل كاتب چلبي المحادثة بطولها[1]... وفي أثناء المذاكرات ويقاء السفير هاج العسكر. قالوا إن الوزير اتفق مع الأعداء وخان السلطان ولم يسكنوهم إلا بشق الأنفس... واحتفظوا بالسفير.

وفي يوم ٧ شوال الخميس دعا الوزير آغا الينگچرية وسأله عن اللغم. وهذا ثار في اليوم التالي من جهة أنه لم يحكم سده فتوجه نحو العثمانيين عندما أخذ النار. ولد بعض التخريبات فلم يبق أمل في البقاء فاضطر الوزير على العودة. حرقوا أثقالهم وأخذوا ما تمكنوا من حمله...

رحلوا يوم الجمعة بعد أن دفنوا بعض المدافع التي تقدر قيمتها بما يعادلها ذهباً وكسروا الأخرى ثم إن الشاه عثر أخيراً على الدفائن منها وأخرجها وأخذها معه إلى أصفهان... أما توخته خان فقد أخذوه معهم حينما عزموا على الرحيل... وفي ثالث منزل سيروا توخته خان. أعادوه إلى العجم ولكن الجيش الإيراني كان في عقبهم. حارب عدة مرات.

ذكر كاتب چلبي ما أصاب الجيش العثماني من الضرر وما كابد من تعب وألم وجوع لحد أنه لم يجر على جيش قبلهم ما جرى عليهم. مضوا بهذه الحالة والكثير منهم لم يستطع الدوام. وإنما بقي في محله

---

(١) فذلكة كاتب جلبي ج ٢ ص ٨٦.



قوات السلطان مراد في حصار بغداد ـ كتاب قصة الأمم

لشدة ما ناله من الجوع فلما وصلوا الزاب أخذوا راحة، وتيسر لهم أن يجدوا الطعام والأرزاق فمضوا من هناك إلى الموصل وحينئذ أعطيت لهم مواجبهم بتمامها. . . كما منح الوزير ايالة الموصل إلى بكر آغا الذي جاء من البصرة وعين حسن باشا الچركسي لمحافظة الموصل. . . وكتب ما وقع إلى الآستانة فجاءه الجواب أن يشتي هناك. . .

قال كاتب چلبي هذا مجمل ما أمكن إيراده بوجه الاختصار. . . وأقول: إن هذا ملخص ما نقل عن كاتب چلبي والتفصيلات تخص الجيش العثماني ووحداته وأسماء أمرائه مما لا يهم العراق كثيراً. . .

خلاصة في حصار بغداد:

إن الوزير الأعظم حافظ أحمد باشا حاصر بغداد بالوجه المشروح. وكان مدبراً، ومفكراً عميقاً. . ولم يكن هذا الحصار موافقاً لرغبته كما قصه شاهد عيان (كاتب چلبي) وكان من رأيه التسلط على النقاط الحربية المهمة لقطع طريق إمداد الشاه فلم يفلح فتابع رغبة الأمراء الذين كانوا معه فابتدأ بمحاصرة بغداد. . . وفي خلال الحصار تم الاستيلاء على الحلة وكربلاء كما أدى إلى حرب دامية قتل فيها الألوف من الطرفين إلا أنه لم يتيسر الاستيلاء على المدينة وحين سمع الشاه وافى بنفسه وكان هذا ملحوظاً. فأرسل في مقدمته زينل خان بثمانين ألفاً ولما وصلوا إلى شهربان سير قاسم خان بوجه السرعة ابنه كلب علي خان بخمسمائة من الخيالة وأرسل مع كل واحد كيساً من البارود لإمداد المحصورين فاخترقوا الجبهة سحراً وعلى حين غرة فمضوا إلى المحصورين وأمدوهم. . . وبهذا أنسي ما أصاب والده قاسماً في الموصل من كسرة وأن حافظ أحمد باشا صد جيش زينل خان الذي سار من شهربان إلى قرية بهرز ليعبر ديالى. . . ولكن سار الشاه بقوته لإمداد جيوشه. . .

كل هذا مما ضعضع قوة الجيش العثماني، وولد ضعفاً أو فتوراً فيهم، وكذا قلت أرزاقهم، وعزت المؤونة فاتفق أعداؤهم جميعاً على مهاجمتهم، والجيش العثماني في حالة دفاع فلم يتمكن العجم أن يخترقوه. إلا أنهم تمكنوا من قطع طريق المواصلة للعثمانيين...

والعثمانيون صابرون، مثابرون على حرب عدوهم حتى أن الوزير في ساعة الحرج كان طلب من الشاه المبارزة فأجابه أن البازي المفترس لا يصغي لصوت الزاغ ومن كان همه صيد الأسود لا يبالي ببنات آوى. قال صاحب گلشن خلفا (هذا ما نقلته عن الثقة) والظاهر أنه نقل ذلك عن والده نظمي البغدادي فإنه شهد الحادثة، وكان فر أثناء سقوط بغداد وذهب مع أمه بصفة درويش إلى كربلاء والحلة وبقي هناك إلى أن اتصل بحافظ أحمد باشا ومدحه بقصيدة مهمة[1]...

هاجم العجم الترك عدة مهاجمات فلم يتمكنوا بل باؤوا بالفشل إلا أن قطع مواصلة الجيش أثر كثيراً عليهم... وكذلك قطع عنهم طريق الميرة فلم يستطيعوا أن يتصلوا بالخارج فصار المحاصرون محصورين فانعكست الآية... فاستولى الجوع وكان البقاء في محل واحد سبب أمراضاً في الجيش بسبب طول البقاء لمدة نحو تسعة أشهر.

دعا ذلك إلى الضجر من الحالة واضطر الجيش إلى الانسحاب. وفي هذا كله أبدى حافظ أحمد باشا من المهارة الحربية ما أكد قدرته. احتاط وراعى كل تدبير ناجع لتحقيق غرضه فلم يفلح الأمر الذي جعل أرباب الزيغ يتخذون ذلك وسيلة للطعن به وإسقاط منزلته. والآستانة آنئذ في هرج ومرج فلم ينل مدداً كافياً مع العلم بأن الشاه وجه عليه جميع قوته. ورأت إيران ما رأت من عطب. وبالرغم من ذلك كاد يتم الصلح بينه وبين الشاه لولا أن الينكچرية لم يصبروا للنتائج فقاموا بعصيان اطلع

(١) أوضحنا ذلك في لغة العرب.

عليه الشاه في حينه فلم يتم. فكانت هذه الحروب دمار الدولتين.

وعلى كل لم ينجح في مهمته فغضب عليه السلطان لما شوهوا به سمعته. نزع منه المنصب وجعل خسرو باشا وزيراً أعظم... وهذا أيضاً شغل في قضايا أخرى كانت تهدد قلب السلطنة. فكانت الدولة في اضطراب لا مزيد عليه...

أما بغداد فإن الجيش حينما انسحب منها ترك مرضى كثيرين فاقتسمهم أغنياؤها وطببوهم حتى شفوا وإن الشاه عباس عاد إلى إيران ظافراً بعد أن طال مقامه. ومن ثم لم يعرف عما جرى لقلة المدونات، ولا يؤمل من حالة لا تزال حربية وفي حالة حصار، مهددة في كل آن بحروب جديدة. بقي فيها الجيش يتوقع ما سيجر إليه ذهاب الوزير الأعظم، أو ما تقوم به السلطنة العثمانية...

حوادث سنة ١٠٣٦ هـ - ١٦٢٦ م

حالة العراق

إن الحكومة العثمانية - كما قدمنا - شغلت بنفسها في حوادثها الداخلية. والإيرانيون لم تكن فيهم الهمة الأولى للتوغل في الأنحاء العراقية الأخرى فاكتفوا برفع الحصار عن بغداد وعادوا... ومن ثم صح أن نقول إن هذا العام قد سكنت فيه حالة العراق نوعاً...

حصار البصرة:

كانت البصرة بيد علي باشا آل أفراسياب. وحاول العجم الاستيلاء عليها فوجه الشاه إليها قائده (إمام قولي خان) فحاصرها أشد الحصار ولكنها بذلت كافة جهودها للدفاع فعجز القوم من التمكن منها ورجع القائد خائباً، وترك خيامه ومدافعه وأموالاً عظيمة وراءه...

والشيخ عبد علي الحويزي مدح علي باشا بقصيدة ذكر فيها الوقعة

وأرخها بنصف بيت وهو (علي دمر الخان سنة ١٠٣٦ هـ). والحصار طال إلى سنة ١٠٣٨ هـ أي أنه دام إلى أن توفي الشاه عباس الكبير فلما ورد خبر وفاة الشاه عاد إلى مملكته. هذا مع العلم بأن الحكومة العثمانية خذلت أمام الجيوش الإيرانية مراراً مما جعلنا نقطع بأن دفاع البصرة كان دفاع مستميت احتفاظاً بها وذباً عن حريمها بخلاف الترك العثمانيين فلم تهمهم بقدر أهليها. ونراهم يطرون (علي باشا أفراسياب) على دفاعه هذا[1].

حوادث سنة ١٠٣٧ هـ - ١٦٢٧ م

وفاة السيد عمر البصري

هو ابن عبد الرحيم البصري الحسيني الشافعي نزيل مكة المشرفة، الإمام المحقق، أستاذ الأستاذين، كان فقيهاً عارفاً مربياً، كبير القدر، عالي الصيت، حسن السيرة، كامل الوقار... كذا في الخلاصة نقلاً عن الشبلي وأطال في وصفه. أخذ عنه خلق كثير. وزاد أنه متمكن في التصوف أيضاً. توفي سنة ١٠٣٧ هـ[2].

ولم نقف على رجال العراق في هذا العصر. ألهت الحوادث بل الرزايا من تدوينها ولم تخل في وقت من عالم أو أديب.

حوادث سنة ١٠٣٨ هـ - ١٦٢٨ م

حالة العراق

لا يؤمل أن نرى صلاحاً أو إصلاحاً والحكومة الإيرانية في حرب ولم تنقطع يد العثمانيين عن مواصلة الزحف وكل ما في الأمر كانت التأهبات عظيمة من الجانبين والإدارة عسكرية قاسية جداً ابتلي العراق

---

(١) زاد المسافر ص ١٩.

(٢) خلاصة الأثر ج ٣ ص ٢١٢.

بأطماع الفريقين إلا أن موت الشاه في جمادى الأولى من هذه السنة (١٠٣٨ هـ) وتبدل الحكم وهجومات الأتراك المتوالية بإزعاج كل ذلك لم يحرك ساكناً في الأهلين للمطالبة باستقلال واتخاذ تدابير لدفع الحكومتين. وما قيام بكر صوباشي إلا لهذا الأمل، فخاب خيبة ذريعة. والعراق صار بين حكومتين إذا رأى ضعفاً من واحدة ونزع إلى الاستقلال وحاول التملص منها فاجأته الأخرى بجيوشها وهاجمته على غرة ولم يجد فرصة للنهوض، ولا لتحقيق هذه الأمنية مع العلم بأن حروب الماضي لم تكن تشغل إلا ناحية واحدة مقدرة بقوة الواحدة بالنظر للأخرى...

لم نعلم عن حكومة إيران في العراق علماً وافياً عن جميع أعمالها حتى هذا التاريخ رغم كثرة المراجع التركية. وهذا شأنهم في تواريخهم. توضح علاقاتهم مع غيرهم لا أكثر.. ومثلها تواريخ إيران لم توضح أكثر من العلاقات العامة، ولم نجد أثراً يستحق التدوين.

حوادث سنة ١٠٣٩ هـ - ١٦٢٩ م

السردار خسرو باشا وبغداد

في فترات غير مقطوعة نسمع بعودة الحروب، والتأهب للقراع، كل دولة تستعد لما يؤمن لها الانتصار. وهكذا كان الأمر فعلاً، ففي ١٨ شوال من سنة ١٠٣٨ هـ نهض السردار من استانبول لاستخلاص بغداد وهو الصدر الأعظم خسرو باشا وجعل مكانه قائممقاماً رجب باشا. فوصل قونية في المحرم من سنة ١٠٣٩ ومنها شتى في ديار بكر ثم توجه نحو الموصل فوصل إليها في غرة جمادى الأولى. ومن هناك سار في ١٣ جمادى الثانية. عبر الزاب في ٢٥ منه وفي طريقه ضرب العربان الذين كانوا نكلوا بالأهلين وكان أملهم أن يمضوا إلى آلتون كوپري (القنطرة) فذهبوا إلى شمامك ومنها جاؤوا إلى قرية ميره بك من أمراء

صوران ثم ساروا إلى شهرزور في ٢٨ رجب فمروا بكثيرين من أمراء الكرد وكانوا أذعنوا بالطاعة. مروا من سرچنار حتى وصلوا إلى نفس شهرزور فأقاموا فيها. ولما كانت شهرزور تخربت أيام الشاه عباس لم يبق لها أثر فهي صحراء واسعة بين جبال وآثار القلعة المعروفة بظالم قلعة (زلم) موجودة. كان بناها السلطان سليمان. وحاكمها (الشيخ عبد اللّه) ويسمى (شيخو). أذعن بالطاعة وقدم ابنه رهناً. والتفصيل في فذلكة كاتب چلبي[1].

أعاد القائد تعمير قلعة گلعنبر[2] وهي مركز قضاء وتسمى (حلبچة). كان بناها السلطان سليمان خان. وينطق بها (ألبجه).

كان تشتت أمراء الكرد وفروا من أيدي العجم. التجأوا إلى الجبال الشاهقة والمواطن الصعبة المرور فاختفى كل من ظالم علي، ومأمون خان، ومراد خان من أمراء أردلان. ولما رأوا الوزير الأعظم وافى إليهم أطاعوه.

أطاع السردار جماعة من أمراء الكرد وهم حكام هاوار، وكسانه، وشهربازار، ودميرقپو، وچناد، وخوسير، وهزار ميرد، ودلخوران، ومركاره، وحرير دويز، ونيل، وطاوى، وزنجير گرقپو، ومنزل عجور، وابروان، وپلنكان، وباسكي، ودوان، وقزلجة قلعه وپاوره برند، وقلعه غازي، ونعل لب باربل، وچنار كدوكي، ومهربان. . .

قال في الفذلكة إن الأكراد يتابعون القوة، ولا يعتمد عليهم وتغلب عليهم المداراة[3]. ومثل هذه القوى لا تصد.

ولما سمع الشاه بخبر قدوم الصدر الأعظم ورأى أن قد اضطربت

---

(١) فذلكة كاتب جلبي ج ٢ ص ١١٩.
(٢) كلعنبر جاءت في فذلكة كاتب جلبي ج ٢ ص ١١٨.
(٣) فذلكة كاتب جلبي ج ٢ ص ١١٩.

أفكار الأهلين في همذان جهز الجيش وجعل القائد عليه أمير الأمراء زينل خان وأحمد خان بن هلو خان الأردلاني فمر من جهته ومعهم نحو الأربعين أو الخمسين ألفاً من الجند فوصل إلى قلعة مهربان (مريوان) وذلك في رمضان هذه السنة فساق عليه الوزير جيشاً لمقابلته تحت قيادة نوغاي باشا أمير أمراء حلب فتقابل الجمعان قرب المدينة ورخصت في هذه المعركة النفوس فلم يدع أحد من قوته شيئاً وبذلت المجهودات ودامت المقارعة حتى العصر فوصل المدد للجيش العثماني وقت الحاجة واشترك في المعمعة فرجحت هذه الكفة على العجم ففر القليل منهم وهلك كثيرون وتركوا جرحى حتى إن سردارهم زينل خان فر أيضاً. وعند وصوله إلى الشاه غضب عليه فأورده حتفه للحين.

وعلى هذا الخبر خلى الشاه همذان وانسحب إلى عاصمته. أما الوزير فإنه توجه نحو مهربان. ولمصلحة اقتضت بقي هناك مدة سبعة أيام أو ثمانية. ثم عزم إلى همذان فكسر الجيش الإيراني في طريقه. ومنها استولى على درگزين[1]. وكان في نيته أن يذهب إلى عاصمة إيران وهي أصفهان ولكنه حين وصوله إلى صحراء درگزين اضطر أن يطيع أمر السلطان الوارد إليه القاضي بلزوم ذهابه إلى بغداد. وفي هذه الأثناء أصلى نهاوند بنيران حامية.

وفي طريقه أمر السردار كلاً من يوسف باشا أمير أمراء روم ايلي وكوجك أحمد باشا أن يدمروا مملكة (رستم خان) ففعلوا واجتمعت الجيوش في باش دولاب لتتوجه إلى بغداد وتلتحق بجيش السردار للذهاب إلى هناك فخربوا كل ما مر في طريقهم.

وفي ١٠ ذي القعدة توجهوا إلى بغداد. اجتمعوا في باش دولاب. ولكن المنقول عن بعض الثقات من أهالي بغداد أن (دجلة) كان في حد

---

(١) وصفها في تاريخ نعيما ج ٣ ص ٣٥.

النقصان ولذا انتظروا ورود المدافع والمعدات الحربية فمكثوا عدة أيام بلا حرب ولا جدال.

حوادث سنة ١٠٤٠ هـ - ١٦٣٠ م

بقية حوادث الصدر الأعظم بجانب بغداد

وفي أوائل المحرم من سنة ١٠٤٠ هـ مضى إلى المدينة (بغداد) من طريق درگزين، ودرتنك وقصر شيرين وحلوان. وهكذا حتى عبر نهر ديالى، فوصل إلى قنطرة (چبوق)، واللقمانية وفي ٢٨ المحرم وافى الشط قرب الأعظمية.

ومن الجهة الأخرى إن كنج عثمان جاء من طريق الفرات فورد الفلوجة ومنها مضى إلى الحلة فهاجمها. وفي ٢٠ صفر سنة ١٠٤٠ هـ شرع السردار في حصار بغداد، وأحاطها من جميع جوانبها. وفي ٣ ربيع الأول سنة ١٠٤٠ هـ هاجمها هجوماً شديداً. وذلك أن كل وال (أمير أمراء) هاجم بما لديه من الأغوات والعساكر فاجتازوا المتاريس ووصلوا إلى قرب السور فكان دخولهم هذا المأزق مخطراً جداً. وهناك بذلت النفوس مجهودها، وجالدت جلاداً عنيفاً. وكانت المدافع ترمي على الأعداء فرمت ما يقرب من ألف قنبلة ولكنها لم تتمكن من التأثير على السور إلا من جانب ومع هذا دام الحرب لمدة أربعين يوماً. فظهر العجز في الجيش العثماني وبدرت بوادر خفوق المسعى رغم الجهود والمعارك الخطيرة. وإن الهجوم الأخير الذي جرى قد فل الجيش وبعثره. أتلف الكثير منه بحيث صار لا يدري الواحد بالآخر. وفي كل هذه المدة لم يأت مدد. وأعوز البارود والمؤونة والعتاد أكثر من كل شيء... وما ورد إليهم لم يف بالمطلوب[1].

---

(١) فذلكة كاتب جلبي ج ٢ وتاريخ نعيما ج ٣ ص ٥٤.

وكان الأولى أن يركنوا إلى الحصار، وأن يمنعوا خروج الجيوش المحصورة، ويقطعوا السابلة وأن لا يمدوا المحصورين استفادة من التجارب العديدة، فلا يجازفوا بالهجوم ويخاطروا... وكأنهم في غفلة عن المخذوليات السابقة.

لم تكن للعدو من القوة ما يكفي للحصار والمقاومة. وإنما أحكم حصاره وأبطل الألغام التي عملها العثمانيون... وكان العجم قد عزموا على تسليم البلد ولم يجدوا وسيلة للتخلص بغير طلب الأمان. ولكن العثمانيين عجلوا.

وحينئذ قرر الإيرانيون الهجوم من جانب الثلمة التي أثرت فيها المدافع واستمروا في الدفاع بعددهم ومدافعهم وأن يحاربوا حرب المستميت...

ولهذا أول ما قارب العثمانيون المدينة أصلوهم بنيرانهم ومنعوا العساكر العثمانية، فقتلوا من تقدم أولاً وقطعوا طريق إمدادهم...

وعلى كل لم يتيسر الفتح. ويعزو أوليا چلبي[1] الخذلان في هذه الحرب إلى أن الجيش ربح غنائم كثيرة إلى حد الإشباع، والأسد لا يكون مفترساً إلا إذا جاع، فلم يهاجموا أثناء الحصار بشدة. ولكن الواقع يؤيد أن أسباب المحاصرة مكينة، فلم يتمكنوا من اختراق الجبهة.

لم يقدر السردار على المطاولة لا سيما وقد كانت خسائره كبيرة وضائعاته عظيمة... لم يصبر على الدوام في الحرب كما فعل حافظ أحمد باشا. ولذا قرر لزوم الرجوع باستشارة الأمراء وذلك في ٨ ربيع الأول من هذه السنة. وفي أوليا چلبي تركوا بغداد في ٢٧ صفر سنة ١٠٤٠ هـ فعاد بما لديه من قوة وخيام وغيرها. وفي أثناء هذه الحرب

---

(١) رحلة أوليا چلبي ج ٤ ص ٤٠٣.

استشهد أمير أمراء الأناضول داود باشا. إلا أن السردار قرر أنه إذا بقيت الحلة في يده أمكنه معاودة الحرب في السنة المقبلة بأمل تسهيل أمر الفتح بناء على اقتراح بعضهم فوافق عليه، وأرسل أمير آمد خليل باشا مع نحو عشرين ألفاً من عسكر ايالته وبينهم الينگچرية. وفي كتاب (خبر صحيح) كان معه اثنا عشر ألفاً فأرسلوا على جناح السرعة إلى الحلة. أحاطوا جوانبها بالخنادق لتكون لهم عدة أيام الخطر والمحاصرة.

وفي هذا الأوان هاجم قائد العجم توخته خان المسمى (خان خانان) فضبط (درنه ودرتنك) ففر المحافظون من الجنود هناك من أمامه... ومن جهة أخرى إن رستم خان أيضاً هاجم الحلة ووجه عزمه إليها فاستمد خليل باشا بالسردار فأرسل إليه بضعة أمراء لكنهم لم يجدوا طريقاً للوصول إليه. فكان استعجالهم تسرعاً مغلوطاً[1]...

مهاجمة شهرزور:

ثم إن العجم هاجموا شهرزور بنحو ثلاثين ألف جندي بقيادة توخته خان ومعه أحمد خان[2] وظالم علي فطردوا من فيها بالقوة وجعلوها قاعاً صفصفاً ولم يبقوا فيها بناءً ما. وفي المعركة قتل محمد باشا بن أرنود وانهزم عمر باشا وابدال باشا. وهؤلاء أيضاً لم ينجوا من سيف السردار فأمر بقتلهم وإن أمراء الكرد مالوا إلى العجم وتابعوهم.

عودة السردار إلى الموصل:

وفي هذه الأيام وصل السردار إلى الموصل بتاريخ ٧ جمادى الأولى وشرع في إحكام حصارها ومنها توجه إلى ماردين.

وهذا الوزير كما نعته كاتب چلبي لم يكن له تدبير صائب. استبدَّ

---

(١) فذلكة كاتب جلبي وتاريخ نعيما ج ٣ ص ٥٦.

(٢) هو الأمير أحمد بن هلوخان أمير أردلان.

برأيه، ولم يحسن التصرف كحافظ أحمد باشا فأدى عمله إلى القضاء على الجيش ومهماته وذهبت كل التدابير هباء...

مهاجمة الحلة:

هاجم الشاه بنفسه الحلة بنحو أربعين ألف جندي بعد أن رآها استعصت على جيوشه فحاصرها لمدة ثلاثة أشهر وكان محافظها آنئذ خليل باشا فلم يصل إليه المدد وكان أصاب الدولة العثمانية قحط وبيل فلم تتمكن من معاونته بل كانت في حالة اضطراب من جراء هذا الغلاء. فقطع أمله من المعاونة ولم يفكر إلا في طريقة الخلاص من هذه الغائلة المحدقة به. وكانت مدة الحصار بلغت الثلاثة أشهر أو الأربعة ففي بعض الأيام هجم بما لديه من فوارس على جبهة من جبهات العدو فخرقها وتمكن من الخروج ولم يتمكن منهم العدو بشيء فوصل إلى الموصل. كان لهذه الشجاعة التي أبداها في شق الجبهة مما تذكر له وتزيد في سمعته. وحينئذ أوقع العجم بأهل الحلة ما شاؤوا من قتل ونهب.

وفي اليوم التالي نادى المنادي بالأمان فانقطع النهب وكفوا عن الغارة والقتل. وإن الجنود التي بقيت في المؤخرة طلبت الأمان.

ثم عاد الشاه ومن معه من الجنود العثمانيين الذين طلبوا الأمان إلى بغداد وسير الروم وهم الجنود إلى الموصل ومنها توجه إلى إيران. ولم ينج منهم إلا القليل. سير الجنود الرومية إلى أوطانهم ولطفهم وأذن لهم بالذهاب. ثم أمر أن يعمر مرقد الإمام علي (رض) فبوشر بالعمل في الحال. وأما الحلة فإنه ضيق عليها وأذل أهليها وأمر أن تبنى قلعة محكمة هناك ويتخذ خندق فشرع في العمل فدمرت دور وبساتين وحدائق للأهلين فتضرروا كثيراً[1].

---

(١) تاريخ نعيما ج ٣ ص ٦٥.

حوادث سنة ١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م

حكومة بكتاش خان

بغداد في هذه الأيام:

في هذه الاضطرابات والحالات الحربية كان الحاكم في بغداد (صفي قولي خان)، ولكنه عاجلته المنية ولم يمهله الأجل. وكان متعصباً في مذهبه كما أنه كان متصلباً في الإدارة. وبلغت مدة حكومته ثماني سنوات تقريباً.

ولما وصل خبر وفاته إلى شاه العجم أظهر حزناً كبيراً وأصابه ألم عظيم. واتباعاً للتقاليد المرعية دعا المنجمين واستطلع رأيهم في معرفة طالع أمرائهم الموجودين فكان طالع (بكتاش خان) غالباً على الكل...

وعلى هذا نصب (بكتاش خان) حاكماً على بغداد. ولكن الطالع ظهرت حقيقته مؤخراً بدخول السلطان مراد خان بغداد واستيلائه عليها وهي في يده وتحت حكمه. فكانت أيام بغداد في سوء وحروب ومعامع بل قلاقل عظيمة فلم تهدأ الحالة.

وإن من آثار الوالي السابق بناء السراي (دار الحكومة) المعروف (أيام صاحب گلشن خلفا) بالدفترخانة.

بكتاش خان:

في هذه السنة ولي بكتاش خان على بغداد. قال صاحب گلشن خلفا إنه كان مشغولاً بالشرب وتعاطي المعاصي وأخذ الهدايا وعدم المبالاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمال الناس في أيامه إلى الأهواء النفسية وانهمكوا في المعاصي وصاروا لا يبالون بانتهاك الحرمات.. والحالة حربية، فلا يعول على مثل هذه الإشاعات.

حالة الترك:

إن السردار كان قد صرف همه إلى تعمير القلعة في الموصل وتحكيمها. وفي هذه السنة كان يتجول بين ديار بكر والموصل. ولكنه لم يتمكن من إجراء عمل ما. وإن موسم الشتاء قد حل فوصل إلى مشتاه وانتظر فيه. وفي ٢٨ ربيع الأول انتزع منه السلطان الخاتم فصار حافظ أحمد باشا وزيراً للمرة الثانية فأمر بإرجاع الجنود إلى استانبول.

وإثر ذلك حصل قيام عليه من الينگچرية ورؤساء الموظفين فقتل في سنته وكان من أعاظم رجال الدولة. عين مكانه رجب باشا فصار صدراً أعظم. وهذا أيضاً قتل من جانب السلطان نظراً لاشتراكه مع الثائرين الذين أصروا على قتل حافظ أحمد باشا فخلفه محمد باشا وهذا دمر المتغلبين والثائرين ممن كانوا يضطرون السلطان إلى قتل وزرائه وتبديلهم وبهذه الوسيلة أمنت الحكومة من شرورهم.

ولما أمن السلطان مراد المركز شرع في تسكين الأناضول والتنكيل بالثائرين فتمكن من ذلك أيضاً.

حوادث سنة ١٠٤٢ هـ - ١٦٣٢ م

وفي سنة ١٠٤٢ هـ هاجم شاه العجم كرجستان. وكان حاكمها آنئذ (طهمورث) فلم يستطع مقاومة الأعجام فانسحب وضبطوا كرجستان ومنها توجهوا نحو (وان) فوصل خبر ذلك إلى استانبول فأصدرت الأوامر إلى رؤساء الثغور للاهتمام بالأمر والتأهب للطوارىء.

حوادث سنة ١٠٤٣ هـ - ١٦٣٣ م

غرق بغداد

في هذه السنة طغى ماء دجلة فغرقت من بغداد محلة باب الأزج[1]

---

(١) اعترض الدكتور (مصطفى جواد) على تاريخ الغرابي في ذكر باب الأزج وأن هذه المحلة لا تصل إلى محل الكسرة.

وغيرها. والسبب أن إسماعيل بن نجم كانت بستانه محاذية لبدن القلعة فبثق من البدن بثقاً ليسقي بستانه، فاتسع وهدم جانباً من البدن، فتركه وانهزم، فأخبر والي بغداد بكتاش خان، فقام مهرولاً حتى وقف عليه، فشاور بعض المهندسين في هذا الأمر، فطلبوا ثلاث طيارات، ملأوها تراباً وحجراً وخسفت في الهدم وترك خلفها الخشب والحطب والتراب حتى انقطع سيل الماء، واطمأن الناس بعدما ذاقوا مشقة عظيمة[1].

حوادث حربية:

وفي ربيع الأول سنة ١٠٤٣ هـ سار توخته خان أمير أمراء العجم بعساكره إلى وان وكانت عدتهم نحو الثلاثين ألفاً فهاجمها وضبطها، ولكن أمير أمراء ديار بكر مرتضى باشا وأمير أمراء أرضروم خليل باشا وافوا إليها. وفي ١٠ ربيع الآخر أنقذوا وان من يد أعدائهم ورجعوا. فلما سمع الوزير الأعظم وكان قد تحرك أيضاً لإمداد الجيش لاستخلاص وان في ١١ ربيع الآخر فرح كثيراً وسر الفيلق وقد وصل الصدر الأعظم إلى حلب في ١٥ جمادى الثانية.

وفي أوائل رجب بناء على الفرمان الصادر قتل والي حلب نوغاي باشا ووجهت الولاية إلى والي ديار بكر محمد باشا الطيار، وإن مرتضى باشا عاد إلى استانبول.

وفي هذه الأثناء حصلت بعض الاضطرابات في الفيلق أحدثها رؤساء الينكچرية. وفر رئيسهم إلى استانبول فقتل بأمر من السلطان هو ومن معه.

والحاصل أن الأحوال الإدارية والاختلالات الداخلية منعت من استعادة بغداد ودعت إلى بقائها في أيدي الإيرانيين مدة...

---

(١) تاريخ الغرابي ج ٢ ص ١٠٩.

والملحوظ أن النزاع على بغداد وتهالك الترك في سبيلها واهتمام صدورهم في حروبها. والعجم ومجازفتهم في الاحتفاظ بها كل هذه من الأمور الداعية لانتباه الأهلين ولكن أين الانتباه والقوى متكافئة بل راجحة للعجم في الحرص على العراق ودفاعهم عنها دفاع المستميت في كل مرة... وكذا الترك ومخاطرتهم في الهجوم عليها ولزوم استعادتها...

مال الأهلون كل منهم لناحية فصاروا طعمة نيران هذه الحرب الملتهبة بلا أمل ولا مواعيد شافية، ولا التمكين من أي حق بل نراهم يطلبون من الأهلين المقاتلة معهم. وتسهيل النجاح والغالبية ليكونوا شهداء لتمكين سلطانهم، أو واسطة لتأمين استعبادهم وقهرهم...

وهكذا نرى عدم المبالاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فلا يكاد يظهر لهما أثر في هذا العهد فمال الناس إلى الأهواء النفسية وانهمكوا بالمعاصي. ولذا نرى الصلحاء في خوف وارتباك من الأمر. كثرت في أراذل الناس الفواحش فصارت هذه بمثابة الحالة الاعتيادية المألوفة...

حوادث سنة ١٠٤٥ هـ - ١٦٣٥ م

الطاعون في بغداد

توالت الأرزاء، واختلت الحياة بسبب تكاثر الجيوش، وصارت المعيشة في اضطراب، فكان من لوازم ذلك أن حدث في سنة ١٠٤٥ هـ في اليوم الثالث من شعبان المعظم الطاعون. هاجمت جيوشه الأهلين واستولت على إقليم العراق واستمر ضرره ودام خطره إلى أول يوم من عيد الفطر.

كانت الضائعات عظيمة جداً فكم دمر من أسرات وقرض من أهلين...! حتى إنه لم يبق من يدفن الأموات أو يحمل الموتى، فكان

لمصابه خطر عظيم وكثرت الأراجيف ونال الأهلين رعب كبير ومن ثم تراهم تركوا المعاصي فصاروا يميلون إلى الصلاح وإلى تأديب النفوس والركون إلى الاستغفار والتمسك بالعبادة فلم يبق ملجأ إلا الله تعالى...

ورد في تاريخ الغرابي:

«وقع في بغداد طاعون وكثر حتى جروا بعض الموتى من أرجلهم ورموا بهم في دجلة. وبيعت قربة الماء بخمسة عباسيات» اهـ[1].

ثم خفت وطأته. واستمر إلى يوم عرفة فانقطع وزال خطره وشفي المصابون به فكثرت الموروثات ونال الفقراء الثراء. وبعد أمد يسير أبطر الناس الغنى ووسوس لهم الشيطان سوء الأعمال فمالوا إلى المنكرات وعادوا الكرة إلى عمل الموبقات... كذا قال صاحب گلشن خلفا.

حالة العراق:

من هذه الأحوال يظهر أن هذا القطر لم ينل راحة. فهو بين حرب وظلم وغرق وطاعون... فلا أمل أن نرى عمارة، أو عدلاً، أو أمناً، أو نمواً في الحضارة ولا تمكناً من العلوم والآداب. والحالة لا تزال حربية والاهتمام بالجيش هو المطلوب. والأخبار المتضمنة هجوم السلطان مراد على العراق بقصد استعادته من مؤيدات ذلك. تأهب بنفسه وقام على العجم لصد غائلتهم فلم يتمكنوا من القضاء عليها من مدة بحيث شوشت عليهم داخليتهم وخارجيتهم. فهي بالنظر إليهم أم المسائل أو صارت (قضية الحياة والممات). دامت هذه الأحوال من الاضطراب إلى أن استولى السلطان على بغداد.

---

(١) العباسية نقد إيراني من فضة وتساوي ثلاثة أرباع المثقال الصيرفي. أوضحت عنها في (كتاب النقود العراقية لما بعد العهد العباسي). لم يطبع بعد.

فيل الشاه صفي:

في هذه السنة بلغ الخبر كوجك أحمد باشا وكان مقيماً في الموصل أن أمير آخور الشاه زينل خان أتى إلى بلدة شهرزور ومعه فيل أهداه سلطان الهند إلى الشاه صفي، فذهب إليها وانتزعه منه وأرسله إلى السلطان مراد، فبلغ هذا الخبر الشاه فأرسل نحو خمسين ألف فارس، فالتقوا بأحمد باشا عند قلعة مهربان، فاقتتلوا ولم يتزلزل أحمد باشا من مكانه حتى استشهد، ولقبه العجم (بدمير قازوق) لثباته[١].

حوادث سنة ١٠٤٦ هـ ـ ١٦٣٦ م

الحالة العامة

من حين تركت الدولة العثمانية حصار بغداد اشتغلت في تنظيم داخليتها فلم تتمكن. عاث العجم فيها وصاروا في تأهب حربي بل في مقارعات فعلية فلم تدع فرصة للالتفات. . . إلا أن الحروب كانت في أنحاء (وان) فصارت تتداولها الأيدي. واشترك السلطان مراد في حربها. . . وعلى كل نرى الحكومتين تتقارعان الطالع، وتجازف كل واحدة بقدرتها وما لديها من قوة ولم تكن هناك الحرب الحاسمة لتعادل القوى، ولم يكن الترجيح فائقاً من جهة، وإنما يعوز حسن التدبير للتفوق والرجحان ويغلب على العثمانيين الاضطراب في الإدارة مما منع أن تكون كفتهم راجحة بكثرة القوة وكمال العدة. أنهكت الحروب الدولتين ولم تفكر واحدة منهما في الأمر وما يؤول إليه. وإنما تأمل الواحدة أن تقضي على الأخرى. ولم ينقطع هذا الأمل.

الحرب سجال. والعراق لم يصف له الجو، وحالته ما وصفنا من حروب إلى طواعين إلى قسوة وتعديات وهكذا. . .

---

(١) تاريخ الغرابي ج ٢ ص ١١٣.

حوادث سنة ١٠٤٧ هـ - ١٦٣٧ م

لم نجد ما يصلح للتدوين عن هذه السنة إلا حادث اهتمام العثمانيين في العودة إلى بغداد ومحاولة استردادها وسفر السلطان إليها بنفسه وتجييشه الجيوش العظيمة وقيامه بالمهمات الكبرى فلا حديث غير هذا يهم العراق. وحكومة العجم أيضاً متأهبة لقمع نفوذ العثمانيين والقضاء عليهم.

السلطان مراد يتأهب لاستخلاص بغداد:

كانت بغداد في أيدي العثمانيين من سنة ٩٤١ هـ أيام السلطان سليمان ودامت في أيديهم إلى واقعة بكر صوباشي فبقيت نحو المائة سنة تحت حكمهم فحاولت الاستقلال ثم صارت في حكم العجم وقام العثمانيون بهجومات عديدة وعظيمة لاستعادتها فأخفقوا في مساعيهم كلها واستصعب الفتح، وكون هذا الخذلان خطراً عظيماً. كانوا قد بذلوا النفس والنفيس في سبيله فظهر عجزهم وبان ضعفهم... وهذا الخذلان كان أكبر محرض، فالسلطان مراد وجد أن الخطر حل واكتسبت المصيبة شكلاً عاماً، فعزم بنفسه للقضاء على هذه الغائلة وهو من أعاظم رجال العثمانيين لم يأت مثله من أيام السلطان سليمان فسار للمقارعة بعد أن قضى على اضطرابات داخلية وفتن خارجية مهمة وأمن الحالة مع المجاورين الآخرين... وحينئذ تمكن من خضد شوكة العجم وفل غارب نفوذهم في العراق وافتتح مدينة (بغداد). استخلصها للعثمانيين فبقيت في حوزتهم إلى الحرب العظمى وحينئذ خرجت من أيديهم في سنة ١٣٣٥ هـ - ١٩١٧ م.

السلطان مراد في طريقه إلى بغداد:

إن السلطان أصدر فرماناً في التأهب لسفر بغداد في أوائل رجب سنة ١٠٤٧ هـ وأوعز في اتخاذ ما يلزم للحرب، وفي ٨ شوال هذه السنة



السلطان مراد الرابع ببزته الحربية - أحمد راسم

أخرج الطوغ الهمايوني[1] وركز أمام الحربية فاستعد الوزراء والأمراء ممن تقرر اشتراكهم في الحرب ونشروا الأعلام الأخرى للاطلاع، وفي ١٥ شوال نقل الأوطاغ الهمايوني (خيمة الملك) إلى اسكدار، وفي ١٦ ذي القعدة تحرك الفيلق أيضاً إلى اسكدار وفي ٢٣ منه يوم الخميس برز السلطان بموكب زاهر واحتفال عظيم وذهب إلى اسكدار ممتطياً جواده وعلى رأسه مغفر عليه عمامة حمراء من شال، وعلى كتفه طيلسان فكان في زي عربي يحكي طراز الصحابة الكرام (رض) في أوضاعهم حينما يتأهبون للغزو والجهاد ومعه الجيوش في أبهة[2]. وحيثما مر من صوب أو التفت إلى جهة أو ناحية من النواحي سمع نداء الأهلين قائلين له (عليك عون الله) فكان لوضعه هذا تأثير كبير في النفوس.

وفي ٢٣ ذي الحجة يوم السبت رحل السلطان من اسكدار وتوجه نحو بغداد وقطع في سفره هذا (١١٥) مرحلة. وفي المرحلة الخامسة من هذه المراحل عاد المشيعون إلى استانبول وهم الموالي والمعزولون والمدرسون.

حوادث سنة ١٠٤٨ هـ ـ ١٦٣٨ م

السلطان في طريقه أيضاً

وصل السلطان إلى حلب الشهباء بتاريخ ١١ ربيع الأول من سنة ١٠٤٨ هـ وهنا انضم إليه الجيش المصري بأميرهم رضوان بك. وفي ٢٦

---

(١) الطوغ: علم للعثمانيين، ولسائر الأتراك ويتكون أعلاه من شعر الخيل ويلون بألوان وله أهمية. وتتعين رتبة الأمير بالنظر لما منح من طوغات. والتفصيل في كتاب (تشكيلات وقيافت عسكرية) ص ٣٧.

(٢) رأيت في استانبول في متحف طوبقبو قسم الخزانة لباسه حين افتتح بغداد. وبين هذه مغفر، ودرع، وكنانة سهام وسيف، حتى ركاب فرسه وعدته... وقد حفظ في خزانة خاصة كتب عليها ذلك. أما السلطان سليمان فقد حفظوا لباسه بوجه عام.

ربيع الأول منه رحل عنها وقطع مراحل حتى وصل بيره جك وهناك أعد قبل هذا عثمان باشا أربعين سفينة ونصب منها جسراً للعبور فعبر عليها الجيش أما السلطان فإنه ركب في زورق وعبر. استصحب المفتي معه إكراماً له. وقد صب خمسة مدافع عظيمة اثنان منها كل واحد حشوه عشرون أوقية من البارود وثلاثة منها حشو كل منها ١٨ أوقية. وصنع في الفلوجة ٨٠٠ سفينة لنقل الذخائر والأطعمة. وهنا التحق بالفيلق أمير أمراء سيواس كور خزينة دار وأمير بوزاوق شمسي بك زاده فانضموا إليه في بيره جك.

ولما وصل منزل جلاب توفي الوزير الأعظم بيرام باشا في ٦ ربيع الآخر فتأثر عليه السلطان كثيراً. وعهد بالوزارة العظمى إلى محمد باشا الطيار. وبعد منزلين ورد أمير أمراء الشام (درويش محمد باشا).

وفي ٢٣ ربيع الآخر ورد السلطان ديار بكر فأقام بها للاستراحة عشرة أيام. وبعد يومين من وصوله جاء الوزير الأعظم فأجري له احتفال عظيم وأنعم عليه السلطان بخيمة وخرگاه وأوطاغ وبارگاه. وفي ذلك اليوم عهد إلى درويش محمد باشا بإيالة ديار بكر وألحق به كثير من أمراء الألوية. وكذا التحق بدرويش محمد باشا أمير الصحراء (سلطان البر) ابن أبي ريشة مع باشوات طرابلس وحلب وعدة أمراء ألوية وعين مقدمة الجيش وأرسل في الأمام.

وفي ٤ جمادى الأولى رحل السلطان عن ديار بكر وكان ذلك في ٣ أيلول. ويدل السلطان قيافته فدخل ماردين للتفرج...

وفي أثناء مروره بحلب وديار بكر تقدم الشعراء لمدحه والدعاء له بالسفر الميمون وكان مدحه الشاعر نظمي أفندي البغدادي حين ورد الرها بقصيدة تركية طويلة جعل كل شطر من أبياتها تاريخاً لقدومه ودعا له بالسفر المبارك. ومدح بقصائد ومقاطيع تركية كثيرة ذكر في (تذكرة

رضا) جملة صالحة منها لا نرى فائدة في إيرادها لعدم معرفة الكثيرين اللغة التركية. . .

وفي سلخ جمادى الأولى وصل إلى مدينة الموصل.

ولا يهمنا أن نذكر المنازل قبل أن يصل إلى الموصل وإنما نكتفي بما ذكر. وفي كتاب (روضة الأبرار في فتح بغداد من قبل السلطان مراد) تأليف قره چلبي زاده عبد العزيز أفندي تفصيل، وهو تاريخ مختصر مخطوط، ومنه نسخة برقم ٢٠٨٩ في خزانة أسعد أفندي في السليمانية باستانبول. كتبه أيام وزارة مصطفى باشا وبين تاريخ حركة السلطان في منازل عددها ونقلنا منه من حين ورود السلطان الموصل. وهذا المؤلف كتب ما هو أشبه بما كتبه مطراقي أيام السلطان سليمان القانوني إلا أنه لم يكن معاصراً ولا كان كتابه مصوراً. . .

وبعد أن أتم ذكر أسفار السلطان قد بين الحوادث التي وقعت في استانبول بغياب السلطان وكان قد جعل السلطان مكانه موسى باشا محافظاً وختم المقال بأوصاف الوزير وجميل مناقبه. . عولنا على كثير من نصوصه في حكاية الفتح وما يتعلق بها ولم نترك الكتب الأخرى المعاصرة أو القريبة منها مثل فذلكة كاتب چلبي وگلشن خلفا وغيرهما. . .

ورود سفير من الهند:

كان أرسل ملك الهند خرم شاه[1] كتاباً إلى السلطان مع هدية بيد

---

(١) إن سليم شاه (جهانكير شاه) ابن أكبر شاه كان قد ولي سنة ١٠١٤ هـ ـ ١٦٠٥ م وتوفي سنة ١٠٣٦ هـ، فخلفه ابنه (شهريار) طالت مدته بضعة أشهر فقتل وهذا قد خلفه بايسنقر بن دانيال بن أكبر شاه. وهذا تغلب عليه خرم شاه (آصف خان)، فالتجأ بايسنقر إلى العثمانيين، فلم ينل مطلوباً، وعاد إلى الهند فهلك. وخرم شاه المذكور ابن سليم شاه. وهو الذي أرسل رسولاً إلى السلطان مراد الرابع بالوجه المذكور. (فذلكة ج ٢ ص ٩٨ ودول إسلامية ص ٥٠٢ وتاريخ نعيما ج ٣ ص ٣٥٧).

السفير (مير طريف). فورد هذا ميناء جدة فأخبر السلطان بذلك كما أن علي باشا بن أفراسياب عرض قضية مجيئه إلى السلطان بكتاب. ولما وصل السلطان الموصل وافى السفير وقدم الكتاب والهدايا وبين هذه التحف كمر (هميان) مجوهر تقدر قيمته بمائة وخمسين ألف قرش. وترس مصنوع من أذن الفيل ومغطى بجلد الكركدن. ويعتقدون أن هذا لا يؤثر فيه السيف ولا البنادق وأكثر من القول فيه. أما السلطان فإنه أراد أن يجرب قوة سهمه فضربه ضربة كانت قد خرقته. وبهذا كذب دعوى الهنود واعتقادهم في هذا النوع من الترس فابتهج بعمله هذا مما أزال الاعتقاد. وحينئذ وضع داخل الترس خمسمائة فلوري[1] وأعاده إلى السفير.

كان جاء هذا السفير بأموال وافرة للتصدق بها على فقراء الحرمين الشريفين. وإن ملك الهند أيضاً كان أشار إلى ذلك بكتابه المرسل كما أنه كان قد سمع بتوجه السلطان إلى بغداد. ولذا قال ونحن أيضاً جهزنا جيوشنا على قندهار واستعادتها من أيدي العجم. وآمل أن يسهل الباري علينا تسخير المملكتين.

وفي هذا الأمل ما يدعو إلى إنجاز المهمة التي جاء من أجلها السلطان، فكان عمل الهند ما يشوش الوضع على إيران من مجاوريها. ويسهل فتح بغداد. وهكذا فعل الشاه عباس الكبير باتفاقه مع الدول الأوروبية المجاورة للعثمانيين، فلم يظهر لها أثر من جراء أن السلطان عقد الصلح مع بعض المجاورين وأكد وضعه.

وفي الحقيقة تم الفتح. وكان أمر السلطان ببقاء السفير وإقامته في

---

(١) الفلوري: نقد ذهبي. ذكره بنيامين في رحلته ص ٨٠ وورد في صبح الأعشى. وشاع في المملكة العثمانية وتغلبت تسميته على الدنانير العثمانية. ويسمى فلورين أيضاً. وأصله من فلورنسة. والتفصيل في كتاب النقود العراقية.

الموصل إلى أن يقضي على هذه الغائلة وعين له كافة لوازمه[1].

نقل المدافع - إنعامات:

إن السلطان أنعم على جميع الجيش. ثم اجتمع الأعيان والأركان للمشاورة في بعض الأمور المهمة بمحضر من السلطان. تداولوا في كل أمر. ولما انجر الكلام إلى المدافع المعروفة بـ (بال يمز) وطريقة نقلها كان رأي الأكثر من أركان الدولة أن الجاموس الذي كان يسحبها قد هلك غالبه والباقي لا يزال منهوك القوى. وأبدوا صعوبة في النقل من طريق البر. وإن الأولى أن يكون من طريق النهر. وارتأى آخرون أنه ليس من الجائز تسييرها من طريق النهر بحيث ينتظر الكل ورودها...

أما السلطان وشيخ الإسلام فإنهما قبلا هذا الرأي ووافقا على أن يسير عشرون مدفعاً من طريق البر والباقي من طريق النهر فتقرر ذلك وتوزع الزعماء أرباب التيمار القنابل فيما بينهم لتكون معدات المدافع مهيأة.

ظهر حسن هذا التدبير بعد وصول الجيش إلى بغداد. ولم ترد المدافع نهراً إلا بعد عشرين يوماً من وصول الجيش...

وحينئذ وجه منصب مرعش إلى محمد علي باشا الگرجي المعزول من أرضروم فعين في المؤخرة أو الساقة. وجعل والي ديار بكر في طليعة العسكر (مقدمته). وعين للميسرة عساكر الشام وسيواس. وعين للمدفعية نوغاي باشا زاده.

السير من الموصل:

سار السلطان من الموصل متوجهاً نحو بغداد فوصل إلى منزل

---

(١) كاتب جلبي ج ٢ ص ١٩٨ وتاريخ نعيما ج ٣ ص ٣٥٧.

(يارمجه) ومنه إلى (خضر الياس) ومنه وصلوا إلى الزاب الأعلى. وهناك نصبوا الخيام ثم إن الجيش عبر الزاب من (المعبر) فوصل إلى (شمامك) ومنه إلى بيدرار. ومنه إلى اينجه صو ثم إلى آلتون كپري في الثاني من شهر رجب ثم وردوا (كوك دپه).

وقبل المضي إلى المنازل الأخرى نذكر الرواية القائلة إن السلطان حينما أراد أن يعبر آلتون كپري (قنطرة الذهب) قال:

كيچمه نامرد كوپريسندن قوي آپارسين صوسني

ياتمه تلكي كولگه سنده قوى يه سين أصلان سنى

ومعناه: دع النهر يجرفك ماؤه ولا تمر من قنطرة الجبان واترك الأسد يختطفك ولا تركن إلى ظل أبي الحصين (الثعلب).

غالب أهل القنطرة يحفظ هذا البيت. ولعله مقول على لسانه.

ثم تحركوا من هناك فنزلوا قرب كركوك ثم مضوا في طريقهم حتى حطوا رحالهم في قنطرة چبوق. استراحوا فيها يوماً واحداً.

كانت ثلة من العجم تقيم هناك فأخلوا القلعة وفروا...

وفي جنوبي كركوك تردد أمراء الجيش في أن يقدم الطوغ (العلم التركي) وهل في تقدمه محذور لأن جيش العدو قريب منهم. أوشكوا أن يصلوا إليه. ولكن لم يكن تقدم الطوغ من القوانين القديمة أو الاعتيادات المرعية، لذا تركوا الأمر لاختيار السلطان فجاء مصطفى باشا القبودان (القبطان أو الأميرال) إلى حضور السلطان وكان السردار آنئذ خسرو باشا فلم يأذن بتأخر الطوغ حتى يقابل الأعداء. وقال: ينبغي أن لا يخطر على بالنا الخوف أو الحذر مع وجود السلطان معنا. فأمر أن يتقدم إلى الأمام...

بشائر الانتصار

إن والي أرضروم الوزير كنعان باشا وحاكم اخسخه سفر باشا كانا قد أغارا على روان وكان حاكمها كلب علي خان فقابلهما بجيش عظيم. فجرت محاربة قوية تشتت فيها شمل العجم! ورجع كلب علي مجروحاً إلى جانب القلعة فاراً فتعقب الجيش أثره فقتلوا قسماً من عسكره وأسروا آخرين. جاءت بشائر ذلك إلى السلطان مع رؤوس بعض القتلى.

وأيضاً كانت قد أرسلت ثلة من العسكر إلى شهرزور فوردت البشائر بانتصارها في عين اليوم الذي وردت فيه تلك البشارة.

ثم سار الجيش إلى ما يقابل بعقوبا وفي ٧ رجب نزل الفيلق (باش دولاب) أي أول الكرود. وفي اليوم التالي أي ٨ رجب الموافق ٥ تشرين الثاني نزل بجوار الإمام الأعظم قرب بغداد. قطع السلطان في مراحله من أسكدار إلى تاريخ وصوله ١٩٧ يوماً. وكان من هذه الأيام ٧٦ يوماً قضاها في الراحة من عناء السفر.

محاصرة بغداد:

قيل المحصور مغلوب. لم يقدر الجيش الإيراني على الحرب في ميدان المعارك، فتوسل بالحصار وكانت له المهارة في الدفاع بهذه الطريقة. ولكن القوة الغالبة لا تصد. فكان الجيش التركي مزوداً بكل الوسائل والمهمات. ومن جهة أخرى إن موت الشاه عباس الكبير، وظهور السلطان مراد الرابع مما أثر على الوضع، فشعر الإيرانيون بالضعف.

كان السلطان حين وصوله إلى بغداد رتب الأمور ووزع الوظائف خشية إجراء حركة خروج من الجيش المحصور... جعل الوزير الأعظم محمد باشا في الباب الأبيض (آق قپو) وكذا آغا الينگچرية حسن آغا

وأمير أمراء روم إيلي علي باشا بن أرسلان باشا وفوق هؤلاء قپودان باشا ووالي سيواس الخزينة دار إبراهيم باشا وأمراء كستنديل وأولونية ومعهم أربعون چوربچياً ورئيس الصامسونجية حسين آغا ورئيس الزغرجية حيدر آغا زاده محمد آغا فدخلوا المتاريس وجعل محمد باشا وأرسلان باشا بن نوغاي باشا في جانب الباب الشرقي (الباب المظلم) ويقال له (قراكوقپو) أو (قراكلق قپو) باللفظ التركي. وذلك لصد غائلة الهجوم المفاجيء.

وكانت بغداد قد حوصرت قبل هذا من جانب حافظ أحمد باشا من الباب الشرقي وإن خسرو باشا كان قد حاصرها أيضاً من ناحية باب الإمام الأعظم. فأحكم الأعجام هذه المواطن وقووها كثيراً... وأما الباب الوسطاني فإنه بعيد عن النهر فلا يصلح لاتخاذ متاريس. فأغفله العجم ولم يكونوا يعتقدون أن تتخذ متاريس فيه.

علمت قوة العثمانيين بذلك حينما كانت في الموصل. وذلك أن السلطان لما كان في الموصل خرج (مير محمد) مع اثنين من إخوته فجاء إلى تكريت لجمع أموال الشاه فنزل عند شيخ العربان هناك فألقى القبض عليه وجيء به إلى السلطان. فقتل إخوته وأتباعه في الحال. ولكن مير محمد كان امرأ عاقلاً عارفاً وله صناعة كاملة في الشعر والأغاني فرجاه سلحدار باشا فعفا عنه، ورافقه إلى بغداد مكبلاً فأبان عن أكثر أحوال بغداد وعن الباب الوسطاني وأوضح أن هذا الباب خال من التدابير الحربية...

عرض الوزير الأعظم ذلك كله إلى السلطان فصدر الفرمان بلزوم محاصرة الباب الوسطاني وتوجيه القوة نحوه. قال نعيما: إن أوطاغ السلطان (خيمته) نصب أمام مزار الإمام الأعظم وإن دجلة تجري من جانب اليمين. ووضعوا (مقصورة) على تل عال مشرف على الأوضاع

الحربية وهناك ذبحوا ٤٠ رأساً من الغنم فداء له وتصدقوا بها على الفقراء...

وإن السلطان قال: إني أستحيي أن أزور الإمام الأعظم بلا فتح ولا ظفر. ولذا لم يدخل مرقده للزيارة حتى أنه لم ينزل في الأوطاغ الهمايوني. وإنما نزل في المقصورة. وهناك كان يوزع الذخائر الحربية والقازمات والكوركات[1] والبارود والفتيل وسائر لوازم الحرب. وبعد ثلثي الليل باشروا الدخول في المتاريس في أطراف البلد فدخلها من ناحية الباب الوسطاني كل من الوزير الأعظم وآغا الينگچرية حسن آغا وأمير أمراء روم إيلي أرسلان باشا زاده علي باشا. ومن جنوبيهم نحو الباب الشرقي مصطفى باشا وأمير أمراء سيواس كورخزينة دار وأربعون چورباچياً مع رئيس صامسونجية وأمراء كوستنديل وأولونيه وفي أسفل هؤلاء أيضاً إلى جهة الجنوب كل من أمير أمراء الأناضول حسين باشا وعسكر مصر وأربعون چورباچياً ورئيس الزغرجية[2] حيدر آغا زاده. دخل هؤلاء جميعهم المتاريس. وعين أيضاً حرس (قراولة) كل من كورچي باشي ونوغاي باشا زاده من جانب الباب الشرقي لدفع ما يحتمل وقوعه من هجوم ليلي.

كانت السماء مقمرة فصفت المشاعل أيضاً في السور ولم يصبح الصباح إلا والعمل قد تم وأعدت كافة المتاريس وأحاط الجيش بالمدينة من ناحية الشط الغربية إلى الأخرى الجنوبية على شكل قوس.

وفي تلك الليلة والليلة التالية لها جرت محاربات فجرح أوردار علي باشا وقانلي محمد باشا.

---

(١) القزمات والكوركات معروفة في اللغة العامة عندنا. وهي ألفاظ تركية. وآلاتها تستعمل إلى هذه الأيام.

(٢) الزغرجية دون كتخدا الينگچرية في الرتبة كما في (تشكيلات وقيافت عسكرية) ص ٣.

أحوال العجم في بغداد:

إن الشاه لم يشأ أن يخاطر في معركة كبرى مع السلطان خشية المجازفة واحتمال الخذلان مثل ما وقع مع الشاه إسماعيل فاكتفى أن يضع ببغداد قوة كافية للدفاع والحصار بغرض أن يشغلهم ويطاول في الأمر لعل هذا تكون عاقبته كأمثاله. فاختار من جيشه نخبتهم وجعل القيادة لأكابر أمرائه، وكان من رؤسائهم (خلف خان) رئيس الرماة المشاة وكان حارب السلطان في أنحاء روان فجعل في أنحاء بغداد. وكذا كان آغا صادق ابن مير فتاح في حرب روان. فعفا عنه السلطان فأطلقه وأعوانه ولكنه دام في تعنده ولم يخش الوقيعة مرة أخرى فجاء باثني عشر ألفاً من الرماة بالبنادق فوافى هو وأمراء آخرون للحاق ببكتاش خان (والي بغداد) ونبه الشاه إلى لزوم المحافظة على بغداد وأكد وجوب صيانتها وانسحب وجماعة من العجم بقصد الإمداد والإعانة ليكون قوة لهؤلاء فأقام في محل يبعد نحو ست ساعات.

إن المحصورين في المدينة لم يكونوا يعلمون عن حصار بغداد من (الباب الوسطاني) فكانوا في أمان منه... ولم يعلموا بما اتخذ من متاريس فرأوا أن قد هوجموا من محل لم يعهد القوم المهاجمة من ناحيته مما دعا أن يذهلوا فلم يقدروا على الدفاع إذ لم يكن أتاهم عدوهم من هذه الجهة فصاروا يرمون بالقنابل والبنادق من جانب القلعة وبادروا للدفاع عن حوزتهم من تلك الناحية أيضاً.

في هذا الحين وردت للعثمانيين المدافع من طريق البر وذلك ثاني يوم الحصار مساء فوزعت عشرة منها للوزير الأعظم وستة إلى قبودان باشا وأربعة إلى حسين باشا. وفي تلك الليلة أقروها في مواضعها. وصوبت وقت السحر على المدينة من ثلاث جهاتها.

قال المحبي:

«أمر السلطان بحفر لغم عظيم وضع فيه البارود وأطلقت فيه النار فهدم جانباً عظيماً من جدار السور بحيث قيل إنه لم يكن لغم مثله في محاصرة قلعة من القلاع فصار يرى من هدم اللغم ما في مدينة بغداد من البيوت لأنه صار في ذلك الجانب جدار السور سهلاً مستوياً مع سطح الأرض، فلما رأى جيش بغداد ما دهمهم مما لم يعرفوه قط تلاشوا وبعثوا إلى الشاه يريدون التسليم وكان عسكر السلطان قد توانوا في الهجوم وتثبطت همة العجم. وفي أثناء ذلك أرسل الشاه رسولاً يطلب الصلح وكان الرسول من أعيان عسكر الشاه يسمى جانبك سلطان. وفي يوم الجمعة ١٣ رجب بكرة النهار اجتمع بالوزير الأعظم في ديوان عظيم ودفع إليه كتاب الشاه بالصلح فقرىء بمسمع من الناس وفهم الكل منه ما قصد الشاه من الحيلة فأبى السلطان وجميع الوزراء والأركان الصلح...

(قال المحبي): وقد رأيت الواقعة بخط الأديب رامي الدمشقي. ثم أطلق السلطان الأمر بالمحاصرة الشديدة وشدد في ذلك» اهـ[١].

وكانت في ١٢ رجب قد أفرزت ثلة من الجيش بحرسها وعدتها الكاملة ذهبت إلى جهة شهربان (المقدادية) مع الوزير سلحدار باشا والتحقت بوالي طرابلس شاهين باشا فبلغ المجموع اثني عشر ألفاً. وحينئذ وصلوا إليها وهذه من مضافات بغداد ومشهورة بالنعمة والبركة. ومملوءة بالأطعمة والفواكه. لا سيما رمانها. فالعساكر أغاروا على شهربان ونواحيها فغنموا غنائم وافرة وعادوا إلى الفيلق.

وقدموا للسلطان نوعاً نفيساً من الرمان فوزنت واحدة منه فبلغت أربعمائة درهم. والترك يسمون الرمان (ناراً) ويحكى أنه لما سمع أحدهم المثل (النار فاكهة الشتاء) قال: (خصوصاً شهربان ناري) أي لا

---

(١) خلاصة الأثر ص ٣٣٨.

سيما نار شهربان. فظن أن هذه النار يقصد بها (نار) المراد في لغته، فصارت تتكرر هذه كملحة.

ثم إن السلطان أمر أن يعبر سلحدار باشا مع ثلاثة عشر مدفعاً بمن معه من العساكر ففعل وحاذى باب الشط من الجانب الغربي وصار يرمي داخل بغداد من جهة (قلعة الطيور) فخرب أبنية المدينة وأقام القيامة على رؤوس العجم. وإن سلحدار باشا نصب كتخداه عثمان آغا (باشبوغا)[1] على العساكر واللوندات[2] جميعهم ممن في (قلعة الطيور)[3] وأراد هو أن لا ينفك من نظر السلطان فكان يعبر لمرتين يومياً إلى قلعة الطيور ويلاحظ أحوال العساكر ويفتش أمورهم.

وفي اليوم الثامن لأيام المحاصرة شاهد كل من الوزير الأعظم وقبودان باشا (أميرال البحرية) وحسين باشا أن قد تخرب أكثر التلول فملأوها بتراب كانوا ينقلونه بالزبابيل (الزنابيل) وسدوا المطلوب منهم.

وتسهيلاً للغرض قطع الجيش نحو ألف نخلة فصنع منها توابي (طوابي)، وضعت عليها المدافع وصنعوا تلولاً تكاد تضارع الجبال في علوها. واشترك في هذا جميع العساكر وملئت الخنادق فتقدموا إلى السور.

---

(١) يراد به قائد العساكر غير المنظمة. وهنا يقصد به القائد الوقتي.

(٢) اللوند: كسوتهم خاصة. ويعدون من أفراد الجيش البحري في أصل تشكيلاتهم، وفي خدمة الساحل البحري. ثم صاروا يستخدمون في خيالة الجيش في الولايات الأخرى. وألغي هذا النوع من الجند سنة ١١٨٦ هـ إلا أنهم بقوا في بغداد وفي الولايات النائية. وفي بغداد محلة خان اللاوند من بقايا تسمياتهم. واللفظة إيطالية أصلها (Levant) فاستعملت عندنا لوند، ولاوند. (تشكيلات وقيافت عسكرية ص 91).

(٣) قلعة الطيور تقع بالقرب من تكية خضر الياس للبكتاشية. وكانت في رأس الجسر. وموقعه هناك. وإن الجسر الموجود اتخذ له الطريق من المدرسة المستنصرية فهو حادث.

وفي اليوم ١٣ ألقي القبض على (علي الهمذاني) من العجم فاعترف أنه جاسوس. وفي حضرة السلطان قال: جئت من رستم خان إلى بغداد وأبرز كتاباً. إن شئتم أن تقتلوا أو تمنوا. وسآخذ جواب هذا الكتاب وآتيكم به. فأنقذ نفسه بمثل هذه الحيلة ونجا فدخل المدينة.

السلطان كل يوم يمر بأهل المتاريس من وزراء وأمراء وضباط ويقول ابذلوا جهودكم في سبيل الدين والغيرة الإسلامية ولا تقصروا. هذا يوم السعي وبذل ما في الوسع... وبأمثال هذه كان يرغبهم وينفث فيهم روح النشاط والهمة.

ثم نصب الخيام لجراحين كثيرين للاهتمام بقضية الجرحى والمحاربين، وكان ينعم على كل من يجرح في الحرب ويحسن إليه. يطيب القلوب بأنواع الإنعامات ويعنى بشؤون الجميع.

وفي هذه الأيام تيسر للوزير الأعظم أن يجعل تابية الباب الوسطاني قاعاً صفصفاً وآغا الينگچرية چغال زاده جعل تابية الزاوية (كوشه قله سي) كذلك وكل من حسين باشا والقپودان تمكن أن يهدم تابيتين. فالجميع قدروا على هدم أرض تقدر بثمانمائة ذراع سووها بالأرض.

وفي يوم ١٤ منه قرر السير إلى الأمام والهجوم على العدو إلا أنه شاع أن هناك خنادق ومتاريس عظيمة لا يمكن اجتيازها فرأوا أن الأولى الدخول في المتاريس فانضموا إليها وتأخر الهجوم.

وفي يوم ١٨ منه خرجت ثلة من العجم من ناحية حسين باشا فهاجموا على حين غرة إلا أن العسكر كان متأهباً مستعداً فعاد الأعجام بخيبة ولم ينالوا مأرباً ثم خرج من ناحية القپودان ثلة أيضاً فلم تفلح.

وفي ١٩ منه جاءت ثلاثة مدافع من طريق دجلة فوضعت في جهة قلعة الطيور ووجهت على المتاريس.

وفي يوم ٢٠ منه وردت ستة مدافع أيضاً فأعطيت ثلاثة منها إلى درويش محمد باشا والي ديار بكر. وحينئذ تقرب من (برج العجمي)[١] ومن متاريس الأعداء فتضاربوا بالقنابل مدة فتقدم الباشا مع سبعة من الچورباچية[٢] إلى متاريس أخرى فأبطلوا مدافع خصومهم.

وفي ليلة ٢٣ منه خرج الأعجام بحذافيرهم. ضربوا قنابل وبنادق وعملوا مهرجاناً. وسبب ذلك أنه وردت إليهم من جانب ديالى قوة تقدر باثني عشر ألفاً.

وفي هذه الأيام هبت رياح عظيمة دامت أربعة أيام وأربع ليال فلم تكد ترى بغداد ولا الصحراء من كثرة الغبار فلم يفارق الجيش مقابلة العدو واستمروا في الدفاع وأبدوا إقداماً يذكر...

وفي يوم ٢ شعبان ألقى أمير العرب ابن أبي ريشة القبض على (علي خان) من أمراء حسين خان اللر[٣] فجيء به فاعتذر بأنه كان جاء إلى العثمانيين فلم تسمع معذرته فقتل.

وفي ٣ و ٤ و ٥ من شعبان أبدى الجيش بسالة وإقداماً تاماً فجرت معركة طاحنة جداً تبادل الطرفان فيها المدافع والبنادق. وفي هذه الحرب جرح كورخزينة دار وسقط كتخدا الينگچرية شهيداً وجرح كل من أمير أمراء طربزون وأمراء بوزاوق وچورم.

وفي ٦ منه وزعت أيضاً إلى العساكر نحو (٢٦٠) هزة (كيساً) لحمل التراب.

---

(١) يسمى مقام الشيخ. وهو معروف. اندثر في هذه الأيام. وجاء ذكره مفصلاً في تاريخ جهانكشاي جويني.

(٢) الجورباجية لهم كسوة خاصة. وهم كالبلوكباشية ودرجتهم يوزباشي أي رئيس في مصطلحنا. والتفصيل في كتاب (تشكيلات وقيافت عسكرية) ص ٥٤ وعندنا آل الجوربه جي الأسرة المعروفة ببغداد من بقاياهم.

(٣) أمير اللر الفيلية.

وفي ٧ و ٨ منه جمعوا تراباً أمام الخندق كالجبل. ومن هؤلاء الغزاة ممن كان مع قپودان باشا استولوا على الخندق فدخلوه. وإن رئيس الدلية[1] للباشا المذكور جرح وهو راكب فرسه.

وفي ١٠ منه خرجت ثلة دمرت ضعفها من الأعجام.

وفي ١٤ منه كان جاء إلى ساحل ديالى أعجام، فاقتضى إرجاعهم فأرسل محمد باشا والي حلب وشاهين باشا والي طرابلس وأمير الصحراء ابن أبي ريشة مع خيالة العربان فذهب هؤلاء لصد أولئك. وبوصولهم انسحب الأعجام وقفلوا راجعين.

وفي ليلة ١٥ منه وقع خسوف كلي قرب الصباح. وإلى ١٦ منه اشتد القتال ودام الحرب فاكتسحت من العدو أماكن كثيرة واستشهد آغا الينگچرية والسردنكچدية وأمير آلاي چرمن. وملئت الخنادق بالأتربة من كل صوب فمضى الجيش سائراً إلى الأمام.

وفي يوم ١٧ منه وقت الظهر صار يحرض السردنكچدية الواحد الآخر وهاجموا العدو فتقدموا إلى الأمام وهاجموا التوابي المخربة وهناك اشتبكوا بالعجم واشتعلت نار الحرب.

قال المؤرخ نعيما: ولما سوي الخندق بالأرض في ١٦ شعبان. خاطب السلطان الوزير بأن الجيش وطن نفسه على الهجوم فلماذا لم تهاجم؟ فأجاب الوزير الأعظم: أيها السلطان لنصبر قليلاً. فالفتح قريب. والهجوم العام له وقت مرهون! فلا نعجل بمحو الجيش.

ثم إن السلطان عاتبه للمرة الثانية قائلاً له: أهذه شجاعتك

---

(١) رئيس الدلية، ويقال له دلي باشي. يراد به الدليل. وكانوا يحمون الثغور من صنف الخيالة ويتولى رياستهم دلي باشي وعندنا ناحية دلي عباس (ناحية المنصورية) سميت باسم أحدهم وجامع دلي فتحي باسم أحدهم.

وإقدامك. ما هذا الانتظار وما معنى هذا التأخير؟!

وبخه بهذه الكلمات فأجابه:

- أنا حاضر لفداء روحي لسلطاني. فلو مات عبدك الطيار فلا قيمة له. اسأل الله أن يسهل الفتح. قال ذلك وقرر التقدم في الغد.

وفي ١٨ منه قام الغزاة بوداع الواحد الآخر وأعدوا أسلحتهم وآلات حربهم وبذلوا ما يستطيعون من قوة وأحضروا ما تمكنوا عليه وصرفوا مجهوداتهم جميعها. وفي تلك الليلة لم يقدر أن ينام أحد. فبلغ التكبير والتهليل عنان السماء.

أما العجم فإنهم أيضاً كانوا تأهبوا للهجوم واستعدوا للحرب فهاجموا ليلاً واستخدموا كل ما استطاعوا من قوة من المدفعية والبنادق وسائر الآلات النارية فدافعوا دفاع مستميت وحاربوا حرباً عظيمة. فتقدم الترك على لسان واحد قائلين: (الله الله) واشتبكوا بحرب أنست كل الحروب التي سبقتها.

وحينئذ سار الوزير بعساكره وآغا الينكچرية بمن معه فخرجوا من متاريسهم وتقدموا نحو التوابي من كل صوب، تقدم قسم وركز العلم في التابية التي أمامه. فقارعهم الأعجام. اشتبكوا بقتال عنيف، وحرب طاحنة. دام القتال حتى دارت الدائرة على العجم وولوا الأدبار...

وفي هذا اليوم استشهد كثيرون لكن الغلبة كانت نصيب الترك أحرزوها وضبطوا التوابي...

شهادة الطيار محمد باشا وفتح بغداد:

إن عساكر الترك تمكنوا من الاستيلاء على التوابي فاستقروا فيها. ولكن العجم احتفظوا ببعض المواقع. صاروا يبدلون حراسها في الليلة ثلاث مرات أو أربعاً. أما الوزير الأعظم محمد باشا فإنه كان سل سيفه

يوم الخميس ١٧ شعبان فمشى على التوابي التي أمامه بما عنده من عساكر في جهته وأعمل في عدوه السيف وأبدى بسالة لا مثيل لها، ولكنه جاءته رصاصة من العدو أردته قتيلاً. فنقلوه إلى خيمة. توفي ولم يتيسر له أن يشاهد الفتح.

ومحمد باشا الطيار هو ابن مصطفى باشا المعروف بصارقچي والي بغداد الأسبق. كان توفي والده ودفن في مقبرة الإمام الأعظم. ولذا دفن محمد باشا أيضاً عند قدم والده، وكان محمد باشا قبل أن ينال الوزارة والياً على الموصل...

ولما اطلع السلطان على هذا الحادث قال: آه طيار! أنت لا تقدر بمائة مدينة مثل بغداد. عفا الله عنك وأغدق عليك الرحمة والرضوان!

الدوام في أمر الفتح ـ وكالة الصدارة العظمى:

وحينئذ أنعم بختم الوكالة العظمى على مصطفى باشا القپودان وقال له:

ـ أراك أراك! سيتم الفتح بعونه تعالى على يدك. أطلب منك الخدمة والمفاداة ليكن الله تعالى في عونك!

قال له ذلك ودعا له بالخير. وحينئذ قبل أقدام السلطان وقال أتمنى أن يتوجه قلب السلطان نحوي وأرجو منه الأدعية الخيرية. قال ذلك وبكى فخرج من الأوطاغ الهمايوني وذهب تواً إلى متاريس الوزير. وهذا ولد روحاً جديداً ونشاطاً في الجيش. وبادروا كالأول في القتال. سارعوا في الحرب.

إن الصدر الأعظم الجديد تقدم بمن معه من جميع الأغوات واللوند والحرس الملكي ومشوا على عدوهم بعساكر فهاجموا بهجوم عام فبذلوا نفوسهم قائلين إن الموت إنما يكون في مثل هذا اليوم. وإن كتخدا الوزير رضوان آغا مع جماعة من أغوات البلاط وغيرهم سقطوا.

وأما العجم فقد هلك منهم خلق لا يحصى فاكتسحت التوابي القريبة من السور بتمامها وامتلأت بالعساكر. فلم يستطع الإيرانيون الاحتفاظ بها.

وفي اليوم التالي سحراً سل العثمانيون سيوفهم وتقدموا نحو العجم. وهناك قطع العجم آمالهم من النجاة. حاربوا حرب المستميت.

وفي اليوم الأربعين من أيام المحاصرة في ١٨ شعبان[١] يوم الجمعة صاح العجم الأمان الأمان وعلقوا آمالهم بعفو السلطان.

بكتاش خان والي بغداد في حضرة السلطان

وفي هذه الأثناء ظهر إليهم أحد الأعجام قال: الخان يرغب أن يسلم البلد أرسلوا واحداً منكم. فأرسل إليهم (چاووش باشي)[٢] طوراق آغا ومتصرف نيكده حسن باشا. فوصلا إلى بكتاش خان (حاكم بغداد) فأعلماه بأن من طلب الأمان من السلطان أعطاه كما هو دأب العثمانيين ومن رسمهم المعتاد القديم. وطمأنوا الحاكم وجاؤوا به إلى الوزير الأعظم. وبعد الملاقاة معه أحضر إلى السلطان فنبه بلزوم اجتماع العسكر وترتيب الديوان. وإن الوزير الأعظم بقي ثابت القدم في مقامه وإن الجيوش بين خيمة الوزير وأوطاغ السلطان صفت في الجانبين مثنى مثنى سواء السپاه أو السلحدارية[٣]. وكانت العساكر مصطفة في الجانبين. لا يحصى عددها...

---

(١) في نعيما أن الفتح كان يوم ثامن شعبان وهذا غير صحيح والصواب ما ذكره صاحب كلشن خلفا من أنه كان يوم ١٨ منه لأن السلطان ورد بغداد يوم ٨ رجب وطالت المحاصرة أربعين يوماً فبلغت ما ذكره صاحب كلشن...

(٢) جاووش باشي. من ضباط الينكجرية. وله لباس خاص. (تشكيلات وقيافت عسكرية) ص ٥٢.

(٣) السلحدارية جند الحرس الملكي الخيالة.

وكان السلطان جالساً على تخت ذهبي وبلباس أحمر بأبهة لا مثيل لها مزين مكانه بالجواهر، ومرصع بالنفائس والتحف، وعلى ركبته سيف مرصع. وعن يمينه ويساره الغلمان المدرعون بالدروع المرصعة والهميانات الذهبية. وهم من خيرة الشجعان تراهم مكتوفي الأيدي واقفين أمام السلطان باحترام.

وكذا شيخ الإسلام والوزراء العظام وسائر أركان الديوان كانوا بوقار وأدب لا مزيد عليه. وكل في موقعه. فترتب الديوان حسب المراسيم المعتادة. . .

وحينئذ جاء الصدر الأعظم (ببكتاش خان) إلى حضور السلطان ولما رأى الوضع والأبهة التي عليها السلطان أخذته الرهبة فلم يسعه إلا أن قبل الأرض. ولم يستطع أن يتحرك إلى الأمام وأبدى خضوعاً وتذللاً.

أما السلطان فإنه أعطاه الأمان قائلاً له أمنتكم على أن تخلوا المدينة في هذا اليوم. إنك لو جئتنا أولاً لما رأيت هذا العناء. لكنك قمت بواجب الخدمة لمتبوعك جهد طاقتك فأنت معذور. وأعطاه تاجاً (سرتوغا) مرصعاً وخلعة سمور وخنجراً مجوهراً وقال له: اذهب إلى المدينة. وليخرج كل من فيها من الخانات والعساكر على وجه العجلة. ومن شاء أن يذهب إلى الشاه فليذهب ومن شاء أن يكون تابعاً لنا فليبق. لا يجبر أحد فهم على اختيارهم.

وعلى هذا أعيد بكتاش خان إلى خيمة الوزير الأعظم فكتب كتاباً إلى الخانات الذين هم داخل المدينة وإلى سائر العساكر بأن السلطان أنعم بالأمان، وأن مير فتاح ويار علي وخلف خان ونقد علي خان وسائر البيكباشية (المقدمين) واليوزباشية (الرؤساء) يجب أن يخرجوا في هذا اليوم إلى وقت العصر إلى الخارج، وأن العسكر أيضاً سحراً

يخرجون من (الباب الشرقي) وهو الطريق الذي يذهب إلى الشاه. ومن بقي فليخرج من باب الإمام الأعظم كتب الكتاب وأرسله إلى العجم في المدينة وصار ينتظر خروجهم.

ثم إن بكتاش خان أخبر الوزير الأعظم بأن الجيش الذي هو داخل البلدة على أغلب احتمال قد اتخذ ألغاماً تحت التوابي التي استولى عليها الجيش العثماني وملأوها باروداً واتخذوا بذلك حيلة. أما الوزير الأعظم فإنه أخبر جيشه بذلك ونبههم على حيلة هؤلاء وما يحاولون إيقاعه. وعجل بلزوم إبطال ما مكروا به.

أوضاع الجيشين

إن الجيش العثماني كان يلتمس وسيلة ما للوقيعة بالعسكر الإيراني. قاموا بأجمعهم وهاجموهم وأعملوا فيهم السيف. ولما وصل كتاب بكتاش خان وأعلم بالأمان بكتابه المرسل إليهم، خافوا وأبوا أن يخرجوا وتعللوا بعلل وبقوا تلك الليلة. ولما رأوا هجوم الجيش تحصنوا في تابية نارين. وحينئذ وقعت مصادمة عنيفة بين الفريقين فلم يروا طريقاً للخلاص. فركنوا إلى الفرار.

وفي تلك الليلة قتلوا كل من وجدوه من العجم وانتهبوا أموالهم. وإن بقاياهم اجتمعت في (الباب الشرقي). وقفت هناك. وإن العسكر في تلك الحالة نهب من نهب ولم يمكن المنع من الغارة فعين الجبه جية[1] لحراسة سراي بكتاش خان ودور سائر الخانات والبزازين حفظاً لها من النهب.

---

(١) الجبه جية: يوزعون الأسلحة والمهمات الحربية للجيش، ويقومون بحراستها أيضاً. وآل الجبه جي عندنا معروفون. وهم من بقايا أولئك.

القتل العام في العجم

ثم إن الوزير الأعظم مع أمرائه ورؤسائه ركبوا وقت السحر فدخلوا بغداد لتسلمها فوجدوها مملوءة بأجساد الأعداء. وملطخة بدمائهم. ونحو ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من العجم حذروا على أرواحهم فلجأوا إلى (الباب الشرقي) فتحصنوا ببعض التوابي والأماكن. فلما وصل الوزير الأعظم إلى هناك شاهد بعض عساكر العجم فتعرض بهم. وهؤلاء خافوا، ومن حيرتهم دافعوا عن أنفسهم إلا أن عسكر الوزير سار إليهم فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين. وحينئذ وبعد مغلوبية الإيرانيين قام الملتجئون إلى التوابي وغيرها فصاروا يضاربون جيش الوزير بالأحجار والسهام والبنادق فاستشهد من جيش الوزير جماعة حتى أن رئيس الكتاب (إسماعيل أفندي) كان في ركاب الوزير الأعظم فأصابته رمية حجر وأعقبتها رمية سهم فسقط شهيداً.

وإن الموما إليه من أهل طرابزون، كان ذا علم ومعرفة وطبع لطيف وصناعة إنشاء فاق بها أقرانه.

وفي ذلك الحين سل أحد الأعجام سيفه وحمل على سلحدار باشا لكن أحد الغلمان الشجعان وكان شاباً أمرد اسمه خليل سل سيفه وهاجم ذلك الرجل فقطع (ذراعه) فانسحب الإيرانيون وتجمعوا في محل وشرعوا في الحرب أيضاً.

أما الوزير فإنه حينما رأى ذلك بادر لمحاربة الإيرانيين ومن ثم كسروا. وإن راوي هذه القصة إبراهيم آغا كان آنئذ من مقربي الحرم الخاص قال: بعد الفتح أمر السلطان فصاحوا بالأمان ونادوا به وفي هذه الأثناء جاء أحد عساكر روم إيلي إلى حضور السلطان فقال: أنت بذلت الأمان ولكن نحن لا نوافق على ذلك. وحينئذ استغرب السلطان من جرأته هذه فقال ما هذا الكلام الغريب فأجابه بجرأة أيضاً: أيها الملك نحن من سنين نقوم بالأسفار على بغداد ولم

نكتف بصرف المبالغ الطائلة بل بذلنا النفوس الكثيرة حتى أنه لم يبق لي أب ولا عم ولا إخوة فالكل هلكوا في هذه السبيل. فالآن سنحت الفرصة فلماذا لم نأخذ انتقامنا منهم. فكيف نبذل لهؤلاء (الأمان)، الحق لا تفعل ذلك.

أما السلطان فإنه عجب من قوله هذا وضحك بقهقهة.

وبينا هو في هذه الحالة إذ دخل الباشوات عليه وأبدوا أن العجم شرعوا في القتال فقتلوا الرئيس وكثيراً من الرجال فاضطر الأمراء على الحرب.

وفي ذلك الحين جاء رجل من علماء بغداد بزي شيخ لابساً طيلساناً وأتى باثنين من العجم مصفدين. فغضب السلطان وقال: أنا أعطيت الأمان لماذا تفعل هذا؟ فعاتبه. فقال أيها الملك إن هؤلاء عادوا للحرب الكرة الثانية ولم يصغوا للأمان.

وعلى هذا بعث السلطان غلاماً تتاراً ليأتيه بالخبر. وهذا التتار وصل إلى الباب الشرقي فرأى أن الحرب مشتعلة فأخبر السلطان بذلك فأرسل السلطان أمير أمراء روم إيلي حسين باشا وقال له: اذهب إلى هؤلاء الأشرار وادفع فسادهم فإذا تعندوا فاقتلوهم قتلاً عاماً...

أما حسين باشا فإنه ذهب إلى محل الواقعة وأخذ معه سلحدار باشا[1] فأتيا إلى التابيتين اللتين كان قد تحصن بهما العجم وأفهموهم بأن السلطان بذل الأمان فلا تخافوا. تعالوا من الخارج. وبذلك استمالوهم فمن هؤلاء مير فتاح وعلي يار وخلف خان ذهبوا إلى الخارج فجاؤوا إلى السلطان فسلموا إلى حبس سلحدار باشا ولكن كان لمير

---

(١) أكبر آمر من خيالة الحرس الملكي يقال له (سلحدار باشا). قاله في (تشكيلات وقيافت عسكرية) ص ٦.

فتاح ولدان كبيران لم يخرجا من التابية ولا يزالان متمنعين بها مع جماعة من العجم فأظهروا العصيان للمرة الأخرى. وحينئذ وجهوا عليهم مدافع ضخمة وشرعوا في قتلهم لعدم قبولهم الأمان. وفي بضع ساعات قتل منهم عدة آلاف وأسر منهم ثلة أحياء فجاؤوا بهم إلى السلطان، وأمام خيمة السلطان (أوطاغه) ضربت أعناقهم وفي تابية نارين جماعة من العجم طلبوا الأمان فأخبروا بأن يخرجوا أولاد مير فتاح فخرجوا. أما الباقون فإنهم طلبوا الأمان وحينئذ صدر الفرمان بأن لا يأتوا بالأحياء ولا بالرؤوس.

وفي ذلك المحل كان أمير أمراء الأناضول حسين باشا حضر بنفسه مع ثلة من أتباعه إلى السور فقال لجيشه آتوني بمن بقي من هؤلاء فنزل عليهم الجيش. وكانوا قد تألموا من العجم وامتلأت قلوبهم عليهم فلم يصغوا إلى طلبهم الأمان فأخرجوهم من متاريسهم وقتلوا أكثرهم. وأما الذين نجوا من القتل فقد بذلوا لهم الأمان. وإن أبناء مير فتاح جاؤوا إلى الفيلق وأما العجم وعدتهم بضع مئات فإنهم خرجوا من الباب الشرقي وتوجهوا نحو جهة ديالى. وهؤلاء حينما خرجوا عقب أثرهم عسكر مصر فقتلوا بضع مئات منهم. ولم يسلم منهم إلا القليل فرموا بأرواحهم إلى شهربان وهؤلاء في يوم ماطر دخلوا تحت قبة كبيرة. وهذه القبة قد سقطت عليهم فأهلكت أكثرهم.

والحاصل لم ينج من مجموع الجيش الإيراني البالغ ثلاثين ألفاً إلا نحو ثلاثمائة تمكنوا من الوصول إلى فيلق الشاه ومن جيش العجم نحو عشرة آلاف هلكوا بنيران المدافع والبنادق وأما الذين نقضوا الأمان وقدرهم عشرون ألفاً فإنهم قتلوا في خلال الثلاثة أيام وكانوا تحاربوا بعد الأمان.

وقال أوليا چلبي إن العجم رفعوا الأعلام البيض وطلبوا الأمان.

فقبل أمانهم على أن يخرجوا في يومهم ويتركوا أسلحتهم. إلا أن قسماً منهم لجأ إلى القلعة الداخلية، وأن قسماً آخر مالوا إلى الباب المظلم فحاصروا فيه وشرعوا في القتال... فكانت النتيجة أن قتل في هذه الحرب من العجم (٨٧) ألفاً.

وذكر أوليا چلبي أن الله عزيز ذو انتقام كان مرتضى باشا السردار قد توفي في حرب روان فطلب الجيش الأمان من الشاه إلا أنه لم يف بعهده فقتل (١٢) ألفاً من الجند فكان الانتقام منه بعد ثلاث سنوات[١].

وبعد هذه الوقائع ملئت بغداد من القتلى. وكذا الخارج. وكان هذا القتل لم يسبق له مثيل في تاريخ الحروب الإيرانية.

وبذلك انتقم الترك من الشاه ونال جزاءه وحصل الجيش التركي على غنائم وافرة جداً. وأما نفس رعايا بغداد فإنهم تقدموا صفوفاً بأطفالهم ونسائهم لطلب الأمان وصاحوا (الداد، أمان)[٢]. فأصدر السلطان أمانه لهم وأن لا تنهب بغداد وأن كل من عثر على مال فله أخذه.

وأعلن السلطان الأمان أيضاً ومنع منعاً باتاً أن يتعرض أفراد الجيش بأموال الأهلين أو أولادهم. وكل من وجدت في خيمته أموال لأحد فعقابه الإعدام. ولو لم يأمر بهذا لعادت بغداد يباباً، أو أثراً بعد عين.

والخلاصة أن بغداد أنقذت من أعداء الترك وخلصت للعثمانيين.

وبهذا تم (الفتح)[٣].

---

(١) أوليا چلبي (بتلخيص) ج ٤ ص ٤٠٧.

(٢) معروف عند البغداديين تعبير (الداد أمان) إلى الآن ومعناه التسليم وطلب الأمان.

(٣) نعيما ج ٢ ص ٣٧٧. وفذلكة كاتب جلبي ج ٢ ص ٢٠٥ و (تشكيلات وقيافت عسكرية).

وجاء خبر ذلك مجملاً في تاريخ الغرابي. قال:

«سار السلطان... لاستخلاص بغداد دار السلام (مدينة السلام)... فنزل عليها وحاصرها أربعين يوماً. فلما رأى حاكمها بكتاش خان وسائر الخانات أن لا طاقة لهم بمقاومة الهزبر طلبوا الأمان فأعطاهم السلطان ما طلبوا، وخرج بكتاش خان إلى حضرة السلطان بالأمان، ثم إن السلطان أمر أن كل من كان من عسكر القزلباش فليلق السلاح ويخرج عليه الأمان، فما رضوا بذلك فاجتمعوا كلهم عند الباب الشرقي المعروفة بـ (قره قابي) فعين السلطان من أبادهم، فما خرج منهم سوى خمسة وعشرين شخصاً توجهوا إلى ممالك العجم، فحين فارقوا بغداد أمطرت السماء، واشتد المطر، فآووا إلى قبة في الطريق، فخرج أحدهم في الليل لإراقة الماء، فوقعت القبة على رفقائه فقتلتهم، وذهب ذلك الرجل إلى العجم فأخبرهم»[1] اهـ.

فكان بحثه مختصراً بل مقتضباً، وقد مر بنا التفصيل من كتب تاريخية عديدة.

زيارة الإمام الأعظم:

وفي اليوم التالي ذهب السلطان لزيارة الإمام الأعظم وقال: الآن حقت الزيارة. وكان قال إنني أخجل من زيارته قبل أن تفتح بغداد. فقرىء هناك الختم الشريف وتليت الأدعية وذبحت القرابين وبذلت الصدقات.

التبريكات بالفتح:

وفي هذا اليوم رتب الديوان العالي فهنأ السلطان بهذا الفتح

(١) تاريخ الغرابي ج ٢ ص ١١٤.

الجليل كل من الوزير الأعظم وشيخ الإسلام وسائر الوزراء والصدور وأركان الدولة والولاة وآغا الينكچرية والأمراء وضباط الجيش. فألبس الخلع الفاخرة كلًا من هؤلاء ودعا لهم بالخير.

أرخ هذا الفتح جماعة منهم شيخ الإسلام وغيره كثيرون[١].

ولما كانت هذه التواريخ تركية لم نر فائدة في نقلها وذكرها. والتواريخ العربية كان أكثر الناس من نظمها. قال المحبي وقفت بمكة المشرفة على تاريخ للقاضي تاج الدين المالكي وهو هذا:

خليفة الله مراد غزا
قلعة بغداد فأرداها

وعندما حاصرها جيشه
اندك للأسفل أعلاها

وأصبح الشاه ذبيحاً لما
أخبر من كثرة قتلاها

هذا اختصار القول فيها فإن
قيل لقد أجملت ذكراها

فلنشرحن فعل مراد بها
مؤرخاً قد ذبح الشاها

انتهى[٢].

منح رتب وكتب أخبار الفتح:

وفي هذا اليوم حرر (كتاب الفتح) وأرسلت كتب أخرى ومنح الميراخور الكبير خليل آغا رتبة الوزارة وأرسل ببشرى الفتح إلى الآستانة. وأمر بنقل (أوطاغ السلطان) إلى باب الإمام الأعظم فأبدل

---

(١) تاريخ نعيما وتذكرة رضا وكلشن خلفا ص ٧٩ ـ ١.
(٢) خلاصة الأثر ج ٤ ص ٣٣٩.

مكانه. وفي اليوم نفسه ابتدىء بعمارة القلعة وأعلن بواسطة المنادين أن لا يبقى أحد مختفياً وليظهر كل بلا خوف ولا حذر وأن لا يتعرض أحد بالمختفين. ومنح سلحدار باشا منصب القبودانية (القبطانية) وجرت توجيهات أخرى لا نرى فائدة في ذكرها مما لا يخص أحوال بغداد. وفي هذه الترفيعات نوع منحات...

ومن التوجيهات التي أجريت أن والي قسطموني السابق محمد باشا منح منصب ايالة شهرزور.

وفاة بكتاش خان والي بغداد السابق:

وفي تلك الليلة توفي بكتاش خان في سرايه بعد العشاء فجأة كذا في نعيما. وفي گلشن خلفا أنه انتحر، وترك زوجته بنت (حسين خان اللر). فأرسلت بجميع أموالها وأتباعها إلى أبيها ولم يتعرض إلى شيء من أموالها. وهذا الوالي حكم بغداد مدة سبع سنوات. قال صاحب گلشن خلفا ولا يزال سراي الحكومة قائماً. فهو من آثاره وله منظر جميل وحديقة غناء... وكذا الحمام من بنائه[1].

ولاية بغداد:

وفي اليوم التالي منحت (ايالة بغداد) إلى كوچك حسن آغا[2] آغا الينگچرية وعهد بأغوية الينگچرية إلى مصطفى آغا الركابدار. ومن المدرسين مصطفى[3] أفندي التذكره جي عين قاضياً لبغداد. وإن كتخدا

---

(١) كلشن خلفا ص ٧٩ ـ ١.

(٢) لم يكن حسين آغا وإنما هو حسن آغا كما في كلشن وسجل عثماني بخلاف ما ورد في تاريخ نعيما.

(٣) جاء في نعيما أنه مصطفى أفندي التذكره جي وما جاء في فذلكة كاتب جلبي من أنه موسى أفندي التذكره جي. فليس بصواب.

الينگچرية (بكتاش آغا) عين لمحافظة بغداد وحراستها وجعل معه ثمانية آلاف نفر من الينگچرية.

سرقة حمائل السيف:

ومما يحكى أن شخصاً من أكراد العجم يدعى قارچغاي كان يتكلم بلهجة لطيفة. لذا عفا السلطان عن قتله حتى أنه نال شرف مصاحبة السلطان (مرافق الملك) فتطاول ولم يتأدب بحضوره. وفي يوم الفتح قدم (بكتاش خان) للسلطان سيفاً مرصعاً ولما علم قارچغاي المزبور وكان في المجلس قال أنا أذهب به فأقدمه للسلطان فأخذ السيف وله حمائل مذهبة ومجوهرة. ولكنه لخساسة طبعه بدل الحمائل وأوصل السيف إلى السلطان فقبله السلطان منه وقال لسلحدار باشا إني أعجب أن تكون حمائل هذا السيف اللطيف غير متناسبة معه.

أخبر بكتاش بأنه إذا كانت لهذا السيف حمائل مناسبة له فليرسلها. فأجاب أن حمائل هذا السيف ذهبية ومجوهرة فهي متناسبة معه. ولعلها بدلت. وبالتهديد والتحقيق ظهرت. واعترف قارچغاي بها وحينئذ غضب السلطان عليه وعده كافر النعمة. ولم يلتفت لكل هذا اللطف حتى طمع وخان فلا يستحق هذه العناية والرعاية فأمر بقتله فقتل.

خرافة مولوية:

حكى نعيما أنه قبل فتح المدينة ببضعة أيام جاء أحد دراويش المولوية تجاه أوطاغ السلطان وقال له: أيها الملك اسعوا واجهدوا أن تفتحوا المدينة قبل يوم الاثنين وإلا لو تأخر غرقنا بالسيول فلا يتيسر الفتح. وفي ذلك اليوم أمر السلطان طيار باشا بالهجوم وأقنعه بل هدده في لزوم الهجوم فاهتموا له وأقدموا عليه. وفي الحقيقة تيسر الفتح يوم الجمعة. أغاروا على البلدة يوم السبت وفي اليوم التالي الأحد بذل

الأمان. وفي يوم الاثنين جادت السماء بمطر عظيم امتلأت منه المتاريس وغرقت الخيام فبقيت في الأطيان.

وبهذا ظهرت كرامة ذلك الدرويش المولوي الكامل. ولو كانت أمطرت هذا المطر قبل الفتح لما أمكن الفتح بل لم يقدروا أن يخرجوا من متاريسهم. فكان هذا التدبير موفقاً... فحصل المأمول في أحسن وجه. ثم إنه بعد الفتح توالت الأمطار فأوقفت الحركة خارج الخيام.

والظاهر أن هذه الحكاية رتبت إثر وقوع الأمطار فأراد هؤلاء أن يستفيدوا منها ولو بعد حين وقد بينا عن هؤلاء وأوضحنا بعض الإيضاح عن طريقهم، وغاية ما يقال إن هذه وأمثالها سبب نكبة المسلمين وإماتة أرواحهم ونفوسهم الجريئة الحية... ولم يذكر هذه الواقعة صاحب الفذلكة.

تعمير مرقدي الإمام الأعظم والشيخ عبد القادر الكيلاني:

ثم إن السلطان أمر بتعمير مرقدي الإمام الأعظم والشيخ عبد القادر الكيلاني بنظارة شيخ الإسلام يحيى أفندي. وهذا شرع في العمل. فعمر الأبنية التي في ساحة القبة العليا وزينها بقناديل ذهب وفضة. وكذا عمر صندوقاً وقام باللوازم الأخرى. واتخذ ستاراً من صوف أخضر وعمامة.

وقائع أخرى:

ثم إنه كان عين من العجم قاض في بغداد. تمكنوا من القبض عليه فقتل. وكذا قتل دفتري الموصل (عباس البغدادي) لتحقق تهاونه في إرسال المهمات وللاطلاع على بعض أحوال منه غير مرضية. وإن محمد باشا المعزول من قسطموني وجهت إليه (ايالة شهرزور).

قتل القزلباشية:

إن الدولة أرادت أن تقطع دابر القزلباشية إذ علمت أن قد جاء أكثر من ثلاثمائة منهم من النجف إلى الكاظمية فأمر بقتلهم وذلك قبل الفتح وإعطاء الأمان وكذا قتل نحو ألف، ثم قتل نحو أربعمائة.

قتل الواردون من القزلباشية من النجف أيضاً لما علم من جاسوس منهم ألقي القبض عليه جاء وكان حاملاً كتاباً، فيه أنه إذا استولى العثمانيون على بغداد فأخبرونا لنترك أوطاننا ونذهب إلى ديار العجم.

وبهذه التهمة قتلوا[1].

وعلى كل حال إن العثمانيين أبدوا قسوة في القتل لما رأوا من حنق من الإيرانيين فقابلوهم بأشد منه مما لا ترضاه الشريعة فالضرر ممنوع ابتداء، وكذا المقابلة به. فأضاعوا قاعدة (لا ضرر ولا ضرار). وربما كان الحنق من الجيش فلم يستطيعوا صده...

عودة السلطان إلى استانبول:

وبعد ذلك تقرر عودة الركاب الهمايوني إلى الآستانة فعاد في ١٢ من شهر رمضان وأرسل ابن مير فتاح وسائر خانات العجم المحبوسين إلى ديار بكر.

وكان السلطان حينما أراد العودة تقدم لزيارة الإمام الأعظم. ثم إنه عبر مع الصولاقية والمتفرقة العلوفية والچاوش وبلوك اليمين إلى جانب الكرخ فمضوا إلى مرقد الإمام موسى الكاظم. وأمر أن تنظم أحوال بغداد وأن يبقى الوزير الأعظم مع عموم العساكر مدة ببغداد للقيام على العجم والقضاء على غائلتهم وتأسيس الإدارة المنتظمة...

وبهذا انقطعت حوادث السلطان من بغداد بعد أن أودع الشؤون

---

(١) تاريخ نعيما ج ٣ ص ٣٨٣.

إلى أهلها. بقي الوزير الأعظم ووالي بغداد.

السلطان في طريقه إلى عاصمته:

١ ـ إن سفير الهند المذكور سابقاً جاء إلى الركاب الهمايوني في تكريت وهنأه بالفتح. أذن له بالعودة وأمر باتخاذ ما يلزم لذلك فذهب إلى الوزير الأعظم...

٢ ـ إن سفير إيران المرسل من الشاه كان جاء إلى ماردين، ومنها أبقي في الموصل فلما عاد السلطان إلى الموصل في ٢٢ رمضان كتب معه كتاباً إلى الشاه صفي. وفيه أن السفير خليفة مقصود أعيد. فعليك أن تبعث بالهدايا والتقدمات. وإلا دمرت مملكتك بجيوشي العظيمة. ولو كنت شجاعاً لما تخلفت عن الظهور... وكتب في رمضان سنة ١٠٤٨ هـ. وينطوي على التهديد والتهكم.

٣ ـ خرج السلطان من حدود العراق فلا تهمنا حوادث حله وترحاله وسائر وقائعه. وصل إلى ديار بكر في غرة شوال. وفي ١٠ صفر سنة ١٠٤٩ هـ وصل إلى العاصمة باحتفال مهيب.

حوادث الصدر الأعظم
(في العراق)

الصدر الأعظم قرا مصطفى باشا بقي في بغداد ٦٠ يوماً بعد رجوع السلطان، وفي ١٦ منه صلى أول جمعة في (جامع الگيلاني). وكان تموين الجيش صعباً جداً. وفي خلال المدة توالى ورود المؤونة. وفي غرة شوال جاءتهم المؤونة من البصرة في عشر قطع من الأغربة. وجاء سفير العجم، فأعيد إلى الشاه مع حمزة باشا. ثم أرسل مع (سفير الهند) أرسلان آغا المتفرقة. وفي ١٤ شوال تم تعمير القلعة. وفي ١٠ ذي القعدة رحل الصدر الأعظم فنزل (باش دولاب). بقي هناك بضعة أيام.

ثم قصد ديار العجم فتوجه نحو لقمان الحكيم. وفي يوم حركته أبقي في بغداد (١٢٠٠٠) من الجيش البغدادي و (٨٠٠٠) ينگچري من صنف الحراس (نوبتجي)، و (١٠٠٠) سپاهي...

وفي ٢٧ منه حلوا بالقرب من (قنطرة چبوق) من الخالص وهناك اتخذوا مرعى (چايرا)، فبقوا نحو ٢٠ يوماً. ولما كان نهر ديالى قد فاض، فقد اتخذوا جسراً من سفن وفي ٩ ذي الحجة عبر بعض الجند في الكلك من قرية ينگيجه فارين فعلم ذلك ومن ثم اتخذت التدابير من أمير أمراء قرمان حسن باشا فمنع وقوع أمثالها، وفي اليوم التالي نصب الجسر فعبروا عليه فمضوا نحو شهربان...

وفي ١٩ منه ورد السفراء من رستم خان. وبعد أربعة أيام في منزل (زاوية) ورد ميراخور الشاه (محمد قولي) سفيراً، فاستقبل من چاووش، وفي اليوم التالي ورد السفير إلى مجلس الوزير في قزلرباط (السعدية)، فتكلم في الصلح، فسأله الوزير هل جئت بمفاتيح (درتنك) لتطلب الصلح؟ وأبدى أنه لا يتم الصلح ما دام رستم خان في درتنك. وأظهر غضباً على السفير. وكتب بهذا أيضاً إلى الشاه كما كتب إلى رستم خان أن يرحل عن درتنك. أمهلهم أن يأتوا بالجواب خلال ستة أيام وإلا شرع في الحرب.

أما السفير الإيراني فإنه أرسل في الحال رسولاً إلى الشاه، وقصد السردار التوجه نحو الهدف المقصود، فجاءه السفير قائلاً:

سيدي الصدر!

كان ذهب سفيرنا إليكم، فاتخذتموه دليلاً، فأخذتم بغداد. والآن اجعلوا داعيكم دليلاً أيضاً لعلكم ترغبون في فتح أصفهان!!

أبدى ذلك للصدر بمقام اللطيفة، ورجا أن لا يعجل بالسفر إلى أن ينتهي الوعد المضروب فيصل جواب الكتاب المرسل. ومن ثم يكون

لكم الأمر. تضرع للوزير أن يؤخر حركته. وفي غرة المحرم سنة ١٠٤٩هـ رحل رستم خان عن درتنك. رجع القهقرى فجاء الخبر بذلك.

وفي اليوم التالي ٢ المحرم وصل إلى خانقاه الصغير، وفوضت ايالة بغداد إلى (درويش محمد باشا). وفي ذلك المنزل ورد الخبر أن صارو خان السفير الكبير من جانب الشاه سيصل قرب قصر شيرين إلى صحراء (زهاو)[١]. وهناك كان الشاه أثناء حصار بغداد يترقب الحالة. وجاء من رستم خان كتاب يشعر بأنه غادر درتنك امتثالاً للأمر، وبين فيه أن صارو خان وكيل الشاه سيوافي قريباً.

السفير الإيراني ـ المعاهدة:

في ١١ المحرم ورد صارو خان، جاء إلى الفيلق الثاني، فأرسل لاستقباله من قام بالمهمة، وأعدت له خيمة خاصة، وبعد العصر واجه الصدر الأعظم. وجرت بينهما محادثات. وبعد ذلك تكون الديوان العالي، فألبس ومن معه الخلع. وفي ١٤ منه تم الصلح بعد مفاوضات اجتمع في خلالها رجال الجيش والأمراء في خيمة الوزير الأعظم، وحضر صارو خان وكيل الشاه، والسفير الأول محمد قولي فتفاوضوا في الأمر، وأوضحوا أن الصلح سيد الأحكام وباعث رفاه الأنام.

وكان ما تم عليه الاتفاق بعد أخذ ورد ومفاوضات كثيرة: أن تكون جسان وبدرة ومندلجين (بندنيج) ودرنه ودرتنك إلى سرمل من ايالة بغداد وما بينها من صحار في حوزة بغداد وكذا ضياء الديني وهاروني من قبائل الجاف، وأن تكون القرى التي في غربي قلعة زنجير للعراق، وهكذا يعتبر من شهرزور ما كان في غربي (قلعة ظالم علي) وما فوقها من جبال وما كان ناظراً إلى هذه القلعة من الأطراف إلى الكدوك المار

---

(١) وردت (رحارا)، وأحياناً (زحا). وصوابها (زهاب) أو زهاو.

إلى شهرزور وكذا قلعة قزلجة وتوابعها، فكل هذه تضبط من جانب الدولة العثمانية. وعدا ذلك فإن أخسخة ووان وشهرزور وبغداد والبصرة وما يدخل فيها من بقاع وقلاع ونواح وأراض وجبال وتلال فلا يتعرض بها من جانب الشاه قطعاً، ولا يتدخل بها وهكذا القلاع بين مندلجين إلى درتنك، وبيره، وزردوي المسماة زمردماوا أيضاً وما كان في شرقي قلعة زنجير من قرى وقلاع، وأورمان وتوابعها، ومهريان وتوابعها فكل هذه تكون في تصرف الشاه وضبطه. ومثلها حدودها وتوابعها وما يدخل فيها ولا يتدخل فيها من جانب السلطنة العثمانية، وزنجير قلعة تقع في قمة جبل سيكة وما كان في حدود وان وهي قرتور، وماكور. وكذا ما كان في جانب قارص وهو مغازبرد فإنها تهدم من الطرفين. والسلام.

هذه المعاهدة صارت أصلاً لحل الاختلاف في الحدود. وكانت الدولتان لم تتقيدا بعهد لكل واحدة منهما آمال. فجاءت هذه المعاهدة حاسمة للنزاع وقطعت آمال كل دولة. فوقفت عند نصوصها. وكل تجاوز وقع بعد هذا كان يحل بالاستناد إليها، وبمراجعة نصوصها كما أن حدود الدولة أيام السلطان سليمان صارت أصلاً في تكوين هذه المعاهدة.

أرسلت هذه المعاهدة إلى الشاه فأمضاها في ١٩ المحرم وأعطيت نسختها إلى محمد قولي بك ليذهب بها إلى استانبول لإمضائها أيضاً. وعلى هذا أجريت ضيافة للسفير الكبير والسفراء الآخرين. وفي اليوم التالي أجرى السفير الكبير ضيافة للأمراء. ومن ثم ذهب صارو خان إلى الشاه، وبقي في الفيلق محمد قولي بك ليأخذ المعاهدة إلى استانبول للإمضاء. وفي اليوم التالي ذهب من صحراء (حورين)[١].

---

(١) (حورين) كذا ورد. والصواب (هورين). ولا تزال معروفة بهذا الاسم.

والي بغداد درويش محمد باشا:

عهد الصدر الأعظم إليه بولاية بغداد في ٢ المحرم سنة ١٠٤٩ هـ مكان كوچك حسن باشا وعين هذا لمنصب وان إلا أنه نقل إلى طرابلس... ونال درويش محمد باشا الوزارة أيضاً في ١٥ المحرم. وفي ٢١ منه ودع الصدر الأعظم، وعاد إلى بغداد من المعبر المسمى (علي كچيدي) من نهر ديالى. ولما وصل الصدر إلى ديار بكر جاءته في ٢٤ صفر برات الوالي. وهذا من حين ذهب إلى بغداد ضبط أمورها وجلس على سرير الحكم في السراي الذي كان بناه بكتاش خان.

عودة الصدر الأعظم:

وفي ٢٥ المحرم عبر الصدر نهر ديالى، وتوجه نحو كركوك، وبعث رجب آغا بخبر الصلح. وأنعم على جعفر باشا (أخي محمد باشا) بإيالة شهرزور وكان والي كركوك آش محمد باشا قد حصلت شكاوى منه، فحبس في القلعة في ٢ صفر وأذن لجيش مصر بالعودة. وفي ١٠ منه عبر الزاب على جسر من سفن، ومنحت مملكة سيد خان أمير العمادية إلى أحد أولاده. وفي ٢٧ صفر رحل الصدر عن الموصل. وفي أسكى موصل ورد (رجب آغا) وجاء بالخط الهمايوني الشريف مشعراً برضا السلطان بالصلح.

جامع القلعة

يراد بالقلعة (القلعة الداخلية). ولا تزال معروفة بهذا الاسم. وهذا الجامع داخلها. وكان شاهد هذه القلعة أوليا چلبي فقال:

«في داخل هذه القلعة بيوت من طين، وجامع السلطان مراد إلا أن بانيه الأول السلطان سليمان» اهـ[1].

---

(١) رحلة أوليا چلبي ج ٤ ص ٤١٩.

ولا شك أن أوليا چلبي كتب عن أصل هذا الجامع ما سمعه، ولم يكن صواباً، فإن هذا الجامع بني أيام دخول السلطان مراد بغداد، فظن أنه من بنائه، وأنه كان من تعمير السلطان سليمان. وجاء التصريح في الوقفية المؤرخة ١١ رمضان سنة ١٠٤٨ هـ أن هذا الجامع أنشأه جلال الدين ابن المرحوم بهاء الدين في محلة السكه خانه (دار الضرب) الواقعة في محلة القلعة. وذكر من حدود الجامع (تكية الملا سعد الدين ابن السيد عبد الجليل الدوري). وهذه التكية لا تزال ولكنها بحالة دمار.

وبقرب جامع القلعة مرقد عليه قبة يقال له (السيد محمد الزمچي). وليس لدينا ما يوضح عنه. والوقفية تنطق بالموقوفات منها ما هو داخل القلعة، ومنها ما هو خارج القلعة. وكان القاضي الذي حكم بصحة الوقف (مذكره چي زاده مصطفى). وهو أول قاض بعد فتح السلطان مراد.

ولا تزال تولية الوقف بيد ذرية الواقف، والمتولي الآن السيد طه ابن السيد شاكر ابن السيد محمود القلعه لي بن رحمة بنت محمد ضياء الدين بن علي بن عبد الرزاق بن عبد القادر بن بهاء الدين ابن الواقف. والسيد محمود هذا يعرف بالسيد محمود الثنائي. خطاط معروف. غير (محمود الثنائي) المشهور في عهد المماليك. أوضحت ذلك بتفصيل في كتاب (المعاهد الخيرية)، وفي (تاريخ الخط العربي في العراق).

وهذا الجامع أنشىء بتاريخ الوقفية، ولم يكن جامعاً آخر كما توهم بعضهم، أو كما ذكره أوليا چلبي نقلاً عمن ليس لهم علم. والملحوظ أن من شهود الوقفية مدرس المستنصرية إبراهيم، ومدرس مدرسة مرجان أحمد بن عمر، ومدرس مدرسة أبي النجيب محمد بن حسين وآخرون.

حوادث سنة ١٠٤٩ هـ ـ ١٦٣٩ م

نقيب السادات وسادن مشهد الإمام الحسين

نقيب سادات بغداد (السيد دراج) كان سادن حضرة الإمام الحسين (رض) وكان من الأعيان المشهورين، وهو صاحب قوة ومكنة، فلما استولى شاه العجم (الشاه عباس) على بغداد أحسن الظن به واعتقد فيه الاعتقاد الجميل، فرعاه وأكرمه. فكان في مقام الخدمة. يفكر في العواقب، فلم يغفل أمر العثمانيين. وكان في ذلك الحين أراد الشاه أن يقتل أهل السنة قتلاً عاماً، فتوسط (السيد دراج) فقال له سأختار محبي آل علي، وما عداهم فاقتلهم. وبهذه الوسيلة أنقذ خلقاً كثيراً من القتل.

وهذا العمل المشكور كله لم يمنع الوالي من الوقيعة به بعلة أنه كان شيعياً معروفاً بتشيعه، فلم يتحمل شهرته ومكانته فاتخذ ذلك وسيلة للقضاء عليه (قتله)، واستولى على أمواله الوافرة في حين يدعي أنه (درويش)، فلم تردعه هذه الخدمة النبيلة، ولا المكانة المقبولة. أراد هذا الوالي أن يستقل بنفوذ العراق وحده، وأن تكون بغداد والأنحاء العراقية خالصة للدولة العثمانية. وقد جاء ذكر ذلك في تاريخ نعيما، وفي فذلكة كاتب چلبي، وفي خبر صحيح[1]. والآن من بقايا السيد دراج (أسرة نقيب كربلاء). ومنهم النقيب الحالي صديقنا السيد الفاضل (حسن النقيب). وهو من الأخيار. وللتفصيل محل آخر.

وفاة السلطان مراد الرابع:

وفي ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ هـ توفي السلطان مراد. وكان بعد عودته إلى استانبول قد بنى قصراً نفيساً سماه (بغداد كوشكي) أي (قصر بغداد). بذل في عمارته وتزييناته الأموال الكثيرة واستخدم أرباب الفن والصنعة. كتب فيه الكتابات الخطية النفيسة من آيات محلولة بالذهب

---

(١) خبر صحيح. من كتب التاريخ المهمة المعتبرة يأتي في حينه.

بخط الخطاط الشهير (محمود چلبي الطوبخانه لي). وشغل به كثيرون من أهل المعرفة لتظهر فيه الصنعة والفن من نقش وتذهيب وتزويق... كتب فيه بالخط الجلي ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد﴾ وغيرها[1].

وهذا القصر عاد متفرجاً للمتفرجين. ينظرون إلى ما فيه من صنعة وريازة. رأيته في سراي طوپقپو باستانبول معروضاً لزوار المتاحف. وهناك (خزانة بغداد) (كوشكي). رأيت بعض كتبها النفيسة النهاية من الصنعة...

وبهذا تمت حوادث هذا العهد. وغالب ما عولنا عليه من المراجع (تاريخ نعيما)، و (فذلكة كاتب چلبي) و (گلشن خلفا) و (خلاصة الأثر) وباقي ما أشير إليه أثناء ذكر المصادر في حينها...

العشائر

في هذا العصر لا نرى للعشائر إلا ذكراً قليلاً لأن المقارعات كانت دولية، والقوى عظيمة بين الحكومتين واستعانتها في الدرجة الأولى بقوتها، وفي المملكة لم يتأسس نظام تام لنرى به العلاقة مكينة بين العشائر والحكومة بل إن الحكومة لم تتمكن سلطتها لا على العشائر ولا على غيرها، وقد مر بنا في المجلدات السابقة ذكر قبائل عديدة إلا أن القبائل التي سمع لها صوت في هذا العهد أشهرها:

١ ـ قبيلة طيىء:

إن أمراءها (آل أبي ريشة) من فخذ آل مرا.

١) ظاهر: هو أبو مدلج[2] المترجم في الكواكب السائرة ابن

---

(١) تاريخ نعيما ج ٣ ص ٤٤٨.

(٢) ظاهر هو أبو مدلج بن عساف أي أن المترجم هو ظاهر بن عساف وإلا فلا تستقيم العبارة الواردة في الخلاصة كتب ظاهر بن مدلج والصحيح أبو مدلج. هذا الغلط غيّر المعنى.

عساف بن عجل بن نظير بن قدموس كان أمير عرب الشام وهو من فخذ أبي ريشة، وله قوة خارقة بحيث يمسك الدرهم من الفضة بأصبعيه. يفركه فيذهب نقشه ويفتت الحنطة بين أصبعيه. اشتهر بالبطش والقسوة.

ومن عجيب أمره أنه دخل عليه ولده قرموش وهو مريض ليقتله فضربه بسيف فقتله، وشرب شخص لبناً (حليباً) كان لامرأة فشكته إليه ولما سئل أنكر ذلك وحلف بحياته أنه لم يشرب فطعنه برمح كان بيده فإذا اللبن خارج من جوفه فأمر المرأة بأخذ بعير من إبله بدل ما غصب من لبنها.

مات على فراشه سنة ٩٤٥ هـ. انتهى[١].

٢) أحمد أمير العرب من آل حيار. وهم ـ كما في خلاصة الأثر ـ حكام العرب أباً عن جد[٢]. . ومقام هؤلاء في بلاد سلمية وعانة، والحديثة. ومن عادتهم أن من استولى منهم على خيمة المال والسلاح يكون حاكماً على العرب جميعهم. وذلك أن لهم خيمة من الشعر كبيرة جداً ولها حرس يتناوبون في اليوم والليلة وكلها صناديق مقفلة بالأقفال الحديدية المحكمة والصناديق مملوءة من الذهب والفضة والجوهر والسلاح وغير ذلك من نفائس الأشياء وكان أحمد استولى عليها. وجاء أنه قتل ظاهراً.

٣) شديد بن أحمد. هذا ولي بعد أبيه. وكان ظالماً عنيداً متكبراً، خسيساً. . . ولم يزل حاكماً إلى أن مات سنة ١٠١٨ هـ. واتفق أنه كان في خيمة في بعض صحارى حلب، وكان ابن عمه مدلج بن ظاهر معه في الخيمة وكان شديد يلعب الشطرنج مع بعض أقاربه ولم يكن عنده من إخوته أحد فاختلس مدلج الفرصة في خلو الأمير فناداه وهو يلعب يا

---

(١) خلاصة الأثر ج ٢ ص ٢٢٢.

(٢) في تاريخ العراق أن هؤلاء من طيىء لا من البرامكة كما في خلاصة الأثر.

شديد يا شديد فقال نعم فما أتم قوله (نعم) إلا ومدلج ضربه بخنجر في بطنه، خرج من ظهره فمات.

٤) مدلج. هذا هو قاتل شديد انتقاماً لأبيه ظاهر الذي قتله أحمد والد شديد فولد المقتول قتل ولد القاتل. وهذا انتزع الإمارة من الأمير حسين بن فياض الحياري فانعقدت له الإمارة. قدم بجماعة من الأمراء فأزاحوا حسيناً عن الإمارة وعن خزائن والده وحاولوا قتله فهرب... وإنما انعقدت له الإمارة لكونه أكبر منه وأقرب إلى سلسلة الإمارة ولكونه كان شريك والده في قتل الأمير شديد ابن عمهما[١]. وفي تاريخ نعيما أنه كان أمير العربان من مدة مديدة، وأن العشائر البدوية بين بغداد والموصل تحت سلطته وإدارته، وكان أيام حافظ أحمد باشا قد مال إلى جانب العجم، ولما ورد خسرو باشا لاستخلاص بغداد عزم على الوقيعة به واستئصاله من البين فنكل به وبعشائره وأثناء ذلك سقط من على فرسه فهلك وطلبت قبائله الأمان فأذعنت بالطاعة. سنة ١٠٤٠ اهـ.

ونصب الوزير أميراً على العربان سعيد بن فياض وكان له شأن في أيامه[٢]...

٥) الأمير حسين بن فياض الحياري أمير العرب. وهذا كان من أمره أنه لما مات والده ظن أنه ولي عهده في الإمارة فوضع يده على خزائن والده واحتفت به العرب. وإذا بابن عمه مدلج قد نازعه فأزاحه عن الإمارة.

ثم إن الأمير حسيناً نزل على بعض الكبراء واستظل بظله حتى أصلح بينه وبين مدلج وجعل له جانباً من الولاية قليلاً. ثم وقع في بغداد ثلج عظيم لم يعهد مثله قبل ذلك ببغداد وحسين هناك ومدلج بعيد

---

(١) خلاصة الأثر ج ٢ ص ٢٢٢.

(٢) تاريخ نعيما ج ٣ ص ٦٥.

عنه فأمن مدلج بسبب ذلك فركب حسين في الثلج وذهب بعد أيام إلى منازل مدلج ونزل خفية حتى يدرك الليل ويدخل إلى نسائه. وكانت زوجة مدلج بنت شديد (مر ذكره) تساهر النساء وكان مدلج يدخل ثملاً من الخمر فلبس حسين لباس النساء ودخل بينهن وأطال الجلوس مترقباً الفرصة في قتل ابن عمه وكانت بنت شديد زوجة لوالد حسين فبالفراسة عرفته وتحيرت بين أن تسكت فيقتل زوجها وبين أن تتكلم فيقتل ابن زوجها وإن قالت له اهرب تخاف أن يسمع زوجها فقالت في مؤخر كلامها بمناسبة لا ينبغي المخاطرة في الأمور وينبغي الاحتفاظ على النفس من القتل. فلما علم حسين أنها اطلعت عليه خرج من بين النساء هارباً. ثم وقع في خاطرها أنه ربما يقتل زوجها خارج دارها فصبرت ساعة ثم بعثت لزوجها أنني رأيت بين النساء من يشبه حسيناً. وما تحققت هذا الأمر فاحتفظ على نفسك فعند ذلك بعث مدلج جماعته فوجدوا حسيناً ركب فرسه وانهزم فأتبعه بالعساكر فلم يدركوه.

ثم بعد ذلك كثر أتباع حسين من العرب ووعدته طائفة ممن كانوا عند مدلج أن يتابعوه ويشايعوه فأشار إليه قوم بأن يأخذ من مراد باشا حاكم حلب عرضاً في الإمارة ليتقوى من جانب السلطنة بعدما قال له بعض العرب (إن الأروام لا وفاء لهم بالعهود) فلم يسمع وجاء إلى حلب وقدم الهدايا إلى الباشا ووعده وكتب الوزير إلى مدلج يطلب منه خمسة وعشرين ألفاً ليقتل له حسيناً فوعده فغدر مراد باشا بحسين ووضعه في سجن القلعة حتى جاءه المال فخنقه ثم بعث عسكره لنهب أمواله وجماعته فقاتلوهم فانهزم أتباع مراد باشا وأخذ عرب حسين جميع ما كان بيد جماعة مراد باشا حتى نزعوا ثيابهم وأدخلوهم إلى بلاد أريحا حفاة ثم إن الله سلط الوزير الحافظ حتى قتل مراد باشا[1].

---

(١) خلاصة الأثر ج ٢ ص ١٠٢.

٦) خالد العجاج من آل أبي ريشة. كان في محاربات بغداد بعد أن استولى عليها بكر صوباشي.

وكان غالب سكناه في أنحاء هيت وعانة وما جاور تلك الأطراف. وقد أسس له ارتباطاً مع والي بغداد بكتاش خان الحاكم من جانب إيران فنال احتراماً لدى العجم، وله فرس أعطاه للحاكم المشار إليه يسمى عند العرب (كحيلان). ولا يزال هذا الأمير حياً إلى ما بعد الفتح وقتل سنة ١٠٥٤ هـ[١]...

وكلمتنا الأخيرة في هذا الموضوع أن العشائر لم يكن لهم الصوت فيما بين سوريا والعراق إلا قبيلة طيىء فإنها حافظت على مكانتها. وظهر فيها أمراء آخرون ولم تنقطع الإمارة منهم من أيام الحكومات السالفة... ولهم فروع متفرقة في أنحاء عديدة. فصلنا القول فيها في كتاب (عشائر العراق).

٢ ـ القشعم:

مر بنا أن هناك قبائل أخرى مثل (غزية) وآل قشعم، وزبيد ولكنها لم تشترك في الحروب ولم تنتصر لناحية، ولا تزال العشائر محافظة على أوضاعها السابقة، تخشى الحكومات وتود الابتعاد عنها...

(والقشعم) من هذه القبائل أكثر ذكراً بين قبائل العراق بعد قبائل طيىء. ينطق بها (الجشعم) وهي معروفة.

٣ ـ الجاف:

من القبائل الكردية. جاء ذكرها في المعاهد المعقودة أيام السلطان مراد. أوضحت عنها في (كتاب عشائر العراق الكردية).

---

(١) نعيما ج ٤ ص ٩١.

٤ ـ باجلان:

وباجوان منهم وذكرتهم في عشائر العراق الكردية. وفي كتاب (الكاكائية في التاريخ)، وفي رحلة المنشىء البغدادي. أعانوا الدولة العثمانية في حروب الإيرانيين.

وهناك عشائر أخرى عربية وكردية لا محل لذكرها.

إمارات عراقية

١ ـ اليزيدية

ظهروا في هذا العهد أكثر وبدت أعمالهم، أو أن المدونات عرفت عنهم أوضح. ويهمنا بيان ما يتعلق بهم في هذا العهد. وجل ما نعلمه عن هؤلاء وقائع الصورانيين واستمرارهم في حروبهم وهذه لم نجد التفصيل الوافي عنها إلا أننا ذكرنا نتائجها في أنحاء إربل، وأنها كانت قاسية جداً. ولعلها السبب في القضاء عليهم في تلك الجهات. والباعث المهم في هذا مناصرة الدولة لهم، ودخولهم في السياسة والحروب.

ومن ظواهر هذه المناصرة بل من نتائجها أن عدلت الدولة عنهم، ومالت إلى من هو أقوى منهم أعني (أمير العمادية). ومن ثم نجد الصدود عنهم قد ظهر في (فتوى شيخ الإسلام أبي السعود). وهذه الفتوى جاء نصها في مؤلفات عديدة، ذكرناها في (تاريخ اليزيدية)، وتعد أقدم فتوى للعثمانيين. أصلها كتب باللغة التركية، وذكرت في الرسالة الذهبية للخياط. نقلها إلى اللغة العربية. ولم يعين تاريخها. مع العلم بأن شيخ الإسلام أبا السعود العمادي قد ولي المشيخة سنة ٩٥٢هـ وأن العلاقة بالعراق كانت سنة ٩٤١ هـ، بل قبل ذلك كان الاتصال بشمال العراق، وكان هناك يزيدية أيضاً. ولا شك أنها كتبت بعد أن ولي المشيخة، ووفاة أبي السعود كانت في سنة ٩٨٢ هـ. ولكن

المؤرخين لم يذكروا حادثاً أدى إلى إصدار هذه الفتوى إلا ما وقع بين الصورانيين وبين الداسنية. وكانت هذه من أهم الوقائع قسا بها كل فريق بالآخر ولعل صدور الفتوى مقروناً بقبيلة الأمير الداسني. ويفهم من فحوى السؤال أنهم تعرضوا بجيش العثمانيين هاجوا لما وقع عليهم وعلى أميرهم فحصلت الدولة هذه الفتوى للوقيعة بهم. وهذا أقوى احتمال في إصدار هذه الفتوى.

ولما كانت تحوي مطالب، وعندي نصها التركي في مخطوطة قديمة ثم نقلت إلى اللغة العربية. والتشكيك بها غير صحيح. رجحت أخذ ترجمتها منقولة إلى العربية من (الرسالة الذهبية) للخياط الموصلي[1]. قال:

«ما قول أئمتنا الحنفية، والشافعية، والمالكية، والحنابلة، وما جوابهم عن عسكر المسلمين، إذا غزوا هذه الطائفة الطاغية وقتلوها. أو قتل أحد من المسلمين بأيديهم، هل يكون قاتلهم غازياً ومقتولهم شهيداً. أفتونا مأجورين، مثابين؟

الجواب: والله أعلم بالصواب، أنهم يكون قاتلهم غازياً ومقتولهم شهيداً. لأن قتالهم جهاد أكبر، وشهادة عظيمة، وفي هذه الحالة سبب حل قتلهم، وسبب حل سبي نسائهم وذراريهم. هل السبب الموجب لذلك بغيهم، وخروجهم على سلطان المسلمين وإشهارهم السيوف على قتل عساكر المؤمنين، أو السبب بغضهم لحضرة الإمامين الكاملين

---

(١) الرسالة الذهبية في الرد على اليزيدية وتسمى الفريدة السنية في الكشف عن عقائد اليزيدية تأليف محمد ذخري بن أحمد الخياط من علماء الموصل كتبت أيام ولاية محمد رؤوف باشا والي بغداد عندما أرسل إلى اليزيدية السيد محمد طاهر بك رئيس أركان الجيش ببغداد سنة ١٢٨٩ هـ ـ ١٨٧٣ م. وصفناها في كتاب (تاريخ اليزيدية وأصل معتقدهم). في النسخة المعدة للطبعة الثانية.

الهمامين التقيين النقيين الشهيدين النسيبين، الإمام أبي محمد الحسن السبط والإمام أبي عبد الله الحسين، سيدي شباب أهل الجنة، وعداوتهم المقتضية لاستحلال قتلهم وقتل أولادهم من أهل بيت النبوة، إغاظة لجدهم الرسول عليه الصلاة والسلام، أو السبب في ذلك بغضهم لحضرة قدوة الأولياء، مدينة العلم، الخليفة الرابع علي المرتضى، ابن عم المصطفىﷺ المقتضي بغضه بغض الله ورسوله، وتحقير علمه وقرابته من الرسولﷺ، أو السبب استحلالهم قتل العلماء الفاضلين، أو استحلال قتل المشايخ الكاملين، وقتل رؤساء الدين المبين، والاستهتار بكلام الله المجيد، وبالكتب الشرعية والتفاسير والأحاديث وإنكار يوم القيامة والحشر والنشر، وإنكار أركان الدين الخمسة، أو السبب الموجب لقتلهم اعتقادهم في عدي بن مسافر الأموي أنه الشريك الأغلب لحضرة رب العزة جل شأنه سبحانه. تعالى عن ذلك علواً كبيراً، أو السبب محبتهم التامة مع الشيطان اللعين، واعتقادهم فيه أنه طاووس الملائكة مشاققة لأخبار الله عز وجل، أو السبب في وجوب قتلهم قطعهم طريق عباد الله، وإخافة أبناء السبيل بسفك الدماء، ونهب الأموال على الدوام بلا انقطاع، أخذاً من قوله عز وجل: ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف**﴾ الآية، أو السبب هو إباؤهم عن عقود أنكحتهم من أنفسهم، وإنما يفوضون عقودهم إلى رأي رئيسهم الفاجر، أو السبب في ذلك غير هذه الوجوه المذكورة؟ أفتونا الجواب الصحيح تكونوا مأجورين!

الجواب: نعم أسباب حل قتالهم هي جميع الوجوه المذكورة، وغيرها، وهم أشد كفراً من الكفار الأصليين، وقتلهم حلال في المذاهب الأربعة وجهادهم أصوب، وأثوب من العبادات الدينية وتشتيت شملهم، وتفريق جموعهم، والمباشرة في قتالهم وقتل رؤسائهم من

الواجبات الدينية، وحكام الوقت والولاة الذين يرخصون في قتلهم ويحرضون على قتالهم، ويرغبون في سبيهم. شكر الله سعيهم وأعانهم وساعدهم على مقاصدهم وأيدهم عليهم بنصره العزيز. فلهم أن يقتلوا رجالهم ويستأسروا ذريتهم ونساءهم ويبيعوهم في أسواق المسلمين كأسارى سائر الكفار، ويحل لهم أيضاً التصرف في أبكارهم وزوجاتهم بعد الاستيلاء بملك اليمين على ما عليه الفتوى من القول الأقوى، فتحقق حينئذ كفرهم وجواز لعنهم، فأما امتناع الإمام الشافعي (رض) عن لعن يزيد لعنه الله فليس بثابت كرواية عنه ولئن سلم بثبوتها عنه، فامتناعه إنما كان لأجل عدم كون ذلك اللعين من عبدة الأوثان، لا لأجل كونه عنده مؤمناً، لأن بعض الأولياء المقربين أخذوا عنه الخبر بحسب المعنى من روحه الشريفة ومن مرقده العالي، وقد أخذوا عنه أيضاً في عالم الرؤيا أخباراً صحيحة في تجويز اللعن على يزيد. وقد قال الإمام النعمان بن ثابت أبو حنيفة الكوفي عليه رحمة الوفي، في يزيد: ملعون! ووقع هذا اللعن منه في جواب الإمام أبي يوسف عليه الرحمة وهذه الطائفة الطاغية ليست من الاثنتين والسبعين فرقة من الفرق الإسلامية بل هم مرتدون عن الإسلام، خارجون عن الملل كلها، لأنهم مرتكبون على الدوام الفسوق والفجور، مبيحون الأعمال القبيحة والخمور، معتادون قطع السبيل على عباد الله وسفك دمائهم، وغصب أموالهم، ومجموعهم من قبيل أولاد الزناء، وأيضاً أجمع علماء الأمصار كلهم كعلماء اليمن، وقره باغ، وعلماء التاتار فأفتوا بحل قتلهم واسترقاقهم وسبي نسائهم وذريتهم بالتأكيد البليغ، وبينوا أن قاتلهم ينال ثواب الدارين وداخلاً جنة النعيم دخولاً أولياً، صرحوا بذلك حتى مولانا الإمام فخر الدين الرازي في أماكن متعددة من تفسيره الكبير أثبت جواز اللعن على يزيد مستدلاً على الجواز بدلائل نقلية وعقلية، وأثبت حل قتلهم، وحصول أجر الغزاة لقاتلهم، وثواب الشهداء لمقتولهم بهذا

النظر، وأثبت حل التصرف بملك اليمين في أبكارهم وزوجاتهم وإباحة أسر نسائهم وذراريهم وجواز بيعهم شرعاً. قال ذلك في تفسير بعض السور القرآنية، وكذلك الإمام أحمد والإمام أبو الليث السمرقندي ومولانا عبد الرحمن الجامي أفتوا كلهم بجواز التصرف بهم، حتى أن مولانا المذكور كتب في الإباحة المذكورة رسالة فتوى وإني رأيتها عياناً بخطه. ولا سيما مولانا سعد الدين التفتازاني في شرح عقائده صرح بجواز اللعن على يزيد، وعلى أنصاره، وأعوانه، وكذلك السيد الشريف الجرجاني وأكثر العلماء صرحوا بجواز اللعن على يزيد، وبالتعجيل على قتالهم من غير إمهال، وعدوا إهمال قتالهم مذموماً، ولا سيما حضرة الشيخ عبد القادر الجيلي قدس الله سره العزيز قد قال في وعظه الشريف في بغداد اسمعوا يا معاشر العلماء والصوفيين، إن يزيد بن معاوية ملعون وعمله باطل، وأعوانه ضالون، وأنصاره باغون يدخلون النار معه بأشياعهم. قال ذلك على منبره خطيباً مصرحاً بتحقيق موته على الكفر، وقال ألا إن أولياء الله وأحباءه وصالحي خلقه أعداء هذا اللعين وباغضوه. نقل ذلك القول عنه محققو أصحابه في كتابه المسمى بالوعظي حتى قال إن قتال هذه الطائفة الضالة أهم من قتال الكفار الأصليين لسراية أضرارهم للناس. حتى يروى عن علي كرم الله وجهه أنه لما رجع من قتال الخوارج منصوراً، قال: أيها الناس إن كل من عادى أولادي وأهل بيتي الطاهرين، وأهانهم، فكأنه بغض رسول الله وأهان الخلفاء الكرام، وهو عند الله فاجر ملعون، ومن بعد فكل من كان مؤمناً موحداً لا ينبغي له أن يتردد في إهانتهم وقتالهم واستحلال أطفالهم وأموالهم والإهانة لهؤلاء الخذلة إكراماً للأنبياء والأولياء والخلفاء وتفريجاً يلحق روحي بعدي، إذ قلع فسادات هذه الطائفة الضارة عن وجه الأرض من الواجبات الشرعية فلأجل ذلك الدافع حررت هذه الفتوى، وأثبتها نقلاً وشرعاً واجتهاداً، وسلمت هذه الفتوى

بأيدي أهل الجهاد والتقوى حتى تصل إليهم الغيرة على كتاب الله المبين وتحصل لهم النخوة على الدين المبين، ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» اهـ[1].

تمت فتواه رحمه الله وأرضاه.

هذا واليزيدية في أيام السلطان سليمان نالوا مكانة كبيرة. تولوا إربل في أيام أميرهم حسين الداسني، وانتزعت الإمارة من الصهرانيين بقتل أميرهم عز الدين شير. ومنحت لأمير اليزيدية. والصهرانيون لم يهدأ لهم بال وأصابتهم غوائل حربية ووقائع لم تثن عزيمتهم، فاستمروا في قتالهم، فكانت النتيجة أن تغلبوا على الداسنية (اليزيدية)، فأمر السلطان بقتل أميرهم (حسين بك الداسني).

لا يهمنا التعرض لأكثر من هذا. وقد بسطنا القول في (تاريخ اليزيدية) المعد للطبعة الثانية، وذكرنا وقائعهم عند الكلام على الصهرانيين.

٢ ـ إمارة أردلان

هذه الإمارة تكلمنا عليها في حوادث شهرزور[2]. وكنا وقفنا بها عند ذكر (هلو خان). وفي وقائع سنة ١٠٢٢ هـ في الصلح المعقود مع إيران اشترط على الدولة الإيرانية أن لا تساعد أمير أردلان في شهرزور. وفي حوادث سنة ١٠٣٢ هـ جاء أن أمير أردلان (أحمد خان). وكان في جهة إيران في المخاصمات مع العثمانيين. مال إليهم. وهذا هو ابن هلو خان أمير شهرزور.

---

(١) الرسالة الذهبية ص ٦٢: ٦٨.

(٢) ذكرت في ص ٧٦ من هذا الكتاب.

وعلى كل حال لم تذعن هذه الإمارة للعثمانيين بسهولة. وإنما ناضلت عن نفسها ما استطاعت. وفي أثناء المباحث ورد ذكر أمراء آخرين من الأردلانيين إلا أن الرياسة كانت بيد من ذكروا. وورد تصريح أيضاً في معاهدة السلطان مراد فيما يتعلق بحدود العراق وبذكر هذه الإمارة. وتقف حوادث العراق عند هذا لما يخص هذا العهد[1].

٣ ـ إمارة الصورانيين

وهذه الإمارة وقفنا بها عند قتلة عز الدين شير أميرهم. والآن نتناول ما جرى على هذه الإمارة بعد ذلك فأقول:

تقلص ظل هذه الإمارة، ففرت من وجه السلطان سليمان، واختير لإمارة إربل حسين بك الداسني. وهذا جرت في أيامه وقائع أدت إلى تدمير طائفته اليزيدية وتقلص ظلهم بما توالى من معارك دامية.

وذلك أن قتلة عز الدين شير أدت إلى إقصائهم إلى الجبال. وبعد حروب قاسية مع اليزيدية تمكنوا من الاستيلاء على إربل. ثم طوي ذكرهم بعد قتلة الأمير سيف الدين من السلطان سليمان. ومن ثم عاد ذكرهم وتجدد بصورة عامة، ولم يعين اسماً.

وجل ما يعول عليه في هذه الحالة الشرفنامه فإنها توسعت في ذكرهم إلى أيامها. وتفصيل الخبر أن عز الدين شير كان قتله السلطان سليمان سنة ٩٤١ هـ. وهذا انقطعت به الإمارة عن إربل، ولكن بقيت هذه الإمارة عشائرية، وخلف عز الدين شير من خلف ممن سبق ذكرهم في حوادث السلطان سليمان القانوني[2].

ثم إن الحكومة أودعت إدارة إربل إلى حسين بك الداسني أمير

---

(١) جاء في عالم آراي عباسي تفصيل لما يتعلق بالأردلانيين.

(٢) ذكرت في ص ٧٢ من هذا الكتاب.

اليزيدية، فانتزع السلطة من الصورانيين. وكانوا لم يهدأوا على ما جرى، ووقعت بينهم حوادث دامية بالوجه المذكور حتى دمروا اليزيدية أيام الأمير سيف الدين بك. وهذا استولى على إربل[1].

وبعد ذلك أودع السلطان إمارة إربل إلى أمير العمادية حسين بك. وإن الأمير قلي بك بن سليمان بك بن مير سيدي مال مؤخراً إلى الدولة العثمانية، وطلب أن تودع إليه مملكة آبائه الموروثة له، فلم تأمن الدولة منه، ومنحته لواء السماوة من أعمال البصرة. وبعد أن صار على إربل أمير العمادية حسين بك تمكن من إعادة الأمير قلي بك فجعله أميراً على أنحاء حرير من مملكة الصورانيين.

وبهذا أرادت تقريب هؤلاء، ولم تشأ أن تنفرهم. ووقائع إيران مترقبة في كل حين. وبوفاته ترك من الأولاد بوداق بك، وسليمان بك، فخلفه الأول منهما. وهذا حكم (شقلاوة) وسماها في الشرفنامه (شقا آباد). وفي هذه الأثناء حدث ما يكدر الصفو بين الأخوين، فلم يستطع الأمير بوداق مقاومة أخيه، فاستنصر أمير العمادية. وكان يأمل المساعدة، فتوفي في العقر من أعمال العمادية.

وولي الأمير سليمان بك مستقلاً. وفي أيامه حارب قبيلة زرزا فتغلب عليها كما انتصر على أحد أبناء عمه (قباد بك) سنة ٩٩٨ هـ، كما كان أظهر بعض الانتصارات على الإيرانيين وقدم الغنائم إلى السلطان مراد فرضي عنه، فكان حاكم صوران. وبوفاته خلفه ابنه (علي بك)، وأيدت الدولة إمارته بفرمان سلطاني. وبقي حاكم صوران إلى ما بعد سنة ١٠٠٥ هـ[2]. ومن آخرهم في هذا العهد (ميره بك). كانت حوادثه في سنة ١٠٣٩ هـ.

---

(١) ذكرت في ص ٥٢ من هذا الكتاب.

(٢) الشرفنامه ص ٣٦٢.

دامت هذه الإمارة بحالة عشائرية حتى انتهى هذا العهد.

٤ ـ إمارة بابان

وهذه الإمارة كانت في نطاق ضيق لم يظهر لها ما يدعو للتدوين من وقائع العراق إلا ما كان ذا علاقة بالإمارات الأخرى لا بالدولة. وجاء في الوقائع الأخيرة من هذا العهد ذكر إمارات عديدة بأسماء مواطنها، فلم تكن هذه من بينها، أو أنها أشير إليها باسم مواطن حكمها.

وهذه الإمارة كان من آخر أمرائها پير بوداق الببي (البابانى). وكانت إمارة معروفة المكانة بين إمارات الكرد، لكن هذه الإمارة انتهت وقضي عليها بانتهاء حكم پير بوداق.

ثم خلفها أعوان الأمراء من غير (بيت الإمارة) من تلك الأنحاء[1]. وجاءت حوادثها ضئيلة الأثر في وقائع العراق ولم تقو إلا بعد انحسار الأردلانيين، وحينئذ اتصلت بوقائع العراق المتوالية مما يتعلق بالعهود الأخرى.

٥ ـ إمارة العمادية

أطاع أمراء الأكراد السلطان سليماً، وأن العمادية من جملة الإمارات، وجعل عليها الأمير إدريس البدليسي (البتليسي). وسيطرته عامة. وأن يحصل على عائدات لا أن يتدخل في الحكم المباشر. وقد تكلمت في (تاريخ العمادية) على تفصيل الحالة باطراد.

ولي الإمارة إدريس البدليسي في أيام (السلطان حسن). وهذا كان يتولى السلطة الفعلية وترك من الأولاد:

---

(١) كذا ص ٣٦٢.

١ ـ السلطان حسين.

٢ ـ سيدي قاسم.

٣ ـ مراد خان.

٤ ـ سليمان.

٥ ـ پير بوداق.

٦ ـ ميرزا محمد.

٧ ـ خان أحمد.

وفي أيام السلطان سليمان القانوني خلفه ابنه السلطان حسين وهذا قام بخدمات عظيمة للدولة، فزادت في سلطته ووسعت نطاق حكمه، فبلغت أيام إمارته نحو ثلاثين سنة. حكم إربل بعد القضاء على الداسنية. وفي أيامه عادت حرير للصورانيين.

وتوفي عن أولاده:

١ ـ قباد بك.

٢ ـ بيرام بك.

٣ ـ رستم بك.

٤ ـ خان إسماعيل.

٥ ـ السلطان أبو سعيد.

ولي قباد بك بعد والده أيام السلطان سليم الثاني. وبعد مدة مال أتباعه إلى أخيه بيرام بك فخلع من الإمارة. ثم عاد، وبعدها قتل، فولي الإمارة بيرام بك للمرة الثانية إلا أن سيدي خان والسلطان أبا سعيد ابنا قباد بك ذهبا إلى استانبول يشكون قتل والدهما للسلطان مراد الثالث.

نال بيرام بك الإمارة فجاءه المنشور بالإمارة من الصدر الأعظم عثمان باشا ولكن سيدي بك بن قباد بك قدم شكواه للسلطان ثم فوضت إليه الإمارة فدخل العمادية في أواسط ذي الحجة سنة ٩٩٣ هـ، وأودع

أمر تحقيق الشكوى إلى فرهاد باشا، فألقى القبض على بيرام بك وثبتت إدانته شرعاً من جراء قتل قباد بك فحكم عليه بالقصاص سنة ٩٩٤ هـ. ودام سيدي بك في الإمارة مدة طويلة. واشترك في حوادث بغداد لسنة ١٠٣٩ هـ.

ولما جاء السلطان مراد الرابع إلى بغداد كان أمير العمادية (يوسف خان) ابن سيدي خان وهذا لم يشترك في حرب بغداد، ولم يكن من بين المهنئين بالفتح. ومثله (عبدال خان) أمير بتليس (بدليس)، فصدر الأمر السلطاني إلى ملك أحمد باشا، للقضاء عليهما، فتمكن من القبض على أمير العمادية وحبسه في ديار بكر، ففرح السلطان بذلك. جاءه الخبر حين النزع، فدعا للوزير ملك أحمد باشا بالتوفيق. ثم قدم يوسف خان ألف كيس للدولة، فعفت عنه وأعادته إلى إمارة العمادية...

وأما عبدال خان فقد قضي على إمارته، واستولى الترك على خزائنه ونفائسه ذكر ذلك أوليا جلبي[1].

٦ - إمارة ابن عليان

مر بنا الكلام على حوادثها. فلا مجال للبسط والتفصيل. فإن المعلومات عنها قليلة جداً.

٧ - إمارة آل أفراسياب

هذه الإمارة سبق الكلام عليها[2]. ولم ينقطع خبرها. ولا تزال مستمرة إلى ما بعد هذا العهد. فلا نعجل بذكرها.

والحاصل أن الإمارات في العراق عديدة، وشأنها متفاوت، وقوتها ومنعتها غير مستقرة ومن أهمها ما كان في الحدود. وكانت إمارة

---

(١) أوليا جلبي ج ٤ ص ٤١٣ و ١٩٠.

(٢) راجع ص ١٧١ من هذا الكتاب.

البصرة بيد (راشد بن مغامس) فقضت عليها الدولة العثمانية. ومثلها إمارات عشائرية كثيرة فدامت أمداً أطول مثل العمادية، واليزيدية. ومنها انقرضت إمارتها... ومنها ما لا يزال في بدء التكوين، أو كانت المعرفة بتسلسل أمرائها ناقصة... فلا مجال للتفصيل.

الدولة العثمانية
(في هذا العهد)

استقلت الدولة العثمانية سنة ٦٩٩ هـ وكانت قبيلة ساعدتها الأوضاع لتظهر بمظهر دولة. وكانت تسمى (قبيلة قايي خان)، وأول سلطان عرف لها في إعلان دولته السلطان عثمان. وتوالوا حتى أيام السلطان محمد (فاتح استانبول) سنة ٨٥٧ هـ ـ ١٤٥٣ م، وعلا شأن هذه الدولة أكثر بمن تلا من سلاطين منهم السلطان سليم الياوز. وهذا الأخير عرف باتصاله بإيران وبالشام ومصر، فدمر جيش الصفوية وعلى رأسهم الشاه إسماعيل سنة ٩٢٠ هـ ويقال إن الشاه بقي متألماً لهذا الحادث حتى توفي سنة ٩٣٠ هـ[1]. وكان فقد مكانة عظيمة، واعتراه اليأس، فلم يستعد قدرته كما ذل أتباعه القزلباش في الأناضول والبلاد الأخرى[2].

واكتسح السلطان الشام ومصر وقضى على دولة المماليك سنة ٩٢٣ هـ ورسخت قدمه في هذه الأقطار. وفي أيام ابنه السلطان سليمان كانت الصولة على إيران قوية شديدة ففر الشاه طهماسب منه، وصار يتهرب من مكان إلى مكان، فمضى السلطان إلى بغداد فافتتحها سنة ٩٤١ هـ ـ ١٥٣٤ م، ودامت في حكم العثمانيين إلى سنة ١٠٣٢ هـ، فاستولى عليها الشاه عباس الكبير، فانتزعها منه السلطان مراد الرابع

(١) مختصر تاريخ إيران: باول هورن ص ٨٦.
(٢) تكلمنا عن القزلباش أو القزلباشية في كتاب الكاكائية في التاريخ.

فانقضى هذا العهد باستعادة بغداد من الشاه صفي. وكانت هذه الحرب وسابقاتها دمرت الدولتين، فطمع الأجانب بهما، وزادت آمالهم في اكتساح الشرق...

قائمة السلاطين العثمانيين
(لما قبل الفتح)

١ ـ السلطان عثمان. جلس في ٤ جمادى الأولى سنة ٦٩٩ هـ ـ ١٣٠٠ م. وتوفي ٢١ شهر رمضان سنة ٧٢٦ هـ ـ ١٣٢٦ م.

٢ ـ أورخان. جلس في يوم وفاة والده، وتوفي في رجب سنة ٧٦١ هـ ـ ١٣٦٠ م.

٣ ـ السلطان مراد خداوند كار. جلس يوم وفاة والده. وتوفي في ١٥ شعبان أو أوائل رمضان سنة ٧٩١ هـ ـ ١٣٨٩ م.

٤ ـ السلطان يلدرم بايزيد. جلس يوم وفاة والده. وتوفي في ١٥ شعبان سنة ٨٠٥ هـ ـ ١٤٠٣ م.

(فاصلة السلطنة)[١].

٥ ـ السلطان محمد الجلبي. جلس في المحرم سنة ٨١٦ هـ ـ ١٤١٣ م وتوفي في ربيع الأول سنة ٨٢٤ هـ ـ ١٤٢١ م.

٦ ـ السلطان مراد الثاني. جلس يوم وفاة والده وتوفي في ٥ المحرم سنة ٨٥٥ هـ ـ ١٤٥١ م[٢].

---

(١) فترة جرت فيها منازعات على السلطنة بين الاخوة الأمير سليمان ومحمد جلبي، وموسى جلبي ومصطفى جلبي فاستقرت للسلطان محمد جلبي.

(٢) في المحرم سنة ٨٤٧ هـ ترك السلطان مراد أمر الملك لولده ومال إلى العبادة إلا أن الأعداء اتخذوا ذلك فرصة فأشعلوا نيران الحرب فاضطر للعودة سنة ٨٤٨ هـ ودخل الحروب فانتصر ودام في السلطنة إلى أن توفي.

٧ ـ السلطان محمد الثاني الفاتح. جلس في ١٦ المحرم منه وتوفي ٤ ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ ـ ١٤٨١ م.

٨ ـ السلطان بايزيد الثاني. جلس يوم ١٠ منه. وتوفي في ١٠ ربيع الأول أو الآخر سنة ٩١٨ هـ ـ ١٥١٢ م.

١٠ ـ السلطان سليم الياوز. جلس يوم وفاة والده وتوفي في ٩ شوال سنة ٩٢٦ هـ ١٥٢٠ م.

قائمة السلاطين
(من فتح بغداد)

١ ـ السلطان سليمان القانوني. جلس يوم وفاة والده. وتوفي ٢٢ صفر سنة ٩٧٤ هـ ـ ١٥٦٦م.

٢ ـ السلطان سليم الثاني. جلس يوم وفاة والده. وتوفي ٢٧ شعبان سنة ٩٨٣ هـ ـ ١٥٧٥م.

٣ ـ السلطان مراد الثالث. جلس يوم وفاة والده. وتوفي ٨ جمادى الأولى سنة ١٠٠٣ هـ ـ ١٥٩٥م.

٤ ـ السلطان محمد الثالث فاتح اكرى. جلس يوم وفاة والده. وتوفي ١٢ رجب سنة ١٠١٢ هـ ـ ١٦٠٣م.

٥ ـ السلطان أحمد الأول. جلس يوم وفاة والده. وتوفي ٢٢ ذي القعدة سنة ١٠٢٦ هـ ـ ١٦١٧م.

٦ ـ السلطان مصطفى الأول. جلس يوم وفاة أخيه، وخلع في غرة ربيع الأول سنة ١٠٢٨ هـ ـ ١٦١٩م.

٧ ـ السلطان عثمان الثاني ابن السلطان أحمد. جلس يوم خلع عمه وفي ٨ رجب سنة ١٠٣١ هـ ـ ١٦٢٢ م خلع. وفي ٩ منه توفي.

٨ ـ السلطان مصطفى الأول ثانية. جلس يوم وفاة ابن أخيه وخلع في ١٥ ذي القعدة سنة ١٠٣٢ هـ ـ ١٦٢٣ م. وتوفي في سنة ١٠٤٨ هـ ـ ١٦٣٨ م.

٩ ـ السلطان مراد الرابع فاتح بغداد ابن السلطان أحمد. جلس يوم خلع سابقه. وتوفي ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ هـ ـ ١٦٤٠ م.

هؤلاء سلاطين العثمانيين من فتح بغداد إلى آخر أيام السلطان مراد الرابع.

التشكيلات الإدارية

سارت الإدارة من حين دخول العثمانيين بغداد سيرة مطردة إلا بعض ما دعا إلى تعديل، أو ما حدث من ثورة أو استقلال.

وهذه الإدارة مصغرة من إدارة أصل الدولة، وكل تبدل في الأصل يؤدي إلى تحول في الولاية. وأما التقسيمات الإدارية فإنها تابعة للحالة التي كانت عليها، وما طرأ من أمور دعت إلى تغير في التقسيمات...

وتتكون هذه الإدارة من أركان عديدة أهمها:

١ ـ الولاية

يقوم (باشا) بإدارتها. ويغلب عليه لقب (وزير). ولكل وال (كتخدا) أو (كهية) وهو بمنزلة (معاون) له. وفي الأكثر يتولى الإدارة باسم الوالي.

تكلمنا على الولاة فلا نعيد القول. وينيب الوالي من يقوم مقامه عند الذهاب إلى الحروب، فيسمى (قائممقام الوالي) كما أن الذي يتقدم الوالي لاستلام المنصب يسمى (متسلماً)، وكذا يطلق هذا على المتصرف...

فنكتفي هنا بالإشارة والولاية لها السلطة على جميع الفروع، وتتكون تشكيلاتها من الكهية أو الكتخدا[1]، وهو معاون الوالي وردؤه. كان يأتي معه ويعزل بعزله فإذا سخط الأهلون من عمل من أعماله ورأى الوالي خطراً عدل وخفف من الشدة، فلم يقطع أملاً ولا يجعل الأمر حتماً... ومن رئيس الكتاب، وأقلام المالية، وأقلام التحرير، وقد جمع الديوان الخطاطين البارعين، والمنشئين الماهرين، وأرباب المواهب المختارة.

وكتاب الديوان لهم التفوق في التحرير، والمعرفة المالية، وفي أنواع الخطوط مما يبهر في اتقان الصنعة، وهم مزودون بكفاءة علمية وأدبية فائقة. وهناك (كاتب الفارسية)، و (كاتب العربية). وكلها تابعة لرياسة الديوان. ويقال له (ديوان أفنديسي).

هذا وأسماء ولاة بغداد مرت وأما ولاة الموصل والبصرة وسائر الإيالات الأخرى فإننا لا نعرف إلا بعضهم في غالب الأحوال.

٢ ـ مالية العراق

إننا بكل صعوبة تمكنا من تدوين بعض الحوادث، وبيان الأوضاع السياسية وغيرها فمن العسر جداً أن ندون عن مالية العراق في عهد انقطعت عنا فيه الوسائل، وفقدت الوثائق لا سيما في موضوع الأمور المالية وجل ما تيسر معرفته أن ندرك بعض الحالات المالية، والموظفين الماليين. ونعلم شيئاً عن النقود والضرائب فتحصل لنا المعرفة

---

(١) ويقال كدخدا، وكخوه أو جخوه. ومعناه في اللغة الفارسية الكبير القدر، المقدم بين الناس. وعندنا قديماً عرف بـ (الكيا) والكيا الهراسي من العلماء. وذكر في ابن خلكان. وهذا يعين المصطلح في الإدارة.
وفي حقائق الدقائق لابن كمال باشا وبرهان قاطع ما يوضح أصله ومعناه. وفي مجموعة عمر رمضان غلط التصرف بلفظ كتخدا. وهذا غير صواب منه.

الإجمالية، أو الوقوف نوعاً على ما هنالك لا بوجه الاستقصاء، وجل الوثائق لا تفي بالغرض، ولا تؤدي الحاجة.

التمسنا المعرفة من طريق الضرائب المفروضة، ومن بعض الفرامين، ومن قوانين آل عثمان مما يتعلق بأصل الدولة، ومن ترتيب الدولة في الأمور المالية، ومن ذلك الدفتريون، ونوع الضرائب والنقود، ومن العلاقات الدولية والعهود والروابط الاقتصادية.

ومن أكبر ما هنالك وضع العراق المالي في ثروته الطبيعية، وفي علاقته بإيران وجزيرة العرب، وما يرتبط به القوم من علاقات بحرية واتصالات بالهند، والبلدان القريبة والنائية. فمثل هذه لا تنكر حالاتها، ولا تهمل قيمة الأوضاع الحاصلة بسبب دولة البرتغال، وما ولدت من خلل مالي، وانقطاع الروابط بالهند من جراء الإخلال بما كان مألوفاً.

وتصعب جداً المعرفة التاريخية المطردة، وإنما الوقائع في جميع العصور تنبه إلى الحاجة، وتميط اللثام عن وجه الغرض، وتعين الوضع بأجلى مظاهره، بل إن الحروب العظمى الأخيرة قد كشفت عن ماهية العلائق، وأوضحت ما للعراق من مكانة مالية، وما عليه من أوضاع متصلة، فندرك حصار المغول الاقتصادي إبان الحروب المتطاولة، وأيام الانقياد لهم وفتح الطريق، وما تولد من ذلك، كما شوهد مع البرتغال، وكذا العلاقات الاقتصادية بالمجاورين وبالهند، ومثلها بالشام وبالحجاز، وبإيران والترك وما وراء ذلك.

لا شك أن الحالة الطبيعية، والوضع الجغرافي في العراق جعل الصلات المالية مقرونة بأقطار عديدة لا تدع ريباً في مكانتها وأهميتها الاقتصادية، وحالتها التي كانت عليها، وما فيها من أقوام متنوعي الرغبات، موصولي التاريخ لا انفكاك للواحد عن الآخر.

وكل هذا يؤدي إلى بعض الانكشاف، ويوضح بعض الإيضاح،

فنعرف المعرفة العامة، ولولا التاريخ في وقائعه الكبرى لما استطعنا هذه المعرفة.

ومن المهم أن نعرف الخصائص الخاصة، والحوادث لهذا العهد، لنتمكن أكثر، ونتال حظنا من الوقوف على ماليتنا أكثر باستنطاق تلك الوسائل، فنعرف المناصب المالية، والضرائب، والنقود... وبذلك ما يفسر أكثر، ويؤدي إلى هذه المعرفة.

ومن الصواب أن لا نقف عند معرفة مالية العراق وعلاقتها بالسلم والحرب وإنما يهمنا أكثر أن نعرف (مالية الدولة العراقية)، وعلاقتها بأصل الحكومة العثمانية، وطريق إدارتها، وتشكيلاتها المالية... فإن هذا يهمنا كثيراً، وجل ما نقوله في هذا الباب النشاط لأول الأمر، وأثر الفتح ثم اختلال الحالة في أصل الدولة، واضطراب المالية عندنا تبعاً لها وما إلى ذلك من أوضاع وظواهر قطعية.

ومن ثم نجد الضرورة ماسة إلى معرفة مالية أصل الدولة العثمانية، ومالية العراق من جراء تلك الصلة إلا أننا يؤسفنا أن ما تمكنا من تدوينه قليل، يكاد يعد تافهاً بالنظر للقطر العراقي العظيم في تطوراته، وربما كان ظهور الثورات والمنازعات أو المشادات بين بغداد والدولة العثمانية يعد من أجل ظواهر تلك الدولة وعلاقاتها بأصل الدولة. وهذا لا شك فيه ولا ريب.

وما كتب في أصل مالية الدولة من مثل (آصفنامه)، و (قانوننامهٔ آل عثمان)، وما جاء في التواريخ العثمانية من حوادث كثيرة، وما ذيلت مؤخراً به تلك القوانين مثل (قانوننامهٔ عثماني) لمؤذن زاده المعروف بـ (عيني علي)، و (قوانين أبي السعود) و (قوانين آل عثمان درمضامين دفتر ديوان)، ورسالة قوجي بك، ودستور العمل لإصلاح الخلل، ونصائح الوزراءٔ والأمراء... كل هذه وأمثالها مما يعين الحالة، والشكوى في

آخر العهد تدل على ما عليه الحالة من خلل في المالية... وأن هذا الأمر سرى مفعوله إلى العراق فلم ينج منه... وعمت البلوى بما كان ينسب إلى الموظفين من الارتشاء، فكانت البلية أكبر...

١ ـ الدفتريون:

من أجل المناصب المالية في العراق منصب الدفترية، أكبر منصب في المالية، فإذا كان عندنا اليوم وزير المالية، ومدير المالية العام، فإن الدولة كان لها هذا المنصب ويعد بمنزلة وزارة المالية، وعندنا الدفتريون بمكانة أقل نوعاً من دفتري الدولة في عاصمتها، ولكنه لا يختلف عنه في مهمة الإيالة مثل بغداد، وإن التشكيلات المالية هنا مصغرة من تلك بلا كبير فرق...

وإن الدفتريين كانوا مجهزين بأكمل المعرفة، والاطلاع القانوني، والثقافة البالغة حدها، والاطلاع المكين على المعتاد المالي للدولة، وربما فاق منهم كثيرون في مختلف الآداب وولدوا نهضة في مملكتهم، وغالب هؤلاء من متخرجي ديوان المالية، وكلهم عارف بما هنالك من تعاملات محلية لكل قطر ودراسة عملية... فجاءت هذه الأعمال نابعة لنهج مالي، ولفرامين قطعية، وحقوق شرعية في الضرائب، وقوانين آل عثمان، فلا يتجاوزونها مراعين المعاهدات الدولية في العلاقات الخارجية.

وكل هذه تعين مهمتهم، وتبين وضعهم، وتجعلهم في غنى عن معرفة أخرى، ولا ريب أن ذكر جملة من هؤلاء مما يؤدي إلى الاطلاع على سيرتهم، وأنهم كانوا مالكين زمام الأمور، وأن النقص في بعضهم غير مؤثر في أصل المنصب وقيام أصحابه بما توحيه الكفاءة، ويلهمه العمل...

وهذا المنصب من أصل تشكيلات الدولة العثمانية وإلا فإن التشكيلات المالية عندنا تابعة رأساً للوزير، وإن رجال الديوان ـ القسم

المالي ـ يقومون بها، ويؤدون واجبها، ويعينون الأعمال، وينظمون الإدارة المالية. والأصل في هذه المعرفة كفاءة الوزير، وفي الغالب يكون من رجال الديوان، أو أنه يعول على من يقوم بالمهمة ممن اكتسب من التعامل، ومن المعرفة والثقافة المالية، والاطلاع على الأحكام الشرعية وقد جهز بكفاءة وقدرة لا مزيد عليهما بل إن هذه المعرفة تكشف للمرء الطريق وتبصره بما لم يكن يعلم. ولا شك أن إلهام العمل مقروناً بالعلم يفتح ما يزيد في اتقان العمل بل يؤدي إلى علم جديد...

وهؤلاء أشهر الدفتريين:

١ ـ عالي أفندي الدفتري. وسماه روحي البغدادي (عالي بك).

٢ ـ سليمان أفندي الدفتري وكان شاعراً وأديباً.

٣ ـ محمد بك من غلمان السلطان سليمان. عين دفتري تيمار ولقب (فيضي). وعرف بالنظم والنثر.

٤ ـ أحمد أفندي بن محيطي أفندي. عين دفترياً لبغداد سنة ٩٩٦هـ، وشعره معروف بغزله، ومقطوعاته جميلة ورقيقة وكان ممن توطن بغداد.

٥ ـ حسن بك الدفتري. ولروحي البغدادي قصيدة في رثائه.

ومرت الإشارة إلى ذكرهم في الحوادث أو المباحث المذكورة في صلب هذا الكتاب. وهؤلاء لم نتمكن من تواريخهم جميعهم بالضبط، ولا أدركنا أوضاعهم، وقل من عرفنا التفصيل عن حياته مثل ما عرفنا عن عالي أفندي إلا أننا علمنا من نتف حياتهم بعض ما يظهر لنا القدرة والكفاءة والمعرفة الكاملة في العلوم والآداب، فإذا كان الديوان قد دربهم إلى المعاملات، وما كان يجري في الدولة، فإنهم هذبوا أنفسهم بشتى المعارف، وجهزوا القدرة العملية بالمعرفة العلمية والأدبية،

فنفعوا، ووضعوا أسساً مالية قويمة فسارت الدولة على نهج مطرد، وضبطوا تعامل كل قطر، وما درج عليه من خطة... وكان نصيب العراق منهم وافراً...

ويهمنا أن نشير إلى أن العراق، وأخص ايالة بغداد قد اكتسبت مكانة في التشكيلات المالية كما في التشكيلات الإدارية، فكان يوجه منصب الدفترية في بغداد إلى أكابر رجال الدولة المعروفين في مهمتهم، فيقومون بالغرض أجل قيام، وكانت أوضاعهم محدودة نوعاً، فلا يستطيعون التصرف بالمالية كيف شاؤوا أو اختاروا، فقد مشت مالية العراق على اطراد أشبه بالمألوف من القوانين.

٢ ـ الفرامين:

وهذه تعين سيرة الدولة في الأمور المالية، أو المعاهدات المرعية في الضرائب الكمركية، أو التعامل المحلي، وهكذا، وفي العراق جرت بعض هذه الفرامين، وسارت على خطة مقبولة، ونهج صحيح. ومثل هذه المنقولات في الضرائب، وسائر المعاملات.

ومن أقدم ما وصل إلينا من الفرامين ما يبين الحالة المالية في بعض صفحاتها، وجاءت هذه مؤيدة خصوصيتها في العراق، وتدعو للالتفات من جراء أنها تتعلق بماليته...

١) الفرمان المؤرخ في سنة ٩٥٩ هـ ـ ١٥٥١ م. كان قد أصدر إلى والي البصرة قبل حرب البرتغال أيام سيدي علي. وكان العراق آنئذ متصلاً بالهند في تجارة معتادة جارية على سنن مطرد، فأراد البرتغال أن يحولوا الوضع إليهم، وأن تكون التجارة الخارجية على يدهم...

٢) الفرمان المؤرخ في سنة ٩٨٢ هـ ـ ١٥٧٤ م. وهذا لا يختلف عن سابقه، فيكادان يتفقان في مضمونهما.

وهذه الفرامين لم تفرق بين الضرائب الخارجية والداخلية، وعينت مقدار الضريبة وما يجب أن يستوفى. وكل ما في ذلك بيان وتفصيل لما يؤخذ على الأموال التجارية داخلاً وخارجاً... وفيه ما يعين الفروق أيام العباسيين وأيام الدولة العثمانية. وأشارت الفرامين إلى أن المأخوذ قديماً كان واحداً من اثني عشر فصار يؤخذ ٠٥/٠ وفي بعضها مثل الجوخ كان يؤخذ عنه ٠٢٠/٠ فصار يستوفى واحد من خمسة عشر والأمتعة الأخرى يؤخذ عنها ٠٥/٠ كما أنه يؤخذ من عينياتها ٠١/٠ باسم (غلمانية). والرسوم والضرائب لم تكن قاسية، قربتها الدولة من الأحكام الشرعية، وتسهيل أمر الأموال ودخولها المملكة برسوم كمركية قليلة تشويقاً لأصحابها ليأتوا بالبضائع...

وعلى كل حال إذا كانت رسوم الدولة معروفة في الوثائق المارة، فلا شك أن هذه الفرامين قد عينت بوضوح ما كان يؤخذ من ضرائب عن الأموال التجارية كما أن المعاهدات من تاريخ فتح بغداد سنة ٩٤١هـ ـ ١٥٣٥ م إلى سنة ١٠٣٣ هـ ـ ١٦٢٤ م قد أوضحت ما جرت عليه الدولة في علاقاتها التجارية.

والضرائب الأخرى لم يختلف المعتاد فيها عن النهج الشرعي، وأن التبدل قد يحدث ولكنه لا يمضي زمن حتى يعود إلى حالته الشرعية في موارد الحكومة في العراق... وجل ما نعلمه أن مقرر الضرائب بوجه عام لا يختلف عما في أصل الدولة، أو التعامل الجاري، أو المعاهدات الدولية المعقودة مما لا مجال لبسط القول فيها هنا.

٣ ـ الضرائب:

وهذه يصعب تحديدها من كل وجه، وأن (الضرائب التجارية) قد مرت الإشارة إليها في نصوص الفرامين، وأما الضرائب الأخرى فهي على المعتاد في ضرائب المغروسات، وضرائب الزروع، وضرائب

الحيوانات وتسمى (الكودة) وضرائب الرؤوس (الجزية)... وأن (كتب الفقه) بوجه عام، والوثائق والقوانين العثمانية تعين طريقة الأخذ وهكذا نهج الموظفين القائمين بأمرها... فهي شرعية أكثر منها حكومية خاصة دون أن يتطرق إليها الخلل... أوضحنا ذلك في (الضرائب وتاريخها) في رسالة خاصة[1].

٤ ـ ممتلكات الدولة:

وهذه تظهر أكثر في الأراضي الأميرية، وفي الأموال الأخرى من غنائم وغيرها... وفي هذه قوانين وحالات مقررة قبل أن ينشر قانون الأراضي.

٥ ـ النقود:

وهذه تعتبر كميزان لمعرفة مالية الدولة، وكانت النقود في العراق قد تأثرت بمختلف الدول التي تناوبته، وأثر المالية ظاهر في النقود بصورة قطعية، ولكن بوجه تقريبي لا يحتمل أن يختلف عن الأمر الصحيح المتعين.

والدولة تأثرت بالفتح ومنها تتبين علاقاتنا الاقتصادية، وتتوضح أوضاعنا من وجوهها الأخرى كما أن العراق تأثر بنقود المجاورين، والدول المتصلة بنا من طريق البحر، فالصلات بادية...

ومن ثم يتجلى لنا في النقود ثلاث ظواهر نقودنا، ونقود الدولة العثمانية، والنقود الأجنبية فكل هذه تعين الصلات، وبالتعبير الأولى تدل على العلاقات الاقتصادية والمالية بالعراق وتؤكد ماليته ولو بطريق التقريب.

---

(١) ضرائب الأموال التجارية ذكرتها في مجلة غرفة التجارة. وكمرك بغداد ووثائق تتعلق به للأستاذ يعقوب سركيس. كما أنه نشرها في (رسالة خاصة).

والنقود العراقية في هذا العهد (الدينار البغدادي) عثر على المضروب منه سنة ٩٥٠ هـ، و ٩٥٨ هـ وسنة ٩٦٠ هـ في بغداد والموصل أيام السلطان سليمان. وهكذا في أيام السلطان سليم الثاني. ومثله أيام السلطان مراد الثالث سنة ٩٨٢ هـ ببغداد، وبالموصل وفي عهد السلطان محمد الثالث سنة ١٠٠٣ هـ، والسلطان مراد الرابع سنة ١٠٣٥ هـ وسنة ١٠٤٣ هـ في الحلة وبغداد. و (الدرهم البغدادي) في مختلف أيام السلاطين لهذا العهد، و (الفلوس البغدادية) وهذه لم نعثر على نماذج منها واضحة.

ونقود الدولة العثمانية (الشاهية السليمانية) من ذهب، والآقچة العثمانية، أو العثماني أو الدرهم العثماني، والفلوس العثمانية. و(الهشتى) وهو ثمن الآقچة. شاع البغدادي للدرهم، والعثماني للآقچة العثمانية أو الدرهم العثماني.

وأما النقود الأجنبية فالإيرانية منها (الدينار العباسي). و (العباسية) الإيرانية من فضة. والعباسية من الفلوس النحاسية... و (الفلوري) أصله أجنبي.

ولا أطيل القول فإن الدولة في النقود تستوفي ضريبة غير مباشرة، وفيها تدمج السياسة، ويظهر شعار الدولة وقد بسطت البحث في (كتاب النقود العراقية لما بعد العهد العباسي) إلا أني أقول هنا لم يبق تعامل في النقود القديمة وقد شاعت نقود العراق من ضربه، ونقود الدولة، وكذا النقود التي دعت إليها الحالة الاقتصادية للتعامل.

وهنا لا أمضي دون بيان عن النقود المضروبة سنة ٩٢٦ هـ أيام السلطان سليمان القانوني، فهذه كانت ضربت أيام ذي الفقار. استعان بالدولة العثمانية بعد أن ثار على الشاه طهماسب سنة ٩٣٤ هـ، ودامت حكومته في بغداد إلى سنة ٩٣٦ هـ، ثم استردها منه الشاه طهماسب.

وضربها في التاريخ المذكور للدلالة على جلوس السلطان.

ودار الضرب وتسمى (السكه خانه) في هذا العهد كانت في القلعة كما يفهم من وقفية جامع القلعة. والظاهر أن محلها لم يتغير لما قبل هذا التاريخ. وفي أيام المماليك عرفنا أن دار الضرب صارت بقرب خان مرجان في سوق السكه خانه. ثم اندثرت دار الضرب.

٣ ـ القضاء في العراق

١ ـ القضاء بوجه عام:

القضاء في المملكة يعين أن السيرة جارية على شريعة أو ما نسميه (قانوناً). فلم تكن الأمور تابعة للأهواء. والقضاة تابعون للقضاء الإلهي، ولم يختلف في الأزمان وتطورها إلا بقدر ما يعرض للفكر البشري من تطور في التفسير الفقهي وهذا قليل جداً.

والعهد العثماني لم يختلف فيه القضاء عما كان عليه في الأقطار الإسلامية جمعاء، وأن المؤلفات الفقهية من متون وشروح وحواش، وفتاوى، وصكوك وأحكام متماثلة... تعد المرجع للكل، وأن التشكيلات القضائية من استخدام حاكم منفرد جارية في كل الأقطار لقلة الحكام الذين يحملون فكرة حقوقية ناضجة، والتسجيل وتنظيم الإعلامات والحجج سار على طريقة مطردة، وسنن واحد، وأن القدرة تابعة للمعرفة والمواهب في التصرف والتوجيه الشرعي مما أيد مكانة القضاء ولم يضطرب أمره. فتعين الغرض الفقهي، ويصح أن يستخدم القاضي في مختلف الأقطار دون أن يرى صعوبة في تطبيق الشرع. ووقع ذلك فعلاً.

وعندنا الفقهاء في مخلداتهم قاموا بأمر التوجيه، وأعدوا المادة الفقهية للقضاء، وعملهم تطبيقي وتعيين للأحكام في الوقائع النازلة،

والقضايا الخاصة، ويستعين القضاء أحياناً بالمفتين للتبصر بالرأي، والتمكن من الاستدلال الفقهي.

والعهد العثماني التزم مذهباً بعينه وهو مذهب أبي حنيفة، وكان الشائع في العراق ولا يزال (المذهب الشافعي) وقبله كان الصوت للمذهب الحنبلي، وهذا لا يخلو من اعتلال، وإن كان الفقه سار سيرة قانونية، وأدى واجباً ثابتاً لا يتزعزع، ولا يعتريه أي خلل في نهجه وفي معلومية أحكامه. فالقضاء ارتكز على هذا الأصل الفقهي، وأن (المشيخة الإسلامية)، و (دار الفتوى) قد سيطرتا على الحالة، فلم تدعا مجالاً للتشويش فمضى الفقه والقضاء على حالة تطبيقية في مراعاة نهج قطعي لا يتغير.

والدولة العثمانية رأت المدارس الكثيرة في بغداد، وفي الشام، وفي مصر فانبهرت بمقاييسها لتمكين الفقه، وتقوية القضاء. فبذلت في هذا السبيل ما أمكن من قدرة، وحاولت التفوق بالسلاح العلمي وسارت سيرة موفقة، فأسست المدارس، وشيدت صروح العلم، فلم تمض مدة حتى تمكنت من ناصية العلوم، وظهرت بمظهر العظمة. وهكذا لم يعوز الدولة. وكانت الكل في الكل في إدارة الثقافة فسهلت طريق (خزائن الكتب)، فبدأ السلاطين بالوقف، وبجعلها عامة، ومالت الرغبة إليها، فلم تمض مدة حتى اقتنت آثاراً لا تحصى، ولم تكتف بالمدارس وحدها فتكاملت العلوم جمعاء، فنهجت في الفقه نهجاً صالحاً مقبولاً، وأن التجارب جعلتها تستقر على مؤلفات معتبرة في الفتاوى لتأمين السيطرة القضائية، وأن لا يركن القضاء إلى الميول النفسية، فقبلت الفتاوى المعتبرة لأكابر الفقهاء، ولم تترك الأمر إلى القاضي بلا قيد ولا شرط، فيرجح القول الضعيف باقترانه بحكم الحاكم.

ويخطىء من يظن أن القضاء لم ينل عناية أو رعاية من العثمانيين

لما رأينا مؤخراً من انحلال. هذا الانحلال لم يقتصر على ضرب من ضروب الإدارة، بل لم يسلم منه القضاء. ومن أهم العوامل الحروب الخارجية والفتن الداخلية. فالداء كان عاماً شاملاً في اضطراب جسم الدولة. وفي أول الأمر أي في بدء الفتح العثماني للعراق لم تكن الحالة كذلك، فقد سيطرت مؤخراً المشيخة الإسلامية، ودار الفتوى على المرافق العلمية والفقهية ومن أجل أركانها المدارس والقضاء...

٢ ـ القضاء في بغداد:

هذه مكانة القضاء في المملكة العثمانية. كانت احتفظت به الدولة وصارت تنصب القضاة في بغداد ولو كان فيها من الفقهاء الأكابر من يصلح إلا أن سياستها كانت تدعو إلى ذلك. ولعل في هذا وفي الدفتريين ما يعين لها الحالة لأخذ المعلومات، والانتباه إلى الحوادث بعناية زائدة، كما احتفظ العراق بالإفتاء في أكثر الأحيان، وكانت تختار لقضاء بغداد قضاة متميزين في العلوم معروفين في الفقه والعلوم الإسلامية، فيعدون من الصنف الأرقى، وعلاقة القضاء بالسياسة كبيرة جداً، فلا تريد أن تجلب الدولة النقمة عليها من علماء بغداد بحرمانهم من جميع المرافق العلمية، ورجال الإفتاء عندهم كثيرون وصلاح الدولة مرتبط بجميع نواحيه فلم تتهاون في أمر من أمورها.

وهؤلاء القضاة كانت سلطتهم واسعة في الأمور العلمية. وفي أول الأمر بهرتهم المدارس وتوجيهها، والأوقاف وحسن إدارتها واستقرارها، والأوضاع العلمية وحالاتها... فاقتبسوا ما كان، وأصلحوا ما عندهم، ورعوا الأوقاف والمدارس حق رعايتها، ونهجوا بالعلوم والآداب النهج المشهود، فنقلوا غالب ما وجدوا ضرورة لنقله، واقتبسوا وخدموا العلوم والآداب، وصاروا يبذلون الغالي والرخيص في سبيل الحصول على ما يرفع المستوى العلمي والفقهي عندهم، وتجمعت الثقافة في عاصمة

الدولة، ولم تمض مدة حتى بلغت مكانة مقبولة، فظهر من القضاة جماعة توالى ورودهم بغداد، وتكاثر عددهم بتوالي الحكم وامتداده. ويهمنا من كان في العاصمة ويعدون من أصحاب الدرجة الأولى في المقدرة ويختارونهم ممن عرف بالعلم الوافر من أهل الكمال. وكانت إدارة المدارس بأيديهم أيضاً.

ومن المؤسف أننا لم نتمكن من معرفة قائمة كاملة في القضاة ولا الوقوف على كثيرين منهم وقوفاً علمياً... ولكن معرفة المدارس في أصل الدولة والاهتمام بمتخرجيها وظهور جماعة منهم مما يجعلنا نقطع في المعرفة. ونعين الضعف ومبدأه فينا.

وممن عرف بالقضاء في بغداد:

١ ـ كان أول قاض ببغداد (المولى مصلح الدين مصطفى النيكساري) مدرس مغنيسا[١]. وأعيد لقضائها سنة ٩٤٧ هـ وعزل سنة ٩٥٤ هـ وتوفي سنة ٩٦٩ هـ[٢].

٢ ـ منلا كمال چلبي، وكان عالماً فاضلاً حميد الخصال توفي ببغداد[٣].

٣ ـ أمين زاده كوسه سي منلا يحيى. ولي قضاء بغداد. ثم ولي تدريس دار الحديث باستانبول وصار مدرس السلطان. وكان فاضلاً كاملاً[٤].

كان هؤلاء القضاة في أيام السلطان سليمان القانوني. وهكذا توالوا...

---

(١) تاريخ روضة الأبرار ص ٤٢٥.

(٢) سجل عثماني ج ٤ ص ٤٥٢.

(٣) مرآة كائنات ج ٢ ص ١٣٣.

(٤) مرآة كائنات ج ٢ ص ١٣٣.

٤ ـ السيد محمد قاضي بغداد. ذكره فضولي البغدادي الشاعر في ديوانه.

٥ ـ توقيعي زاده لطف الله بن أبي الفتوح القاضي ببغداد. وفي أيامه أصدر وقفية السيد الشيخ شمس الدين الكيلاني سنة ٩٥٥ هـ.

٦ ـ الشيخ عبد اللّه بن محمد أمين توقيعي زاده القاضي ببغداد. وفي أيامه سجلت في ١٥ رجب سنة ٩٧٨ هـ وقفية السيد الشيخ زين الدين ابن السيد الشيخ شرف الدين القادري المتولي على أوقاف الحضرة القادرية.

٧ ـ يوسف القاضي. ولي قضاء بغداد. كان في أيام السلطان سليمان القانوني وتوفي في عهده[١].

٨ ـ القاضي دولگرزاده محمد. ولي قضاء بغداد في ربيع الآخر سنة ٩٦٩ هـ وفي المحرم من سنة ٩٧٤ هـ أحيل للتقاعد. وتوفي سنة ٩٧٧ هـ. وهو عالم وشاعر بالتركية والعربية. وخطاط أيضاً.

٩ ـ ميرزا مخدوم. ولي قضاء بغداد وإفتاءها، والتدريس في مدرسة مرجان وألف كتاب النواقض في بغداد أيام قضائه سنة ٩٨٧ هـ. وهو في رد الشيعة. وظهرت ردود عليه جاء ذكرها في خزانة المشهد الرضوي برقم ٨٩١ و ١٠٠٣ وجاء بعضها في كتاب الفوائد الرضوية عند الكلام على عبد العالي الكركي. وأصل اسم هذا القاضي معين الدين أشرف الحسني الحسيني. ويرجع نسبه إلى السيد الشريف الجرجاني. وتوفي سنة ٩٩٥، أو ٩٨٨ وهو شيرازي حنفي[٢].

١٠ ـ محمد بن علي المعروف بـ (ابن السپاهي) أو (سپاهي زاده).

---

(١) سجل عثماني ج ٤ ص ٦٥٤.

(٢) الكاكائية في التاريخ ص ٧٥.

أصله من بروسة، صار في موطنه مدرساً، وفي سنة ٩٩٢ هـ ولي قضاء بغداد، وتوفي سنة ٩٩٧ هـ في أزمير. ويعد من القضاة المعروفين، متقناً للغات العربية والتركية والفارسية، وله قدرة على النظم.

ومن أهم مؤلفاته:

١) أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك. أتمه في رجب سنة ٩٨٠ هـ.

٢) نموذج الفنون.

٣) حاشية على شرح التجريد.

٤) حاشية على شرح حكمة العين.

٥) تقويم البلدان.

١١ ـ فضيل چلبي. ويعرف بـ (جمالي زاده) ابن علي الزنبيلي. ولي قضاء بغداد وبلدان أخرى. توفي سنة ٩٩١ هـ وله مؤلفات عديدة[١].

١٢ ـ القاضي رضوان. ولي القضاء وعين الملا غانماً البغدادي مدرساً في المستنصرية.

١٣ ـ يحيى نوعي. من ذرية پير علي نصوح. ولد سنة ٩٤٠ هـ. وولي قضاء بغداد. توفي سنة ١٠٠٣ هـ وله مؤلفات عديدة[٢].

١٤ ـ نعمان القاضي ببغداد. وهذا ذكره روحي البغدادي. وعده من رجال الأدب.

---

(١) سجل عثماني ج ٤ ص ٢٤.

(٢) سجل عثماني ج ٤ ص ٦٣٤.

١٥ ـ سعدي زاده محمد. ولي قضاء بغداد. وهو ابن قلعه حكلي سعدي أفندي. وتوفي سنة ١٠١٨ هـ في المدينة وكان قاضيها[١].

١٦ ـ نوري القاضي ببغداد. وكان أيام بكر صوباشي قاضياً وإن نائبه (نائب المحكمة السيد محمد). وفي خلاصة الأثر نقل بحثه عن الشيخ عثمان الخياط البغدادي.

١٧ ـ قاضي بغداد مذكره جي زاده مصطفى. جاء ذكره إثر فتح بغداد من السلطان مراد الرابع في وقفية جامع القلعة المؤرخة في ١١ رمضان سنة ١٠٤٨ هـ. ورأيت ختمه الموقع في هذه الوقفية مؤرخاً سنة ١٠١٣ هـ. وما جاء في فذلكة كاتب چلبي من أنه موسى غير صواب لما هو مذكور في الوقفية. وفي تاريخ نعيما.

١٨ ـ (محمد قدسي رمضان زاده) محمد بن أحمد بن محمد بن رمضان آل نشانجي. ولي قضاء بغداد للمرة الأولى في جمادى الأولى سنة ١٠٠٤ هـ، وللمرة الثانية في ٢١ جمادى الثانية سنة ١٠٢٠ هـ. وهو صاحب تاريخ (مرآة الكائنات). توفي سنة ١٠٣١ هـ[٢].

ومن أهم ما رجعنا إليه وقفيات تعين أسماء القضاة منها وقفية السيد شمس الدين الكيلاني ووقفية السيد زين الدين الكيلاني. وهما من أقدم الوقفيات. ووقفيات أخرى. وتواريخ، وربما نحصل على ما يعين لنا عدداً آخر من القضاة. وكل من هؤلاء له المكانة، وكانت الدولة اختارت أكابر الرجال لمثل قضاء بغداد ومصر والشام موطن الفقه، ومحل المباحث العلمية... فلا تريد الدولة أن تضيع سمعتها، ولا أن تشتري التنديد الذي يوجه إليها من استخدام من هو غير صالح بل نرى

---

(١) سجل عثماني ج ٤ ص ١٤١.

(٢) عثمانلي تاريخ ومؤرخلري ص ٢٨ ـ ٢٩ المسمى بـ (آيينهٔ ظرفا) تأليف جمال الدين. طبع بمطبعة اقدام سنة ١٣١٤ هـ. وسجل عثماني ج ٤ ص ٥٧.

أنها اختارت في غالب الأحيان ولاة كانوا صدورًا، ولم تهمل أمر القضاء، وجاءت التصريحات بذلك في مواطن عديدة.

ومن ثم نقطع أن من أركان التشكيلات الإدارية (القضاء). اكتسب مكانة في أصل الدولة، وعني به عناية كبيرة. ولا يهمنا أن نتعرض لما يتفرع في مواطن أخرى من العراق، فإن ذلك بلا ريب كان أقل اهتماماً وتدويناً، وإن كان وسيلة لظهور الرجال الأكابر، فكان تجربة علمية وقضائية معاً. . . والمقصود ذكر (قضاة بغداد) ومن عرف أمره منهم، واشتهر ونشاهد الفواصل طويلة، ولم يتيسر الوقوف على الكثيرين.

ومن مؤلفات العراق في هذا العهد كتاب (ملجأ القضاة في ترجيح البينات) لغانم البغدادي من علماء بغداد وجه به القضاء ولا شك أنه قام بحاجة ماسة. وتوالى التأليف في الموضوع. ومثله (كتاب الضمانات) ويعد من أجل الآثار في موضوعه الفقهي وخدمته للقضاء، فلم يقطع العراق أمله، ولا أهمل العلوم النافعة للقضاء وإكمال مهمته.

والتاريخ مبناه النقل، وقد أعوزتنا مطالب عديدة تستدعي توضيح أمر القضاء أكثر. وليس لدينا ما نستعين به فلم نستطع أن نوضح أكثر مما علمنا. وأما القضاء في البلدان الأخرى فإنه بلا شك يستمد قوته من عاصمة العراق. تابع لها فيما سوى الموصل، والبصرة بل إن البصرة تابعة أكثرياً لبغداد في قضائها. . .

٤ ـ الجيش

إن الدولة العثمانية عسكرية. لم تتوضح فيها قوة الجيش، ولم تنفصل عن الشرطة إلى أمد قريب منا، وإنما يقوم الجيش بالمهمتين الداخلية لحفظ الأمن، والخارجية لدفع العوادي. استخدمت قديماً جيشاً يقال له (الينگچرية) أي الجيش الجديد من سنة ٧٣٠ هـ ـ ١٣٢٩ م.

تأسس أيام السلطان أورخان، واكتسب نظاماً، وتوزع إلى صنوف. وبهذا تمكنوا من استخدام جيش غير الجيش التركي تابع لتربيتهم، وأصله من لقطاء أولاد الأجانب، تربوا تربية إسلامية وعودوا على الحروب، ومالوا إلى هذه التربية لما رأوا من الحاجة لانعدام الكثيرين من رجالهم، فأكلتهم نيران المعارك، ومن جهة أخرى الحروب المستمرة كانت تتطلب ذلك، ولا نجد دولة لم تستخدم الأقوام لصالحها وإن كانت ذات قوة وسلطان، وسمي هذا الجيش بـ (الينگچرية) ومعناه الجيش الجديد (ينگي) جديد و (چري) بمعنى جيش أو جند[1].

وتشكيلات الجيش في العراق لا تختلف عن أصل الدولة من ترتيبات إلا أن الوالي هو المسيطر وأن أمير الجيش التابع له هو (آغا الينگچرية)، ويستخدم الجيش الأهلي أيضاً، وهو المعروف بجيش الولاية، وأحياناً يتولى الوالي القيادة بنفسه في القضايا المهمة، وينيب منابه (قائمقاماً) يسمى (قائمقام الوالي)، يتولى أعماله مدة غيابه.

وفي القضايا العظيمة والمدلهمات الكبيرة الشأن تعين الدولة الوالي، أو تقوم بنفسها في الحروب، وتدعو الولاة المجاورين. وإن هذه تدل على التناصر لإخماد ثورة، أو حرب ناشبة، وبعد إنهاء الواجب يعود كل من الولاة المجاورين إلى محله. وفي حوادث عديدة ما يشير إلى ذلك.

إن جيش الينگچرية دام إلى ما بعد هذا العهد أي إلى سنة ١٢٤١هـ، ثم حل محله (الجيش النظامي) وهذا لحقته تبدلات عديدة ومهمة في تنظيمه، وتحول التمرين الحربي، وتبدلت معداته وأسلحته إلى أن انقطعت العلاقة من العراق سنة ١٣٣٥ هـ ـ ١٩١٧ م.

---

(١) شاع بين بعض الكتاب المصريين أن يكتب بلفظ (انكشارية) ولكن العراق استعمل اللفظ قريباً من أصله من مدة طويلة.

والدولة العثمانية معروفة بأنها دولة محاربة، فلها مهارة في التدريب العسكري. واكتسبت شهرة عالمية وهذا الجيش تمكن من التوغل إلى أواسط أوروبا، فحاصر (فينة) أو (ويانة)، ثم أخفقت في الحروب بعدها وأصابها تحول كبير في الانحلال والتدهور، ففقدت المزايا، وأضاعت ممالكها المفتوحة الواحدة بعد الأخرى.

حاولت في تجارب عديدة أن تستعيد القوة، أو تحرس المملكة، فلم تفلح، وخذلت مرات عديدة، فكانت محاولاتها عبثاً، وأن الينگچرية كانوا سبب الاحتفاظ بسلطتها، فأدى وضعهم الأخير إلى انحلالها ودمارها، وصارت عبرة المعتبر في نشاطها وفي انحلالها، وكلاهما مدار الانتفاع قطعاً، فإذا كان جيش المغول لا يخلو من نقص طرأ عليه، وجيش تيمور انحل للسبب نفسه، فالجيش العثماني لا يخلو من بواعث لنشاطه وانحلاله. ومجموع ما هنالك يكون عبرة عظيمة في التنظيم والنقص والسيطرة والتدهور كما أن الجيش العباسي قد طرأ عليه ما طرأ...!

وفي هذه التجارب خدمة لإدارة الجيش، وتدارك لما يحتمل أن يطرأ من انحلال بتلافي الأخطار والتجارب وأن لا يقع الخلل والاضطراب، بل إن جيوش الأمم وتشكيلاتها كلها مدار عبرة العصور، وطريق التوصل إلى الغرض من إصلاح. وفي مثل هذه الحالة لا يراعى الترتيب المنطقي والعقلي المجرد، وإنما هناك تجارب عملية خلال عمر طويل مضى على البشرية لا يستهان بها يصح أن يعول عليها...

والعراق فقدت منه إدارة الجيش وزعامته وقضي عليه من تاريخ التغلب في العهود العباسية، وتسلط المغول ومن تلاهم فقد القدرة والسيطرة على الموقع، وأن يكون سيد بلاده، وقائد جنده، وغاية ما صار جندياً تابعاً أي جيشاً أهلياً تابعاً لجيش أصل الدولة ففي سنة

٩٤١هـ دخل جيش الترك العثمانيين، فظهر في فتوحه بقدرته. وهذا لم يكن يتصور تسلطه وتغلبه إلا في نظامه وطاعته وحسن إدارته. ومتى فقد هذا الجيش السيطرة من قواده، وركن إلى الجموح وعدم الإذعان من جنده حرم القدرة من الفتوح، ومن حراسة المملكة أو الممالك المفتوحة. . .

وحياة الأمم قائمة بحياة جيشها، وإدارتها ثابتة بثبوت هذه الحياة، والتمكن من السيطرة على الجيش حذر أن يجمح وإلا انحل، وانفرط عقده، وتبعثر أمره، وزالت وحدته وحاكميته. . . والبقاء ودوام الحياة العليلة إنما تكون أحياناً مقرونة بعلة المقابل، وانحلاله فلم تعجل أمور الوفاة، وقد يصح، وتعود له القدرة بسرعة موت المقابل الند له. . . وكل هذه مفسرة لحياة الجيش في أطواره، وقد مضت الأمثلة العديدة لأول العهد، ولآخره. . . ومن الأولى في هذه الحالة أن ندرس (نفسية الجيش) في نفسية قواده، ودرجة قدرتهم للتمكن من السيطرة على الموقف، ومراعاة النظام وعدم التهاون به. . . والحوادث المارة أمثلة مشهودة.

والجيش التركي من سلجوقي، وأتابكي، ومغولي، وتركماني. . . قد عرفت مكانته في القوة والشجاعة والفتح. وحب النظام، والطاعة، مع قوة وتمرن في الأفراد. ومن ملك جيشاً مثله ملك العالم، بل تمكن في الدرجة الأولى من حفظ استقلاله، ووقف بالأمم عند حدودها، فلا تستطيع أمة معتدية أن تنتهك حرمة مملكته، أو تتجاوز عليه، وقد ظهرت هذه في السيطرة على أقطار عديدة بما يملك أمراؤها من نفسية، وما استطاعت بها أن تحمل الجند على الطاعة التامة، وأن تنسق الجيش تنسيقاً في أقصى حدود التنسيق، فأذعنت لها الأمم رهبة أو رغبة.

والترك العثمانيون لا يختلفون عن سائر الأتراك الذين وصفهم

الجاحظ، وابن حسول[1] وغيرهما لما ملكوا من سجايا، ومن أهمها الشجاعة، والتنظيم الحربي، والطاعة الكاملة، ولم تنعدم من هؤلاء تلك الأوصاف، بل لا تزال موجودة بارزة للعيان بالرغم من وجود الضعف والانحلال، فالمزايا الفردية لا تزول وإنما يذهب أمر الوحدة، والنشاط العام. والتنظيم المشترك. فلا تظهر المزايا الشخصية بل تنقلب إلى ما يعجل بالقضاء على الأمة، ويسهل للأجنبي أن يحكم أو يتحكم. وهذه السنة موجودة في الكل ولعل في تفوق المقابل ما يدعو لانتصاره، ولكن السجايا الفردية لم تمت، فترى الجيش المغلوب يدمر، ويوقع بالعدو كما يوقع المنتصر... والوحدة والنشاط نلحظها في نفسية القائد، وفي مقدار نشاطه، أو درجة عنايته وعنائه في التنظيم. فالعلاقة غير مقطوعة. والتعويض عن هذه القدرة بقائد محنك أمر لا ينكر. والأمم راعت الطريق في الكل وجعلت الحالة سائرة باطراد لإزالة ما وقع فيه الأقوام من انحلال في جيوشها.

وفي غالب الحروب يتولى السلطان الأمر بنفسه، والأمور البحرية في الأكثر يودعها إلى (قپو دان پاشا) أو قبطان باشا وكان هذا يستمد قوته من السلطان، وفي بعض الأحيان يودع الأمر إلى الصدر الأعظم ويسمى بـ (السردار) وتوزع القيادة إلى الولاة في الأكثر لتعدد المواطن، فكل وال قائد جيشه...

والجيش العثماني يتكون من:

---

(١) رسالتان في فضائل الجندية عند الترك إحداهما للجاحظ طبعت مراراً والأخرى عثرت عليها وقدمت لها مقدمة ترجمت إلى التركية وطبعت بأنقرة في مجلة (بلله تن) مع الأصل العربي وطبعت باستانبول مستقلة أيضاً. كان نقلها الأستاذ المرحوم محمد شرف الدين رئيس الشؤون الدينية بأنقرة. وهي (تفضيل الأتراك على سائر الأجناد) لابن حسول.

١ ـ الحرس الملكي (قپو قولي).

٢ ـ الينگچرية.

٣ ـ جيش الولايات.

٤ ـ القوة البحرية.

وكل من هذه يتفرع إلى طوائف أو صنوف يقال لكل منها (أوجاق) وهو الجيش الذي تودع إليه مهمة خاصة من أعمال الجندية، فالجيش يوزع إلى صنوف (أوجاق)، ويقال لرئيس هذا الصنف (آغا)، أو (آغا الأوجاق). وهو الضابط أو الرئيس أو الآمر، وهناك آغا المتفرقة، وأغوات الداخل (الأندرون)، وأغوات الخارج (البيرون)...

وفي الولايات كل صنف من هذه يسمى باسم كتلك، فالوضع أشبه بالصنف المصغر من هذه، فهي موجودة في الولايات إلا أنها بقلة ورئيسها يقال له (آغا) ولا يخرج هؤلاء عما هو في أصل الدولة. ويختص جيش بغداد بل وسائر الولايات بـ (جيش الولايات) وبين هؤلاء (الحرس الأهلي) أو ما يسمى (يرلي قولي) وهم مشاة ومنهم ما يسمى بـ (طوپر اقلي) وهؤلاء خيالة. ويتكون من العزب. وهم غير متزوجين، ويشترط أن يكونوا كذلك و (السكبانية) وهؤلاء دون من سبقهم، ثم أهمل أمر هؤلاء فوضع محلهم البندقيون (التفنگچي)، ويقال لأحدهم (سرحشمه) بل يسمون (احشامات). وهكذا صنف منهم يسمى بـ (المأجورين) أو (المتطوعة) وهم مدفعية ورئيسهم (آغا المدفعية)، ومنهم اللغمچية أصحاب الألغام، ومنهم المسلمون ويسمون قديماً (الچرخچية) ويكونون في صحبة الجيش لتسوية الطرق والمعابر وتعميرها... ومنهم المرابطون في الثغور ويقال لهم (سر حدلي). ومن هؤلاء الدليل ويسميه الترك (دلي)، والمتطوعة... ومنهم البسلية ورئيسهم يقال له (دلي باشي)، و (الاي بگي) يتولى عدة وحدات من الدلية، ويقال له

(سرحشمه) أيضاً. وهكذا (الخيالة الطوبراقلية) وهؤلاء يتكونون من جانب أهل التيمار والزعامة، ويسمى بعضهم (قوريجي) أو متطوع (كوكللي).

هذا. ولا محل لذكر أرزاق الجيش ومخصصاته ولا بيان كسوته فهذه كلها متبدلة، وغالبها لا يهمنا الإطناب في وصفها. وكذا الأسلحة والتفصيل عنها، فإننا نوضح ذلك عرضاً وإلا فالموضوع واسع يحتاج إلى بحث خاص ليس هذا محله.

٥ ـ الشرطة

كانت لها المكانة في الدولة العباسية وما قبلها وكانت تعد من أركان الدولة، وأن الخليفة المنصور كان يعظم أمرها، ويوليها اهتمامه كثيراً. وهكذا امتدت إلى أمد. وفي الدولة العثمانية لم تفصل الشرطة عن الجيش إلا في أيام التنظيمات الخيرية، ولم تكن لها تشكيلات خاصة، وإنما آغا الينگچرية يقوم بأمرها كما يقوم بإدارة الجيش لمحاربة العشائر، ويكون تحت سلطة الوالي في المحاربات الدولية...

وعلى كل حال في هذا العهد لم نجد تفريقاً بين الشرطة، وأعمال الجيش، فلا محل لإفراد هذا الصنف ببحث خاص، وإنما أفردناه لنعين مكانته من الدولة وكيف كانت تقوم بمهمة الأمن الداخلي...؟!

٦ ـ الحسبة

مصلحة إدارية لتنظيم أعمال المدينة، ومراقبة هذه الأعمال لتجري بوجه الصحة، وأن تلاحظ ما يقع من غش في المعاملات، أو ما يضر بالصحة أو بالنظافة، وسائر ما من شأنه أن يراقب مثل البيوعات وسائر الأمور المدنية...

سارت على النهج الشرعي، وبالوجه المبين في كتب الحسبة، ولم تفترق عما هنالك، ولكنها في الأيام الأخيرة طرأ عليها ما طرأ من تبديل، وما عرض من تعديل وتحويل مما سنتناوله في مباحث أخرى[1].

علاقة إيران بالعراق
في هذا العهد

إن الشرق الأدنى كانت تتنازعه الحكومة الصفوية والدولة العثمانية وابتدأت بينهما المقارعات بحروب ودعايات شديدة لا سيما في العراق. ففي سنة ٩١٤ هـ ـ ١٥٠٩ م دخل في حوزة إيران واستمر حكمها فيه إلى سنة ٩٤١ هـ ـ ١٥٣٤ م تخلله بعض الاضطراب كثورة ذي الفقار. لم تثبت قدم الصفويين وخلص للعثمانيين. وطال النزاع على العراق وتداولته الأيدي إلى سنة ١٠٤٨ هـ ـ ١٦٣٩ م أيام السلطان مراد الرابع ولعله العامل الوحيد في ضعف الحكومتين لما بذلتاه من الجهود فصار العراق تابعاً للحكومة العثمانية...

وخلال هذه المدة لم تتوضح السياسة الخارجية بوجه صريح وغاية ما يقال عن هذه الحكومات أنها مصروفة إلى التغلب وكل حكومة تحاول الانتصار على الأخرى بل القضاء عليها دون أن تتقيد بعهد أو ميثاق استفادة من ضعف إحداهما أو قوة الأخرى فلم تدعا وسيلة تتوسلان بها إلا فعلتاها، واستخدمتا المذهب آلة قوية بدافع جذب معتنقيه فصارت الواحدة تكفر الأخرى وتستحل دماءها وأموالها وأعراضها كأنها بعيدة عن الإسلام أو غريبة عن الإنسانية، والفتاوى تصدر تترى تهييجاً لمنتحلي عقيدة كل ناحية، والغرض الأصلي التغلب والظفر على المخالف المنازع، والسعي للقضاء على أهل الحزبية

---

(١) في مجلة العالم الإسلامي البغدادية ذكرت مقالاً في الحسبة وبيان المؤلفات فيها.

الأخرى أو عدها محكومة الزوال، ونرى القسوة بالغة أشدها.

وفي هذا كله نرى العراق في حالته الراهنة عند استيلاء أحد الفريقين لم ينل إدارة ذاتية، أو حكومة شعبية ولو لصنف من صنوفه... إلا أن الحكومة العثمانية كانت أوسع صدراً لإدارة الشعوب المختلفة لتمرنها في مملكتها الأصلية على مثل هذه الإدارة كما أنها تحترم مقدسات الأخرى دون العكس مما خذل سياسة إيران وأحبطها في غالب الأحيان في وقائع تاريخية مختلفة.

مضى ما جرى بين الحكومتين فيما يخص العراق ونجد الحكومة العثمانية فلت من غرب الإيرانيين وعركتهم عركة بعثرتهم. وكان ذلك في وقعة چالديران عندما كانوا في إبان نشاطهم وتمكنهم من الاستيلاء على إيران والعراق ودخولهما في حوزتهم... ثم أعقبت الحكومة العثمانية ذلك بضربة أخرى عام ٩٤١ هـ ـ ١٥٣٤ م على يد السلطان سليمان القانوني فاستولت على العراق بالوجه المشروح ثم طرأ ضعف على الحكومتين معاً إلا أن الحكومة الصفوية أيام الشاه عباس الكبير (سنة ٩٩٥ هـ ـ ١٥٨٧ م: ١٠٣٨ هـ ـ ١٦٢٩ م) تمكنت من استعادة النشاط والقوة. هاجمت بغداد فاكتسحتها. انتزعتها من بكر صوباشي. ثم بذلت الحكومة العثمانية جهودها لمحاولة الاستعادة لسنين حتى نهض السلطان مراد الرابع بنفسه بعد أن نظم إدارته الداخلية، وأمن الحالة الخارجية بمعاهدات عقدت مع المجاورين الآخرين وتفرغ بعد ذلك كله لحرب إيران فكانت وقيعته بإيران مؤلمة قاسية جداً لم تقم لإيران بعدها قائمة تذكر مدة حكم الصفويين...

ومن ثم عقدت المعاهدة مع إيران وتأسس الصلح. وبهذا تثبتت المواثيق والعهود فزالت حالة اختلال الموازنة وأن الواحدة كانت تحاول إمحاء الأخرى والسيطرة على ممالكها. كانت آمال كل واحدة قوية

وخيالها واسعاً... فلا تريد أن تلتزم بعهد ما...

وعلى كل حافظت الدولتان المتجاورتان على هذا الوضع لمدة...

التقسيمات الإدارية

لا تظهر سلطة الدولة إلا في تشكيلاتها الإدارية. وهذه توزع إلى وحدات إدارية يتألف من مجموعها سلطة الولاية[1]، فتتجمع في شخص الوالي.

والتقسيمات الإدارية في العراق وزعت إلى ايالات واعتبرت وحداتها بوجه عام مقتبسة من أصل تشكيلات الدولة وإن كانت لم تتغير البلدان وما كان يدخل ضمنها من أعمال.

وهذه تقسم إلى خمس ايالات. ومنهم من عدها أربع ايالات بإخراج إيالة الأحساء.

١ ـ ايالة بغداد

وتقسم إلى ثمانية عشر لواء (سنجاقا) وفيها دفتري لخزانتها، ومعاون، ودفتري تيمار وأمين الدفتر. وهذه ألويتها:

١) لواء الحلة من الألوية المهمة. وله مكانته في وقائعه وعلاقاته الأخرى.

---

(١) لخصنا هنا ما في جهان نما وأوليا جلبي ج ٤ ص ٤١٣ وما في رسالة (عيني علي) المتوفى سنة ١٠١٦ هـ وكان من أمناء الدفتر. وتسمى هذه الرسالة بـ (قوانين آل عثمان، در خلاصه مضامين ديوان). رأيتها مخطوطة باستانبول وعندي نسخة مطبوعة منها... تحوي مطالب مهمة في التشكيلات الإدارية وفي مالية الدولة... طبعها شناسي أفندي مع (كتاب دستور العمل لإصلاح الخلل) لكاتب جلبي... وكل هذه ترجع مباحثها إلى هذا العهد.

٢) لواء زنك آباد أو (زنكي آباد). ويراد به معمورة زنكي قال أوليا چلبي: «في خلافة هارون الرشيد كان قد بناها خازنه زنكي فسميت باسمه وقيل لها زنكي آباد أو بلا ياء...» ومن توابعها قزلرباط (ناحية السعدية) ولا تزال بعض الآثار قائمة مثل (كوشك زنكي). وإن البلدة اندثرت[1].

٣) لواء الجوازر. (الجزائر) كان بيد ابن عليان أمير طيىء. فتغلبت عليه الدولة.

٤) لواء الرماحية ـ جاء بلفظ (روماهية). وفي موطن آخر (روم ناحية). والرماحية معروفة قبل أن يأتي السلطان سليمان إلى العراق.

٥) لواء چنكولة. من الألوية المجاورة للعجم. تداولته الأيدي. وكان مدة في حوزة أمراء الفيلية. والآن ليس به عمارة. خربته الحروب بين إيران والعراق.

٦) لواء قره طاغ. أو قراداغ. والآن قضاء تابع للواء السليمانية.

وهذه في ألويتها زعامة وتيمار كسائر الممالك. ويقال لها (أرض المملكة).

وباقي الألوية ليس فيها زعامة ولا تيمار إلا أن فيها خاصاً لأمراء الألوية، وتعطي فيها بعض القرى والمزارع (المقاطيع) على وجه التخمين وغالبها عليها مقرر يسمى بساليانه (صليان). وهذه ألويتها:

١) درتنك. الآن بيد العجم. وهي المعروفة قديماً بـ (حلوان). ويحوي زهاو وما جاورها وقلعة شاهين. وقصر شيرين...

٢) السماوة. وردت بلفظ (سماوات) والآن قضاء.

---

(١) رحلة المنشي البغدادي ص ٤٢.

٣) البيات. الموقع المعروف الآن. وكان من أماكنهم (بيات، وده ليران). وهو في أيدي العجم ويعود للفيلية والبيات اليوم في لواء كركوك.

٤) درنه. الآن بيد العجم. وتجاور درتنك وهما يعدان لواء واحداً.

٥) ده بالا. الآن بيد الفيلية. وتقع في أعلى پشتكوه أو (كوركوه). أي الجبل الكبير.

٦) واسط. الآن (لواء العمارة)، و (لواء الكوت).

٧) كرند. الآن (بيد العجم). وتلفظ (كرنت).

٨) دميرقپوا.

٩) قزانية. الآن تعد من مندلي أو (بندنيجين).

١٠) گيلان العراق. ويسمى گيل ويقع ما بين إيران وكركوك.

١١) آل صاح. كذا وردت. وفي عيني علي أفندي آل صايح ولعلها الصلاحية (كفرى). وكانت تسكنها قبيلة (الصالحية) فهي محرفة عنها. وتسمى هذه القبيلة بـ (ساله يي). تسكن هذه القبيلة في (آلتون كوپري).

١٢) العمادية. في القسم الشمالي من العراق. ليس فيها تيمار ولا زعامة وإنما يتصرف بها بوجه الملكية أمراء بيدهم فرامين سلطانية لا يعزلون. وينتسبون إلى العباس. قال ذلك أوليا چلبي. ومن المقرر أن تشترك العمادية في الحروب تابعة لولاة بغداد.

بلغت هذه الايالة ١٨ لواء أوضحنا تشكيلاتها الإدارية وتاريخها وخاصها في موطن آخر.

أما الألوية الأخرى فإنها تعتبر ملحقة بلواء بغداد وتحت إدارة أمير أمرائه. يعينون لها أمير لواء ليدبر شؤونها نظراً لبعدها عن المركز ولأنها عاصمة في الأصل[1].

٢ ـ ايالة البصرة

وهذه الايالة كان يتصرف بها على وجه الملكية. وفي سنة ٩٤٥ هـ انقادت للدولة. وفي سنة ٩٥٣ هـ صارت تابعة رأساً وانقرضت إمارتها، واعتبرت ايالة. ولا يزال فيها دفتري لماليتها، وكتخدا الچاووشين ولم يكن فيها تيمار ولا زعامة ولا أمير آلاي ولا (آغا الينگچرية)، وكافة أراضيها في التزام الوالي. ثم تغلب عليها المتغلبون من آل أفراسياب فصارت تابعة اسمياً.

٣ ـ ايالة الأحساء

يتصرف بها على وجه الملكية بلا زعامة ولا تيمار وإنما يقدم المتصرف هدايا في كل شهر لوالي بغداد وقبل هذا كان يتصرف بها أمير أمراء من جانب العثمانيين فتغلب عليها المتغلبون. ومن آثار أمراء العثمانيين في الأحساء المسجد القديم المعروف بـ (مسجد الدبس) لقربه من سوق الدبس و (مسجد الترك) وتاريخ بنائه سنة ٩٦٢ هـ بناه متصرف الأحساء من جانب العثمانيين.

ثم ذكر أوليا چلبي عمان، وكوج، ومكران، والجزائر فبين أن حكامها يتصرفون بوجه الملكية إلا أنهم يقدمون للسلطان هدايا سنوية ولوزير بغداد تقدمات شهرية كما هو قانون السلطان سليمان. والأحساء ذو علاقة بنا. وتأتي حوادثه في حينها.

---

(١) عيني علي وأوليا جلبي ج ٤ ص ٤١٤.

٤ ـ ايالة الموصل

وهذه في عهد السلطان سليمان كانت ستة ألوية. ليس فيها أرباب ديوان وإنما فيها الاي بكي، وآغا الينگچرية وألويتها:

١) لواء باجوان. و (باجوان) قبيلة في الموصل. وفي خانقين تسمى (باجلان) وجاءت بلفظ (باجوانلو). وتحوي قرى عديدة، ذكرتها في عشائر العراق الكردية، وفي (الكاكائية في التاريخ).

٢) لواء تكريت.

٣) لواء اسكي موصل (الموصل القديمة).

٤) لواء هرور.

٥) لواء بانه.

هذا، فإذا أضيف إليها نفس الموصل بلغت ستة ألوية[١].

٥ ـ ايالة شهرزور

لها أرباب ديوان، وفيها ألاي بكي، وآغا الينگچرية، وهذه ألويتها:

١) سروجك.

٢) إربل.

٣) كسنان.

٤) شهربازار.

٥) چنكوله. بعد تكون ايالة شهرزور صارت من ألويتها.

---

(١) عيني علي أفندي.

٦) جبل حمرين.

٧) هزارمردود.

٨) الحوران. (هورين) هو المعروف اليوم.

٩) مركاره.

١٠) حرير.

١١) رودين.

١٢) تيل طاري.

١٣) سبه زنجير.

١٤) عجور.

١٥) ابرومان.

١٦) پاق.

١٧) پرنلي.

١٨) پلقاص.

١٩) أوشني.

٢٠) قلعة غازي.

وغالب هذه الألوية لا يعرف اليوم، ولا شك أن نطاق حكمها كان أوسع.

و (شهرزور) يقوم بإدارتها پاشا يستقر في نفس شهرزور. وفي اللواء عشائر ليس لها طبل ولا علم. وفيها ما يزيد على مائة أمير يحكمون كأرباب الزعامة. يحضرون الأسفار مع أمير اللواء ويتوارثون الإمارة تنتقل إلى أولادهم أو أقربيهم وعند الحاجة تعطى لهم الزعامة

والتيمار. ونرى تبدلاً في التقسيمات وتابعيتها لإيالة شهرزور. هذا والإيالات المذكورة كما يستفاد من الحوادث جاء ذكرها متأخراً، وإقراراً لما وقع. فلم يكن ذلك كله أيام السلطان سليمان.

الدولة الصفوية

كانت ظهرت على يد مؤسسها الشاه إسماعيل الأول سنة ٩٠٧ هـ. وهذا علا سعده، وتمكن بسهولة من الاستيلاء على بغداد في ٢٠ جمادى الثانية سنة ٩١٤ هـ. كاد يقضي على الدولة العثمانية أو يكتسح أكثر ممالكها لولا أن السلطان سليم المعروف بـ (ياوز) تمكن من تدمير أعوان الشاه الدعاة له في الأناضول، فكسر شأفتهم كما أنه قهر الشاه في واقعة (چالديران) سنة ٩٢٠ هـ وكانت آماله كبيرة، وأطماعه واسعة المدى. لم يستطع ابنه بعده أن يقف في وجه السلطان سليمان، فكان يتهرب من وجهه ويفر منه حتى استولى على بغداد سنة ٩٤١ هـ، ولم يجسر الإيرانيون أن يجابهوا العثمانيين في حرب حاسمة إلى أن ظهر الشاه عباس الكبير بمظهر عظيم فوجد الفرصة مواتية في نهضة بكر صوباشي فجدد المقارعات. اتخذ وسيلة المساعدة له، فاستولى على بغداد سنة ١٠٣٢ هـ ولم تمض إلا بضع سنوات على الفتح حتى توفي الشاه عباس، ودامت بغداد بيد خلفه الشاه صفي مدة قليلة، فلم يطل حكمهم إلى أكثر من سنة ١٠٤٨ هـ. ومن ثم استعادها السلطان مراد الرابع، فخلصت العراق للعثمانيين.

وهذه قائمة بأسماء شاهاتهم:

١ ـ الشاه إسماعيل الأول. سنة ٩٠٧ هـ ـ ١٥٠٢ م.
٢ ـ الشاه طهماسب الأول. سنة ٩٣٠ هـ ـ ١٥٢٤ م.
٣ ـ الشاه إسماعيل الثاني. سنة ٩٨٤ هـ ـ ١٥٧٦ م.
٤ ـ الشاه محمد خدابنده. سنة ٩٨٥ هـ ـ ١٥٧٨ م.

٥ ـ الشاه عباس الأول (الكبير). سنة ٩٩٥ هـ ـ ١٥٨٧ م.

٦ ـ الشاه صفي الأول. سنة ١٠٣٧ هـ ـ ١٦٢٨ م: ١٠٥٢هـ ـ ١٦٤٢ م.

وهذا الأخير انتزع العثمانيون بغداد منه وبقيت في أيديهم إلى آخر أيامهم في العراق. وتعد الدولة الصفوية الوحيدة المجاورة للعراق. أزعجته بحروبها، وأقلقت أوضاعه، وشوشت أمره.

وفي هذا العهد لم تدون لكل دولة إلا كثرة الفتوح، وزيادة الأطماع. تنهب الدولة الأخرى بغزو أشبه بغزو العشائر. فلم تهدأ القلاقل والحروب بل دامت إلى ما بعد هذا العهد، فكانت سبب دمار الدولتين.

الدول الهندية ـ البرتغال

الدول الهندية علاقاتها بالعراق والبلاد الإسلامية قديمة جداً. وأن دولة البرتغال شوشت هذه العلاقة وقد ذكرنا ذلك بتفصيل. وجاءت تواريخ الهند ومنها تاريخ كجرات وتواريخ ملوك الهند باللغة الفارسية كثيرة وبينها المخطوط والمطبوع. وعندي جملة منها.

وإن الأستاذ الفاضل صديقنا كوركيس عواد أطلعني على كتاب (تحفة المجاهدين في أخبار البرتكاليين) للشيخ زين الدين بن عبد العزيز المعبري كان فرغ من تأليفه سنة ٩٩٣ هـ وطبع في مطبعة التاريخ في حيدر آباد دكن سنة ١٩٣١ م. ويعد من أقدم المراجع في هذه العلاقات وعين الناشر مكانة هذا الكتاب ونقله إلى اللغات الأجنبية ودرجة الاهتمام به.

وفيه بيان علاقات الهند بدول المسلمين في مصر، وغيرها كالدولة العثمانية... وكلامه على سيدي علي رئيس جاء مبتوراً وغير صحيح.

ومن المهم بيانه أن الناشر قدم قائمة في تطبيق الأسماء ولما لم أطلع عليها إلا عند طبع هذه الملزمة اقتضى أن أشير إلى لزوم مراجعتها.

هذا. وأشكر الأستاذ على ما أطلع عليه. فقد كتب باللغة العربية. وفي كتاب (دول إسلامية) ما يعين حكومات الهند. وعندي مخطوط في دولة (أورنك زيب) من ملوك الهند والمطبوعات كثيرة جداً. وفيها ما يوضح العلاقات.

الثقافة

أو

الآداب والعلوم

إن تمكن الثقافة في المملكة، وظهورها كان كبيراً، وفي الوقت نفسه تابعاً في الدرجة الأولى للغنى والتبدل العظيم في سبيل هذه الثقافة والطمأنينة وحسن الجوار في العلاقات بين الأقطار القريبة. وكلها فقدت في هذا العهد في عاصمة المملكة العراقية أو أم بلاد القطر، وأعظم سبب آمال المجاورين وطموحهم في الاستيلاء على مدينة السلام بل قسوتهم فيها وحرصهم الزائد في التغلب عليها مما ألجأ إلى الميل إلى دولة أخرى قوية بأمل إيقاف تلك عند حدودها، أو قهرها وإرجاعها خائبة. وبالتعبير الأولى تنازع الصفويون والعثمانيون على بغداد.

وبعد جدال عنيف، وحروب طاحنة تسلطت الدولة العثمانية، فلم يجد القطر بداً من الإذعان، ولم ينل حقوقه كاملة موفورة، ولكنها كانت أهون الشرين القتل أو السلب فلم يسع العراق النجاة بوجه، بل لم يخل من تشويش لطلب النجاة، وكلما أراد أو حاول ظهرت الدولة الصفوية بعنفها وقهرها، فلم تدع مجالاً له للحياة ولا للراحة. وهكذا كان بتوالي الأزمان ما جرى بين الدولتين. ودام النزاع حتى قضى عليهما، بل كان ذلك داعية دمار الشرق كله، وهما متسلطتان عليه.

وحالة كهذه في تطاحن وتنازع لا يؤمل منها فلاح، ولا يتيسر نشاط أدبي أو علمي، وإنما طريق النجاح معروف في استقلال المملكة وحياتها الحرة، وهي مفقودة منها، بل منغصة بوقائع مؤلمة تهدد الحياة بحيث لا مجال للالتفات على قاعدة «ومن نجا بنفسه فقد ربح»، فلا مجال للأمة أن تنظر إلى حاجتها العلمية والأدبية. ولم تجد طمأنينة أو راحة.

وهذا القطر في ثقافته الحاضرة كان نتيجة عهود إسلامية عريقة في ثقافتها، من أول الإسلام إلى أيام دخول العثمانيين العراق سنة ٩٤١ هـ. خدمت بغداد الثقافة وغذتها. وخلفت ميراثاً أدبياً علمياً للأقطار كان من خير المواريث، فكيف محته الحوادث، وأبادت الكثير من آثاره؟

لا شك أن الحوادث لها دخل كبير في هذا التدمير، وأن ضياع الاستقلال قد نقل الآثار إلى المتغلبة، أو قضى عليها ومحاها، فصارت نهباً بيد المتسلطين، ولا يهمنا أثر الثقافة وتأثيرها عليهم كما لا تنكر بوجه في هذا. وكل واحدة من الدولتين تريد أن تضارع بغداد في معرفتها. وإن الوقائع الوبيلة والحوادث القاهرة قد أنست من الالتفات إلى الثقافة عندنا. وهكذا كان شأن الثروة والحضارة وسائر المؤسسات مما انتابته أيدي العدوان والكل ذو علاقة، الأمر الذي جعلنا لا نستطيع أن نعد أدباء أو علماء كثيرين.

وأمر واحد لم يستطع هجوم المتغلبة عليه أو تخريبه أعني (الجوامع والمدارس)، فهذه أصل (مناهج تعليمية ثابتة)، ومؤسسات دينية لا تتناولها أيدي العدوان في الأكثر، وإن الحرمة للمساجد، والمدارس مرتكزة في النفوس ولكنها لم تسلم دائماً بل لم يصبها الاعتداء من كل الوجوه، ولا القضاء المبرم، ولا تزال قائمة بالرغم مما وقع من اعتداء.

ومن مدارسنا ما قوي على الأرزاء، وصبر على المكاره، وبعضها

لا يزال. وصل إلينا الكثير منها من العهد العباسي، أو من عهود المغول والتركمان مما يغذي هذه الثقافة، ولم يكن العهد منفصلاً بوجه عن ماضيه ليقال إنه حديث العهد، يحتاج إلى جهود، وفي هذا العهد لم تعمر من جديد إلا مدرسة الإمام الأعظم، ومدرسة الشيخ عبد القادر وبعض المساجد التي خربتها أيدي العدوان. وسبق من الحوادث ما يشير إلى العناية بهما أو بالمراقد المباركة لأمور اقتضتها السياسة الجديدة للدولة العثمانية أو لسابقتها. والعراق يملك جملة وافرة من هذه الجوامع وهي محل تدريس في الغالب، والمدارس تقوم بمهمة التعليم وتكمل ثقافة المساجد، فلا يخشى زوال العلم والآداب منه.

وإن تضعضع الحالة، وارتباك الأمور لم يدم طويلاً، وإن زاد دوامه على المعتاد في هذه الأيام، فلا تهدأ الحالة حتى تظهر المؤسسات العلمية والأدبية، أو المعاهد الخيرية فتؤدي واجبها. ولا نستطيع أن نعد جديداً من هذه المؤسسات لهذا العهد فإن الجوامع والمدارس والتكايا في بغداد لما قبل الفتح العثماني كثيرة جداً. تدل على عناية الأمة واتصالها بعقيدتها وبثقافتها وكان عملها كبيراً في سبيل تحقيق الأمرين بث العقيدة وتأكيد الثقافة. وغالب ما عملته الدولة تجديد ما اندرس من هذه المعاهد من الوقف. فاكتسب بعضها اسماً جديداً، والبعض الآخر فقد اسمه القديم وعرف باسم من عمره.

وجاء ذكر جملة مما أعيد تجديده ومنها:

١ ـ جامع الشيخ عبد القادر ومدرسته.

٢ ـ جامع الإمام الأعظم ومدرسته.

٣ ـ جامع الوزير. وهو (جامع حسن پاشا ومدرسته).

٤ ـ جامع الصاغة ومدرسته.

٥ ـ تكية المولوية.

٦ ـ جامع الكاظمين.

٧ ـ تكية خضر الياس للبكتاشية.

٨ ـ جامع السراي. الجامع السليماني أو جامع جديد حسن پاشا.

٩ ـ جامع الشيخ شهاب الدين السهروردي وهذا كانت فيه تكية فأمر السلطان مراد بتعميره.

١٠ ـ جامع القلعة.

وهذه تضاف إلى ما ذكر سابقاً مثل مسجد قمرية. والمدرسة النجيبية، ومدرسة السهروردي ومدرسة جامع الفضل، وجامع مرجان، والوفائية، ومدارس أخرى أوضحنا عنها في (تاريخ العراق)، وفي تاريخ (المعاهد الخيرية في العراق).

وكل هذه ثروة علمية لا يملكها قطر يعدّ العلماء والأدباء ولم يكن لأمة نصيب وافر كهذه المدارس في العدد وتكوين الثقافة، وإن رغبة العراق وحبه للثقافة هو الذي أبقاها، ومكّن الأمة منها، فلا تخشى سطوة الجهل، ولا ترضى أن تستبدل بها بديلاً.

وهي منبع الأدب، وأس العلوم، ولولاها لما ثبتت أو استقرت لنا ثقافة بل نرى الأقطار الأخرى قد بهرتها هذه التشكيلات المنظمة للآداب والعلوم دون عناء أو كلفة، وإنما تتزاحم. وتبدي القدرة، ويقوم كل بواجبه، ويظهر ما هنالك من عظمة وقدرة علمية، وكفاءة بالغة الحد.

تحاول كل مملكة أن يؤسس في أمهات مدنها مثل معاهدها الخيرية للعبادة والدين والعلوم والآداب والكل متلازم.

ومما هو جدير بالذكر أن هذا العهد بالرغم مما حدث قد حفظ قسماً من آثاره الأدبية والعلمية، أو احتفظ بها، فكانت غذاء العصور التالية، ولم تنعدم كلها، أو تزول من البين، ولا تزال لحد الآن تتمتع

بهذه الآثار، وغالبها محفوظ في الجوامع والمساجد، أو لدى بعض الأسرات القديمة أو الحديثة. وأن الحوادث العلمية تعين مقدار العناية بها عناية لا مزيد عليها كما أن أهل البر بين حين وآخر يقدمون للوقف ما عندهم من مؤلفات وكتب وأموال حباً بالأجر ونيل الثواب والحرص على ثقافة الأمة.

١ ـ الأدب العربي والآداب الأخرى:

إن الأدب العربي أصل الآداب الأخرى. وإن المدارس تمده في التنظيم والتدريب، والآثار والمخلفات تغذيه بعناية، وإن آداب الأقوام في العراق تستمد من هذا الأدب الذي سار سيرة علمية، وتستقي ثقافتها منه فلم تهاجمه، وفي هذا العهد ظهر التوقف في الأدب إلا أن الاتجاه قد غلب الأمة الإيرانية، والأمة التركية أن تأخذ بنصيب منه، فمالت الهمة إلى ترجمة الكثير من آثاره في اللغة وهي الأصل، والتوغل في القواعد النحوية، وعلوم البلاغة. . .

والأدب العربي لا يرضى بهذا التوقف، وإن كان الغذاء تاماً، والمادة وافية، فلم يقف عند الماضي ويريد أن يظهر دائماً، وينال السيادة إلا أننا لم نشاهد ما يصلح للتمثيل بكثرة أو يعد نتاج العصور، وموطن الاستفادة.

ولا يخلو الأدب العربي من اتصال بالأدب الفارسي وبالأدب التركي فيقتبس معاني جديدة ويغترف مما عند الأمم. والكردية متصلة بالفارسية ومثلها التركية. وهكذا الأدب العربي فالتأثير مشهود جداً، والاتصال مكين.

ـ نعم إن العصور الماضية أمدته ولكن وثائقنا في الانتفاع منه والإنتاج قليلة بل لم نطلع على كل ما هنالك من مخلفات للأسباب التي سردناها. وكفى أن يحتفظ العراق بالغذاء الماضي. وفي هذا ربح لنا بل

لو كان الأمر ما ذكر لقلنا بعقم العصر، وتوقفه وجموده، بحيث صار في حالة لا نستطيع أن نعد له مخلفات وهيهات...

إننا في سعينا المتواصل والتتبع الكثير وبذل الجهود يتأتى لنا أن نقدم مجموعات كبيرة من هذه الاشتغالات، تعين درجة العناية باللغة العربية وعلومها وهذه لم تكن كل ما عرف، فالأمل أن نعثر على مخلفات عديدة تجلو عن الحالة، وتكشف عن العهد، وبيدنا أسماء آثار من المحتمل القوي أن تنال مكانتها، وتكتسب أهميتها. ولا يترك الميسور الآن بالمعسور. وقد أوضحنا أشهر ما عرف في هذا العهد من المؤلفات في التاريخ العلمي والأدبي.

وإن شعراء العصور السابقة (شعراء المغول والتركمان) قد خلفوا مقادير وافرة سار التالون على منوالها، ومن أشهر من ظهر:

١ ـ فضولي البغدادي. مر الكلام عليه. وفي هذه الأيام ونحن في طبع هذه الملزمة ظهر (كتاب فضولي) باللغة التركية للدكتور عبد القادر قراخان تناول حياة فضولي بسعة زائدة فكان آخر ما اطلعنا عليه، وهو كتاب مفيد نفيس ومصور طبعته كلية الآداب في جامعة استانبول سنة ١٩٤٩ فنكتفي بالإشارة إليه، وبيان عناية الترك بفضولي. وسنوضح عنه في كتابنا (تاريخ الأدب التركي في العراق).

٢ ـ ابنه فضلي البغدادي.

٣ ـ شمسي البغدادي. وله ديوان قدمه للسلطان سليمان نظمه باللغة الفارسية جارى فيه نظامي الشاعر الكبير.

٤ ـ عهدي البغدادي.

٥ ـ روحي البغدادي.

وآخرون ورد ذكر بعضهم مع بعض الكلمات فيهم. وإن مخلدات

هؤلاء دواوين معروفة. ظهروا في الأدب الفارسي والتركي.

أما الأدب العربي فإن مخلفاته قليلة جداً، وبالتعبير الأولى لم يصل إلينا منها إلا النادر. والقطر لم يخل من أمثال الأدباء في العهود السابقة أو التأثر بهم، والعراق قد حفظ تراثاً أدبياً وافراً في البصرة والأنحاء المجاورة لها، وفي الأحساء والبحرين وفي النجف وبعض الأنحاء البعيدة عن العدوان والتخريب من جراء الحروب بين الصفويين والترك العثمانيين.

ويصح أن نعد في النظم:

١ ـ ديوان فضولي. وهو عربي غير دواوينه في الفارسية والتركية. والآن موجود في مجموعة محفوظة في لينغراد.

٢ ـ ديوان الخطي. ومن له علاقة بهم. وهذا من أهل البحرين. وكانت تابعة للعراق.

٣ ـ قطر الغمام.

٤ ـ دواوين بعض أدباء البصرة والحويزة ومؤلفاتهم.

وللنثر العربي أمثلة كثيرة، من ديباجات الكتب المؤلفة، وبعض الآثار الأدبية. وقد أوسعناه بحثاً في (تاريخ الأدب العربي) في العراق. ولا يهمنا الإكثار منه، أو بيان الأمثلة العديدة، فإنه لم يختلف عن العصور السابقة من مراعاة السجع، وفقدان المقدرة، وعدم التمكن لاكتساب سليقة مكينة...

وفي هذا العهد تهمنا الإشارة إلى أنه حدث فيه تجدد أدبي نوعاً. ومن ذلك (البنود العراقية) وقد بحثنا في موضوعها برسالة خاصة. والآثار الأدبية الأخرى قليلة مثل (زاد المسافر)...

ومن أدباء هذا العهد:

١) حسن السنباتي.

٢) ولده الشيخ علي بن حسن السنباتي الحميري.

٣) محمد بن عبد الملك البغدادي.

٤) الشيخ علي بن أحمد الهيتي.

٥) فضولي.

٦) الخطي.

٢ ـ العلوم:

وهذه سارت على اطراد. ويغلب عليها الفقه، وكتب العقائد، ولم تظهر لنا مؤلفات في الفلسفة، ولا في سائر العلوم إلا أن الكتب المدرسية العامة شائعة والتدريس مقتصر عليها وهي معروفة، ولم يناقش العلماء الآراء في مؤلفات خاصة، ولم تظهر في هذا العهد من المؤلفات ما يدل على تجدد كبير، وإن كانت قد ظهرت في عهد متأخر عن هذا العهد، أو لم يصل إلينا ما يصلح للبحث.

وهذه العلوم كثيرة إلا أن كل علم بحياله لم تظهر فيه مؤلفات تعين مجراه، أو اتصاله بأكثر من أعمال مدرسية، وأمور لا تتجاوز حدود التعليم. استقرت (الكتب المدرسية)، ولم يدخلها التعديل والتبديل وهكذا تولد الجمود المدرسي، فأعقبه الجمود العلمي، بسطنا القول فيه في (التاريخ العلمي).

وجل ما نقول إنه ظهرت بعض المؤلفات الدينية من جراء خدمتها للسياسة مثل الردود بين أهل السنة والشيعة وكذا صدرت فتاوى في تجويز قتل أحد الطرفين، وأسر المسلمين مما لم يسبق له نظير في الإسلام. والردود مثل (النواقض) و (السيف الباتر) في رد الشيعة. ويطول بنا ذكر ما هنالك بل نرى بعض علماء الطرفين حتى الآن

متمسكين بمثل هذه استغلالاً للعوام وأمل نيل المكانة بينهم. تمكنوا من خدمة السلطة لتوليد العداء. والآن وجهوها للاستفادة من العوام. فكانوا كما قلت آلة شحناء، وطريق تفرقة، وواسطة عداء على خلاف ما هو المأمور به شرعاً. نفروا ولم يبشروا، وكفروا ولم يتورعوا...

وموضوعنا خاص بالعراق فلا نتجاوز حدود بحثه.

وأكبر خصيصة للعصر أنه حفظ قسماً من التراث العلمي السابق، ولا نزال نتمتع به.

ومن المؤلفات الفقهية في هذا العهد:

١ ـ كتاب الضمانات.

٢ ـ ترجيح البينات.

هذا. وكان عهدنا محدوداً بزمان خاص، فلا نتجاوزه، ولكننا نقول كلما تقربنا من العصر الحاضر كثرت المادة، وأمكن البحث بسعة مما يدل على اندثار وثائق عديدة، وذهاب مؤلفات إلى خارج المملكة، فنحتاج دائماً إلى الإثارة، وإلى التحري الوافي عما هنالك ليضاف إلى الموجود من كل ما يعثر عليه.

ولما كنا أفردنا (رسالة في الموسيقى)، وكتاباً في (الخط) فلا نرى لزوماً للبحث في هذه الصناعات اكتفاء بما كتب.

خاتمة القول

زاد هذا العهد على المائة سنة وفي خلاله كان النزاع بين العثمانيين والصفويين قائماً. بلغت فيه الحروب أقصى حدود قسوتها... وفي خلال ذلك حاول بعض الثوار أن يستقل ببغداد لما شوهد من استقلال (آل أفراسياب) في البصرة. وقيام (الجلالية) في الأناضول على

الحكومة وغيرهما مما شجع قيام (بكر صوباشي) استفادة من ضعف الدولة العثمانية ولكن الإيرانيين اغتنموا الفرصة واستولوا على بغداد.

والعراق لم يمت أهلوه، ولا انقطع العلم منهم بسبب مدارس الأوقاف، وعناية الدولة بها إرضاء للأهلين. وعلماء بغداد والمدرسون فيها ساروا على ما سار عليه أسلافهم ولا عبرة بالمقياس القليل، أو الكثير... والنتائج لم تعدم ولا بخل الزمن من ظهور نبغاء في علوم مختلفة وفي الآداب العربية إلا أن تغلغل الفارسية والتركية كان قوياً جداً. قدمنا جملة صالحة من أدبائهما في هذا العهد. والكل من المتعلمين المتوغلين في التركية والفارسية جرفتهم آدابها، واستولت عليهم أفكارها في التصوف وغاليه غال... مما أضر بنشاط الروح، وأخمد الجذوة المتوقدة... ومع هذا لا يخلو العهد من مؤرخين أو خطاطين أو أدباء وشعراء وما ماثل... وليس للعربية سوق ولولا أنها لغة الدين، وأنها واسطة تقدم الفارسية والتركية لصارت في خبر كان...

والحالة ساءت أكثر مما عليه في العصور السابقة. ركد الروح علمياً، أو قل انتشر إلى الخارج واستفادت الأقطار الأخرى بل اقتطفت ثمارها، وما ذلك إلا لقلة أيام الراحة، وكثرة الاضطراب وتداول أيدي حكومات مختلفة المشارب والمناهج الإدارية والثقافية...

والعشائر لم تظهر بمظهر القوة إلا قبيلة طيىء وقبيلة قشعم. وكذا بعض الإمارات. فهي لا تزال محافظة على مكانتها إلى هذا الحين وبعده.

وأهل المدن كانوا في عناء ووبال لم يروا راحة بل هم في اضطراب. والوقائع تعين نفسياتهم وأحوالهم...

كانت الآمال مبشرة بالراحة والطمأنينة بسبب هذا الفتح ثم عقد الصلح فانتعش الرجاء. وتولد النشاط في الأهلين بالرغم من أنهم

اشتعلوا بنيران الفريقين المتحاربين. نالهم ما نالهم مما لا يستطيع القلم وصفه، أو يسع المقام تعداد ما فيه من نكبات أو ما أصاب من حيف... مللنا من تعداد ما هنالك بل الذاهب عنا أكثر... والعراق لم يتمكن في هذه المرة من نصيب في الإدارة أوفر... وفي هذه الحروب تعينت الحقوق الدولية وأبرمت المعاهدات واستقرت الأحوال نوعاً إلى أمد ليس بالقليل...

هذا وأجتزىء بما تقدم. والله ولي الأمر.

تم المجلد الرابع

يبحث في وقائع العراق من سنة ١٠٤٩هـ ـ ١٦٣٩م إلى سنة ١١٦٢هـ ١٧٤٩م من سياسية وثقافية وعشائرية وصلات بين الأقطار وحروب ومعاهدات...

الفهارس العامة


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

١ ـ فهرس الأعلام

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء



٢ - فهرس الشعوب والقبائل والنحل

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الياء



٣ ـ فهرس المدن والأماكن

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء



٤ ـ فهرس الكتب

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

٥ ـ فهرس الألفاظ الدخيلة والغريبة

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

٦ ـ فهرس الصور

٧ ـ فهرست الموضوعات



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی